

الباب الرابع والثلاثون

انتقال المعارف

١٠٠٠ - ١٣٠٠

الفضل الأول

نشأة اللغات القومية

حافظت الكنيسة إلى حد ما على وحدة أوروبا الغربية التي حققها الدولة الرومانية وحافظت كذلك شعائرها وعظاتها ومدارسها على تراث روماني لم يبق له وجود في هذه الأيام - هو لغة دولية يفهمها جميع السكان المتعلمين في إيطاليا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، واسكنديناوة ، والأراضي الوطيفة ، وألمانيا ، وبولندا ، وبلاد البحر ، وبلاد البلقان الغربية . لقد كان المتعلمون من أهل تلك البلاد يستخدمون اللغة اللاتينية في مراسلاتهم ، وفي سجلات أعمالهم التجارية والمالية ، والدبلوماسية ، وفي القانون والأعمال الحكومية ، وفي العلم والفلسفة ، وفي آدابهم كلها تقريباً قبل القرن الثالث عشر . وكانوا يتكلمون اللغة اللاتينية على أنها لغة حية ، تشق في كل يوم كلمة أو عبارة جديدة للدلالة على الحقائق أو الأفكار الجديدة أو المتغيرة في حياتهم : وكانوا يكتبون رسائل باللاتينية من أبسط خطابات الحب إلى الرسائل الفصحى الطويلة المتبادلة بين هلواز وأبلار (*) Héloïse and Abélard . ولم يكن الكتاب يؤلف لأمة بل لقارة ، ولم يكن في حاجة

(*) انظر هذه الرسائل وقصتها في كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

إلى ترجمة بل كان ينتقل من قطر إلى قطر بسرعة وحرية غير معروفين في هذه الأيام . كما كان الطلاب ينتقلون من جامعة إلى جامعة دون أن تصادفهم عقبات اللغة ، وكان في وسع العلماء أن يحاضروا باللغة نفسها في بولونيا ، وسلمنتة ، وباريس ، وأكسفورد ، وأپسالا Uppsals ، وكولوني . ولم يكونوا يترددون في استعارة كلمات جديدة وضمها إلى اللغة اللاتينية ، وإن كان ذلك يزعج في بعض الأحيان الآذان التي اعتادت سماع لغة بترارك وشيشرون . وهكذا يستخدم العبد الأعظم الإنجليزى *Magna Carta* لفظة *imprisonatus* و *dessaisiatus* حين يقول إنه لا يصح أن « يقبض » على رجل حر أو « يسجن » . وأمثال هاتين الكلمتين ثقيلة الوقع على آذاننا ، ولكنها قد أبقت اللغة اللاتينية حية ؛ وإن كثيراً من الألفاظ الإنجليزية الحديثة — مثل *instance* ، و *substantive* و *essence* و *entity* (*) — لتنحدر من الكلمات التي أضيفت إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى .

غير أن انفصام الصلات الدولية الذي أدى إليه سقوط رومة ، وانتشار الفاقة في العصور المظلمة انتشاراً أدى إلى انطواء الناس على أنفسهم ، وفساد الطرق وكساد التجارة ، كل هذا أوجد في الكلام تلك الاختلافات التي ما ابيت أن اتسعت بسبب عزلة المتحدثين . بعضهم عن بعض . بل إن اللغة اللاتينية كانت تعانى في أوج عزها بعض التغيرات القومية الناشئة من اختلاف المناخ وأساليب المنطق المترتبة على تركيب أعضائه . وكانت قد تبدلت في موطنها الأصلي نفسه . وكان موت الأدب قد أفصح الميدان لمفردات الرجل العامي وتراكيب جملة ، وهي مفردات وتراكيب كانت تختلف دائماً عن أقوال الشعراء والخطباء . وجاء تدفق الألمان ، والغاليين ، واليونان ، والأسويين على إيطاليا باختلافات كثيرة في النطق ، وتخلص اللسان والعقل الكسولان بفطرتها مما في الحديث الفصيح

(*) ومعناها الممثل ، والاسم (في النحو) ، والجوهر ، والكيان . (المترجم)

الدقيق من علامات التصريف والإعراب فأضحى حرف H لا ينطق به في اللغة اللاتينية المتأخرة ، وبعد أن كان حرف V ينطق به في اللغة الفصحى كما ينطق بحرف W في اللغة الإنجليزية أصبح ينطق به كما ينطق بحرف V الإنجليزي . وامتنع النطق بحرف N قبل S فكلمة mensa (المائدة) أصبح ينطق بها nesa ، وتغير النطق بالحرفين المتصلين AE و OE وكان ينطق بهما في اللغة الفصحى كما ينطق بحرف I ، OI في اللغة الإنجليزية فأصبح ينطق بهما كحرف A الإنجليزي الطويل أو حرف E الفرنسي . ولما كانت الحروف الساكنة في آخر الكلمات قد مضغت أو نسيت (cilo, ciel (Coelum, rex, re,roi ؛ portus, porto, porte) فقد اقتضى ذلك أن تستبدل حروف الجر بعلامات الإعراب في الأسماء ، وعلامات التعريف في أواخر الكلمات أفعال مساعدة . وتبدل أسماء الإشارة القديمان ille ، و illa فأصبحا أدوات التعريف il ، ei ، lo ، le ، la ؛ واقتضبت لفظ unus (واحد) اللاتيني ليكون أداة التثنية un . ولما انعدم تصريف الأسماء صار من الصعب أحيانا أن يعرف هل الاسم فاعل أو مفعول قبل الفعل أو بعده . وإذا ما تدبر الإنسان هذه العملية - عملية التبديل المستمر الممتد طوال عشرين قرنا من الزمان جاز له أن يقول إن اللغة اللاتينية لا تزال هي اللغة الحية الأدبية في إيطاليا ، وفرنسا وأسبانيا ، لم تتغير عن لغة شيشرون إلا بقدر ما تغيرت لغته هو لغة رمبولوس أو اغتتنا نحن(*) عن لغة تشوسر .

وكانت أسبانيا قد بدأت تتكلم اللاتينية منذ عام ٢٠٠ ق . م لا بعد ، وما وافى عهد شيشرون حتى اتسعت المهوة بينها وبين لاتينية رومة اتساعا روع شيشرون لما بدا له من رطانة قرطبة البربرية . وكان اتصال هذه اللغة اللاتينية بلهجات أيبيريا سبباً في ترقيق الحروف الساكنة اللاتينية في أسبانيا : فرقت T إلى D ، P إلى B ، و K إلى G ؛ فد Totum أصبحت todo ، و operan

(*) لغة الأمريكين والإنجليز . (المترجم)

أصبحت obra ، و ecclesia أصبحت iglesia . كذلك رقت اللغة الفرنسية الحروف الساكنة اللاتينية ، وكثيراً ما أسقطتها في النطق وإن ظلت محفوظة بها في الكتابة : tout ، oeuvre ، église ، est . ونطق بالقسم الذي أقسمه لويس الألماني Louis the German . وشارل الجسور بلغتين هما الألمانية والفرنسية(*) — الفرنسية التي كانت لا تزال لاتينية إلى حد سميت معه اللغة الرومانية lingua romana ، ثم انقسمت هذه اللغة الرومانية إلى ما سمته فرنسا لغتين : langue d'oc وهي لغة فرنسا الواقعة في جنوب نهر اللوار و-langue d'oïl وهي لغة فرنسا الشمالية(**) . فلقد كان من عادات العصور الوسطى التفريق بين اللهجات بالطريقة التي ينطقون بها اللفظ المقابل للفظ « نعم » العوي ؛ فأهل فرنسا الجنوبية كانوا يعبرون عنه بلفظ oc المشتق من اللفظ اللاتيني hoc ومعناه هذا ، أما أهل الشمال فكانوا يستعملون لفظ oïl وهو مزيج من اللفظين اللاتينيين hoc ille ، أى هذا — ذاك . وكان لفرنسا الجنوبية لهجة من لهجات اللانجك تسمى البروفنسال أضحت فيما بعد لغة أدبية مصقولة على أيدي الشعراء الغزلين ، ولكن الحروب الصليبية الأليجنسية كادت تقضى على هذه اللغة .

وكونت إيطاليا لغتها القومية ببطء أكثر مما تكونت به لغتا أسبانيا وإيطاليا . ذلك أن اللاتينية كانت لغتها الوطنية ، وأن رجال الدين ، وهم الذين كانوا يتكلمون اللغة اللاتينية ، كانوا كثيرى العدد في إيطاليا ، وأن استمرار

(*) وتدل الثلاثة السطور الأولى من هذا القسم على البطء الذى نشأت به اللغتان الفرنسية والألمانية "Pro Deo amur et pro Christian poblo et notre Commun salvament, dist di in avant, in quant Deus savir et podir me punt". "In Oedes min a ind in these Christian folches unser bedhero gealnissi, fon thesemo dage frammordes, so frame so mir Got gewizet indi madh forgibit"

وترجمتها العربية هي : حبا في الله ، ونحير الشعب المسيحى ، ولنجاننا جميعا ، ومن هذا اليوم إلى ما بعده ، بقدر ما يهبى الله من الحكمة والقوة .

(**) معنى اللفظين oc و oïl كليهما « نعم أو هذا » وكل الفرق هو في طريقة النطق باللفظ الذى يحمل هذا المعنى . (المترجم)

ثقافتها ومدارسها منع اللغة أن تتغير بنفس اليسر والتحرر اللذين تغيرت بهما في بلاد ذات تقاليد متقطعة غير متصلة .

ولقد كان القديس أنطونيوس أحد رجال الدين في بلدوا في ذلك العام المتأخر عام ١٢٣٠ بخطب العامة باللغة اللاتينية ؛ بيد أن عظة لاتينية ألقاها في بلدوا نفسها عام ١١٨٩ أسقف لاتيني زائر كان لا بد أن يترجمها إلى اللغة الدارجة أسقف من أساقفة تلك المدينة^(٢) . ولم يكبد يكون للغة الإيطالية وجود في بداية القرن الثالث عشر ؛ وكل ما كان في إيطاليا في ذلك الوقت نحو أربع عشرة لهجة ، كانت هي استمراراً وتحريفاً متنوعاً للهجات السوق لا تكاد إحداها يفهمها الباكون الذين لا ينطقون بها ، وتعز كل منها بما بينها وبين غيرها من فروق اعتزازاً مبعثه العنصرية العارمة ؛ وكان لكل حي من الأحياء المختلفة في المدينة الواحدة - كمدينة بولونيا - في بعض الأحيان لهجة مختلفة . لهذا كان لزماً على أسلاف دانتي أن يخلقوا لغة ، كما كان عليهم أن يخلقوا أدباً . ولقد حسب الشاعر في أحد أخیلته الظرفية أن الشعراء الغزلين التسكانيين اختاروا أن يكتبوا شعرهم باللغة الإيطالية لأنهم كانوا يكتبون في الحب ، ولأن السيدات اللاتي كن يخاطبونهن قد لا يفهمن اللغة اللاتينية^(٣) . غير أنه مع هذا تردد في عام ١٣٠٠ بين اللغة اللاتينية واللهجة التسكانية أيهما يختار لكتابة المسلة البوليفية . وكان الفارق البسيط بين اللغة التي اختارها والتي لم يختارها هو الذي أنجاه من النسيان^(٤) .

وبينا كانت اللغة اللاتينية تنقسم وتتولد منها اللغات الرومنسية ، كانت اللغة الألمانية القديمة تنفتحت هي الأخرى إلى اللغة الألمانية الوسطى ، واللغة الفريزية ، والهولندية ، والفلمنكية ، والإنجليزية ، والدنمرقية ، والسويدية ، والنرويجية والأيسلندية . وليست عبارة « الألمانية القديمة » إلا تعبيراً سهلاً يشمل اللهجات الكثيرة التي كانت تفرض سيادتها القبلية أو الإقليمية في ألمانيا قبل عام ١٠٥٠ :

وهي اللهجات الفلمنكية ، والهولندية ، والوستفالية (الغالية الغربية) والإيستفالية (الغالية الشرقية) والألمانية Allemanic ، والبافاروية ، والفرنكونية ، والثورنيجية ، والسكسونية ، والسيكيزية وتطورت اللغة الألمانية القديمة إلى الألمانية الوسطى (١٠٥٠ — ١٥٠٠) وكان من أسباب هذا التطور تدفق الكلمات الجديدة التي جاءت مع الدين المسيحي . ذلك أن الرهبان القادمين من أيرلندة ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا جدوا في وضع المصطلحات التي كانوا في حاجة إليها لترجمة الألفاظ اللاتينية . فكانوا في بعض الأحيان يدخلون كلمات لاتينية بنصها إلى اللغة الألمانية — مثل Kaiser (قيصر) و Prinz (أمير) و Legende (قصة) ؛ وتلك لصوصية مشروعة ؛ لكن كان من المأسى تأثير التركيب اللاتيني للجمل كتأخير الفعل إلى آخر الجملة — فقد أحل الوقفات الجامدة المقلوبة القاطعة للأنفاس التي نراها في الأسلوب الألماني المتأخر محل التراكيب السهلة التي كانت من خصائص لغة الشعوب الألمانية^(٤) . ولعل أجل اللغات الألمانية كانت هي اللغة الألمانية العليا الوسطى التي كتب بها الشعراء العظام في القرن الثالث عشر — ولتر فن در فو جلويدي Walter von der Vogelweide ، وهارتمان فن أوي Hartman von Aue ، وجتفرايد الاسترسبرجي Goufried of Strassbourg ، وولفرام فن اسشنباخ Wolfram von Eschenbach ؛ ولم تعد اللغة الألمانية إلى مثل هذه البساطة والمرونة ، والوضوح ، والقصد مباشرة إلى المعنى المطلوب إلا على يد هين Heine وجيئة الشاب .

وانتقل اللسان الثيوتوني إلى إنجلترا في القرن الخامس مع الإنجليز ، والسكسون والهجوت ، وكان هو أساس اللغة الإنجليزية الحاضرة . فهو الذي حباها بكل ما تنطوى عليه تقبياً من كلمات قصيرة طلية . ثم طغت اللغة الفرنسية على البلاد حين أقبل عليها النورمان ، وسيطرت على البلاط ، والمحاكم ، والأشراف من عام ١٠٦٦ إلى ١٣٦٢ ، وإن ظلت اللاتينية اللغة السائدة في

الدين والتعليم ، وبقيت (إلى عام ١٣٧١) واجبة . الوثائق الرسمية ، ودخلت آلاف الكلمات الفرنسية في اللغة الإنجليزية ، وبخاصة في الثياب ، والطهو ، والقانون ؛ حتى أصبحت نصف المصطلحات في القانون الإنجليزي فرنسية^(٥) ؛ وظلت آداب فرنسا وإنجلترا مدى ثلاثة قرون آداباً واحدة ؛ كما ظلت الرسائل الإنجليزية في روحها ولغتها حتى زمن تشوسر لا قبل (١٣٤٠ - ١٤٠٠) نصف فرنسية . ولما فقدت إنجلترا أملاكها في فرنسا عادت إلى الانطواء على نفسها ، وانتصرت العناصر الأنجليسكسونية في اللسان الإنجليزي ؛ ولما زالت السيطرة الفرنسية من البلاد ، كانت اللغة الإنجليزية قد اغتنت غناء لا حد له ؛ فقد استطاعت بما أضيف إلى أصلها الألماني من ألفاظ فرنسية ولاتينية ، أن تعبر عن كل فكرة من آلاف الأفكار المختلفة بثلاثة تعبيرات مختلفة (kingly, royal) بمعنى ملكي ، towfold, double, duplex بمعنى مزدوج ؛ daily, Journal, diurnal بمعنى يومي . . .) . وإلى هذا يرجع غناها بما فيها من مترادفات تميز بها الفروق المختلفة في المعاني والاختلافات الدقيقة في ألفاظ الحديث . ومن يعرف تاريخ الألفاظ يعرف التاريخ كله .

الفصل الثاني

عالم الكتب

وكيف كانت تكتب هذه اللغات المختلفة ؟ لقد استعمل البرابرة بعد أن سقطت رومة أيديهم عام ٤٧٦ الحروف الهجائية اللاتينية ، وكتبوها كتابة « جارية » ، ربطوا فيها الحروف بعضها ببعض ، وخلعوا على معظمها شكلا دائريا بدل الحروف المعتدلة التي كانت سهلة الاستعمال في الكتابة على السطوح الصلبة كالحجارة أو الخشب . وكانت الكنيسة في تلك القرون تفضل الكتابة ذات الحروف « الكبيرة » لتسهل بذلك قراءة كتب القديس وكتب الصلوات . ولما عمل النساخون في عهد شارلمان على حفظ الآداب اللاتينية بنسخ عدة كتب من الآداب القديمة ، استعملوها في عملهم هذا كتابة ذات حروف « صغيرة » ، واتفقوا على صور معينة لهذه الحروف ، فأوجدوا بذلك « الحروف الصغيرة المقررة » التي ظلت أربعة قرون الطريقة العادية التي تكتب بها نسخ العصور الوسطى . وكأنما أريد أن تتمشى هذه الحروف مع الزخارف الحصينة التي أخذت تنمو في العمارة القوطية فأضيفت إليها شرط تزيينها ، وخطوط شعيرية رفيعة ، وزوائد معقوفة ، فأصبحت هي الحروف « القوطية » التي ظلت منتشرة في أوروبا إلى عهد النهضة ، وفي ألمانيا حتى يومنا هذا . ولم توضع علامات الترقيم إلا عدد قليل جداً من مخطوطات العصور الوسطى ؛ لأن هذه الوسيلة التي ترشد القارئ إلى حيث يلتقط نفسه قد ضاقت في أثناء الغوص التي صحبت غارات البرابرة ، ثم عادت إلى الظهور في القرن الثالث عشر ولكنها لم يعم استعمالها حتى قررتها الطباعة في القرن الخامس عشر . وكانت الطباعة قد أعدت عدتها إلى حد ما في عام ١١٤٧ لا بعد وذلك باستعمال القطع الخشبية . وبدأ ذلك في أدير.

بلاد الرين لطبع الحروف الأولى أو الرسوم على المنسوجات^(٦) . وكانت أشكال كثيرة من الاختزال تستخدم في تلك الأيام ، وكلها أحط كثيراً من « العلامات التيرونية » التي توصل إليها أرقاء شيشرون .

وكانوا يكتبون على الجلد السميك ، وأوراق البردى ، والجلد الرقيق أو الورق ، بريش الطير ، أو بأقلام الغاب ، ويستخدمون لذلك مداداً أسود أو ملوناً . واختفى البردى من الاستعمال العام في أوروبا بعد فتح العرب مصر . وكان الرق المتخذ من جلد الخراف الصغيرة غالى الثمن ، وكان لذلك يُدخِر للمخطوطات المترفة ، أما الرق المتخذ من جلد الضأن السميك فكان هو المادة المعتادة للكتابة عليها في العصور الوسطى . وظل الورق مادة غالية الثمن تستورد من بلاد الإسلام ، ولكن مصانع أقيمت لصناعته في ألمانيا وفرنسا في عام ١١٩٠ ، وشرعت أوروبا في القرن الثالث عشر تصنع ورقاً من الكتان .

وكانت كثير من الرقوق تُمحي ما عليها من مخطوطات قديمة ليكتب عليها كتاب جديد ، وكان يُطلق على هذه الرقوق اسم خاص هو palimsest ومعناه « الممحو مرة ثانية » . وقد فقدت كثير من الكتب القديمة بهذا المحو ، وبالوضع الخاطئ للمخطوطات ، وبال حرب والنهب ، والحريق والتلف . فقد نهب الهون مكاتب الأديرة في بافاريا ، ونهب أهل الشمال مكاتبها في فرنسا ؛ وتلفت كثير من الكتب اليونانية حين نُهبَت القسطنطينية في عام ١٢٠٤ . وكانت للكنيسة في بادئ الأمر تعارض في قراءة الكتب الوثنية القديمة ؛ وقامت أصوات مرتاعة في كل قرن تقريباً تندد بهذه الكتب ، منها أصوات جريجورى الأول ، وإزذور الأشبيلي ، وبطرس دميان . ودمر توفيلس كبير أساقفة الإسكندرية كل ما وجده من المخطوطات الوثنية ؛ كما أقنع القساوسة اليونان ، على حد قول دمتریوس كلكنديلاس Demetrius Chalcondylas^(٧) ، أباطرة الروم بإحراق جميع مؤلفات الشعراء الغزلين ومنهم سايفو وأنكريون . غير أنه

كان في هذه القرون نفسها كثيرون من رجال الدين المولعين بالكتب الوثنية القديمة والحريصين على الاحتفاظ بهذه الكتب . وكانوا في بعض الحالات يفلون سلاح النقد الموجه إليهم بتفسير معنى الشعر الوثني تفسيراً يتضمن أعظم العواطف المسيحية ؛ واستطاعوا بطريق الاستعارات الظرفية أن يحولوا شعير أوفد الغرامى إلى شعر يحض على مكارم الأخلاق . وكذلك احتفظ النساخون في الأديرة بقسم كبير من التراث الأدبي القديم^(٨) ، وكان يقال للرهبان إذا تعبوا إن الله سيغفر لهم ذنباً من ذنوبهم نظير كل سطر ينسخونه ، ويحدثنا أوردركس فيتالس Ordericus Vitalis أن أحد الرهبان نجاً من الجحيم وكان على قيد شعرة منها بحرف واحد نسخه^(٩) . وبلى الرهبان وحدهم في نسخ المخطوطات القديمة الكتبة الخصوصيون أو المحترفون الذين يستخدمهم الأغنياء أو بائعو الكتب أو الأديرة نفسها . وكان عمل هؤلاء النساخين مجهداً مملاً جعلهم يدونون على الصفحات الأخيرة من المخطوطات المنسوخة مطالب غريبة كقول أحدهم :

بهذا يتم جميع الكتاب

فبحق المسيح هات لى جرعة

وظن كاتب آخر أنه خليق بأكثر من هذا فكتب في آخر مخطوطه تلك الخاتمة : « فليجز الكاتب على (عمل قلمه) بفتاة جميلة »^(١٠) .

ولم تفرض كنيسة العصور الوسطى رقابة منظمة على نشر الكتب ، فإذا تبين أن كتاباً ما مناقض للدين ، وكان في الوقت نفسه ذا تأثير قوى ككتاب أبيلار عن التثليث استنكره مجلس من مجالس الكنيسة ولكن عدد الكتب كان وقتئذ أقل من أن يكون شديد الخطر على الدين القويم ؛ وحتى للكتاب المقدس نفسه كان نادر الوجود في خارج الأديرة ، فقد كان نسخه يحتاج إلى عام كامل ، ومثراؤه يحتاج إلى إيراد قس أبرشية ؛ ولهذا قل من رجال الدين من

كان يمتلك نسخة كاملة منه (١٢) . غير أن كتاب العهد الجديد وأسفاراً خاصة من العهد القديم كانت أوسع منه انتشاراً . وأخرجت في القرن الثاني عشر نسخ من الكتاب المقدس ضخمة الحجم ، فخمة الزخرف ؛ ولم يكن يستطيع استعمال هذه الكتب إلا على مكتب ، وكان ذلك عادة في مكتبة الدير ، وكانت في بعض الأحيان تشد إلى المكتب بسلسلة للمحافظة عليها . وقد روعت الكنيسة حين وجدت الولدنسيين والألبجنسيين ينشرون ويوزعون تراجمهم هم للكتب المقدسة ، ولهذا حرم مجلس من مجالس الكنيسة عقد في نربونه (١٢٢٧) على غير رجال الدين أن يكون لديهم أى جزء من الكتب المقدسة ؛ ولقد تحدثنا عن هذا من قبل (١٣) . ولكن يمكن القول بوجه عام إن الكنيسة لم تكن قبل القرن الرابع عشر تعارض في أن يقرأ الكتاب المقدس غير رجال الدين ؛ وإن لم تكن تشجع هذه القراءة لأنها لم تكن تثق بتفسير العامة لأسرار الكتب الدينية .

وكان حجم الكتاب وعدد صفحاته يحددهما ما يستطيع وجوده من الجلود ، وكان كل جلد منها يطبق لتتكون منه « ملازمة » ، ولم تكن الكتب بعد القرن الخامس تصدر في صورة ملفات كما كانت تصدر في العهود القديمة(*) ، بل كانت الجلود تقطع قطعاً مستطيلة لتكون ملازم من أربع أوراق ، أو ثمان ، أو اثنتى عشرة ورقة أو ست عشرة . وكانت ملازم مكونة من ست عشرة ورقة تضم مؤلفات طويلة في كتب صغيرة الحجم توضع في الجيب لتكون سهلة الاستعمال وكانت تغلف أحياناً بالرق السميك أو القماش ، أو الجلد المدبوغ ، أو الورق المقوى . وكان الغلاف المصنوع من الجلد يزخرف أحياناً بأن تطبع

(*) وظل كثير من السجلات الحكومية يكتب في ملفات ؛ حتى أن « أنابيب الملفات » كانت تستعمل في إنجلترا من عام ١١٣١ إلى عام ١٨٣٣ . وكان المكلف بالمحافظة على هذه السجلات يسمى صاحب الملفات .

عليه رسوم غير ملونة بقوالب من المعدن الحمى . وجاء الفنانون المسلمون الذين استقروا في البندقية إلى أوروبا بفن ملء هذه الأجزاء المنخفضة من الغلاف بألوان ذهبية . أما الغلاف الخشبي فقد كان يزخرف أحياناً بالمينا أو العاج المحفور ، أو يطعم بالذهب أو الفضة أو الجواهر . وكان مما عابه القديس جيروم على الرومان قوله : « إن كتبكم مطعمة بالحجارة الثمينة ، مع أن المسيح مات عارياً ! » (١٤) وقل أن يوجد من الكتب الحديثة ما يضارع التجليد الفخم الذى حليت به كتب العصور الوسطى .

وكانت الكتب البسيطة نفسها من مواد الترف . فقد كان الكتاب العادى غير المزخرف يكلف مقتنيه ما بين ١٦٠ دولاراً ومائتى دولار من نقود الولايات المتحدة الأمريكية حسب قيمتها في عام ١٩٤٩ (١٥) . وحسبنا شاهداً على هذا أن أحد زعماء حركة إحياء الآداب القديمة في القرن الثانى عشر وهو برنار من أهل شارتر قد خلف مكتبة لا تزيد مجلداتها على أربعة وعشرين مجلداً . وكانت إيطاليا أغنى بالكتب من فرنسا ، ولهذا جمع أكرسيوس Accursius الأكبر عالمها القانونى الشهير ثلاثة وستين كتاباً . ونسمع عن نسخة عظيمة من الكتاب المقدس بيعت بعشر وزنات - أى بما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ دولار ، وعن كتاب للصلوات استبدلت به كرامة ، وعن مجلدين من مؤلفات برشيان Prescian أحد النحاة في القرن الخامس بيعاً ببيت وأرض (١٦) . وعاق غلو الكتب قيام تجارة بائعها حتى القرن الثانى عشر ؛ حين استأجرت مدن الجامعات رجلاً من الوراقين وأصحاب المكتبات لينظموا جماعات من النساخين ينسخون الكتب للمدرسين والطلاب ، وكان هؤلاء الرجال يبيعون نسخاً منها لكل من يعنى بأداء أتمانها . ويبدو أنهم لم يدر قط يخلدوهم أن يؤدوا شيئاً من المال لمؤلف حتى . وإذا أصر رجل ما على أن يؤلف كتاباً جديداً ، كان عليه أن يؤدى نفقة كتابته ، أو يبحث عن ملك ، أو نبيل ، أو ثرى ينفحه بهبة من المال نظير إهدائه .

الكتاب أو الثناء عليه فيه . ولم يكن في وسعه أن يعلن عن كتابه إلا شفويا ، كما لم يكن في وسعه أن ينشره — أى يذيعه على الجمهور — إلا بالعمل على أن يستخدم في إحدى المدارس أو أن يتلى أمام من يستطيع جمعهم من المستمعين . وهذه الطريقة قرأ جرالد من أهل ويلز حين عاد من أيرلندا في عام ١٢٠٠ كتابه في تخطيط هذا القطر Topgraphy على جمعية في أكسفورد .

وأدى ارتفاع أثمان الكتب ، وقلة الأموال اللازمة لإنشاء المدارس إلى انتشار الأمية إلى حد لو أنه وجد في بلاد اليونان أو الرومان الأقدمين بلخلمهم العار . فقد كانت معرفة القراءة والكتابة قبل عام ١١٠٠ في البلاد الواقعة شمال جبال الألب تكاد تكون مقصورة على « خدم الدين » — وهم رجال الدين ، والمحسبة ، والكتبة ، وموظفو الحكومة ، وأصحاب المهن . وما من شك في أن رجال الأعمال كانوا في القرن الثاني عشر ممن يعرفون القراءة والكتابة ، لأنهم كانوا يحتفظون بحسابات دقيقة محكمة . وكان الكتاب في المنزل تحفة ثمينة ؛ وكان في العادة يقرأ بصوت عال إلى عدد من المستمعين ؛ وقد وضع الكثير من قواعد الترقيم والأسلوب فيما بعد لتيسير القراءة الشفوية ؛ وكان يعنى كل العناية بتبادل الكتب بين الأمر بعضها وبعض ، وبين مختلف الأديرة ، والأقطار .

وكانت دور الكتب كثيرة العدد وإن قل حجمها . وكان القديس قد قرر أن يكون لكل دير بندكتى مكتبة ؛ وكانت بيوت الكارثوزيين والسترسيين تجدد في جمع الكتب رغم كراهية القديس برنار للعلم ، كذلك كان لكثير من الكتدرائيات — أمثال كتدرائيات طليطلة ، وبرشلونة ، وبامبرج Bamberg وهلدسهايم Hildesheim — مكتبات كبيرة ؛ فكان في كنيسة كنتربرى مثلا ٥٠٠٠ كتاب في عام ١٣٠٠ ، ولكن هذا مثل نادر لا يقاس عليه^(١٧) ، أما معظم المكتبات فكان في الواحدة منها ما يقل عن مائة كتاب ؛ وكان في مكتبة كلونى وهى من أحسن المكتبات ٥٧٠ مجلدا^(١٨) . وكان عند مانفرد ملك

صقلية مجموعة قيمة انتقلت إلى البابوية وأضحت نواة مجموعة الفاتيكان اليونانية . وقد بدأت المكتبة البابوية في عهد البابا دمسوس Damasus (٣٦٦ - ٣٨٤) ، ثم فقدت مخطوطاتها الثمينة ومحفوظاتها القيمة في فوضى القرن الثالث عشر ، ولهذا يرجع تاريخ مكتبة الفاتيكان الحاضرة إلى القرن الخامس عشر . وشرعت الجامعات - أو على الأصح قاعات كلياتها - تنشئ لها مكاتب في القرن الثاني عشر ، وأنشأ القديس لويس مكتبة سانت شابل Sainte Chapelle في باريس ، وأغناها بالكتب التي أمر بنسخها من مائة دير ؛ وكانت كثير من المكتبات ، كمكتبات نتردام ، وسان جرمان ده بريه St. Germain des Prés والسربون مفتوحة للطلبة الموثوق بهم ، وكان من المستطاع استعارة الكتب في الخارج بضمان واف : وإن طالب العلم اليوم ليصعب عليه أن يقدر قيمة الثروة الأدبية التي كانت المدينة والكلية تضعها بين يديه دون مقابل .

وكانت هناك مكتبات خاصة في أماكن متفرقة ، وإنا لنجد في ظلمات القرن العاشر نفسه جربرت Gerbert يجمع كتباً بحماسة محي الكتب الحقّة ؛ وكان لغیره من رجال الدين أمثال جون السلزبرى مجموعات خاصة بهم . كما كان لعدد قليل من النبلاء مكتبات صغيرة في قصورهم ؛ وكان لفردريك بربرسا وفردريك الثاني مجموعات كبيرة ، وجمع هنرى الأرغونى مكتبة عظيمة حرق علنا لانهامه بالاتصال بالشيطان^(١٩) . وجاء دانييل من أهل مورلى Morley إلى إنجلترا من أسبانيا في عام ١٢٠٠ « بطائفة كبيرة قيمة من الكتب »^(٢٠) . وكشفت أوروبا في القرن الثاني عشر ثروة أسبانيا العظيمة من الكتب فهرع العلماء إلى طليطلة ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وعبرت جموع رجال العلم الحديد التي لا حصر لها جبال البرانس وأحدثت في الحياة الذهنية في بلاد الشمال التي كانت وقتئذ في دور المراهقة انقلاباً عظيم الأثر .

الفصل الثالث

المترجمون

كانت أوربا في العصور الوسطى منقسمة نصفين أحدهما لاتيني والآخر يوناني وإن كانت تجمعها إلى حد ما لغة مشتركة . وكان النصفان متعادين ويجهل أحدهما الآخر . وقد نسي الشرق اليوناني التراث اللاتيني ما عدا القانون ، كذلك نسي التراث اليوناني في الغرب كله ما عدا الصقليتين ؛ لكن بعض هذا التراث اليوناني كان محتبئاً وراء أسوار المسيحية - في بيت المقدس الإسلامية ، والإسكندرية ، والقاهرة ، وتونس ، وإسبانيا ؛ أما العالم الواسع الرقعة البعيد الشقة الذي يشمل الهند والصين واليابان ، والذي كان من عهد بعيد غنيا بالأدب والفلسفة والفن ، فلم يكد العالم المسيحي قبل القرن الثالث عشر يعرف عنه شيئاً .

واضطلع اليهود ببعض العمل الذي يهدف إلى ربط الثقافات المختلفة بعضها ببعض ، فقد كانوا ينتقلون بين هذه الثقافات تنقل مجارى الماء المخصصة تحت تربة الأرض . ولما كثر عدد اليهود المهاجرين من بلاد الإسلام إلى البلاد المسيحية ، ونسوا اللغة العربية ، رأى علماءهم أنه يجدر بهم أن يرجعوا المؤلفات العربية (التي ألف اليهود كثيراً منها) إلى اللغة التي لا يعرف علماء هذا الشعب المشتت غيرها وهي اللغة العبرية . ومن أجل هذا ترجم يوسف قحجى (١١٠٥ ؟ - ١١٩٠ ؟) في نربونة كتاب « المنسر إلى وإمبات القلب » تأليف الفيلسوف اليهودي بهية إلى تلك اللغة . وكان يوسف هذا والد أبناء من مجلة العلماء ، ولكن أعلى منهم كعبا في شؤون الترجمة أبناء يهوذا بن شاول بن طيون (١١٢٠ ؟ - ١١٩٠ ؟) ؛ وكان هو أيضاً قد هاجر من بلاد الأندلس الإسلامية إلى جنوبي فرنسا ؛ وهو وإن كان من أكثر أطباء عصره نجاحاً في مهنته كان له

من النشاط ما استطاع به ترجمة المؤلفات اليهودية العبرية لسعديه جاوّن ، وأبن جيه ول ، ويهودا هليفي إلى اللغة العبرية . وأثار ابنه صمويل (١١٥٠ ق - ١٢٣٢) العالم اليهودي إلى ترجمة كتاب دبل الحبراه لابن ميمون إلى اللغة العبرية ، وترجم موسى بن طبون كتاب العناصر لإقليدس من اللغة العربية أيضا ، وترجم كتاب القانون الصغير لابن سينا ، وكتاب الترياق للرازي ، وثلاثة من مؤلفات ابن ميمون ، وشروح ابن رشد القصيرة لأرسطو . وتزعم يعقوب بن طبون حفيد صمويل حركة الكفاح من أجل ابن ميمون في منبليه ، واشتهر بنبوغه في علم الفلك ، ولكنه مع هذا ترجم عدداً من الرسائل العربية إلى اللغة العبرية ، كما ترجم بعضها إلى اللغة اليونانية . وتزوجت ابنة صمويل عالماً أوسع شهرة من أبيها هو يعقوب أناضولي . وقد ولد يعقوب هذا في مرسيلية حوالي عام ١١٩٤ ودعاه فردريك الثاني لتدريس اللغة العبرية في جامعة نابلي ، وفيها ترجم إلى اللغة العبرية شروح ابن رشد الكبرى . وكان لهذه الشروح أبلغ الأثر في الفلسفة اليهودية . وكانت ترجمة كتاب المنصورى للرازي على يد الطبيب الفيلسوف شم طب (١٢٦٤) في مرسيلية حافزاً قويا إلى النهضة الطبية عند العبرانيين .

وترجمت إلى اللغة اللاتينية كثير من التراجم العبرية للكتب العربية من ذلك أن كتاب التيسير لابن زهر ترجم إلى اللغة اللاتينية في بدوا (١٢٨٠) ؛ وفي بداية القرن الثالث عشر ترجم أحد اليهود أسفار العهد القديم كلها ترجمة حرفية من اللغة العبرية إلى اليونانية مباشرة . وتمثل لنا ترجمة كتاب كلبته ودمه لبديا الطرق الملتوية التي كانت تسير فيها الهجرة الثقافية : فقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية من ترجمة أسبانية لترجمة لاتينية لترجمة عبرية ، لترجمة عربية لترجمة فهلوية لترجمة للنسخة السنسكريتية المزعومة (٢١) .

أما التيار الرئيسى الذى صب به تيار الثروة الفكرية الإسلامية فى العالم الغربى فكان عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية . فقد ترجم قسطنطين الأفريقى حوالى عام ١٠٦٠ إلى اللغة اللاتينية كتاب *الأغنيار* للرازى وكتب إسحق يودىوس فى الطب ، و ترجمة حنين العربية *لرسائل أبقرط وسُرح جالينوس* . وجمع ريمند (١١٣٠ ؟) *المستنير المتسامح* كبير أساقفة طليطلة بعد استردادها من المسلمين طائفة من المترجمين برياسة دمنيكو جنديسلفى وعهد إليهم ترجمة الكتب العربية فى العلوم الطبيعية والفلسفة . وكان معظم هؤلاء المترجمين من اليهود الذين يعرفون اللغات العربية ، والعبرية ، والأسبانية ، بالإضافة إلى اللاتينية فى بعض الأحيان . وكان أكثر هذه الفئة نشاطاً أحد اليهود المنتصرين يدعى حنا الأسباني (أو « الأشبيلي ») وقد حور الفلاسفة المدرسيون كنيته العربية وهى ابن داود فسموه أفنديث *Avendeath* . وقد ترجم حنا هذا مكتبة حقة من مؤلفات ابن سينا ، والغزالي ، والفارابى ، . . . والحوارزمى عن أصولها العربية أو عن تراجمها اليهودية . وأدخل بترجمته لكتاب الحوارزمى الأرقام الهندية - العربية فى بلاد الغرب . ولا يقل هذا الكتاب أثراً عن ترجمته لكتاب مديسوس على أرسطو فى الفلسفة والأسرار الخفية يدعى *Secretum Secretorum* وهو كتاب يدل على سعة انتشاره بقاء مائتى نسخة مخطوطة منه . وكانت بعض الكتب تترجم من العربية إلى اللاتينية مباشرة ، وبعضها يترجم إلى اللغة القشتالية ثم يترجمها غنديسلوى إلى اللاتينية . وهذه الطريقة حول العالمان كتاب حكور حاتم فأصبح *Fon Vitae* أو *ينبوع الحياة* وبه أصبح ابن جيبيرول « *Avicebron* » من أشهر الفلاسفة فى محيط الفلسفة الكلامية .

وكانت هناك رواقد أخرى تغذى هذا التيار اللاتينى العربى . من ذلك أن

علما من باث Bath يدعى أبلار تعلم العربية في أنطاكية ، وطرسوس ، وطيطة ثم نقل كتاب إقليدس من العربية إلى اللاتينية (١١٢٠) فكانت هذه الترجمة أول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب ؛ وهو الذى أدخل حساب المثلثات من بلاد المسلمين إلى الغرب بترجمته أزياج الخوارزمي (١١٢٦) (٢٣) .

وفي عام ١١٤١ قام بطرس الموقر رئيس دير كلونى هو وثلاثة من العلماء المسيحيين يساعدهم أحد علماء العرب بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية . ودخل علم الكيمياء والكيمياء الكاذبة العالم اللاتيني بترجمة ربرت من أهل تشستر أحد الكتب العربية في عام ١١٤٤ . وبعد عام من ذلك الوقت قام رجل إيطالى يدعى أفلاطون التيقولى بترجمة رسالة هبورها مشيحه العظيمة الشأن لمؤلفها أبراهام بارحيا .

وكان أعظم المترجمين على بكرة أبيهم رجلا يدعى حرار من أهل كريمونا . ذلك أنه لما قدم هذا الرجل إلى طليطلة حوالى ١١٦٥ أعجب بثروة العرب في العلوم والفلسفة فصمم على أن يترجم خيرا في هذه الثروة إلى اللغة اللاتينية ، وقضى في هذا العمل التسع السنين الباقية من حياته ؛ فتعلم اللغة العربية واستعان كما يسندو بمسيحي من أهل المدينة وبآخر يهودى (٢٤) .

وليس من المعقول أن يكون هو الذى ترجم الكتب الواحد والسبعين من غير أن يعاونه فيها أحد . ومهما يكن من شيء فإن الغرب مدين له بالتراجم اللاتينية للتراجم العريضة لكتب أرسطو في التحليلات ، وفي السموات والأرض ، والكون والفساد ، والمتيورولوجيا ؛ وبطائفة من الشروح لاسكندر الأفروديسى ، والعناصر والفروض لإقليدس ، وقياس الدائرة لأرخميدس ، والخروطات لأپلونيوس البرجاوى ، وأحد عشر كتاباً معزوة إلى جالينوس ، وعدة مؤلفات في الفلك يونانية الأصل ، وأربعة مجلدات يونانية - عربية في الطبعة ، وأحد عشر كتاباً في الطب عند العرب ، من بينها أكبر كتب الرازى وابن سينا والفارابى

وثلاثة من كتب الكندي ، وكتابين لإسحاق إسرائيلي ، وأربعة عشر كتاباً في الرياضة والهيئة عند العرب ، وثلاث مجموعات من الأزياج الفلكية ، وسبعة مؤلفات عربية في الهندسة والفلك ؛ وقصارى القول أن ليس في التاريخ كله رجل أغنى بمفرده ثقافة بأخرى كما فعل جرار هذا . ولا يضارع جرار في عمله هذا إلا عمل حنين بن إسحق ، وعمل « بيت الحكمة » الذي أنشأه الميمون ، وهما اللذان صبا العلوم والفلسفة اليونانية في القالب العربي .

وبل إسبانيا في مزج الثقافات على هذا النحو مملكة الصقليتين النورمانية . ذلك أن حكام النورمان لم يكادوا يفتحون الجزيرة (١٠٩١) حتى استخدموا مترجمين ليقوموا بترجمة المؤلفات العربية واليونانية في الرياضة والهيئة المنتشرة في پالرم إلى اللغة اللاتينية . وواصل فردريك الثاني هذا العمل في فوجيا Foggia واستقدم إلى بلاطه للقيام به وبغيره من الأعمال عقلا من أعجب العقول وأكثرها نشاطا في أوائل القرن الثالث عشر ونعني بصاحب هذا العقل ميخائيل اسكت . وقد اشتق اسم هذا الرجل من موطنه الأصلي في اسكتلندة ؛ وتراه في طليطلة عام ١٢١٧ وفي بولونيا عام ١٢٢٠ ، وفي رومة من ١٢٢٤ إلى ١٢٢٧ ، ثم تراه بعدئذ في فوجيا أو نابلي . وكان أول ما ترجمه كتاب الأجسام الكرية للبطروجي وهو نقد كتاب بطليموس ، وأعجب اسكت بما يمتاز به تفكير أرسطو من حرية واتساع في الأفق . فترجم إلى اللغة اللاتينية الترجمة العربية لكتاب تاريخ الحيوان لأرسطو بما فيه « أجزاء الحيوان » و « توالد الحيوان » ، وتعزو إليه رواية غير محققة تراجع كتب « ما وراء الطبيعة » ، و « الطبيعة » و « النفس » ، و « السموات » ، ولعله ترجم كذلك كتاب « الأخلاق » . ووصلت تراجم ميخائيل لكتب أرسطو إلى ألبرتس مجنس وروجر بيكن ، وكان لها أثر كبير في الحركة العلمية في القرن الثالث عشر . وواصل شارل صاحب أنجو مناصرة الترجمة في جنوبي إيطاليا ، وعمل له في هذا العالم اليهودي موسى من أهل سلرنو ، وأكبر الظن أن

شارل هو الذى قدم المال اللازم لترجمة الموسوعة الطبية الضخمة (١٢٧٤)
للرازى وهى المعروفة باسم « كتاب الحاوى » إلى اللغة اللاتينية على يد العالم
اليهودى فرج بن سالم الجرجنى .

وكانت جميع التراجم اللاتينية السالفة الذكر لعلوم اليونان وفلسفتهم
منقولة عن التراجم العربية - وكان منها ما هو ترجمة عربية للترجمة السريانية
للأصل الذى يكتنفه الغموض . ولم تكن هذه التراجم خالية من الدقة إلى
الحد الذى اتهمها به روجر بيكن ؛ ولكن ما من شك فى أن الحاجة كانت
منذ ذلك الوقت ماسة إلى تراجم من الأصل مباشرة . وكان من بين أقدم
هذه التراجم الأصلية ترجمة كتب أرسطو على يد جيمس الذى لا نعرف
عنه أكثر من أنه « كاتب من البندقية » قبل عام ١١٢٨ . وفى عام ١١٥٤
ترجم يوجين « أمير » الرم كتاب بطليموس فى « البصريات » ، ثم اشترك
فى عام ١١٦٠ فى ترجمة لاتينية لكتاب المجسطى من اللغة اليونانية مباشرة .
وكان أرسينيس من أهل قطنيا قد ترجم فى الوقت عينه (١١٥٦ ؟) كتاب
حياة الفلاسفة لديوجينز ليرتيوس وكتاب مينون وفيمون لأفلاطون .
ولم يؤثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى الترجمة بالقدر الذى
كان يحق لنا أن نتوقعه ؛ فنحن لم نسمع إلا عن ترجمة جزء من كتاب
« طبائريفا » (ما وراء الطبيعة) لأرسطو (١٢٠٩) ؛ وأعقب ذلك فترة
مجدبة شرع بعدها فى عام ١٢٦٠ وليم الموربيكى William of Moerbeke
كبير أساقفة كورنث الفلمنكى يعاونه فى أغلب الظن عدد من المترجمين
بترجمة طائفة من الكتب عن اللغة اليونانية مباشرة . وإن عدد هذه التراجم
وأهميتها لتزلاته بين أبطال نقل الثقافة منزلة لا تعلو عليها إلا منزلة جرارد
الكريمونى . وكانت استجابته لطلب صديقه وزميله الراهب الدميكي تومس
اكوناس من الأسباب التى حملته على ترجمة عدد كبير من مؤلفات أرسطو

تاريخ الحيوانات ، وتوالد الحيوانات ، والسياسة ، والجغرافة ، وعلى إتمام ترجمة بعض التراجم السابقة أو مراجعتها : المتأثيرين والمبورولوميت (الأرصاد الجوية) وفي النفس . وترجم للقديس تومس عدة شروح على كتب أرسطو وأفلاطون ؛ وأضاف إلى هذه الأعمال الكثيرة تراجم لكتاب الشخص مؤبقراط وكتاب جالينوس في الطعامم وعدة مؤلفات في علم الطبيعة طبرون الإسكندري وأرخميدس . ولعلنا مدينون له أيضاً بترجمة لكتاب المخطوط لأرسطو كانت تعزى من قبل إلى ربرت جروستسقى ، وكانت هذه التراجم جزءاً من المادة التي بنى عليها تومس كتابه العظيم الأثر في اللاهوت . ولم يحل عام ١٢٨٠ حتى كانت كتب أرسطو كلها تقريباً في متناول العقل الغربي .

وقد أحدثت هذه التراجم كلها في أوروبا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر ، ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر في استنارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم ؛ وكان لا بد أن تحدث تطورات جديدة في السحو وفته اللغة ، ووسعت نطاق المناهج الدراسية ، وأسهمت بنصيب في نشأة الجامعات ونماها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وكان عجز المترجمين عن أن يجلبوا مفردات لاتينية تؤدي المعاني التي يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذي أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية في اللغات الأوروبية ؛ ولم يكن هذا أكثر من حادث عارض في أعمال الترجمة ، ولكن أهم من هذا أن الجبر ، وعلامة الصفر ، والنظام العشري في الحساب قد دخلت كلها في بلاد الغرب المسيحية بفضل هذه التراجم ، وأن الطب من ناحيته النظرية والعملية تقدم تقدماً عظيماً بفضل ما قام به العلماء المترجمون اليونان ، واللاتين ، والعرب ، واليهود ، وأن ما كان لعلم الهيئة اليوناني والعربي من شأن خطير قد أحدث ، وكان لا بد أن يحدث ، توسعاً في علوم الدين ، وفي تعديل أفكار العلماء عن

الإله ، وكان ذلك إرهاباً بتغيير في هذه الناحية أوسع مدى جاء بعد عهد كوبرنيك . وإن في إشارات روجر بيكن المتكررة لابن رشد ، وابن سينا ، والفارابي لدليلاً على ما كان لهؤلاء العلماء من تأثير وحافز جديد . وفي ذلك يقول روجر بيكن نفسه : « لقد جاءت إلينا الفلسفة من العرب » (٢٥) ، وسنرى أن الذى دعا توماس أكويناس لتأليف كتابه الجامع في اللاهوت هو أن يحول دون تسرب التناسير العربية لأرسطو إلى علوم الدين المسيحية . وهكذا ردت الإسلام إلى أوروبا ما أخذته عن اليونان بطريق بلاد الشام ، وكما أن هذه العلوم كانت بداية ذلك العصر العظيم عصر العلوم والفلسفة العربية ، كذلك أثارت هذه التراجم عقل أوروبا وحفزته إلى البحث والتفكير ، وأرغمته على أن يشيد ذلك الصرح العقلي الخطير صرح الفلسفة المدرسية ، وأن ينقض ذلك الصرح الفخم حجراً بعد حجر ، فينهار بذلك نظام العصور الوسطى الفلسفى فى القرن الرابع عشر ، وتبدأ الفلسفة الحديثة فى نعمة للتحمس العظيم أثناء عصر النهضة .

فصل الرابع

المدارس

وكان الذى يقوم بنقل الحضارة من جيل إلى جيل الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة . وكان يعنى عناية خاصة بالتربية الخلقية فى العصور الوسطى ، على حساب الثقافة العقلية ، كما يعنى اليوم بالتربية العقلية ، على حساب التأديب الخلقى . ولم يكن من غير المؤلف فى إنجلترا بين الطبقات الوسطى والعليا أن يرسل الولد فى سن السابعة أو نحوها ليربى وقتاً ما فى بيت غير بيته ؛ وكان الغرض المقصود من هذا تمكين الروابط بين الأسر من جهة ، وإبعاد الولد عن اللين المنبعث من حنان الأبوين من جهة أخرى (٢٦) . وكان نظام المدارس الفخم الذى أنشأته الإمبراطورية الرومانية قد انهار فى خلال الفوضى الناشئة من الغارات ومن نقص سكان المدن ، ولما أن هدأت موجة الهجرة فى القرن السادس بقيت قلة من المدارس العلمانية فى إيطاليا ؛ وكان معظم الباقى مدارس لتعليم المعتنقين الجدد للدين المسيحى . وقساوسة المستقبل . وظلت الكنيسة فترة من الزمن (٥٠٠ - ٨٠٠) تنحصر بعنايتها التدريب الأخلاقى ، ولم تكن ترى أن نقل العلوم الدنيوية من واجباتها ؛ ولكن الكتدرائيات ، والأديرة ، وكنائس الأبرشيات وأديرة النساء ، قد حفزها شارلمان إلى فتح أبوابها لتعليم البنين والبنات تعليماً عاماً .

وحملت مدارس الأديرة وحدها فى أول الأمر هذا العبء كله تقريباً . وكانت المدارس نوعين مدرسة داخليّة تهيبّ التعليم للمستجدين ومن ينذرهم آباؤهم للرهينة أو الكنيسة ، ومدرسة خارجيّة تعلم الأولاد من غير أجر على

ما يظهر (٢٧) . ونجت مدارس الأديرة الألمانية من اضطرابات القرن التاسع ، وأسهمت بنصيب مشمر في النهضة الأنونية Oltonian ؛ وكانت ألمانيا في القرنين التاسع والعاشر تعلو على فرنسا في كل ما يزين العقل ، ذلك أن انحلال البيت الكارولنجي في فرنسا ، وغارات أهل الشمال ، كانا ضربتين قويتين وجهتا إلى مدارس الأديرة ، ولهذا لم تبق مدرسة القصر التي أنشأها شارلمان في بلاط الفرنجة بعد أن مات شارل الأصلع (في عام ٨٧٧) . وزادت الأسقفيات الفرنسية قوة كلما زاد الملوك ضعفا ، ولما أن وقفت غارات أهل الشمال كان الأساقفة ورجال الدين في خارج الأديرة أغنى من رؤساء الأديرة ومن الأديرة نفسها ، ولهذا قامت مدارس الكنتراثيات في القرن العاشر في باريس ، وشارتر ، وأورليان ، وتور ، ولاؤن ، وريمس ، ولييج ، وكولوني ؛ على حين أن مدارس الأديرة ضعفت في ذلك القرن ؛ ولما توفي فلبرت الصالح العظيم في شارتر ، احتفظ الأسقف إيغو Ivo بالمستوى الرفيع وبمحسن السمعة اللذين نالتهما مدرسة كنتراثيتها في الدراسات اليونانية والرومانية القديمة ، وجري برنار أسقف شارتر الذي خلف إيغو على تقاليد سلفه الطيبة ؛ وقد وصف حنا السلازبرى برنار هذا في القرن الثاني عشر بقوله إنه « في الوقت الحاضر أغزر منبع للآداب في غالة وأعظم هذه المنابع روعة » (٢٨) . وفي إنجلترا ذاعت شهرة مدرسة يورك حتى قبل أن تغير ألكوين إلى شارلمان ؛ وكادت مدرسة كنتربرى تصبح جامعة ذات مكتبة كبيرة ، وكان أمينها هو الرجل العظيم حنا السلازبرى السالف الذكر ، وهو رجل من أعظم العلماء والفلاسفة عقلا في العصور الوسطى . ويبدو أن الطلاب الذين يهبأون لأن يكونوا قساوسة كان يتفق عليهم من أموال الكنتراثية ، أما غيرهم من الطلاب فكانوا يؤدون أجوراً قليلة . وقد أصدر مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) قراراً يقول : « لكي لا يحرم الأطفال الفقراء من فرصة القراءة والرق . . . يجب أن يخصص مرتب كاف للمدرس يعلم بالهجان من يعدون لممارسة مهنة الكهانة

والفقراء من التلاميذ» (٣٩) وطالب مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) بأن ينشأ كرسي للنحو في كل كتدراثية من كتدراثيات العالم المسيحي ، وأمر كل كبير أساقفة بأن يكون لديه كرسيان للفلسفة والقانون الكنسي (٣٠) . وحضر البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) في أوامره السامية كنائس الأبرشيات على أن تنشئ مدرسة للتعليم الأولى ، وتدل البحوث الحديثة على أن مدارس الأبرشيات هذه - المخصصة أولا للتعليم الدينى - كانت منتشرة في جميع أنحاء العالم المسيحي (٣١) .

ترى ماذا كانت نسبة المراهقين من الأهلين الذين كانوا يؤمنون هذه المدارس ؟ أما البنات فلم يكن يذهب إليها فيما يبدو إلا بنات الطبقة الموسرة ، وكانت معظم الأديرة تنشئ مدارس للبنات كالمدرسة التى فى أرجنتى Argenteuil ، وعلمت هلواز الآداب القديمة تعليما ممتازا (حوالى عام ١١١٠) ، ولكن أغلب الظن أن هذه المدارس لم تدخلها إلا نسبة صغيرة من البنات . ومن مدارس الكتدراثيات ما كانت تقبل البنات ، فهذا هو ذا أبلار يحدثنا عن « النساء الشريفات المولد » اللاتى كن يذهبن إلى مدرسة نردام فى باريس عام ١١١٤ (٣٢) . أما الأولاد فكانوا أحسن حظا من البنات ، ولكن يبدو أن ابن رقيق الأرض كان يصعب عليه أن ينال تعليما ما (٣٣) . وإن كنا نسمع أن بعض الأرقاء استطاعوا أن يلحقوا أبناءهم باكسفورد (٣٤) . وكان كثير من المواد التى تعلم الآن فى المدرسة يعلم وقتئذ فى المنزل أو بالتدرب فى الحوانيت ؛ ولا ريب فى أن انتشار الفنون فى العصور الوسطى والدرجة الرفيعة التى باغتها يوحيان بأنه كان ثمة فرص واسعة للتدرب على الفنون والحرف . وتقدر إحدى الإحصاءات عدد الأولاد الملتحقين بالمدارس الأولية بإنجلترا فى عام ١٥٣٠ بستة وعشرين ألفا من بين سكانها الذين يقدرون فى ذلك الوقت بخمسة ملايين ، أى بنحو ثلثين من سكانها فى عام ١٩٣١ (٣٥) ؛ ولكن دراسة حديثة لهذا

الموضوع تقول إن « القرن الثالث عشر كان أقرب إلى التعليم الشعبي والاجتماعى من القرن السادس عشر » (٣٦) .

وكان قس من قساوسة بيت الكتدرائية هو الذى يدير مدرسة الكتدرائية عادة ؛ وكان يسمى بأسماء مختلفة هى ارشكولا (كبير المدرسة) Archiscola أو اسكلاريوس *scolarius* أو اسكلاستيكس *Scholasticus* (المدرس) . وكان التعليم كله باللغة اللاتينية ؛ وكان التأديب صارما ، فكان الضرب يعد من مستلزمات التعليم كما كانت الجحيم من مستلزمات الدين ، ومن أجل هذا كانت مدرسة ونشستر تحي طلابها بيت من الشعر سداسى الأوتاد صريح فى معناه وهو : « Aut disce, an discede manet sors : tertia caedi » ومعناه « تعلم أو ارحل والثالثة التى تختارها هى أن تضرب » . وكان المنهج يبدأ بالمجموعة الثلاثية - النحو والبلاغة ، والمنطق - ؛ ثم ينتقل الطالب بعدها إلى « المجموعة الرباعية » - الحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك ؛ وكانت هذه هى « الفنون الحرة السبعة » . على أن هذه المصطلحات لم تكن لها فى ذلك الوقت نفس المعنى الذى لها فى الوقت الحاضر . فأما المجموعة الثلاثية *Trivium* فكان معناها بطبيعة الحال أنها مكونة من ثلاث طرق ، وأما الفنون الحرة فهى التى عرفها أرسطو قبل ذلك الوقت بأنها المواد الخليفة بالأحرار الذين لا يجرون وراء المهارات العملية (وكانت هذه تترك لصبيان الصناعات) ، بل يسعون وراء التفوق العقلى والخلقى (٢٨) . وكان فارو (١١٦ - ١٢٧ ق . م) قد كتب سبعة كتب فى التأديب ذكر فيها سبع دراسات وصفها بأنها تؤلف المنهج اليونانى الرومانى . وكتب مارتينانس كابلا *Martianus Capella* فى القرن الخامس الميلادى كتابا فى مبادئ التربية نحا فيه منحى الاستعارة والتشبيه وكانت له شهرة واسعة وسماه « فى زواج الفلسفة » *On the Marriage of Philosophy and Mercury* ، وأخرج الطب والعمارة من مناهج التعليم لأنهما دراستان

عمليتان أكثر مما يجب أن تكون الدراسات ، وبقيت بعد السبع الدراسات الشهيرة . ولم يكن « النحو » هو الدراسة المملة التي تضيع فيها روح اللغة بدراسة عظامها ، بل كان هو فن الكتابة (gramma, grapha) ؛ وقد عرفه كسيودورس بأنه هو دراسة العظيم من الشعر والخطابة دراسة تمكن الإنسان من أن يكتب كتابة صحيحة ظريفة . وكانت هذه الدراسة تبدأ في مدارس العصور الوسطى بالمزامير ، ثم تنتقل إلى غيرها من أسفار الكتاب المقدس ، ثم إلى كتب آباء الكنيسة اللاتين ، ثم إلى الآداب اللاتينية القديمة - شيشرون ، وفرجيل ، وهوراس ، واستانيوس ، وأوفيد . وظل معنى البيان هو فن الحديث ، ولكنه كان يشمل أيضاً دراسة واسعة في الأدب . ويبدو أن المنطق كان من الموضوعات الراقية التي لا يمكن أن تشملها المجموعة الثلاثية . ولكن يبدو أنه كان من الخبر للتلاميذ أن يتعلموا اتباع قواعد المنطق حين يبدعون يحبون الجدل .

وأدخلت الثورة الاقتصادية شيئاً من التغيير في ميدان التعليم ، فقد أحست المدن التي تعيش بالعمل في التجارة والصناعة بحاجة إلى موظفين ذوى تدريب عملي ؛ ولهذا أنشأت ، رغم معارضة قوية من جانب الكنيسة ، مدارس زمنية يعلم فيها مدرسون علمانيون نظير أجور يتقاضونها من آباء التلاميذ . وكان الأجر السنوى في المدرسة العامة التي في مرتبة المدارس الثانوية بأكسفورد نحو أربعة بنسات أو خمسة (٤.٥ دولار أمريكي) ؛ وقد أحصى فلاني Villani في عام ١٢٨٣ تسعة آلاف ولد وبنات في مدارس الكنائس بفلورنس ، و١١٠٠ في ست من مدارس « المطهرات » التي تهيئهم للاشتغال بالأعمال التجارية والمالية ، و٥٧٥ تلميذاً في المدارس الثانوية . ونشأت المدارس الزمنية في فلاندرز في القرن الثاني عشر ؛ ولم يحل النصف الثاني من القرن الثالث عشر حتى كانت هذه الحركة قد انتشرت في لوبك Lübeck ومدن البحر البلطي . ونقرأ في عام ١٢٩٢ عن معلمة تدبر مدرسة خاصة في باريس ، وسرعان ما أوضحت هذه واحدة من كثيرات مثاتها (٣٩) ، فقد أخذ تحول التعليم إلى الناحية الدينية يجرى مجراه .

الفصل الخامس

جامعات الجنوب

وكانت المدارس غير الدينية كثيرة في إيطاليا بنوع خاص ؛ وكان مدرسوها في العادة من غير رجال الدين بخلاف ما كانت عليه الحال فيما وراء الألب ؛ كما كانت الروح والثقافة الإيطالييتان بوجه عام أثقل في نزعتهما الدينية مما كانت عليه الحال في غير إيطاليا من البلاد . بل ذهب البعض إلى أكثر من هذا فحدث حوالى عام ٩٧٠ أن نظم رجل يدعى فلجاردس Vilgardus حركة في رافنا تهدف إلى إعادة الوثنية^(١٠) . وكان في البلاد بطبيعة الحال كثير من مدارس الكتدرائيات ، وكانت مدارس كتدرائيات ميلان ، وباثيا ، وأوستا Aosta ، وبارما ذات كفاية خاصة ، وفي وسعنا أن نحكم على مقدار هذه الكفاية إذا عرفنا أن من خريجها لافرانك وأنسلم ، وكادت مدرسة مونتى كازينو في عهد دزدريوس تكون جامعة . ولقد تضافر بقاء الأنظمة البندية ، ونجاح المدن اللمباردية في مقاومة بربرسا (١١٧٦) ، والطلب المتزايد على المعلومات القانونية والتجارية ، تضافرت هذه العوامل كلها على أن تنيل إيطاليا شرف السبق في مضمار إنشاء الجامعات في العصور الوسطى .

ولقد احتفلت جامعة پدوا في عام ١٩٤٥ بالعيد المتمم للمائة بعد الألف من إنشائها على يد لوثير الأول Lothair I . وأكبر الظن أنها كانت مدرسة حقوق لاجامعة ، ولم تتلق المرسوم الذى يجعلها مدرسة عامة إلا في عام ١٣٦١ . وكان هذا هو الاسم الذى يطلق في العصور الوسطى على الجامعة التى تضم عدداً من الكليات المختلفة ، وكانت إحدى المدارس الكثيرة التى شرعت من القرن

التاسع عشر وما بعده تحبى دراسة القانون الرومانى : مدارس رومة ، ورافنا ، وأورليان فى القرن التاسع ؛ ومدارس ميلان ، ونربونة ، وليون Lyons فى القرن العاشر ؛ ومدارس فرونا ، ومنتوا ، وأنجرس Ongers فى القرن الحادى عشر . ويبدو أن بولونيا هى أولى مدائن غربى أوروبا التى وسعت مدرستها فجعلتها مدرسة عامة ، وفى ذلك يقول المؤرخ الإخبارى أودوفريدوس Odsfredus فى عام ١٠٧٦ : « شرع مدرس يدعى پپو Pepo يحاضر القانون على مسئوليته الخاصة . . . فى بولونيا ، وكان من أعظم الرجال شهرة » (١) . ثم انضم إليه غيره من المدرسين ، حتى غدت مدرسة الحقوق فى بولونيا قبل أيام لإرنريوس Irnerius بإجماع الآراء خير مدارس أوروبا على الإطلاق ؛

وبدأ إرنريوس يدرس القانون فى بولونيا عام ١٠٨٨ ، وانحاز فى تدريسه من جانب الجلف إلى جانب الجلبين ، وفسر فقه القانون الذى عاد وقتئذ إلى الحياة تفسيراً يتفق ومصلحة الطالب الإمبراطورية . ولسنا نعلم أكان مذنباً هذا العمل من جانبه أن دراسة القانون الرومانى أقنعت بقوة الحجج التاريخية والعملية التى تؤيد تفوق السلطة الإمبراطورية على السلطة الدينية ، أم أن المكافآت التى تتيحها له الخدمة الإمبراطورية قد أغرته بهذا الانحياز ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فإن الأباطرة الذين قدروا له عمله أغدقوا المال على المدرسة ، وهرع عدد كبير من الطلاب الألمان إلى بولونيا . وألف إرنريوس مجلداً فى التأويلات أو الشروح على كتاب القوانين لجستينيان وطبق الطريقة العلمية على تنظيم القانون . وبعد كتاب قوانينه الذى جمعه هو أو جمع من محاضراته آية من آيات العرض الجسد والحجج القوية .

وبدأ إرنريوس العصر الذهبى فى التشريع أثناء العصور الوسطى ، وأقبل الرجال على بولونيا من جميع بلاد أوروبا اللاتينية ليتلقوا فيها علم القانون الذى عاد

وقتئذ إلى شبابه ، وطبق جراتيان تلميذ لارنريوس الأساليب الجديدة على التشريع الكنسى ، ونشر (١١٣٩) المجموعة الأولى من القانون الكنسى . وجاء بعد لارنريوس « العلماء الأربعة » — بلجارس Bulgarus ، ومرتينس Martinus ، وياقوبس Jacobus ، وهو جو Hugo — بسلسلة من التأويلات الذائعة الصيت بتطبيق دستور جستنيان على المشاكل التشريعية فى القرن الثانى عشر ، وأفلحوا فى إدخال القانون الرومانى إلى ميدان مطرد الاتساع . وجمع أكرسيوس Acoursius الأكبر (١١٨٥ ؟ — ١٢٦٠) ، أعظم « الشراح » فى بداية القرن الثالث عشر ، أعماله هو وأعمالهم فى شروح عامة أصبحت هى المرجع المعتمد الذى استعان به الملوك والعاة على تحطيم سلطان القانون الإقطاعى ، ومحاربة سلطان البابوات . وبذلت البابوية كل ما تستطيع من الجهد لتعطل حركة بعث القانون الذى يجعل الدين عملا من أعمال الدولة وخادما لها ، ولكن الدراسة الجديدة غدت الزغة العقلية وحركة التحول إلى الناحية الدنيوية اللتين قامتا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكانت هى المعبرة عنهما ، وأوجدت طبقة من المحامين أخذت تتضاعف على مر الأيام وتجد فى تخفيض نصيب الكنيسة فى الحكم وتوسيع سلطان الدولة : ووصل الأمر إلى حد شكها معه القديس برنار من أن محاكم أوروبا تدوى بشرائع جستنيان ، ولم تعد تسمع قوانين الله^(٢) . وكان انتشار فقه القانون الجديد حافزا إلى خلق روح الاحترام للقانون ، والشغف باتباع العقل لا يقل فى قوته عن تراجم الكتب العربية واليونانية ، وكان هذا الشغف هو الذى أوجد الفلسفة المدرسية الكلامية وقوض بعدئذ أركانها .

ولسنا نعلم متى قامت مدرسة للفنون — أى الفنون السبعة الحرة ، فى بولونيا ، كما لا نعلم أيضاً متى أنشئت مدرسة الطب الشهيرة بهذه المدينة . ومبلغ علمنا أن الصلة الوحيدة التى قامت بين المدارس الثلاث كانت تنحصر فى أن يتسلم خريجو كل واحدة منها درجاتها العلمية من وكيل الأسقف فى بولونيا . وقد نظم

الأساتذة أنفسهم في نقابة كنفقات الحرف ، وحوالى عام ١٢١٥ نظم طلبة كل كلية أنفسهم في اتحاد طلاب جنوب الألب أو اتحاد طلاب ما وراء الألب . وضمت هذه « الجامعات » من بداية القرن الثالث عشر طالبات وطلاباً ، وكان في كليات بولونيا في القرن الرابع عشر أستاذات^(٤٣) .

وأنشئت نقابات الطلاب في بداية الأمر لتقوم بواجب الحماية المتبادلة لهم وتمكينهم من حكم أنفسهم بأنفسهم ؛ ثم صار لها في القرن الثالث سلطة عظيمة على هيئة التدريس ؛ فقد كان في مقدور الطلبة أن يحولوا بين أى إنسان وبين الاستمرار في حياة التدريس في بولونيا بالمقاطعة المنظمة لمن لا يرضيهم من المدرسين . هذا إلى أن مرتبات الأساتذة كانت في كثير من الأحيان تؤذيها « جامعات الطلاب » ، وكان الأساتذة يرغبون على أن يقسموا أن بطيعوا « مديري الجامعات » أى رؤساء نقابات الطلاب^(٤٤) . وكان على المدرس الذى يرغب في إجازة للتغيب عن العمل ، وإن لم تزد على يوم واحد ، أن يحصل على إذن بذلك من تلاميذه عن طريق رؤساء نقاباتهم . وكان يحرم عليه تحريماً صريحاً أن « يتدع عطلات بمحض رغبته »^(٤٥) . وكانت اللوائح التى تضعها نقابات الطلاب تحدد الدقيقة التى يبدأ فيها المدرس محاضراته ، والتى ينتهى فيها من هذه المحاضرة ، ونوع العقوبات التى تفرض عليه إذا خالف هذه القواعد . وكانت قوانين النقابات تأمر الطلاب أن يقادروا قاعة الدرس إذا أطال الأستاذ محاضراته عن الوقت المحدد لها . وكانت لوائح النقابات تفرض غرامة على المدرس إذا ترك فصلاً أو مرسوماً في شرحه القوانين ؛ كما كانت تحدد مقدار ما يخصص من المنهج لكل جزء من أجزاء الكتب المقررة . وكان يطلب إلى الأستاذ في بداية كل سنة جامعية أن يودع أمانة قدرها عشرة جنيهات في أحد مصارف بولونيا ، تخصم منها الغرامات التى يفرضها عليه رؤساء نقابات الطلاب ، ويرد إليه مابقى منها في نهاية العام الدراسي بناء على أوامر أولئك الرؤساء . وكان لجان من الطلاب

تعيين لمراقبة ساوك كل مدرس وتبلغ رؤساء النقابات كل ما تراه من شذوذ أو عيب في هذا الساولك^(٤٦) . وإذا ما بدت هذه القواعد لطالب هذه الأيام معقولة إلى درجة غير عادية . وجب عليه أن يذكر أن طلاب الحقوق في جامعة بولونيا كانوا رجالا بين السابعة عشرة والأربعين من عمرهم ، وأنهم كانوا في سن يستطيعون وهم فيها أن يؤدبوا أنفسهم ، وأنهم جاءوا للدرس لا للعب ، وأن الأستاذ لم يكن موظفاً عند أمناء الجامعة ، بل كان محاضراً حراً يوجره الطلبة في واقع الأمر لكي يعلمهم . وكان مرتب المدرس في بولونيا يتكون من الأجور التي يؤديها طلابه ويحددها اتفاق يعقد معهم . ثم غير نظام الأداء حوالي آخر القرن الثالث عشر حين عرضت المدن الإيطالية ، حرصاً منها على أن يكون لها جامعات خاصة بها ، مرتبات تؤديها البلديات إلى بعض أساتذة بولونيا ؛ فإما كان من مدينة بولونيا نفسها وقتئذ (١٢٨٩) إلا أن وعدت بأداء مرتب سنوي لاثنتين من الأساتذة ؛ ولكن اختيار الأساتذة ظل متروكاً للطلاب ، وزاد عدد هذه المرتبات السنوية التي تؤديها البلديات شيئاً فشيئاً ، حتى إذا كان القرن الرابع عشر انتقل اختيار الأساتذة وانتقلت مرتباتهم إلى المدينة نفسها . ولما أصبحت بولونيا جزءاً من الولايات البابوية في عام ١٥٠٦ صار تعيين الأساتذة من اختصاص السلطات الكنسية .

بيد أن جامعة بولونيا انطبع في القرن الثالث عشر بروح علمانية تكاد تكون معادية للكنيسة ، وقلما نجدها في غيرها من المراكز التعليمية الأوربية . وجري غيرها من جامعات إيطاليا على هذا النسق وإن لم يبلغ فيه ما بلغته جامعة بولونيا . فبينما كانت كلية أصول الدين أهم الكليات في هذه الجامعات الأخرى ، لم يكن في بولونيا كلية دينية على الإطلاق قبل عام ١٣٦٤ ، بل حل القانون الكنسي فيها محل علم اللاهوت ، وحتى علم البيان نفسه قد اتخذ صورة القانون ، بل إن فن الكتابة نفسه أضحى — في جامعات بولونيا ، وباريس ، وأورليان ،

ومنهليه ، وتور ، : : فن كتابة الوثائق القانونية ، أو التجارية والمالية ، أو الرهنية ، وكانت درجات جامعية خاصة تمنح في هذا الفن (١٧) . وكان من الأقوال الشائعة أن أقرب ما يمكن الحصول عليه من تعليم إلى الأحوال الواقعية هو الذى يتلقاه الطلاب في بولونيا ؛ وتروى إحدى القصص المتداولة أن أحد علماء التربية الباريسيين نقض في بولونيا ما علمه في باريس ، ثم عاد إلى باريس فنقض فيها ما علمه في بولونيا (١٨) ؛ وتزعمت بولونيا في القرن الثانى عشر الحركة العقلية في أوربا ، فلما كان القرن الثالث عشر تركت تعليمها يجمد حتى أضحي فلسفة للقانون مدرسية كلامية آسنة ، وحتى أضحت الشروح الأكورسية نصاً مقدساً لا يكاد يقبل التغير ، ويعطل تكييف القانون تكييفاً تقديمياً يوائم سير الحياة ؛ ومن أجل هذا انتقلت روح البحث إلى ميادين أوسع حرية من ميدان القانون .

وانتشرت الجامعات في جميع أنحاء إيطاليا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ونشأت بعضها من جامعة بولونيا بهجرة الأساتذة والطلاب من هذه الجامعة ؛ ومن ذلك أن بليوس غادرها في عام ١١٨٢ لينشئ مدرسة في مودينا ؛ وأن يقوبس دى مندرا Jacobus de Mandra خرج منها إلى ريجيو إميليا Reggio Emilia في عام ١١٨٨ وأخذ معه تلاميذه ، ونشأ من هجرة أخرى حدثت في أغلب الظن من بولونيا عام ١٢٠٤ مدرسة عامة أو اتحاد مؤلف من عدة كليات في فيسنزا ؛ وفي عام ١٢١٥ غادر روفريدس Roffredus جامعة بولونيا ليفتح مدرسة للحقوق في أرزو Arezzo ؛ وفي عام ١٢٢٢ وسع عدد كبير من المدرسين والطلاب الذين غادروا بولونيا مدرسة قديمة كانت في بدوا ، فأضيفت كليات للطب والآداب إلى مدرسة الحقوق التى كانت في هذه المدينة ؛ وبعث إليها مدينة البندقية بطلابها ، وأسهمت فيها كانت تؤديه المدينة من مرتبات للأساتذة ؛ وبذلك أصبحت بدوا في القرن الرابع عشر من أنشط مراكز

التفكير الأوربي . وفي عام ١٢٢٤ أسس فردريك الثاني جامعة نابلى لمنع طلاب إيطاليا الجنوبية من الهجرة جماعات إلى الشمال ؛ ولعل هذا السبب عينه مضافاً إلى الدبلوماسية الكنسية هو الذى حمل إنوسنت الرابع على إنشاء جامعة بلاط رومة التى تبعت البلاط البابوى فى هجرته ومنها هجرته إلى أفينيون نفسها . وفى عام ١٣٠٣ أسس بيفاس الثامن جامعة رومة التى بلغت مجدها فى أيام نقولاس الخامس وليو العاشر ، وأحرزت لقب سبىزا Sapienza (العاقلة) فى عهد بولس الثالث . وبدأت سبىزا جامعة بلديتها فى عام ١٢٤٦ ، وبساسزا فى عام ١٢٤٨ ؛ وقبل أن يختم القرن الثالث عشر وجدت مدارس القانون ، والآداب ، والطب أيضاً أحياناً ، فى كل مدينة كبرى بإيطاليا .

وكانت جامعات أسبانيا فذة فى نوعها ، فقد أنشأها الملوك وبسطوا حمايتهم عليها ، فكانت تخدمهم وتخضع لإشراف حكوماتهم . فأنشأت قشتالة جامعة ملكية فى بالنسية (Palencia) (١٢٠٨) ثم أنشأت جامعة أخرى فى بلد الوليد (١٣٠٤) ؛ وأنشأت ليون Leon جامعة فى سلمنقة (١٢٢٧) وأنشأت جزائر البليار جامعة فى بالمبا (١٢٨٠) ، وأنشأت قطلونية جامعة فى لريدا (١٣٠٠) . وكانت الجامعات الأسبانية تقبل لإشراف الكنيسة عليها والمعونة المالية منها رغم صلتها بالملوك ؛ ومنها ما نشأ من مدارس الكتدرائيات كجامعة بالنسية . وخص سان فرنندو وألفنسوا الحكيم جامعة سلمنقة بأموال كثيرة فى القرن الثالث عشر ، وسرعان ما ساءت هذه الجامعة فى شهرتها ومركزها العلمى جامعى بولونيا وباريس . وكانت معظم هذه الجامعات تعلم اللغة اللاتينية ، والعلوم الرياضية ، والفلك ، وعلوم الدين ، والقانون ؛ ومنها ما كان يعلم الطب ، واللغة العبرية ، أو اليونانية ، وافتتح راهب دمنيكى فى عام ١٢٥٠ مدرسة للدراسات

الشرقية في طليطلة لتدريس اللغتين العربية والعبرية . وما من شك في أن هذه المدرسة قد أفادت خبيراً كثيراً لأن أحد خريجيها ريمند مارتين Raymond Martin (حوالى عام ١٢٦٠) أظهر علماً واسعاً بجميع كبار الفلاسفة ورجال الدين المسلمين . وكذلك كان للدراسات العلمية مكان بارز في جامعة أشبيلية التي أنشأها ألفونسو الحكيم في عام ١٢٥٤ . وأنشأ الملك الشاعر دينيز Diniz في لشبونة جامعة للبرتغال عام ١٢٩٠ .

الفصل السادس

جامعات فرنسا

كانت فرنسا بلاريب الزعيمة العقلية لأوروبا في العصور الوسطى خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؛ فقد أصبحت المدارس كندرائياتها منذ بداية القرن الحادى عشر شهرة دولية عظيمة ؛ وإذا كانت هذه المدارس قد نمت وازدهرت حتى أصبحت جامعة عظيمة في باريس لا في شارتر ، أو لاون ، أو ريمس ، فأكبر الظن أن سبب هذا هو أن تجارة السين والأعمال المالية التي توجد عادة في العاصمة قد جاءت إلى تلك المدينة بالثراء الذى يغرى العقول وأنها كانت تقدم المال الذى يحتاجه العلم والفلسفة والفن .

وأول من عرف من المعلمين في مدرسة كندرائية نتردام هو ولیم الشامپووى William of Champeaux (١٠٧٠ - ١١٢١) ، وكانت محاضراته التي تلقى في أبياء نتردام مثار الحركة العقلية التي نشأت منها جامعة باريس ؛ ولما خرج أبلار من بريطاني (حوالى عام ١١٠٣) ووجه إلى ولیم قياساً منطقياً أفعمه وقضى على سمعته ، وبدأ أشهر المحاضرات في التاريخ الفرنسى ، هرع الطلاب من كل صوب ليستمعوا إليه ، فازداد عدد طلاب باريس وتضاعف عدد المدرسين . وكان الأستاذ (magister) في عالم التربية بباريس في القرن الثاني عشر رجلاً أجاز له رئيس كندرائية نتردام أن يدرس . وكانت جامعة باريس في ذلك الوقت قد خطت خطوات سريعة لا نستطيع تتبعها ، فارتقت من مدرسة كنيسة المدينة ونالت وحدتها الأولى من هذا المصدر الوحيد . مصدر الإجازة التعليمية . وكانت هذه الإجازة تعطى عادة بالحنان لكل من قضى وقتاً كافياً تلميذاً لأستاذ مرخص بشرط أن يوافق هذا

الأستاذ على طلبه ؛ وكان من التهم التي وجهت إلى أبلار أنه اشتغل بمهنة التدريس دون أن يقضى فترة التلمذة المعتمدة من أستاذ .

وكان إدراك فن التدريس على هذا النحو ، أى الأستاذ المعلم والصبي المتعلم ، من الأصول التي قامت عليها الجامعة . ولما أن تضاعف عدد الأساتذة أنشأوا لهم بطبيعة الحال نقابة طائفية . وظل لفظ (جامعة Universitas) يطبق منذ قرون على كل هيئة من عدة أفراد بما في ذلك النقابات الطائفية . وفي عام ١٢١٤ وصف ماثيو باريس « زمالة الصفوة المختارة من المدرسين » في باريس بأنها منظمة قائمة من زمن بعيد . ولنا أن نفترض ، وإن كنا لا نستطيع أن نبرهن ، أن « الجامعة » اتخذت حوالى عام ١١٧٠ صورة نقابة طائفية للمدرسين لا اتحاداً لعدة كليات ، فلما كان عام ١٢١٠ أصدر البابا إنوسنت الثالث - وكان هو نفسه من خريجي جامعة باريس - مرسوما اعترف فيه بقوانين نقابة المدرسين المدونة واعتمدها ، ثم أصدر هذا البابا نفسه مرسوماً آخر خول فيه النقابة أن تختار مندوباً عنها يمثلها في المحكمة البابوية .

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر انقسم مدرسو(*) بجامعة باريس إلى أربع « سلطات » أو كليات كما نسميها الآن (faculties)(**) : اللاهوت ، والقانون الكنسى ، والطلب ، و « الفنون » . ولم يكن للقانون المدني بعد عام ١٢١٩ مكان في جامعة باريس بعكس ما كانت عليه الحال في جامعة بولونيا . وكان المنهج يبدأ بالفنون السبعة ، ثم يرقى إلى الفلسفة وينتهى بعلوم الدين . وكان طلبة الفنون Arts (وكنأوا يسمون Artistae أى فنانين) هم المقابلين عندنا « للطلاب » الذين لا يزالون في الجامعة ، وإذ كانوا هم يؤلفون الجزء

(*) لا يفرق المؤلف في هذا الفصل وفي الفصول السابقة بين مدرس وأستاذ .

(الترجم)

(**) الكلمة ذات صلة بكلمة facile الفرنسية ومعناها تيسير أو تحويل أو سلطة للعمل .

(الترجم)

الأكبر من المتعلمين في باريس فقد انقسموا - لتبادل المعونة ولأغراض
الألفة والاختلاط - إلى أربع أمم Nations حسب مسقط رأسهم natio
أو أصلهم : « فرنسا » (أى المملكة الضيقة الخاضعة خضوعاً مباشراً
للملك الفرنسى) وپيكاردى Picardy ، ونورماندية ، وإنجلترا ، وضم
طلاب جنوبي فرنسا وإيطاليا وأسبانيا إلى الطلبة الفرنساويين المولد ، وضم
طلبة الأراضى الوطينة إلى « پيكاردى » وطلبة أوربا الوسطى الشرقية إلى
« إنجلترا » ، وكان الطلاب الذين جاءوا من ألمانيا من الكثرة بحيث تأخرت
تلك البلاد عن إنشاء جامعات بها حتى عام ١٣٤٧ . وكان يحكم كل جماعة
« وكيل procurator » أو مدير ، وكل كلية عميد : وكان لطلاب كلية
الفنون - ومدرستها في أغلب الأحيان - مدير يرأسهم ، ثم اتسعت دائرة
أعماله تدريجاً حتى أصبح قبل عام ١٢٥٥ مدير الجامعة كلها .

ولسنا نسمع عن وجود أبنية خاصة بالجامعات ، ويلوح أن المحاضرات
كانت تلقى أثناء القرن الثانى عشر فى أروقة نردام ، وسان چنتيف ،
وسان فكتور ، وغيرها من الأبنية الدينية ، ولكننا نجد فى القرن الثالث
عشر مدرسين يستأجرون حجرات خاصة لفصولهم . وكان المدرسون -
الذين أصبحوا يسمون أيضاً أساتذة professeurs ومعنى هذا اللفظ اللاتينى
« المعلمون » - رجال دين مترهبين يفقدون مناصبهم إذا تزوجوا .
وكانت طريق التعليم هى المحاضرات ، وأكبر السبب فى هذا أنه لم يكن
فى مقدور كل تلميذ أن يبتاع الكتب التى تحتاج إليها دراستها ، أو يحصل
على نسخ منها من دور الكتب . وكان الطلاب يجلسون على الطوار أو على
الأرض ويلبثون كثيراً من المذكرات . وكان العبء الملقى على
ذاكرتهم شديداً اضطهرهم إلى ابتكار عدة أساليب لمساعدة الذاكرة تتخذ
فى العادة شكل أبيات شعرية مثقلة بالمعنى بغضبة الصورة : وكانت لوائح
الجامعة تحرم على المدرس أن يقرأ محاضراته للطلاب ، بل كان يطلب

إليه أن يتكلم ارتجالاً ، بل كان يحرم عليه أيضاً أن يقطع الكلام . وكان الطلاب يتبرعون بتحذير المستجدين من أن يؤدوا أجر أى منهج قبل أن يستمعوا إلى ثلاث محاضرات فيه . وقد شكوا ولیم الكنشيسى فى القرن الثانى عشر من أن المدرسين يلقون على الطلاب مناهج سهلة لكى يكسبوا بذلك الشهرة ، والطلبة ، والأجور ، وأن طريقة الاختيار التى تعطى للطلاب مجالاً واسعاً لاختيار الموضوعات والمدرسين أخذت تنزل بمستوى التعليم (٥٠) .

وكان التعليم ينتعش ويكتسب بعض الحيوية من حين إلى حين بمناقشات عامة تجرى بين المدرسين ، والطلبة المتقدمين ، والزائرين الممتازين ، وكان النقاش يجرى فى العادة على شكل مقرر محدد يسمى **القاسم المدرسى** : فيوضع السؤال ، ويجاب عنه جواباً سلبياً ، ويؤيد هذا الجواب بعبارة مقتبسة من الكتب المقدسة أو كتب آباء الكنيسة ، وبلاستنباط الذى يتخذ شكل الاعتراضات ، ويتلو ذلك جواب إيجابى يؤيد بمقتبسات من الكتاب المقدس ، ومن كتب آباء الكنيسة ، وبأجوبة منطقية على الاعتراضات . والنقاش المدرسى هو الذى حدد الصورة النهائية للفلسفة المدرسية فى عهد توماس أكوئاس . وكانت تُعقد بالإضافة إلى هذه المناقشات المدرسية الرسمية مناقشات غير رسمية يسمونها « **أى سى و نخب quodiberta** » - يستطيع المناقش بموجها أن يتقدم بأى سؤال يناقش فى التو والساعة . وقد أوجدت هذه المناقشات غير المقيدة هى الأخرى صورة من الصور الأدبية نشاهد مثلاً منها فى كتابات القديس توماس الصغرى ، وشهدت المناقشات الرسمية منها وغير الرسمية العقول فى العصور الوسطى ، وأفسحت المجال لحرية التفكير والقول ؛ غير أنها اتجهت عند بعض الناس إلى خلق نوع من المهارة يستطيعون به أن يثبتوا أى شىء يريدون إثباته ، أو الشعوذة اللفظية التى تكسب جبالاً من الجدل حول أنه النقطة .

وكان معظم الطلاب يعيشون في مضاييف Hospicia تؤجرها جماعات منظمة من الطلاب . وكانت بعض المضاييف تأوى فقراء الطلاب نظير أجر اسمي ؛ ومثال ذلك أن بيت الله Hôtel Dieu الملاصق لكنندراية نتردام خصص حجرة « للطلبة الفقراء » . ثم اشترى جوسبيوس اللند Jucius of London هذا المسكن في عام ١١٨٠ واشترك من ذلك الوقت مع المستشفى في تقديم المسكن والمأكل لثمانية عشر طالباً يقيمون فيه ، ولم يحل عام ١٢٣١ حتى كانت هذه الطائفة من الطلاب قد انتقلت إلى مسكن أوسع من مسكنها القديم ، ولكنها مع ذلك ظلت تسمى نفسها **جماعة الثمانية عشر** . ثم أنشأت طوائف الرهبان ، أو الكنائس ، أو أنشأ المحسنون الخيرون ، مضاييف أو مساكن أخرى للطلاب ، وحنست عليها الحبوس ، أو خصت بأقساط سنوية خفضت بعض نفقات العيش على الطلاب . وفي عام ١٢٥٧ وهب ربرت ده سربون Robert de Sorbon قس القديس لويس « بيت السربون » المال اللازم لإيواء ستة عشر طالباً من طلبة علوم الدين ، وأضيفت إلى ذلك هبات لغير هؤلاء من لويس وغيره من المحسنين حتى ارتفع عدد من تشملهم إلى ستة وثلاثين ؛ ومن هذا البيت نشأت كلية السربون(*) وأنشئت كليات — Collegia — بمعناها القديم وهو الجماعات — بعد عام ١٣٠٠ ، وجاء المدرسون إليها ليسكنوا فيها ، وعملوا مدرسين خصوصيين للطلاب ، يستمعون إلى محفوظاتهم ، و « يقرأون » معهم النصوص ؛ وأخذ المدرسون القرن الخامس عشر يدرسون بعض المناهج في أهباء المساكن ، وازداد عدد المناهج التي تدرس بهذه الطريقة ، ونقص عدد ما يدرس منها في خارجها ، حتى أصبحت « الكلية » مكاناً للتعليم ومسكناً للطلاب في وقت واحد .

(*) وأصبحت السربون في القرن السادس عشر الكلية الدينية في الجامعة ، ثم أغلقتها الثورة في عام ١٧٩٢ ، وأعادها ببدل فابليون ، وهي الآن مركز لتدريس مناهج عامة في العلوم والآداب في جامعة باريس .

وحدث مثل هذا التطور في الكلية من بيت الطلبة في أكسفورد ، ومنهليه ، وطولوز . وهكذا بدأت الجامعة من جمعية للمدرسين حتى أصبحت جمعية من المعاهد أو الكليات .

وكان من بين مساكن الطلاب في باريس مسكنان مخصصان للطلاب المبتدئين الجدد في طائفتي الرهبان الدمنيك أو الفرنسيس ، وكان الرهبان الدمنيك من بداية أمرهم يهتمون بالتعليم ويتخذونه وسيلة لمقاومة الإلحاد . وقد أنشأوا لهم مدارس على نظام خاص بهم أشهرها كلها المدرسة العامة Studium generale في كولوني ، وكانت لهم معاهد أخرى من نوعها في بولونيا ، وأكسفورد . وأصبح كثيرون من الإخوان أساتذة في هذه المدارس ، يعلمون في الأروقة الخاصة بطائفتهم . وفي عام ١٢٣٢ . انضم ألكسندر الهاليسي Alexander of Hales وهو من أقدر المدرسين في باريس إلى طائفة الرهبان الفرنسيس ، وواصل تدريس مناهجه للجمهور في دير الكردليير Cordeliers ، وأخذ عدد الإخوان الذين يدرسون في باريس يزداد عاما بعد عام ، كما أخذ عدد من يستمعون إليهم من غير الرهبان يتضاعف ، حتى شكوا المدرسون من غير رجال الدين أنهم قد تركوا جالسين أمام مكاتبهم « كالطيور المنفردة في أعلى البيوت » ، وأجاب الرهبان عن ذلك بأن المدرسين غير الرهبان يسرفون في الطعام والشراب ، فأضجوا لذلك كسالى بلداء^(٥١) . وحدث في عام ١٢٥٣ أن قتل طالب في شجار بأحد الشوارع ، فاعتقل ولاية الأمور في المدينة عدداً من الطلاب ، وأعرضوا عن احتجاجهم وطلبهم أن يحاكموا أمام أساتذة الجامعة أو الأسقف ، وأمر المدرسون بوقف المحاضرات احتجاجاً على هذا التصرف ؛ ولكن اثنين من رهبان الدمنيك ، وواحد من الرهبان الفرنسيس ، وهم من جمعية المدرسين ، لم يطيعوا أمر الامتناع عن إلقاء المحاضرات ، فقررت الجمعية وقف عضويتهم فيها ؛ غير أنهم لجأوا إلى الإسكندر الرابع فأمر أساتذة الجامعة (١٢٥٥) بإعادتهم إلى

عضوية الجمعية . وأراد المدرسون أن يتجنبوا إطاعة الأمر ففرقوا ، وحرّمهم البابا من الدين واعتدى الطلاب والغوغاء على الرهبان في الشوارع ؛ ودام الجدل ست سنين تراضى الطرفان بعدها : فقبل الأساتذة بعد أن نظموا من جديد ، المدرسين الرهبان ، وأقسم هؤلاء أن يطيعوا من ذلك الوقت قوانين « الجامعة » . ولكن كلية الفنون حرمت جميع الرهبان حرماناً دائماً من عضويتها . وناصبت جامعة باريس البابوية العداء بعد أن كانت محل عطفهم ، وناصرت الملوك في نزاعهم مع البابوات ، وأضحت في مستقبل الأيام مركز حركة « غالية » تسعى لفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة .

ولم يكن لأى معهد علمى منذ أيام أرسطو من النفوذ ما كان لجامعة باريس ، فقد ظلت ثلاثة قرون لا تجتذب إليها أكبر عدد من الطلاب فحسب ، بل تجتذب فوق ذلك أعظم مجموعة من الرجال ذوى العقلية الممتازة . فأبلار ، وحنّا السلزبرى ، وألبرتس مجنّس ، وسيجر البرابنتى ، وتومس أكوناس ، وبورفتونا Boroventura ، وروجر بيكن ، ودنراسكوتس ، ووليم الأكامى William is Occam — هؤلاء يكادون يكونون هم تاريخ الفلسفة من ١١٠٠ إلى ١٤٠٠ . وما من شك في أنه كان في باريس مدرسون أفذاذ هم الذين أخرجوا أولئك الرجال العظام ، ونشروا من المتعة العقلية ما لا يوجد إلا في ذرى التاريخ البشرى . يضاف إلى هذا أن جامعة باريس كانت خلال هذه القرون ذات سلطان قوى في الدين والدولة ، فقد كانت لساناً قوياً يعبر عن رأى العام ، وكانت في القرن الرابع عشر من أعظم مراكز التفكير الحر ، وفي القرن الخامس عشر حصناً منيعاً للدين القويم والحفاظة على القديم . ولا يمكن القول بأنها « لم تضطلع بدور حقير » في الحكم على جان دارك .

وكان لغيرها من الجامعات نصيب في رفع فرنسا إلى منزلة الزعامة الثقافية في أوروبا . فقد كان في أورليان مدرسة للقانون منذ القرن التاسع لا بعد ، وكانت

فى القرن الثانى عشر مركزاً للدراسات القديمة والأدبية الحديثة تنافس شارتر ، ولم يكن يفوقها فى القرن الثالث عشر إلا بولونيا فى تدريس القانون المدنى والكنسى . ولا تكاد تقل عنها فى شهرتها مدرسة القانون فى أنجر Angers وهى المدرسة التى أضححت فى عام ١٢٣٢ من أكبر جامعات فرنسا . وكانت طولوز « طولوشة » مدينة بجامعة إلى إلحادها فى الدين : ذلك أن جريجورى التاسع أرغم الكونت ريمند فى عام ١٢٢٩ على أن يتعهد بأداء مرتبات أربعة عشر أستاذاً — فى علوم الدين ، والقانون الكنسى ، والفنون — يرسلون من باريس إلى طولوز لمقاومة حركة الإلحاد الألبجنسية بفضل ما لهم من النفوذ على الشبان الأكثانيين .

وكانت أشهر الجامعات الفرنسية القائمة فى خارج باريس هى جامعة منبلييه . لقد كانت هذه المدينة ، بفضل وقوعها على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف المسافة بين مرسيليا وأسبانيا ، تستمتع بمزيج وثاب من الدم الفرنسى ، واليونانى ، والأسبانى ، ومن ثقافة هذه الأجناس ؛ وكان من أهلها عدد من التجار الإيطاليين وبقية من الجالية الإسلامية المغربية التى كانت فى وقت ما تحكم المدينة وكانت تجارتها رائجة ناشطة . وأنشأت منبلييه فى وقت غير معروف مدرسة للطب ما لبثت أن فاقت مدرسة سلرنو ، ولسنانعلم علم اليقين أكان لإنشاؤها أثراً من آثار طب سلرنو ، أم طب العرب ، أم اليهود . وأضيفت إلى هذه المدرسة مدارس للقانون وعلوم الدين ، و « الفنون » ، واكتسبت منبلييه بفضل تقارب هذه الكليات وتعاونها شهرة علمية واسعة ، وإن كانت كل واحدة منها كلية مستقلة . واضمحل شأن الجامعة فى القرن الرابع عشر ، ولكن مدرسة الطب انتعشت فى عصر النهضة ، وقام فيها عام ١٥٣٧ أستاذ يدعى فرانسوا ربله يلقى سلسلة من المحاضرات عن أبقراط باللغة اليونانية .

الفصل السابع

جامعات إنجلترا

نشأت أكسفورد ، كما نشأت بسپورس المماثلة لها في اسمها ، لتكون معبراً للمشاية ؛ ذلك بأن نهر التاميز يضيق عند هذه النقطة ويقل غوره . وبني حصن عندها في عام ٩١٢ ، ونشأت سوق ، وعقد الملكان كنوت . Cnut وهرلد Harold جمعيات هناك قبل أن تنشأ الجامعة بزمان طويل . ويبدو أن مدارس نشأت في أكسفورد في أيام كنوت ، ولكننا لا نسمع بوجود مدرسة كتدرائية بها . ونسمع حوالي عام ١١٧ عن وجود « أستاذ في أكسفورد » ، Oxenford . وفي عام ١١٣٣ جاء من باريس ربرت پلن Robert Pullen ، وهو رجل من رجال الدين ، وأخذ يحاضر في اللاهوت في أكسفورد^(٥٢) . وخطت المدرسة خطوات لا يعرف التاريخ عنها شيئاً الآن ، أصبحت بعدها مدرسة أكسفورد في القرن الثاني عشر مدرسة عامة أي جامعة - « ولا يعرف أحد متى تم ذلك »^(٥٣) وفي عام ١٢٠٩ ، كما يقدر ذلك أحد كتاب ذلك العصر ، كان في أكسفورد ثلاثة آلاف طالب ومدرس^(٥٤) . وكان فيها كما كان في جامعة باريس أربع كليات : كلية الفنون ، وكلية اللاهوت ، وكلية الطب ، وكلية قانون الكنيسة . أما تدريس القانون المدني فقد أغفلته الجامعات في إنجلترا واستقر في دور المحاكم في لندن - وكانت دار لنكونان ، وجرای ، والمعبد الداخلي Inner Temple ، والمعبد الأوسط Middle Temple في القرن الرابع عشر وليدة البيوت أو الحجرات التي كان القضاة وأساتذة القانون القرن الثاني عشر يستقبلون فيها الطلاب ليُدربوهم .

وبدأت الكليات في أكسفورد كما بدأت في باريس وكمبريدج أروقة
محبوسة عليها الأموال لفقراء الطلاب ، وأصبحت في زمن مبكر ، بالإضافة
إلى غرضها الأول قاعات للمحاضرات ؛ فكان المدرسون يسكنون فيها
مع الطلاب ، ولم ينتقض القرن الثالث عشر حتى كانت القاعات هي الأقسام
المادية والتعليمية التي تكونت منها الجامعة . وحوالى عام ١٢٦٠ أنشأ
سير جون ده باليول Sir John de Balliol الاسكتلندى (والد الملك الذى
حكم اسكتلندة في عام ١٢٩٢) « بيت باليون » في أكسفورد ؛ ليكفر به
عن جرم غير معروف ، ليأوى بعض الطلاب الفقراء الذين سما socii أى
الزملاء ، وخص كلا منهم بثمانية بنسات (أى ما يعادل ٨ دولارات
أمريكية) في الأسبوع . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أنشأ ولترده
مرتون Walter de Merton « بيت طلاب مرتون » في مولدن Malden
أولاً ثم في أكسفورد بعد قليل ، وحبس عليه بعض المال ، ليعني
بطلاب بقدر ما تمكنه من ذلك موارده . وتضاعفت هذه الإيرادات
أكثر من مرة على أثر ارتفاع قيمة الأرض ، وبلغ هذا الارتفاع حداً شكاً
معه كبير الأساقفة بكهام Peckham في عام ١٢٨٤ من أن « الطلبة
الفقراء » يتلقون منحاً إضافية « للمعيشة المترفة » (٥٥) . ويمكن القول
بوجه عام إن الكليات الإنجليزية لم تفتن بفضل المنح الدراسية وغيرها
من الهبات فحسب ، بل اغتنت فوق ذلك بفضل ارتفاع قيمة الضباع
التي حبست عليها . وفي عام ١٢٨٠ أنشئت قاعة الجامعة — وهى الآن
كلية الجامعة University College بهية من وليم الدرهمى كبير أساقفة
رون Rouen . ويتبين الإنسان كيف بدأت هذه الكليات الشهيرة
بداية متواضعة إذا اطلع على شروط تأسيسها ، فقد كانت تنص على
وجود أربعة أساتذة وعدد من الطلاب الذين يهمهم أن يسكنوا معهم .
وكان الأساتذة يختارون واحداً من بينهم ليكون « الزميل الأكبر »

أو « الرئيس principal » وهو الاسم الذى يعرف به عمداء الكليات الإنجليزية فى هذه الأيام . وكانت جامعة أكسفورد فى القرن الثالث عشر هى هذه الكليات مجتمعة فى نقابة الأساتذة « University » ؛ وكان هؤلاء يحكمهم وكلاء عنهم ثم مدير يختارونه ويخضع إلى أسقف لنكولن وإلى الملك .

ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت أكسفورد مركزاً للنشاط الذهبى والنموذ. العام لا تفوقها فى ذلك إلا باريس . وكان أشهر خريجيها كلهم هو روجر بيكن . والتف حوله عدد آخر من الرهبان الفرنسيين من بينهم آدم مارش Adam Marsh ، وتومس اليوركى Thomas of York ، وجون بكهام John Peckham ، فتألفت منه ومنهم جماعة ممتازة من رجال العلم . وكان زعيمهم وملهمهم روبرت جروسستسى Robert Grosseteste (١١٧٥ ؟ - ١٢٥٣) أظرف شخصية فى حياة أكسفورد فى القرن الثالث عشر : فقد درس فيها القانون والطب ، والعلوم الطبيعية ، وتخرج فى عام ١١٧٩ . ونال درجته فى علوم الدين فى ١١٨٩ ، وسرعان ما اختير بعدئذ « أستاذ مدارس أكسفورد » — وتلك أقدام صووة من لقب مدير الجامعة .

وأصبح فى عام ١٢٣٥ ، وهو لا يزال مديراً لجامعة أكسفورد ، أسقف لنكولن ، وأشرف وهو فى منصبه هذا على إتمام الكتدرائية العظيمة . وأبدى نشاطاً عظيماً فى دراسة اللغة اليونانية وأرسطو ، وأسهم فى الجهود العقلية الجبارة التى بذلت فى القرن الثالث عشر للتوفيق بين فلسفة أرسطو والدين المسيحى ، وكتب شروحاً لكتاب الطبيعة لأرسطو ، والتعليقات ، ولخص علوم زمانه فى موسوعة علمية ، وعمل على إصلاح التقويم . وكان يفهم المبادئ التى يقوم عليها الجهر والمرقب ، وفتح أبواباً كثيرة لروجريبيكن فى الرياضيات والعلوم الطبيعية ؛ « أكرر الظن أنه هو الذى عرف بيكن بالخصائص المكبرة

للعدسات^(٥٦) . ويبدو أن كثيراً من الآراء التي نعرّوها إلى بيكن - في فن المنظور ، وقوس قزح ، والمد والجزر ، والتقويم ، والاعتماد على التجارب العلمية - قد أشار بها عليه جروستسقى ، ونخص منها بالذكر الفكرة القائلة إن العلوم كلها يجب أن تعتمد على الرياضيات ، لأن القوى كلها أثناء انتقالها في الفضاء تتبع أشكالاً وقواعد هندسية^(٥٧) . وكتب شعراً فرنسياً ورسالة في الزراعة ، وكان رجل قانون وطبيباً ، كما كان عالماً في الدين وفي العلوم الطبيعية . وقد شجع دراسة اللغة العبرية ، وكان يهدف بذلك إلى هداية اليهود إلى الدين المسيحى ، وكان في هذه الأثناء يعاملهم معاملة المسيحى الكثير التسامح ، ويحبههم قدر ما يستطيع من حقد الجاهير واعتدائهم . وكان فوق هذا كله مصلحاً اجتماعياً نشيطاً ، يدين على الدوام بالولاء للكنيسة ، ولكنه جرؤ على أن يعرض على البابا إنوسنت الرابع (١٢٥٠) مذكره مكتوبة يعزو فيها عيوب الكنيسة إلى محكمة الكرسي البابوى^(٥٨) . وأنشأ في أكسفورد أول « صندوق » يقرض الطلاب المال بغير فائدة^(٥٩) ، وقصارى القول أنه هو أول واحد من ألف من ذوى العقول النهائية الذين أوجدوا بأعمالهم الجلييلة هيئة أكسفورد العالية ومكانتها العظيمة في عالم العلم والعقل .

وأكسفورد الآن جامعة ومركز صناعى معاً ، تصنع السيارات كما تصنع العظاء ، أما كيمبردج فلا تزال مدينة كليات جامعية ، وجوهرة من جواهر العصور الوسطى تزينها الثروة الحديثة وحسن الذوق الإنجليزى ، كل ما فيها ينتمى إلى كلياتها ، ولا يزال الهدوء العقلى الذى هو من خصائص العصور الوسطى باقياً في هذه البلدة ، أجمل البلدان الجامعية على الإطلاق . ويبدو أن عظمتها الذهنية يجب أن ترجع إلى حادث اغتيال وقع في أكسفورد فقد قتل أحد الطلاب في عام ١٢٠٩ امرأة في تلك البلدة الأخيرة ، فاعتدى أهلها على مسكن الطلاب وشتقوا طالبين أو ثلاثة منهم . وأضربت نقابة المدرسين عن

العمل احتجاجاً على ما اقترفه أهل المدينة ؛ وغادر أكسفورد ٣٠٠٠ طالب ومعهم ، بطبيعة الحال ، كثيرون من المدرسين — إذا صدقنا ماثيو باريس وهو رجل لا يوثق بأقواله عادة . ويقال إن عدداً كبيراً منهم ذهبوا إلى كيمبردج وأقاموا فيها قاعات وكليات . ذلك أول ما ذكر عن وجود شيء أعلى درجة من مدرسة أولية . وحدثت هجرة ثانية — من الطلاب الباريسيين في ١٢٢٨ — زاد بها عدد الطلاب زيادة كبيرة . وفي عام ١٢٨١ نظم أسقف إلى Ely أولى الكليات غير الدينية في كيمبردج وهي كلية القديس بطرس التي تسمى الآن بيتر هوس « بيت بطرس » . وشهدت القرون الثلاثة الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر إنشاء كليات أخرى وازدهارها ، منها ما هو آية من آيات العجالة في العصور الوسطى . ويحتضنها كلها نهر كام Cam الهادئ المتشئ ، وتكون هي وملحقاتها طائفة من أروع ما قام به الإنسان من الأعمال .

الفصل الثامن

حياة الطلاب

لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ؛ فقد يكون فى أى سن ؛ وقد يكون قساً أو راهباً ممتازاً ، أو رئيس دير ، أو تاجراً ، وقد يكون متزوجاً أو غلاماً فى الثالثة عشرة من عمره ؛ يثقله عبء الكرامة المفاجئة التى ألقيت عليه فى هذه السن . وكان هذا الطالب يذهب إلى بولونيا ؛ أو أورليان ؛ أو منبلييه ليصبح محامياً ، أو طبيباً ، أو يذهب إلى غير هذه الجامعات فى بعض الأحوال لكى يؤهل نفسه لخدمة الحكومة ؛ أو يجد لنفسه فى العادة مجالا فى الكنيسة . ولم يكن يؤدى امتحاناً للدخول فى الجامعة ، بل كل ما كان يطلب إليه أن يعرف اللغة اللاتينية ، وأن يكون قادراً على أداء أجر زهيد لكل مهندس يدرس منهجه عليه . فإذا كان فقيراً ، فإنه قد يستعين على ذلك بمنحة دراسية أو بمعونة تسديها إليه قريته أو كنيسته ، أو يسديها إليه أصدقاؤه أو أسقفه . وكانت هناك آلاف من هذه الحالات^(٦٠) . فسامسون Samson رئيس الدير وبطل أفيار موسلين Jocelyn's Chronicle والماضى والحاضر لكارليل Carlyle's Past and Present مدين بتعليمه إلى قس فقير كان يبيع الماء المقدس ليؤدى لسامسون أجر تعليمه^(٦١) . وكان الطالب الذهاب إلى جامعة أو العائد منها ينتقل عادة بالبحان ، ويجد الطعام والمأوى فى الأديرة التى فى طريقه^(٦٢)

فإذا قدم إلى أكسفورد ، أو باريس أو بولونيا ألقى نفسه عضواً فى جماعة كبيرة من الطلاب السعداء ؛ الحيارى ، المقبلين على العلم يحرفهم تيار دافق من الحفاصة يجعل الفلسفة - المشوبة بنزعة إلى الإلحاد - مثيرة كالحرب ؛ كما

يجعل الجدل ممثلاً فناناً كأنه ألعاب البرجاس . وإذا كان يعيش في عام ١٣٠٠ فإنه يجد في باريس ٧٠٠٠ طالب ، وفي بولونيا ٦٠٠٠ ، وفي أكسفورد ٣٠٠٠ (*) . وكان عدد طلاب جامعات باريس ، وأكسفورد وبولونيا في القرن الثالث عشر يزيد عادة على عددهم بعده ، وأكبر الظن أن سبب هذه الزيادة قلة الجامعات المنافسة لها ، وكان الطالب الحديث تستقبله « أسرته » وقد ترشده إلى مسكن يعيش فيه — ربما كان مع أسرة فقيرة . وإذا كان لها صلات قوية بالمسؤولين فقد يعطى سريراً ويترك مع غيره من الطلاب في حجرة في « بيت الطلبة » ، فتقل بذلك نفقاته . وكان الطالب في أكسفورد عام ١٣٧٤ يؤدي مائة شلن وأربعة شلنات (ألف دولار وأربعين دولاراً) في العام نظير مسكنه وطعامه وعشرين شلناً (أن مائتي دولار) أجراً لتعليمه وأربعين شلناً ثمناً للملابس (٦٥) .

ولم يكن تفرض عليه ملابس جامعية خاصة ، على أنه كان يطلب إليه أن يشد ثوبه الخارجي بالأزرار ولا يمشى حافي القدمين إلا إذا كان جلبابه يصل إلى عقبيه (٦٦) . وكان الأساتذة يميزون بلبس القبة Cappa وهي « حرملة » حمراء أو أرجوانية ذات حاشية من جلد السنجاب ومُتَشَتِّعة ، وكانوا في بعض الأحيان يغطون رؤوسهم بقلنسوة مربعة في أعلاها خصلة بدل « الشراية » . وكان الطالب في جامعة باريس في منزلة رجل الدين ويتمتع بمصاناته . فكان .

(*) هذه هي تقديرات راشدول Rashdall المتحفظة (٦٣) . أما أودوفردوس Odofredus العالم القانوني الذي كان يكتب في عام ١٢٥٠ فقد قدر عدد طلاب بولونيا في عام ١٢٠٠ بعشرة آلاف طالب ، وقدر رابانوس جوما Rabanus Gaume وهو راهب لفسورني عدد طلاب جامعة باريس في عام ١٢٨٧ بثلاثين ألفاً ، وقال فترز رالف Fitzralph كبير أساقفة أرماغ Armagh حوال عام ١٣٦٠ إنه كان في جامعة أكسفورد في وقت ما ثلاثون ألف طالب ؛ وقدرهم ويكلف Wyclif في عام ١٣٨٠ بضعفي هذا العدد ؛ وعاد الأسقف غاسكوين Gascoigne الذي كان رئيس شرف في جامعة أكسفورد فقدرهم بثلاثين ألفاً (٦٤) ، ولا يخفى أن هذه التقديرات كلها إنما تعتمد على الحدس والتخمين ، وأنها مبالغ فيها بلا ريب ولكننا لا نستطيع البرهنة على كذبها .

يعنى من الخدمة العسكرية ، ومن الضرائب التى تفرضها الدولة على غيره ، ومن المحاكمة أمام المحاكم غير الدينية . وكان ينتظر منه أن يدخل فى سلك رجال الدين ؛ على أنه لم يكن يرغب على ذلك فى كل الأحوال . وكان فى وسعه إذا تزوج أن يظل طالباً ، ولكنه فى هذه الحال يفقد امتيازات رجال الدين ، ولا يستطيع الحصول على درجة علمية . أما الاختلاط الجنسى المتزن فلم يكن يجازى عليه بمثل هذه العقوبات . وقد وصف الراهب جاك ده فترى Jaque de Vitry طلبة جامعة باريس فى عام ١٢٣٠ بأنهم : « فاسقون أكثر من سائر أبناء الشعب ؛ فهم لا يرون الفسق إثماً ؛ وكانت العاهرات يسحبن الطلاب إلى المواخير سحياً يكاد يكون قوة واقتداراً ، ويفعلن ذلك علناً فى شوارع المدينة ، فإذا امتنع الطلاب عن الدخول اتهمتهم باللواط . . . وكانت هذه الرذيلة البشعة (اللواط) تملأ المدينة إلى حد كان يعد معه من علامات النبى أن يكون للشخص غلام أو أكثر . وكان يوجد فى المنزل الواحد حجرات للدرس فى الطابق العلوى وماخور فى أسفل منه ؛ فكان الأساتذة يحاضرون فى الطبقة العليا ، والعاهرات يمارسن حرفتهن الدينية فى الطبقة السفلى ؛ وكانت مناقشات الفلاسفة تسمع فى البيت الواحد مختلطة بمشاحنات العاهرات والقوادين (٦٧) .

هذا وصف يحمل فى طياته المغالاة الواجبة ؛ وكل ما يحق لنا أن نستنتجه منه أن لفظى طالب الدين والقديس لم يكونا مترادفين فى باريس (٦٨) . ويواصل جاك وصفه فيقول إن كل « أمة » من الطلاب كانت لديها صفات محببة لها تصف بها « الأمم » الأخرى . فالإنجليز كانوا يوصفون بأنهم يكثرون من الشراب وأن لهم ذبولا ؛ والفرنسيون كانوا مزهوين مخشين ؛ والألمان

(٦٨) ولكن قارن هذا بقول راشدول : « وإن الأدلة لكثيرة على أن الصورة التى يصور بها ده فترى الحياة المدرسية ليست فى أساسها غير صادقة إن كان فيها مبالغة (٦٨) »

كانوا صحابين ؛ « بذيئين إذا شربوا » ؛ والفلمنكيون كانوا بدناً نهمين « لبينين كالزبد » ؛ وكانوا كلهم « كثيراً ما ينتقلون بهذا الاغتياب من الألفاظ إلى الكلمات » (٦٩) . وكان طلاب جامعة باريس يحشرون أولاً في الجزيرة التي تقوم عليها كتدرائية نتردام ؛ وكانت هذه الجزيرة هي الحى اللاتينى الأصلى ، وكان سبب تسميتها بذلك الاسم أن الطلاب كان يراد منهم أن يتكلموا باللغة اللاتينية - حتى في حديثهم غير المدرسى - وهي قاعدة كثيراً ما كانت تخرق ، وحتى حين اتسعت رقعة الحى اللاتينى حتى شملت الطرف الغربى من الضاحية الممتدة في جنوب نهر السين ، كان عدد الطلاب فيها من الكثرة بحيث لم يكن من المستطاع السيطرة عليهم ، فكانت المشاحنات كثيرة بين الطالب والطالب ، وبين الطالب والأستاذ ، وبين الطالب والشخص من أهل البلدة ، وبين الراهب وغير الراهب . هذا في باريس ، وفي أكسفورد كان ناغوس سانت مارى يدعو الطلاب ، وناغوس سانت مارتن يدعو أهل البلدة ، إلى حرب متقطعة بين بلدة وبلدة . وقد حدث شغب في أكسفورد (١٩٢٨) وقعت فيه على الممتلكات أضرار قيمتها ٣٠٠٠ جنيه (١٥٠,٠٠٠ دولار) (٧٠) . وأصدر موظف في باريس (١٢٦٩) إعلاناً ضد الطلاب الذين « يرتكبون بالنهار والليل فظائع نؤدى إلى إصابة الكثيرين بالجروح وإلى قتلهم ، ويحطفون النساء ، ويفسقون بالعذارى ، ويسطون على البيوت » ، ويرتكبون « مراراً وتكراراً حوادث السرقة وغيرها من التظائع » (٧١) . وأربما كان طلاب أكسفورد أقل انهماكاً في الشهوات الجنسية من طلبة باريس ، ولكن حوادث القتل كانت كثيرة فيها ، وتنفيذ العقاب في القاتل كان نادراً ؛ فقلما كان القاتل يطارد إذا غادر البلدة ، وكان الرجل في أكسفورد يرى أن حسب القاتل عقاباً له على جرمه أن يضطر إلى الانتقال إلى كيمبردج (٧٢) .

وإذا كان شرب الماء غير مأمون العاقبة وقتئذ ، لأن أوربا لم تكن قد

عرفت الشاي ، أو القهوة ، أو الدخان ، فإن الطلاب كانوا يوفقون بين حاجتهم من جهة ، وبين مطالب أرسطو والحجرات غير المدفأة من جهة أخرى ، بالخمير والجة . وكان من الأسباب الداعية إلى إنشاء « نقابات » الطلاب الاحتفال بالأعياد الدينية والجامعية بالشرب الكثير جهرة . وكانت كل خطوة في السنة المدرسية « موسماً للطرب » يحيا بالشراب . وكان الطلاب في كثير من الحالات يقدمون هذه المربطبات لمتحميهم . وكانت « الأمم » في العادة تنفق في الحانات كل ما بقي لديها من المال في آخر العام الدراسي . وكان لعب الكعوب تسلية أخرى للطلاب ، وقد فرضت عقوبة الحرمان الديني على بعض الطلاب للعبهم بالكعوب على مذابح نتردام^(٧٣) . أما في الأوقات الأكثر نظاماً فقد كان الطلاب يسلون أنفسهم بالكلاب ، والصقور ، والموسيقى ، والرقص ، والشطرنج ، ورواية القصص ، والسخرية من الطلبة الجدد . وكان هؤلاء الجدد يسمون ذوي المناكير الصفر ، وكانوا يتخذون هدفاً للإساءة والسخرية ، ويرغمون على إقامة وليمة لسادتهم الذين سبقوهم إلى الجامعة بعام ؛ وكان الخروج على القوانين يعاقب بالغرامات أو بإرغام الخارج على تقديم عدة جالونات من الخمر يشربها الجماعة . ولم يرد ذكر للجلد في تأديب طلاب الجامعات حتى القرن الخامس عشر وإن كان كثيراً ما يلجأ إليه في المدارس العامة . وكان ولاية الأمور في الجامعة يفرضون على الطلاب زيادة على هذا أن يقسموا يميناً مغلظة بإطاعة جميع اللوائح ، وكان من الأيمان المفروضة في جامعة باريس يميناً يتعهد الطالب بمقتضاها ألا ينتقم من الممتحنين الذين يسقطونه في الامتحان^(٧٤) ، فكان التلاميذ يقسمون مسرعين وينقضون أيمانهم على مهل . لقد كان الحنث في الأيمان كثيراً لأن الجحيم لم تكن ترهب رجال الدين الحداثيين .

ومع هذا كله كان وقت الطلاب يتسع لسماع المحاضرات . وكان منهم الكسالى ، ومنهم من كان الفراغ أحب إليهم من الشهرة ؛ فكانوا لذلك

يفضلون مناهج القانون الكنسى الذى كانت دروسه تبدأ فى الساعة الثالثة وتمكنهم من أن يواصلوا نومهم (٧٥) . وإذ كانت الساعة الثالثة بحسب ذلك الوقت هى الساعة التاسعة صباحاً ، فإنه يظهر من هذا أن معظم الفصول كانت تبدأ الدراسة بعيد الفجر ؛ وأكبر الظن أن ذلك كان فى الساعة السابعة صباحاً . وكانت السنة الدراسية فى بداية القرن الثالث عشر تدوم أحد عشر شهراً ، وقبل أن ينصرم القرن الرابع عشر كانت « العطلة الطويلة » ، التى نشأت من الحاجة إلى أيدى الشباب فى زمن الحصاد ، تمتد من ٢٨ يونية إلى ٢٥ أغسطس أو ١٥ سبتمبر ، وفى جامعى أكسفورد وباريس لم تكن عطلة عيد الميلاد وعيد الفصح تزيد على بضعة أيام قليلة ، أما فى جامعة بولونيا حيث كان الطلاب أكبر سناً وأكثر غنى ، ولعلمهم كانوا أيضاً أبعد موطناً ، فقد كانت عطلة عيد الميلاد عشرة أيام وعطلة عيد الفصح أربعة عشر يوماً ، وكالوا يعطون واحداً وعشرين يوماً فى الحفلات التى تسبق الصوم الكبير .

ويبدو أنه لم تكن تعقد امتحانات فى أثناء دراسة المناهج ، ولكن كان هناك إلقاء وتقاش ، وكان يمكن إقصاء العاجزين فى خلال الدراسة . ثم نشأت حوالى منتصف القرن الثالث عشر عادة إلزام الطالب ، بعد أن يمضى خمس سنين مقياً فى الجامعة للدراسة ، أن يؤدى امتحاناً أولياً أمام لجنة من « أمته » . وكان هذا يتضمن أولاً اختباراً خاصاً منفرداً — يشمل إجابات عن أسئلة ، ويتضمن ثانياً مناقشة علنية يدافع الطالب فيها عن موضوع أو موضوعين ، ويفند اعتراض المعارضين ، ثم يختم النقاش بتلخيص للناتج . وكان الذين يجتازون هذه الاختبارات الأولية بنجاح بسمون *Baccalarii* أى الأتباع ؛ وكان يسمح لهم أن يخدموا أستاذاً بوصفهم مدرسين مساعدين أو محاضرين « عاجلين » . وكان فى وسع التابع أن يواصل دراساته وهو مقيم ثلاث سنين أخرى ، فإذا رأى أستاذه بعد ذلك أنه خليلق بالتقدم إلى الامتحان قدم إلى ممتحنين يعينهم رئيس الجامعة .

وكان ينتظر من الأساتذة ألا يقدموا طلاباً يتضح أنهم غير مستعدين للامتحان إلا إذا كان هؤلاء الطلاب من ذوى الثراء أو المكانة الممتازة ؛ وكان الامتحان فى هذه الحالة يعد لكى يناسب مقدرة الطالب ، أو كان يُستغنى عنه استغناء تاماً^(٧٦) . وكانت الصفات الخلقية من الموضوعات التى يشملها الامتحان ؛ لذلك فإن الجرائم الخلقية التى يرتكبها الطالب خلال السنين الأربع أو السبع التى يقضيها فى الجامعة قد تحول بينه وبين الحصول على الدرجة التى يريد ، لأن الدرجة كانت شهادة بالرقى الأخلاقى والاستعداد العقلى فى وقت واحد . وحسبنا شاهداً على ذلك أن السبعة عشر الذين رسبوا من ثلاثة وأربعين تقدموا لامتحان جامعة فينا فى عام ١٤٤٩ رسبوا كلهم لنقص فى أخلاقهم ، ولم يرسب منهم واحد لعدم كفايته العقلية .

فإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان العلنى والأخير أصبح أستاذاً أو « دكتوراً » وحصل من تلقاء نفسه على إجازة مصدق عليها من السلطة الدينية ليدرس فى أى مكان شاء فى العالم المسيحى . وكان وهو « تابع » يُدرّس مكشوف الرأس ، أما الآن وقد نال إجازته فقد كان يتوج بقلنسوة ، ويقبله أستاذه ويباركه ، ثم يجلسونه فى كرسى الأستاذية ، فيلقى محاضرة افتتاحية ، أو يعقد نقاشاً افتتاحياً ؛ وكان هذا هو بداية عمله أستاذاً . وكان من مستلزمات هذا التخرج أن يدعو جميع أساتذة الجامعة أو أكثرهم إلى وليمة ويقدم لهم الهدايا ، وبهذه الاحتفالات وغيرها ينضم إلى نقابة الأساتذة .

ومما يريح بالنا أن نقول إن التعليم فى العصور الوسطى كان فيه من العيوب المتعبة بقدر ما فى نظمنا التعليمية فى الوقت الحاضر . فلم يكن يواصل الدراسة فى الخمس السنين التى يتطلبها نيل البكالوريوس إلا قلة صغيرة من المقيدين فى

مجلات الجامعة . وكان افتراض ذوى الشأن أن جميع عقائد الكنيسة المقررة يلتزم بها المؤمنون بالدين مما يدعو عقول الطلاب للدعة لا للعمل . وكان البحث عن الحجج التى تثبت هذه العقائد ، وإيراد الشواهد من الكتاب المقدس أو من أقوال آباء الكنيسة لتأييدها ، وتفسير أقوال أرسطو بحيث تتفق معها ، كان هذا كله يدرّب العقول على التقسيم الشعري الدقيق أكثر مما يدرّب الذهن على توخي الحقيقة والإذعان لما عليه الضمير الحى . وفى وسعنا أن نسارع إلى العفو عن هذه الأخطاء إذا ذكرنا أن أى أسلوب من أساليب الحياة ينمى مثل هذا التعسف فى الإيمان بالفروض التى يقوم عليها هذا الأسلوب . وهانحن أولاء فى هذه الأيام نترك الناس أحراراً يشكّون فى عقائد آبائهم الدينية ، ولا نتركهم أحراراً يشكّون فى عقائدهم السياسية ؛ وهاهو ذا الإلحاد السياسى يعاقب عليه بالحرمان الاجتماعى كما كان الإلحاد فى الدين يعاقب عليه بالحرمان الدينى فى عصر الإيمان . والآن ورجل الشرطة يعمل جاهداً لكى يحل محل الله ، فقد أصبح الارتياب فى الدولة أشد خطورة من الارتياب فى الكنيسة ، ذلك أنه ما من نظام يفض النظر عن تحدى المبادئ الأساسية التى يقوم عليها .

وما من شك فى أن انتقال المعارف والتدرب على معرفة القيم أكثر انتشاراً وأعظم قدراً فيما يبدو لنا مما كانا فى العصور الوسطى ، ولكننا لا يصح لنا أن نقول هذا القول نفسه عن التربية الخلاقية . ولم تكن المقدرة العملية مما تعوز تخريج الجامعة فى العصور الوسطى ، فقد كانت تخرج فى كل عام عدداً كبيراً من رجال الإدارة القادرين ، ورجال القانون الذين أوجدوا الملكية الفرنسية ، والفلاسفة الذين قادوا سفينة المسيحية فى بحار العقل الصاخبة ، والبابوات الذين أوتوا من الجرأة ما جعلهم يفكرون تفكير أوربا الموحدة . ولقد شحذت المسيحية ذكاء

الرجل الغربي ، وخلقت لغة الفلسفة ، ورفعت مكانة التعليم وهيبته ، وقضت على فترة المراهقة الذهنية عند البرابرة الظافرين .

لقد انهارت كثير من أعمال العصور الوسطى أمام عجلة الزمن التي تدمر كل شئ في سبيلها ، أما الجوامع التي خلفها لنا عصر الإيمان بكل ما فيها من عناصر التنظيم ، فهي ذى تكيف نفسها حسب التطورات التي لا مفر منها ، وتخلع عن نفسها لإهابها القديم لتحيا حياة جديدة ، وتنتظر منا أن نعتد لواءها بلواء الحكومة .

الباب الخامس والثلاثون

أبلار

١٠٧٩ - ١١٤٢

الفصل الأول

الفلسفة القدسية

ليسمح لنا القارئ بأن نخص أبلار بباب كامل ، وليس حديثنا عنه في هذا الباب مقصوداً عليه بوصفه فيلسوفاً أو من أصحاب الفضل في إنشاء جامعة باريس أو شعلة ألهمت عقل أوروبا اللاتينية في القرن الثاني عشر ، بل سنتحدث عنه بوصفه هو وهلاوز مثنان لأخلاق عصرهما وآدابه ، وأرقى وأعظم ما يخلب اللب ويهر العقل في ذلك العصر : كان مولد أبلار في قرية له باليه Pallet القريبة من نانت Nantes إحدى مدن بريطانيا . وكان أبوه المعروف لنا باسم بيرنجر Bérenger ولا شيء غير هذا ، صاحب ضيعة متواضعة ، وكان في مقدوره أن يهيئ لأولاده الثلاثة ولابنته تعليماً حراً . وكان بيير Pierre (ولسنا نعرف أصل لقبه أبلار) أكبر أولئك الأبناء وكان في مقدوره أن يطالب بحق الابن الأكبر في ميراث أبيه ؛ ولكنه كان مولعاً بالدرس والتفكير إلى حد جعله بعد أن كبر ينزل لأخويه عن حقه ، وعن نصيبه في أملاك الأسرة ، وشرع يطلب الفلسفة ، ويلقى بنفسه في معركتها أينما حمى وطيسها ، أو أينما وجد معلماً ذائع الصيت يُدرّسها : وكان من أعظم ما أثر في حياته المستقبلية أن كان من أول

أساتذته جان روسلان Jean Roscelin (حوالى ١٠٥٠ - حوالى ١١٢٠) ، وهو رجل متمرّد انصب عليه كما انصب على أبلار من بعده مخطط الكنيسة وحرمانه من الدين .

وكان منشأ الجدل الذى أثاره روسلان مسألة من مسائل المنطق الجفاف الموغل فى الجفاف ، والتي تبدو أبعد المسائل كلها عن الأذى ، وهى الوجود الموضوعى « للكليات » . وكان « الكلى » فى الفلسفة اليونانية وفلسفة العصور الوسطى هو الفكرة العامة التى تدل على صنف من الأشياء (كالكتاب ، والحجر ، والكوكب ، والرجل ، والنوع الإنسانى ، والشعب الفرنسى ، والكنيسة الكاثوليكية) ؛ أو الأعمال (كالقسوة ، والعدالة) ؛ أو الصفات (كالجبال والصدق) . وكان أفلاطون ، وهو العليم بسرعة زوال الكائنات والأشياء الفردية ، قد قال بأن الكلى أكثر بقاء ، وأنه لذلك أكثر حقيقة ، من أى فرد من الصنف الذى يصفه : فالجبال أكثر حقيقة من فرينى Phryne ، والعدالة أكثر حقيقة من أرسنديز ، والرجل أكثر حقيقة من سقراط ؛ وهذا هو الذى كانت العصور الوسطى تعبّر عنه « بالواقعية » . وخالف أرسطو هذا الرأى وقال إن « الكلى » ليس إلا فكرة يكونها العقل لتمثّل صنفاً من الأشياء المتماثلة ؛ فهو يرى أن الصنف نفسه لا يوجد إلا فى صورة أعضائه التى يتركب هو منها . والناس فى وقتنا هذا يتجادلون : هل يوجد « عقل جماعة » منفصلاً عن رغبات الأفراد الذين تتكون منهم هذه الجماعة وأفكارهم ومشاعرهم ؟ فأما هيوم فقد قال إن « العقل » الفردى نفسه ليس إلا اسماً مجرداً لسلسلة الأحاسيس والأفكار ، والإرادات التى فى كائن حى ولجموعها . ولم يكن اليونان يهتمون اهتماماً كبيراً بهذه المسألة ، واكتفى فيلسوف من آخر الفلاسفة الوثنيين - هو برفرى Porphyry (حوالى ٢٣٢ - حوالى ٣٠٤) الذى أقام فى الشام وفى رومة - بصياغتها دون أن يعرض حلاً لها . لكن العصور الوسطى كانت تراها

مسألة حيوية . فقد كانت الكنيسة تزعم أنها موجود روحى بالإضافة إلى مجموع الأفراد المنضمين إليها ؛ وكانت تشعر بأن « لكل » صفات وقوى غير صفات أجزائه وقواها ؛ ولم يكن فى مقدورها أن تعترف بأنها فكرة مجردة ، وأن الأفكار والعلاقات التى لانهاية لها والتى يوحى بها لفظ « الكنيسة » ليست إلا أفكاراً ومشاعر فى أعضائها المكونين لها ، بل إنها هى « عروس المسيح » الحية . وشر من هذا قولها : إذا كان الأشخاص ، والأشياء ، والأعمال ، والأفكار المفردة ، هى وحدها الموجودة ، فإذا يكون مصير الثالوث ؟ هل تكون وحدة الأفانيم الثلاثة فكرة مجردة لا أكثر ، أو هل هى ثلاثة آلهة منفصلة بعضها عن بعض ؟ إن علينا أن نضع أنفسنا فى الجو اللاهوتى المحيط بروسلان إذا شئنا أن نفهم ما حل به .

ولسنا نعرف آراءه إلا من أقوال معارضيه ، فهم يقولون إنه يرى أن الكليات أو الأفكار العامة ليست إلا ألفاظا (voces) ، أى هواء الصوت (flatus vocis) ؛ فأما الأشياء المفردة فوجوده ، والأفراد المفردون موجودون ، وأما كل ما عدا هذا فهو أسماء (noméina) . وليس للأجناس ، والأنواع ، والصفات ، وجود مستقل ، فالإنسان لا وجود له ، بل الذين يوجدون هم الرجال ، ولا وجود للون إلا فى الأشياء الملونة . وما من شك فى أن الكنيسة كانت تترك روسلان وشأنه لو لم يطبق هذه « الاشتمية » على الثالوث . فقد نُقل عنه أنه قال إن الله لفظ أطلق على أفانيم الثالوث الثلاثة ، كما أطلق لفظ الإنسان على كثيرين من الرجال ولكن كل ما له وجود حق هو الأفانيم الثلاثة — أى ثلاثة آلهة فى واقع الأمر . وفى هذا اعتراف بالشرك الذى يتهم به الإسلام المسيحية اتهاماً ضمنيًا خمس مرات فى اليوم من فوق ألف مأذنة(*) . ولم تكن الكنيسة ترضى

(*) يقصد حين يقول المؤذن « لا إله إلا الله » ولكننا لا نرى فى هذا اتهاماً للمسيحية بل تقريراً لركن من أركان الإسلام . (المترجم)

بصددور هذه التعاليم من شخص هو قس من قساوسة كنيسة كميبيني Compiègne . ودعى روسلان للمثول بين يدي مجمع ديني مقدس في سواسون (١٠٩٢) وخيّر بين الرجوع عن أقواله والحرمان ، فاختار الرجوع ، وفر إلى إنجلترا وهاجم فيها عادة التسرى عند رجال الدين ؛ ثم عاد إلى فرنسا ودرس في تور ولوش Loche . ويبدو أن هذه البلدة هي التي جلس فيها أبلار عند قدميه وهو نافذ الصبر متململ^(٢) . ورفض أبلار فكرة « الاسمية » ولكنه حرم من الدين مرتين لشكه في الثالوث . وخلق بالملاحظة أيضاً أن القرن الثاني عشر كان يسمى الواقعية « العقيدة القديمة » وأنه كان يسمى معارضها الحريثيين moderni^(٣)

ودافع أنسلم (١٠٣٣ - ١١٠٩) عن الكنيسة دفاعاً مجيداً في عدة مؤلفات يبدو أنها حركت عواطف أبلار ، وكان لها فيه أثر عميق ، وإن لم يكن هذا الأثر إلا المعارضة . وكان أنسلم من أبناء أسرة من أشراف إيطاليا ؛ وعين رئيساً لدير بك Bec في نورماندية عام ١٠٧٨ . وأضحى دير بك في أثناء حكمه ، كما أضحى في أيام لافران La Faanc مدرسة من أكبر المدارس التعليمية في الغرب ؛ ولعل أنسلم كان ، كما وصفه زميله الراهب إيدير Eadmer في ترجمة له تنم عن تعلقه به ، زاهداً ظريفاً لا يرغب في شيء سوى التفكير والصلاة ، خرج من صومعته كارهاً ليحكم الدير ومدرسته . وكان الشك أنعد الأشياء عن رجل مثله ، بل كان الإيمان عنده هو الحياة ، و « يجب أن يسبق الإيمان ؛ وكيف يستطيع عقل محدود أن يأتي عليه يوم يفهم فيه الله ؟ » وفي هذا يقول كما يقول أوغسطين : « لست أسعى للفهم لكي أعتقد ، بل إنني أعتقد لكي أفهم » ، ولكن تلاميذه طلبوا إليه حججاً يجادلون بها الكفار ؛ وكان هو نفسه يرى أن « من الإهمال ، وقد تثبتنا في ديننا ، ألا نعمل لفهم ما اعتقدنا »^(٤) ؛ وكان

شعاره هو **الإيمان يطلب الفهم** ، وألف سلسلة من الكتب العظيمة الأثر بدأ بها الفلسفة المدرسية حين حاول أن يدافع عن الدين المسيحي دفاعاً قائماً على العقل .

ودافع في رسالة صغيرة تدعى « مبرهنة للنفس » عن الوجود الموضوعي للكليات فقال : « إن آراءنا في الخير ، والعدالة والحق ، نسبية ، ولا معنى لها إلا إذا قورنت بخير مطلق أو عدالة مطلقة ، أو حق مطلق ، وإذا لم يوجد هذا الحق المطلق فلن يكون لنا مقياس أكيد للحكم ، وبذلك تصبح علومنا وأخلاقتنا على السواء جوفاء عديمة الأساس . والله — وهو الخير المطلق ، والعدل المطلق ، والحق المطلق — هو هذا المطلق المنقذ ، وهو الغرض الذى لا بد منه فى حياتنا . وكأنما أراد أنسلم أن يذهب بهذه الواقعية إلى أبعد مدى فانتقل فى كتابه Proslogion (حوالى ١٠٧٤) إلى برهانه الشهير المستمد من فن ما وراء المادة الذى أراد أن يثبت به وجود الله فقال : الله أكمل كائن يستطيع العقل أن يتصوره ؛ ولكنه إذا لم يكن إلا فكرة فى رءوسنا ، فإن ذلك ينقصه عنصراً من عناصر الكمال — وهو الوجود : وإذن فالله ، وهو أكمل الكائنات ، موجود . وكتب راهب متواضع ،

يدعى جونيلو Gaunilo ، ويرمز لاسمه بلفظ **الرأب** Insipio — إلى أنسلم احتجاجاً يقول فيه إننا لا نستطيع أن ننقل هذا الانتقال السحري من الإدراك إلى الوجود ، وإن حجة لا تقل عن الحجة السابقة فى قوتها يمكن أن تثبت وجود جزيرة تبلغ درجة الكمال ، وإن تومس أكوناس يتفق فى رأى مع جونيلو . ثم حاول أنسلم فى مقالة رائعة ولكنها غير مقنعة أسماها « ابن الله الإنسان » أن يجد أساساً معقولاً للعقيدة المسيحية الأساسية القائلة بأن الله أصبح إنساناً ، ويسأل لم كان هذا التجسد ضرورياً ؟ لقد كانت هناك فكرة يؤيدها أمبروز ، والبابا ليو الأول وطائفة من آباء الكنيسة^(٦) ، تقول إن آدم وجواحين

أكلا الفاكهة المحرمة قد باعا نفسيهما وباعا كل نسلهما إلى الشيطان ، وأن لا شيء يستطيع افتداء البشرية من الشيطان والجحيم إلا موت الله الذى أصبح إنساناً . وعرض أنسلم حجة أدق من هذه وأبلغ فقال : إن عصيان أبوبنا الأولين كان ذنباً غير محدود لأنه ذنب فى حق كائن غير محدود ، وإنه قلب النظام الخلقى للعالم كله ؛ ولا شيء يمكن أن يوازن ويمحو ذلك الذنب غير المحدود إلا التكفير عنه تكفيراً غير محدود ؛ ولا يستطيع تقديم هذه الكفارة الغير المحدودة إلا كائن غير محدود ؛ ومن أجل هذا صار الإله إنساناً لكى يعيد إلى العالم توازنه الأخلاقى .

ونمت واقعية أنسلم وتطورت على يد تلميذ من تلاميذ روسلان يدعى وليم الشابوكسى William of Chapeaux (١٠٧٠ ؟ - ١١٢١) . فقد بدأ وليم فى عام ١١٠٣ يعلم الجدل فى مدرسة كاتدرائية نتردام بباريس . وإذا جاز لنا أن نصدق أبلار - الذى كانت براعته الحربية تحول دون براعته التاريخية - قلنا إن وليم ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أفلاطون ، فكان أفلاطونياً أكثر من أفلاطون نفسه حين قال إن الكليات ليست حقائق موضوعية فحسب ، بل إن الفرد تحوير عارضى للحقيقة الجنسية ، ولا وجود له إلا باشتراكه فى الكلى ؛ وعلى هذا فالإنسانية هى الكائن الحقيقى ، الذى يدخل فى سقراط ، ويكسبه وجوده . وينقلون عن وليم أنه قال فضلاً عن هذا إن الكلى بأجمعه حاضر فى كل فرد من صنفه ، فالإنسانية كلها حاضرة فى سقراط وفى الإسكندر .

وأتى أبلار عصا التسيار فى مدرسة وليم بعد كثير من التجوال العلمى (١١٠٣) ، وكان وقتئذ فى الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمره . وكان وسيم الخلق حسن القوام ، بهى الطلعة^(٧) ، ذا جبهة عريضة تبعث فى النفس الروعة ؛ وكانت روحه المرححة تكسب طباعه وحديثه فتنة وحيوية . وكان يستطيع تأليف الأغاني وإنشادها ، وكانت فكاهته القوية تزلزل الضعاف فى قاعات الجدل . وكان شاباً مرححاً طروباً ، عرف فى الوقت نفسه بباريس والفلسفة .

وكانت عيوبه هي العيوب التي تستلزمها صفاته : فقد كان مغروراً ، مزهواً بنفسه ، وقحاً ، منطوياً على نفسه ، دفعه ابتهاجه بمواهبه التي كان يعرفها حق المعرفة إلى أن يطرح بتهور الشباب العقائد التعسفية والعواطف الرقيقة التي كانت سائدة في عصره وبين أساتذته . وقد أسكرته « بهجة » الفلسفة « المحبة » إليه ؛ فهذا العاشق الدائع الصيت يحب الجدل أكثر مما يحب هلواز ؛

وقد سخر من واقعية أستاذه المسرفة ، وتحداه علناً أمام فرقته : يا عجباً الإنسانية كلها حاضرة في سقراط ؟ إذن فعين تكون الإنسانية كلها حاضرة في الإسكندر لا بد أن يكون سقراط (الذي تشمله الإنسانية كلها) حاضراً في الإسكندر . ويخجل إلينا أن ما كان يقصده ولیم هو أن جميع العناصر الجوهرية التي في الإنسانية حاضرة في كل كائن بشري . على أننا لم تصل إلينا حجج ولیم في هذا النقاش ؛ ومهما كانت هذه الحجج فإن أبلار لم يأخذ بشيء منها . فقد عارض واقعية ولیم واسمية روسلان بالفلسفة التي سميت فيما بعد بالفلسفة الإدراكية ؛ وهي تقول إن الصنف (الإنسان والحجر) ليس له وجود جسمى إلا في أفرادها التي يتكون منها (الرجال ، والجحارة) ؛ وإن الصفات (كالبياض ، والطيبة ، والحقيقة) لا وجود لها إلا في الأجسام ، أو الأفعال ، أو الأفكار التي تصنفها . ولكن الصنف والصفة ليسا مجرد اسمين ، بل هما مدركان تكونهما عقولنا من العناصر أو المظاهر التي نلاحظ وجودها مشتركة بين طائفة من الأفراد ، أو الأجسام ، أو الآراء . وهذه العناصر المشتركة حقيقية ، وإن لم تظهر إلا في الصور الفردية . وليست المدركات التي نفكر بها في هذه العناصر المشتركة - الأفكار الجنسية أو الكلية التي نفكر بها في الأصناف المكونة من أجسام متماثلة - ليست هذه المدركات « رياح الصوت » ، بل هي أكثر أدوات التفكير نفعاً وأكثرها ضرورة ، وبغيرها لا يمكن أن يكون للعلم ولا للفلسفة وجود .

ويقولون إن أبلار بقى مع وليم « بعض الوقت » . ثم شرع هو نفسه يدرس في ميلون Melun أولا ثم في كوربي Corbeil بعدئذ ، وتبعد أولى البلديتين أربعين ميلا عن باريس أما الثانية فتبعد عنها خمسة وعشرين . وقد أخذ عليه بعضهم أنه أنشأ « حانوته » بعد تدريب جدد قصير ، ولكن عدداً كبيراً من الطلاب هرع إليه ، لإعجابهم بسرعة بديته وزلاقة لسانه . وكان وليم في هذه الأثناء قد أصبح راهباً في دير القديس فكتور حيث « طلب إليه » أن يستمر في إلقاء محاضراته ، وعاد إليه أبلار تلميذاً بعد « مرض شديد » . ويبدو أنه كان على عظام فلسفة وليم لحلم أكثر مما توحى به القراءة العاجلة لسيرة أبلار الموجزة التى كتبها بنفسه . ولكن سرعان ما تجددت مناقشتهم القديمة ، وأرغم أبلار (كما يقول أبلار نفسه) وليم على أن يعدل فلسفته الواقعية ، وبدأت مكانة وليم في المهبط . وعرض الأستاذ الذى خلفه والذى عينه بنفسه في نتردام أن يخلى مكانه لأبلار (١١٠٩ ؟) ، ولكن وليم لم يوافق على هذا العرض . وواصل أبلار محاضراته في ميلون ، ثم فوق جبل سانت چنثيفف المجاور لپاريس . ونشبت بينه وبين وليم ، وبين طلابهما ، حزب كلامية دامت عدة سنين ، وأصبح أبلار زعيم المحدثين أى الشبان المتمردين المتحمسين لمحجبات المدرسة « الحديثة » . وبينما هو يخوض غمار هذه الحرب ترهب ولداه . ولعلهما فعلا ذلك استعداداً للموت ، واضطر أبلار أن يعود إلى له باليه Le Pallet ليكون في وداعهما ، وربما كان من أسباب عودته تسوية بعض المشاكل الخاصة بأملاك الأسرة . ثم رجع أبلار إلى باريس في عام ١١١٥ ، بعد أن قضى بعض الوقت يدرس علوم الدين في لاون ، وأقام مدرسته ، أو بدأ منهج محاضراته ، في قاعات نتردام التى كان يجلس فيها وهو طالب قبل ذلك الوقت بالثنتى عشرة سنة أو نحوها . ويبدو أنه لم يلق في ذلك معارضة ما . وكان وقتئذ من موظي الكندرائية وإن لم يصبح من قساوسها^(٨) . وكان في مقدوره أن يتطلع إلى

المناصب الكهنوتية العليا إذا لزم الصمت ؛ ولكن هذا الشرط كان ثقيلاً عليه ، لأنه درس الأدب كما درس الفلسفة ، وكان أستاذاً في عرض الآراء عرضاً واضحاً لطيفاً ؛ وكان كغيره من الفرنسيين يرى أن الوضوح في التعبير واجب تحتّمه المبادئ الخلقية ، ولم يكن يخشى أن يخفف من عبء حديثه بقليل من الفكاهة . وأقبل الطلاب من كثير من البلاد ليستمعوا إليه ، وكانت الفصول التي يدرس لها كبيرة كبيراً أغناه بالمال وأذاع شهرته بين الأمم^(٩) ، تشهد بذلك رسالة بعث بها إليه فولك Foulques رئيس أحد الأديرة يقول فيها :

بعثت لإليك رومة أبناءها تعلمهم : : : ولم تمنع المسافة الشاسعة ، أو الجبال أو الوديان أو الطرق الموبوءة باللصوص ، الشبان من الإقبال عليك . وازدحمت فصولك بالشبان الإنجليز الذين عبروا البحر المغمم بالأخطار ، وأقبل عليك التلاميذ من جميع أنحاء أسبانيا وفلاندرز وألمانيا ، ولم يملأوا من الثناء على قوة عقلك . ولست أذكر شيئاً عن سكان باريس ، وأقاصى فرنسا التي كانت هي الأخرى ظمأى لتعليمك ، كأنه لا يوجد علم من العلوم لا يستطيع أخذه عنك^(١٠) .

وما دام قد بلغ هذه النروة من المجد والنجاح وبُعد الصيت ، فلم لا يرق إلى كرسي الأسقفية (كما ارتقى إليه ولیم) ، ثم إلى كرسي رئيس الأساقفة ، ولیم لا يرق إلى كرسي البابوية ؟

الفصل الثاني

هلواز

ويؤكد أبلار أنه ظل حتى ذلك الوقت « مستعفاً إلى أقصى حدود الاستعفاف » ، وأنه كان « حريصاً على الامتناع عن جميع ضروب الإفراط » (١١) . ولكن هلواز ابنة أخى فلبر Fulbert قس الكندرازية كان لها من جمال الخلق والهيام بالعلم ما أثار كل ما كان كامناً في أبلار من حساسية مرهفة برجولته وإعجاب بعقليته . وفي خلال تلك السنين المحمومة التي كانت الحرب ناشبة فيها بين أبلار ووليم عن الكلى وغير الكلى شبت هلواز من الطفولة إلى الأنوثة المكتملة ، يتيمة لم يبق لأبويها أثر . وبعث بها عمها إلى دير في أرجنتي Argentuil لتقضى فيه عدداً كبيراً من السنين . فلما ذهبت إليه هامت بما في مكتبته الصغيرة من الكتب هيما أصبحت معه أنبه راهبة في الدير . ولما عرف فلبر أنها تستطيع التحدث باللاتينية بنفس الطلاقة التي تتكلم بها الفرنسية ، وأنها لم تكف بهذا بل أخذت تتعلم العبرية (١٢) ، لما عرف هذا أعجب بها ، وجاء بها لتعيش معه في بيته القريب من الكندرازية .

وكانت في سن السادسة عشرة حين اتصلت حياتها بحياة أبلار (١١١٧) ؛ وفي ظننا أنها سمعت به قبل ذلك الوقت بزمان طويل ، وما من شك في أنها كانت قد أبصرت مثات الطلاب تغص بهم الأبهاء وقاعات المحاضرات ، وقد جاءوا ليستمعوا إليه ؛ ولعلها وهى ذات الحماسة الذهنية القوية قد ذهبت خفية أو علناً لترى وتسمع معبود علماء باريس ومثلهم الأعلى . وفي وسعنا أن نتصور حياة وارتياعها حين أخبرها فلبر أن أبلار سيسكن معها ويصبح معلمها

الخاص . وها هو ذا الفيلسوف نفسه يفسر لنا أصرح تفسير كيف حدث هذا :
« وكانت هذه الفتاة الصغيرة هي التي . . . اعتزمت أن أرتبط بها برباط
الحب . والحق أن هذا العمل من أسهل الأمور . فها هو ذا اسمي على كل
لسان ، ولى من مزايا الشباب والجمال ما لا أخشى معه أن ترفضني امرأة ،
أيا كان شأنها ، أتعطف عليها بحبي . . . وهكذا شرعت ، وقلبي ملتهب
بحب هذه الفتاة ، أبحث عن الوسائل التي تمكنني من أن أتحدث إليها في
كل يوم حديث المودة الخالية من الكلفة ، حتى يسهل عليّ بذلك أن أحظى
بموافقتها . ومن أجل هذا أقنعت عم الفتاة . . . أن يأويني في بيته . . . نظير
أجر قليل أوديه له . . . وكان هو رجلاً بخيلاً خريصاً على المال و . . .
اعتقد أن ابنة أخيه ستفيد كثيراً من تعليمي . . . ولقد ذهلت من سداجة
الرجل ، ولو أنه عهد بحمل وديع إلى عناية ذئب مفترس لما كنت أشد
من ذلك دهشة وذهولاً . . . »

« ولِمَ أطيل القول ؟ واجتمعنا أولاً في المسكن الذي أظلم حبنا ،
ثم في القليين اللذين كانا يتحرقان بين جنيننا . وقضينا الساعات الطوال
ننعم بسعادة الحب متسترين بستار الدرس . . . وكانت قبلاتنا يزيد
عديدها على كلمائنا المنطقية ، وكانت أيدينا أقل بحثاً عن الكتاب منها عن
صبرينا ، وكان الحب يجذب عيني كل منا إلى الآخر (١٣) . »

وهكذا أحالت رقة هلاواز العاطفة التي بدأت رغبة جسمية بسيطة « حناناً
أذكى من عرف الطيب » . وكانت هذه تجربة جديدة في حياته لهته عن الفلسفة ،
فقد استعار من محاضراته وجداً وهياماً لحبه ، فأوضحت هذه المحاضرات ملة على
خلاف عاداتها . وأسف طلابه لما أصاب الجدل المنطقي ، ولكنهم رحبوا
بالعاشق ، وسرهم أن يعرفوا أن سقراط نفسه يمكن أن يأتهم ، وعزوا أنفسهم
عما فقدوه من الحجج الدامغة بترديد أغاني الحب التي بدأ يؤلفها ، وكانت هلاواز

تسمع من نافذة بيتها أغاني افتتاحه بها تردد أصداؤها الصاخبة على السنة تلاميذه (١٤) .

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أبلغته أنها حامل فما كان منه إلا أن أختطفها سرّاً من بيت عمها وأرسلها إلى بيت أخته في بريطانيا (١٥) . ودفعه الخوف من جهة والرحمة من جهة أخرى فعرض على عمها الغاضب الحائق أن يتزوجها بشرط أن يسمح له فليبر بأن يظل أمر الزواج سرّاً . ووافق القس على هذا ، وسافر أبلار إلى بريطانيا في أثناء العطلة ليحضر عروسه الرقيقة القلب غير الراضية بالزواج . وكان عمر ابنيها أسطرابلا Astorlab ثلاثة أيام حين أقبل هو على والدته . وظلت هلاواز زمناً طويلاً ترفض الزواج به . ذلك أن إصلاحات ليو التاسع وجريجورى السابع كانت منذ جيل من الزمان قد حرمت مناصب القسيسين على المتزوجين إلا إذا ترهبت الزوجة ، ولم تكن هلاواز مستعدة لأن تفارق رفيقها وابنها على هذا النحو ، وعرضت عليه أن تبقى عشيقته بحجة أن هذه العلاقة ، إذا ظلت سرّاً يخفى عن الناس بحكمة ، لن تحول بينه وبين الرقي في مناصب الكنيسة كما يحول الزواج (١٦) . وقد أورد أبلار في كتابه تاريخ مصائب (الفصل السابع) فقرة طويلة يعزو فيها إلى هلاواز في هذا الظرف ثبناً طويلاً من المراجع والأمثلة المعارضة لزواج الفلاسفة ، وحججاً فصيحة قوية في الاعتراض على « حرمان الكنيسة من ضوئه البراق » : « تذكر أن سقراط قد تزوج ، وكيف ظهرت الفلسفة من هذا العار الذى دنسها تطهيراً خسيساً حتى يكون الناس بعدئذ أكثر حكمة وأحكم تدبيراً » ، ثم ينقل عنها قولها : « إنها أحلى لها كثيراً أن تسمى عشيقتي من أن يعرف الناس أنها زوجتي » ، بل إن هذا يكون أيضاً أشرف لى (١٧) . ولكنه أقنعها بأن وعداها ألا يعرف الزواج إلا عدد قليل من أوثق الناس صلة بها .

وتركا أسطربلاب مع أخت أبلار وعادا إلى باريس وتزوجا بحضور فليبر . وأراد أبلار أن يحتفظ بسرية الزواج فعاد إلى حيث كان يسكن وهو أعزب ، وعادت هلواز إلى السكنى مع عمها ، ولم يكن كلا الحبيين يرى الآخر إلا نادراً وخلصة . ولكن فليبر ، في حرصه على أن يسترد مكانته ، أخلف الوعد الذى قطعه لأبلار وأذاع السر ؛ وأنكرته هلواز ، « وأنزل بها فليبر العقاب بعد العقاب » . فما كان من أبلار إلا أن فر بها مرة أخرى ، وبعث بها هذه المرة ، على كره منها شديد ، إلى دير أرچنى ، وأمرها أن ترتدى ثياب الراهبات ، وألاّ تقسم اليمين أو تلبس النقاب . ويقول أبلار إنه لما سمع فليبر وأقاربه بهذا « أيقنوا أننى قد غدرت بهم أشد الغدر ، وتخلصت إلى أبد الدهر من هلواز إذ أرعمتها على أن تترهب . فاستشاطوا من هذا غضباً ودبروا مؤامرة غلى ؛ وبينما كنت نائماً ذات ليلة . . . فى حجرة سرية بمسكنى ، إذ اقتحموها على بمعونة خادم من خدمى قدموا له رشوة ، وانتقموا منى انتقاماً شنيعاً يجللهم العار . . . لأنهم بتروا أعضاء جسمى التى فعلت بها ما كان سبباً فى حزنهم . ولأدوا بالفرار بعد أن فعلوا فعلتهم ، ولكن اثنين منهم قبض عليهما وفقدوا أعينهما وأعضاء تناسلهما » (١٨) .

ولم يكن فى وسع أعدائه أن يختاروا له عقاباً أدل على مكرهم من هذا العقاب . نعم إنه لم يحط من منزلته لساعته ، فإن باريس كلها بمن فيها من رجال الدين عطف عليه (١٩) ، وأقبل عليه طلابه يواسونه ، وانكمش فليبر واختفى وجرّ عليه النسيان ذبوله ، وصادر الأسقف أملاكه . ولكن أبلار أدرك أن قد قضى عليه ، وأن « قصة هذا الاعتداء الشنيع ستنتشر حتى تبلغ أطراف الأرض » . ولم يعد يستطيع التفكير فى الرق فى مناصب الكنيسة ، وأحس أن سمعته الطيبة قد

« محبت من الوجود محوآ تاما » ، وأنه سيكون مضغة في أفواه الأجيال المقبلة . وشعر بأن في سقوطه هذا قسطا من العدالة الطبيعية غير الشعرية ، فقد اجتث من لحمه ذلك الجزء الذى أذنب ، وغدر به نفس الرجل الذى غدر هو به من قبل . وأمر هلواز أن تليس النقاب وترهب ، وذهب هو إلى دير القديس دنيس وأقسم يمين الرهبنة(*) .

(*) اقرأ قصة هلواز وأبلار مفصلة في الجزء الأول من كتابنا : « أشهر الرسائل للعالمية » . (المترجم)

الفصل الثالث

صاحب النزعة العقلية

وعاد إلى محاضراته بعد عام من ذلك الوقت (١١٢٠) مستجيباً لإلحاح طلابه ورئيس ديره ، وأخذ يلقيها في « صومعة » في شعبة دير ميزنسل Maisoncelle . ونظن أننا نجد في كتيبه أهم ما كان يحتويه منهج محاضراته . على أن هذه المحاضرات قد ألفها وهو قلق مضطرب على دفعات متقطعة ، لا نستطيع أن نحدد تواريخها . وقد راجعها في سنيه الأخيرة حين تحطمت روحه ، ولسنا ندرى مقدار ما تحطم من حرارة الشباب بفعل الزمن . ولأبلار أربعة كتب صغيرة في المنطق تدور كلها حول مسألة الكليات . ولا حاجة بنا إلى أن نوقفها من رقادها ، لكن كتابه الجمل رسالة تقع في ٣٧٥ صفحة في المنطق بمعناه عند أرسطو : فهي تحليل عقلي لأجزاء الكلام ، وأدوات التفكير (المادة ، والكم ، والمكان ، والموضع ، والزمن ، والعلاقة ، والصفة ، والملكية والعقل ، « والعاطفة ») وأشكال القضايا المنطقية ، وقواعد الاستدلال . وكان من واجب عقل أوربا الغربية بعد أن استيقظ من سباته أن يوضح لنفسه هذه الأفكار الأساسية كما يفعل الطفل حين يتعلم القراءة . وكان الجدل أهم ما تعنى به الفلسفة في أيام أبلار ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى أن الفلسفة الجديدة قد تفرعت من أرسطو عن طريق بوثيوس Boethius وهريري . ولم يكن الجيل الأول من أصحاب الفلسفة المدرسية يعرف إلا رسائل أرسطو المنطقية (وحتى هذه الرسائل لم تكن كلها معروفة له) . ولهذا لم يكن كتاب أبلار في الجمل كتاباً ممتعاً خلافاً . ولكننا نسمع في صفحاته التي تعنى بالشكل قبل كل شيء إلى طائفة أو طائفتين من تلك المناوشات الأولى في الحرب التي قامت بين الدين والعقل ودامت مائتي عام .

وكيف نستطيع ونحن في عصر أخذ يشك في العقل نفسه ، أن ندرك لألاء ذلك العهد الذي بدأ في التو يكشف « سر المعرفة العظيم ؟ » (٢٠) ويقول أبلار إن الحق لا يمكن أن يناقض الحق ، وإن حقائق الكتاب المقدس يجب أن تتفق مع مكتشفات العقل ، وإلا لكان الله الذي وهبنا هذه وتلك يخذلنا بإحداهما (٢١)

ولعله قد كتب في عهده الباكر - قبل مأساته - كتابه *موار بين فيلسوف ويهودى ومسيحي* . وفيه يقول : « إن ثلاثة رجال أقبلوا عليه في رؤي أثناء الليل » وسألوه بوصفه أستاذاً ذائع الصيت ، أن يفصل في نزاع قائم بينهم . وقالوا إنهم كلهم يؤمنون بالله ، وإن اثنين منهم يقبلان ما جاء بالكتب العبرية المقدسة ، أما الفيلسوف فيرفضها ، ويقترح أن يقيم حياته ومبادئه الأخلاقية على أساس العقل والقانون الطبيعي . ويرد عليهم الفيلسوف بقوله إن من أسخف السخف أن نستمسك بعقائد الطفولة . وأن نشارك الغوغاء في أباطيلهم ، وأن نزج في الجحيم من لا يقبلون هذه السخافات التي لا تفرق في شيء عن عبث الأطفال ! » . ويختتم قوله اختتاماً غير فلسفي فيرمي اليهود بالبلاهة والمسيحيين بالجنون . ويرد عليه اليهودي بقوله إن الناس لا يستطيعون الحياة بغير القوانين ؛ وإن الله قد فعل ما يفعله الملك الصالح فأنزل على الناس دستوراً للأخلاق الفاضلة ، وإن تعاليم التوراة هي التي أبقت على شجاعة اليهود وأخلاقهم خلال ما أصابهم من التشتت والمآسى التي دامت قروناً طوالاً . فيسأله الفيلسوف : وكيف إذن عاش آباؤكم هذه المعيشة النبيلة قبل أن يرسل موسى وشرائعه بزم من طويل ؟ - وكيف تؤمنون بوحى يعدكم بالنعيم في الدنيا ، ومع هذا فقد ترككم تقاسون آلام الفاقة والبؤس ؟ ويقبل المسيحي كثيراً مما قاله الفيلسوف واليهودي ، ولكنه يقول إن المسيحية قد نمت وأكملت شريعة الفيلسوف الطبيعية وشريعة اليهودي الموسوية ؛ وإنها قد سمت بمثل الإنسانية العليا إلى درجة لم تسم إليها قط من قبل ؛ فلا

الفلسفة ولا اليهودية ، كما جاءت في الكتب المقدسة ، قد وهبت الإنسان سعادة سرمدية ؛ أما المسيحية فتهب الإنسان القلق المعضب ، هذا الأمل في السعادة ، وهي لهذا عظيمة القيمة إلى أبعد حد . الا إن هذا الحوار الذي لم ينته إلى غاية لهُوْثْمرة رائعة من نتاج قس في كتدراثية بياريس عام ١١٢٠ ،

وقد وَجَدَتْ حرية في النقاش شبيهة بهذه الحرية نفسها متفلاً لها في كتاب آخر لأبلار بعد أشهر كتبه على الإطلاق ، وهو كتاب *نعم ولا sic et non* (١١٢٠) . ونجد أول ذكر لهذا الكتاب في رسالة كتبها رجل من سانت تيري St. Thierry يدعى William إلى القديس برنار (١١٤٠) يصف فيها ذلك الكتاب بأنه كتاب مريب يوزع سرّاً بين تلاميذ أبلار والمتشيعين له (٢٣) . ثم اختفى هذا الكتاب بعدئذ من التاريخ حتى عام ١٨٣٦ حين كشف فكتور كوزن Victor Cousin المخطوط بمكتبة في أفرانش Avranché . وما من شك في أن شكل الكتاب نفسه قد أحزن هذه الأسقف ؛ ذلك أنه يبدأ بمقدمة تم عن التقى والصلاح ، ثم ينقسم إلى ١٥٧ سؤالا تشمل أهم العقائد الأساسية للدين ؛ وقد وضعت في عمودين متقابلين تحت كل سؤال طائفتان من الأقوال إحداهما تؤيد الرد الإيجابي والأخرى تؤيد الرد السلبي ، وكلتاها مقتبسة من الكتاب المقدس ، أو من كتب آباء الكنيسة ، أو من الآداب اليونانية الرومانية القديمة ، بل إن بعضها مقتبس من فح المحب لأوقد . وقد يكون القصد من تأليف هذا الكتاب هو أن يكون مراجع يلجأ إليها في النقاش المدرسي ، ولكن مقدمته تنقص من قيمة الاعتماد على آباء الكنيسة — سواء أراد الكاتب ذلك أو لم يردده — لأنها تظهر ما بينهم من التناقض ، بل إنها تظهر تناقض كل منهم لنفسه . ولم يشك أبلار في قيمة الكتاب المقدس بوصفه مرجعاً دينياً ، ولكنه يقول إن لغته قد كتبت لغير المتعلمين ، وإنها يجب تفسيرها

بالرجوع إلى العقل والمنطق . غير أن النص المقدس قد فسد في بعض الأحيان لما أضيف إليه زوراً ، أو لعدم العناية بالنسخ ؛ ولهذا فإذا ناقضت نصوص الكتاب المقدس أو كتب آباء الكنيسة بعضها بعضاً ، وجب أن نحاول التوفيق بين النصوص المتناقضة بالاعتماد على العقل . وكتب في نفس كلمة الافتتاح عبارة استبق بها شكوك ديكارت بأربعائة عام فقال ؛ « إن أول مفاتيح الحكمة هو المناظرة على الأسئلة وتكرارها . . . لأن الشك يؤدي بنا إلى البحث ، والبحث يوصلنا إلى النتيجة » (٢٤) . ويقول إن عيسى نفسه حين واجه العلماء في المعبد أمطروهم وابلا من الأسئلة . ويكاد الحوار الأول في الكتاب يكون إعلاناً لاستقلال الفلسفة : « يجب أن يكون أساس الإيمان في عقل الإنسان وفي القضايا المتناقضة » . وهو يتقل أقوالاً عن أمبروز ، وأوغسطين ، وجريجورى الأول ، تويد الإيمان ، ويستشهد بأقوال من هيلارى Hilary ، وچيروم ، وأوغسطين ، على أن من الخير أن يستطيع الإنسان أن يثبت دينه بالاعتماد على العقل . ويكرر أبلار استمساكه بأصول الدين ، ولكنه يعرض للجدل مسائل مثل : الإرادة الإلهية ، والإرادة الحرة ، ووجود الخطيئة والشر في عالم خلقه إله خير قادر على كل شيء ، واحتمال أن يكون الله غير قادر على كل شيء . وما من شك في أن استدلاله الحرفي هذه المسائل قد زلزل إيمان الطلاب الشبان المولعين بالجدل . على أن هذه الطريقة — طريقة التعليم بالبحث الحر إلى أقصى حدود الحرية — أصبحت هى الخطة المألوفة المتبعة في الجامعات الفرنسية وفي الكتابات الفلسفية والدينية ؛ وأكبر الظن أنها قد سلكت هذه السبيل بفضل المثل الذى ضربه لها أبلار (٢٥) . وسرى القديس تومس يتبعها دون أن يخشى شيئاً ودون أن يوجه إليه لوم ؛ وهكذا وجدت النزعة العقلية مكاناً لها فى مستهل عهد الفلسفة المدرسية .

وإذا كان كتابه نعم ولم يغضب إلا عدداً قليلاً من الناس لأنه لم يوزع منه إلا عدد قليل من النسخ ، فإن ما حاوله أبلار من تحكيم العقل فى

موضوع التثايت — وهو الموضوع الشديد الغموض — لم يكن له ذلك الأثر الضيق الذى كان لهذا الكتاب ، ولم يكن ارتياح الناس له محصوراً فى القليل منهم ، وذلك لأنه كان موضوع محاضراته التى ألقاها فى عام ١١٢٠ ، وموضوع كتابه فى *وحدانية الله والتثايت* . وقد كتب هذا الكتاب ، كما يقول هو نفسه : « لطلابى لأنهم كانوا على الدوام يبحثون عن المعقول وعن الشروح الفلسفية ، ويسألون عما يستطيعون فهمه من الأسباب لا عن الألفاظ دون غيرها ، ويقولون إن من العبث أن ننطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها ، وإنه لا شئ يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولاً ، وإن من أسخف الأشياء أن يعطى إنسان غيره بشئ لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه (٢٦) » .

وهو يقول إن هذا الكتاب « انتشر انتشاراً واسعاً جداً » وإن الناس أعجبوا بما فيه من دقة . وقد أشار فيه إلى أن وحدة الله هى النقطة الوحيدة التى يتفق فيها أعظم الأديان وأعظم الفلاسفة . ففى الله الواحد الأحد تشهد قدرته بوصفه الأقنوم الأول ، وحكمته بوصفه الأقنوم الثانى ، ونعمته ، وإحسانه ، وجهه بوصفها الأقنوم الثالث . وهذه كلها نواح أو أعراض من الجوهر القدسى ؛ ولكن جميع أفعال الله تتضمن وتجمع فى الوقت عينه قدرته ، وحكمته ، وجهه (٢٧) . وقد شعر كثيرون من رجال الدين بأن هذا التشبيه مما يمكن التجاوز عنه والسماح به ؛ ورفض أسقف باريس ما طلبه إليه روسلان — وكان قد أصبح وقتئذ شيخاً طاعناً فى السن مستمسكاً بالدين — أن يتهم أبلار بالكفر ؛ ودافع جيفروى Geoffroy أسقف شارتر عن أبلار طوال فترة السخط الذى حل بهذا الفيلسوف المستهتر . ولكن ألبريك Alberic ولوتالف ، وهما مدرسان فى ريمس كانا قد تنازعا مع أبلار فى لاون عام ١١١٣ ، حرضاً كبير الأساقفة على أن يأمره بالهجر إلى سواسون ومعه كتابه عن التثايت ، وأن يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلما قدم أبلار إلى سواسون (١١٢١) وجد أن الغوغاء قد أثروا عليه ، وأنهم

« يوشكون أن يرجوني بالحجارة . . . لاعتقادهم أنى قلت بوجود آلهة ثلاثة » (٢٨) . وطاب أسقف شارتر أن يستمع المجلس إلى دفاع أبلار عن نفسه ، ولكن ألبريك وغيره رفضوا طلبه بحجة أن أحداً لا يستطيع أن يدحض حجج أبلار ولا يسعه إلا أن يقتنع بأقواله . وأدانه المجلس من غير أن يستمع إليه ، وأرغمه على أن يلقي كتابه في النار ، وأمر رئيس دير القديس ميدار Medard أن يحجزه في الدير سنة كاملة ، ولكن مرسوماً بابوياً أفرج عنه بعد وقت قصير ، وأعادته إلى دير القديس دنيس .

وقضى أبلار في الدير سنة في شجار دائم مع رهبانه المشاكسين ، ثم حصل بعد ذلك من رئيس الدير الجديد سوجر Suger العظيم على إذن بأن يبني لنفسه صومعة في بقعة منعزلة في منتصف المسافة بين فونتينبلو Fontainebleau وتروى (١١٢٢) ، وهناك أقام بمعونة رفيق في الدرجات الدنيا من الرهبنة مصلى صغيرة من القش والغاب سماها « الثالث المقدس » . ولما سمع الطلاب أنه قد أجز له مرة أخرى أن يُدرّس أقبلوا عليه ، وجعلوا من أنفسهم مدرسة عاجلة مرتجلة ، وبنوا أكواخاً بجوار المصلى ، وناموا على القش والبوص ، وطعموا « الخبز الخشن وأعشاب الحقول » (٢٩) . وظهر في هذا المكان تعطش للعلم ما لبث أن أوجد الجامعات وملأها بالطلاب . ولاحق أن العصور المظلمة أضحت في هذا المكان وكأنها كابوس أوشك أن يدرج في طيات النسيان . وأخذ الطلاب ، في نظير ما يليق به من المحاضرات ، يحرقون الأرض ، ويقيمون الأبنية ، وأنشأوا له مصلى جديدة من الخشب والحجارة سماها الروح القدس ، كأنه يريد أن يقول إن حب مريديه قد نزل عليه نزول الروح القدس في اللحظة التي فر فيها من المجتمع إلى العزلة واليأس .

ولم تكن الثلاث السنين التي قضاها في ذلك المكان أقل سعادة من أية سنين عرفها من قبل . وأخير لظن أن المحاضرات التي ألقاها على هؤلاء

الطلاب المشوقين قد احتفظ بها وأعيدت صياغتها في كتابين يسمى أحدهما الدين المسيحي Theologia Christiana ويسمى الثاني الدين Theologia لا غير ، وكانت العقائد الواردة في الكتابين مطابقة للدين القويم ، ولكن العصر الذي كان حتى ذلك الوقت غريباً عن معظم آراء الفلاسفة اليونانية قد راعه بعض الشيء أن يجد في الكتابين إشارات إلى المفكرين الوثنيين مصحوبة بالثناء عليهم ، كما وجد فيها ما يشير إلى أن أفلاطون أيضاً قد استمتع إلى حد ما بالإلهام الإلهي (٣٠) . ولم يكن في وسع أبلار أن يعتقد أن جميع هذه العقول العظيمة الفذة السابقة للمسيح قد فاتتها أسباب النجاة (٣١) ، وأصر على أن الله يفيض حبه على جميع الناس ، وفيهم اليهود والكفار (٣٢) ، وعاد أبلار في غير ندم يدافع عن تحكيم العقل في أمور الدين ، وقال إن الملحدين يجب أن يردوا عن إلحادهم بالعقل والمنطق لا بالعنف (٣٣) ، وإن الذين يوصون بالإيمان بلا فهم إنما يسعون في كثير من الأحيان لستر عجزهم عن أن يعلموا الدين تعليماً يدركه العقل (٣٤) ، وتلك شوكة نفذت من غير شك في جلود بعض الناس ! فقد يبدو أن أبلار حين يحاول تفسير الدين المسيحي تفسيراً ينطبق على العقل والمنطق ، لم يجرؤ على أكثر مما حاوله الإسكندر الهاليسي Alexander of Hales ، وألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس من بعده ؛ ولكن أبلار حاول أن يدخل أكثر عقائد الكنيسة خفاء وأعمقها غوراً في قبضة العقل ، على حين أن تومس رغم شجاعته وجراته ترك مسألة التثليث ، وخلق العالم في زمن محدد ، لإيمان بعيد عن متناول العقل ، وفوق إدراكه .

وخلقت له جراته على هذا التفكير وحدة ذهنه المتجددة أعداء جدداً . فقد كتب يشير في أغلب الظن إلى برنار الكليرفوكسي Bernard of Clairvaux ونوربرت Norbert مؤسس طائفة البريمنسترانسين يقول :

يهول بعض الرسل الجدد ، الذين يثق العالم فيهم أعظم الثقة ، هنا وهناك ...

ينهبون عرضي دون حياء . ولا يتركون لذلك سبيلا إلا سلكوها . حتى أفلحوا على مر الزمن في أن يجعلوني هدفاً لسخرية الكثيرين من ذوى السلطان . . . ويشهد الله أنني كلما علمت بأن اجتماعاً جديداً لرجال الدين قد دعى إلى الانعقاد ، اعتقدت أنهم لم يدعوا إلا لغرض واحد صريح هو إدانتي (٣٥) .

ولعنه أراد أن يكسب أولئك الناقدين . فترك التدريس وقبل دعوة وجهت إليه بأن يكون رئيس دير القديس جلداس في بربطاي (١١٢٥ ؟) . ولكن أرجح من هذا أن سوجر هو الذى نظم بدهائه وحكمته هذه الثقة . ومثلاً لهذا أن تسكن العاصفة . وكان في هذا الانتقال ترقية لأبلار وسجن له في وقت واحد ، فقد أنفى الفيلسوف نفسه وسط سكان من « البرابرة » الذين « لا يفهمون » ، وبين رهبان « أدنياء لا يُروّضون » يعيشون جهرة مع حضراتهم (٣٦) . ونظر أولئك الرهبان من إصلاحاته فلدسوا له اسم في نكأس التى كان يشرب منها وقت الغشاء الرباني ، فلما خاب تدبيرهم هذا رشوا خادمه بأن يفس له اسم في طعام ؛ ولكن راهباً غيره تناول الطعام « وخر صريعاً من فوره » (٣٧) ؛ غير أن مرجعنا الوحيد في هذه الأقوال هو أبلار وحده . واستبسل أبلار في التضامن في هذه المعركة لأنه بقي في هذا المكان المنعزل إحدى عشرة سنة تنخبها بعض فترات كان في أثنائها بعيداً عنه .

الفصل الرابع

رسائل هلواز

ومرت به فترة من السعادة المعتدلة حين قرر سوجر أن يستخدم البيت الذى فى إرچنتى لأغراض أخرى غير الدير . وكانت هلواز مذ افترت عن أبلار قد عكفت فى هذا البيت على أداء الواجبات التى تفرضها عليها حياة الراهبة حتى عينت رئيسة الدير و « علت مكانتها عند الجميع . . . فأحبها الأساقفة . حب الآباء للأبناء ، وأحبها رؤساء الأديرة حب الإخوة للأخوات ، وأحبها غير رجال الدين كما يحب الأبناء الأمهات . » ولما علم أبلار أن هلواز ومن معها من الراهبات يبغضن عن مكان لهن جديد ، عرض عليهن مصلى « الروح القدس » ومبانيها ، وذهب بنفسه ليساعدهن على تنظيم إقامتهن فى مقرهن الجديد . وكثيراً ما كان يزورهن ليعظهن ويعطى القرويين الذين أقاموا بالقرب منهن . وهمس النمامون « أننى لا زالت تسيطر على مباحج الحب الأرضى ، وأنا الذى لم أكن أطيع فى الأيام الخالية أن أفارق من امتلاء قلبى بحبها » (٣٨) .

وكانت هذه الفترة المضطربة التى قضها رئيساً لدير القديس جلداس هى التى كتب فيها سيرته « تاريخ مصائى » (١١٣٢) . ولسنا نعرف الباعث له على كتابة هذه السيرة ، فهى تتخذ شكل مقالة يواسى بها صديقاً يشكو بؤسه ، « حتى إذا وازنت أحزانك بأحزاني ، رأيت أن أولاهما ليست إلى جانب الثانية بالتي تستحق الذكر » ؛ ولكن يبدو أن هذه السيرة كان يقصد بها أن يطلع عليها العالم ، وأن تكون اعترافاً أخلاقياً ، ودفاعاً دينياً . وتقول رواية قديمة ، ولكنها مما لا يمكن تحقيقه ، إن نسخة من الكتاب وصلت إلى يد هلواز ، وإنها ردت عليه هذا الد العجيب :

« إلى سبدها ، بل أبيها ، إلى زوجها ، بل أخيها : من خادمته ، بل ابنته ، من زوجته ، بل أخته : إلى أبلار ، من هلواز :

« لقد جئى إلى مصادفة منذ زمن قريب بخطابك الذى كتبته يا حبيبى تعزية إلى صديق ... وقد حوى أشياء لا يستطيع أحد أن يطلع عليها دون أن تفيض عيناه بالدمع لأنها تجدد أحزاني كاملة... فباسم الله الذى لا يزال يرفعك... باسم المسيح ، ونحن خادماته وخادماتك ، نستحلفك أن تتفضل فتخبرنا فى رسائل منك متتابعة عن المصائب التى لازالت تتقاذفك حتى نشاركك على الأقل فى أحزانك ومسرارك ، نحن الذين بقينا على الدوام أوفياء لك... »

« إنك لتعرف يا أعز الناس على — وإن الناس كلهم ليعرفون — ماذا خسرتُ بفقدك ... لقد بدلت ثيابى وقلبى طوعاً لأمرك ، كنى أظهر لك أنك مالك جسمى وعقلى ... ولم أكن أنطلع إلى عهد الزواج ، أو إلى مهر تمهرنى به ... وإذا كان اسم الزوجة يبدو أكثر قداسة وأقوى رابطة ، فإن أحب إلى ، اسم الصديقة منه وأعذب على الدوام ؛ أو ، إذا لم يكن فى هذا ما تستحى منه ، اسم العشيقة أو العاهرة ... وإنى لأشهد الله لو أن أغسطس الذى حكم العالم كله رأى أنى خليفة بأن يكون لى شرف الزواج به ، وأن يملكنى العالم بأسره أحكمه حكماً يدوم أبداً الدهر ، لكان قولم إنى مومسك أحب إلى من قولم إنى إمبراطورته ... »

« وهل بين الملوك أو الفلاسفة من يضارعك فى شهرتك ؟ وأية مملكة أو مدينة أو قرية لم تتحرق شوقاً لروثتك ؟ ومن من الناس لم يستحث الخطى لينظر إليك ، حين تبدو أمام الجماهير ؟ ... وأية زوجة ، وأية عذراء ، لم تتلهف عليك وأنت غائب ، أو تتحرق شوقاً إليك وأنت حاضر ؟ وأية ملكة أو سيدة ذات سلطان لم تحسدى على مباحجى وفراشى ؟ »

« هلا حدثتني عن شيء واحد إن استطعت : لم أهملتنى ونسيتنى ، بعد أن سلكتُ سبيل الحياة الدينية التى كنت أنت دون غيرك الأمر بها ، فلم أحظ بعدئذ

بكلمة منك أو نظرة إليك تبتهج بها نفسى ، أو رسالة منك غيبتيك يرتاح لها قلبي ؟ ألا فحدثنى عن شىء واحد لا أكثر إن استطعت ، أو دعنى أفض إليك بما أحس به ، بل ما يظنه الناس جميعاً : إن الشهوة الجنسية لا الحب هى التى وثقت الصلة بينى وبينك ... فلما أن نلت ما تبغيه ، زال من فوره كل ما كنت تتظاهر به ... ليس هذا يا أحب الناس إلىّ ، ما أظنه أنا وحدى ، بل ما يظنه الناس جميعاً ... وكم كنت أتمنى أن يكون هذا ظنى دون غيرى ، وأن يجد حبك من يبرره غيرى فتخفّ بذلك بعض الشىء لواعج أخزائى .

« أتوسل إليك أن تستمع لما أطلبه إليك ... فى الوقت الذى أنخادع نفسى فيه بوجودك معى فى ألفاظك المكتوبة على الأقل — وهى ألفاظ لديك منها الشىء الكثير — أهد إلىّ صورتك الحلوة ... فأنا أستحق منك أكثر منها ... بعد أن فعلت من أجلك كل ما يمكن فعله ... أنا التى غويت حياة الدير الحشنة فى سن الشباب ... لاعتن تقى وحب للدين بل إطاعة لأمر لالشىء سواه .. ولست أنتظر ثواباً من الله على هذا العمل ، لأننى لم أعمل شيئاً لوجه الله كما تعرف ذلك حق المعرفة ... ولذلك أستحلفك باسم الذى وهبت له نفسك ، وأتوسل إليك أمام الله أن تعبد إلىّ وجودك بأية سبيل فى استطاعتك ، ولو بكلمة منك تخفف عنى آلامى ... وداعاً يا كل من أحب » (٣٩) .

لكن أبلار كان عاجزاً عاجزاً جسمىاً عن أن يستجيب إلى هذه العواطف الجياشة بعواطف من نوعها ، ولهذا كانت الرسالة التى تعزوها إليه الرواية المتواترة تذكرها لها بالنذر الدينى الذى نذر له نفسه : « إلى هلاواز أخته العزيزة فى المسيح ، من أبلار أخيها فى المسيح نفسه » ، وهو يوصيها بأن تقبل ما حل بهما من مصائب خاضعة لها ، راضية بها ، على أنها تطهير وعقاب للنجاة من عند الله .. ويطلب إليها أن تدعو له ، ويأمرها أن تخفف من أحزانها بأملها فى أن يجتمعا معاً فى السماء ، ويرجوها أن تواريه الثرى حين يموت فى أراضى « الروح

القدس . وتعيد في رسالتها الثانية عبارات الهيام وعلم التقي فتقول : « لقد كنت على الدوام أخشى أن أغضبك ، لأن أغضب الله ، وأعمل على رضائك أكثر مما أعمل على رضائه ... فانظراية حياة تعسة لابد أن أحيائها إذا كنت أقاسى كل هذا عبثاً ، لا أمل لي في أن أثاب عليه في المستقبل . لقد ظلمت ، كما ظل الكثيرون غيرك زمناً طويلاً مغروراً بخداعي وتمويهى فحسبت النفاق ديناً^(٤٠) . فيجيبها بأن المسيح ، لا هو ، قد أحبا بحق : لقد كان هيامى شهوة جنسية لا حباً . ولقد أشبعت شهوى الدنيئة فيك ، وكان هذا كل ما أحبت ... فاذرى الدمع من أجل منقذك لا من أجل من أغواك ، من أجل منجلك لا من أجل مدنسك^(٤١) . ثم يؤلف دعاء مؤثراً يطلب إليها أن تتلوه من أجله . ونبدو في رسالتها الثالثة وقد استسلمت لموت حبه الدنيوى : ولا تطلب إليه وقتئذ إلا قاعدة جديدة تستطيع هى ومن معها من الراهبات أن يخين بها حياة دينية حقة . ويستجيب هو إلى رغبتها ويضع لمن دستوراً رحباً معتدلاً ، ويكتب مواظ يقوى بها إيمانهن . ويبعث بهذه كلها إلى هلواز موقعة بتوقيع دقيق : « وداعاً في الرب إلى خادمتي ، من كانت في وقت ما عزيزة على في هذا العالم . وأضحت الآن أعز الناس في المسيح » . لقد كان في ثانيا قلبه انخبط لا يزال يزال يهيم بحبا .

وبعد . فهل هذه الرسائل الشهيرة حقيقية ؟ إن هذه المشكلة لتواجهنا قوية مستعصية . يقال إن أولى رسائل هلواز قد كتبت على أثر ظهور كتابه تاريخ مصائبي وهو يذكر فيه عدة زيارات قام بها أبلار لهلواز في الروح القدس ؛ ومع هذا فهى تشكو أنه أغفلها . ولكن لعل تاريخه قد ظهر أجزاء منقطعة ، وأن الأجزاء الأولى منه وحدها هى السابقة على الرسالة . ثم إن النزعة الشهوانية الجريئة الضاهرة في بعض فقراتها تبدو غير معقولة لصدورها من امرأة أكسها تقاها وتغانيها في أمور الدين مدى أربعة عشر عاماً ذلك الإجلال انسابى عند جميع الناس . وهو الإجلال الذى يشهده بطرس المبجل Peter the Venerable

كما يشهد به أبلار . يضاف إلى هذا ما في الرسائل من تنميق بلاغى ومقتبسات من كتب الأدب القديم ، ومن كتب الآباء ، دالة على التحذلق والتكلف لا يمكن وجودها في عقل يحس إحساسا صادقا بالحب أو التقي أو الندم . وفوق هذا كله فإن أقدم مخطوطات هذه الرسائل يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر . ويبدو أن جان ده مونج قد ترجمها من اللغة اللاتينية إلى الفرنسية في عام ١٢٨٥ (٤٢) . وإلى أن نجد أدلة أكثر مما لدينا قوة فإن لنا أن نختتم هذا الفصل بقولنا إنها من أبداع الوثائق المزورة في التاريخ ، وإن حوادثها غير موثوق بصحتها ، ولكنها قسم خالد لا يفنى من أدب فرنسا الغرامى (٤٣) .

الفصل الخامس

المدين

لسنا نعرف متى فر أبلاز من منصبه العالى فى رياسة الدير ومما كان يعانيه من آلام أو كيف أتيج له هذا الفرار . فهاهو يوحنا السلزبرى يقول إنه استمع إلى محاضرات أبلاز على جبل سانت چنثييف فى عام ١١٣٦ ، كذلك لانعرف أى رخصة أجازت له أن يعود إلى التعليم ، ولعله لم يطلب ترخيصا ما ، ولعله قد استهزأ فى وقت ما بآداب الكنيسة فثار عليه رجالها وسلكوا ضده سبلا ملثوية أدت إلى سقوطه الأخير .

ولإذا كان إخصاؤه قد أزال رجولته ، فإننا لانرى أثراً لهذا فى الكتب التى نقلت إلينا أسس تعاليمه . وإن من الصعب علينا أن نجد فيها خروجاً صريحاً على الدين ، وإن كان من اليسير أن نجد فيها فقرات أثارت بلا ريب غضب رجال الدين . من ذلك أنه يقول فى كتاب له عن فلسفة الأخلاق عنوانه اعرف نفسك Scito te ipsum إن الخطيئة ليست فى العمل نفسه بل فى نية العامل ، وإن العمل أبداً كان — حتى القتل نفسه — ليس خطيئة فى ذاته . مثال ذلك أن أما لم تجد لديها من الثياب ما يكفى لتدفئة طفلها فضمتها إلى صدرها وأماتته خنقاً على علم منها ، لقد قتلت هذه الأم طفلها الحبيب إليها فعاقبها القانون العقاب الذى تستحقه كى يصبح غيرها من النساء أكثر منها عناية ، ولكن هذه الأم بريئة من الذنب عند الله . وفوق هذا فلكى تكون هناك خطيئة ، يجب أن يكون مرتكبها قد خالف ضميره الأخلاقى لاضمير غيره من الناس وحدهم ، وعلى هذا فإن قتل الشهداء المسيحيين لا يعد إثماً ارتكبه الرومان الذين كانوا يشعرون بأن

اضطهاد هؤلاء المسيحيين واجب للإبقاء على دولتهم أو دينهم الذى خالوه صحبياً .
وأكثر من هذا « أن الذين اضطهدوا المسيح أنفسهم أو اضطهدوا أتباعه ،
وهم يرون من واجبهم أن يضطهدوهم ، قد ارتكبوا إثماً من حيث عملهم ،
ولكن لوأنهم امتنعوا عن اضطهادهم مخالفين بذلك ما تمليه عليهم ضمائرهم
لارتكبوا بذلك إثماً أكبر » (٤٤) . قد يكون هذا كله منطقاً سليماً ومثيراً
معا ، ولكن إذا أخذ بهذه النظرية فإن عقيدة الخطيئة من أولها إلى آخرها
من حيث مخالفتها لأوامر الله معرضة لأن تتبخر في تيار الجدل القائم حول
النيات فلا يبقى لها وجود قط ؛ فأى الناس ، إذا استثنينا القديس بولس
وعدها قليلاً ممن هم على شاكلته ، يعترف بأنه عمل ما يخالف ضميره ؟
وكانت ست فقرات من الفقرات الست عشرة التى أدين أبلار من أجلها فى عام
١١٤١ مأخوذة من هذا الكتاب .

وكان الذى أزعج الكنيسة أكثر من أى إلحاد معين تبينته عند أبلار هو
افتراضه أن لا أسرار الدين ، وأن العقائد كلها يجب أن تكون قابلة للتفسير
القائم على العقل ، ولم يكن ثمة غرابة فى صدور هذا القول منه . ألم يكن ثمة
بنشوة المنطق الذى جروا على أن يربطه بكلمة الله ويكاد يجعله من العلوم
القدسية ؟ (٤٥) . ولنا أن نتساءل كم من العقول القاصرة غير الناضجة التى تأثرت
بجراثيمة ذلك التحليل المنطقى قد ضلت طريقها بحججه الطولية المؤيدة والمعارضة
إذا سلمنا بأن هذا الاستاذ الذى افتتن به الناس وأغواهم قد وصل بأساليب غير
مستقيمة إلى نتائج صحيحة سليمة ؟ ولوأنه لم يكن له أمثلة من نوعه لترك شأنه
دون أن يناله أذى ، رجاء ألا يطول أجله . لكنه كان له أتباع متحمسون ،
وكان ثمة معلمون غيره - ولیم الكنشى William of Conches ، وجلبرت
ده لا برية Gibert de la Porrée ، وبرنجر الثورى Berenger of Tours -
وكانوا كلهم يضعون الدين على مشرحة العقل . فإذا ظل هذا التيار يجرى فى
مجراه ، فلما متى تستطيع الكنيسة أن تحتفظ بوحدة العقيدة الدينية وقوة الإيمان

اللتين يقوم عليهما — فيما يبدو لها — نظام أوربا الأخلاقى والاجتماعى ؟ ألم يشرع آرنولد البرشيانى Arnold of Brescia أحد تلاميذ أبلار يشعل فعلا نار الثورة فى إيطاليا ؟

وأكبر الظن أن هذه الاعتبارات أو نحوها هى التى أوقفت القديس برنار موقف العداء جبهة أمام أبلار . ذلك بأن حارس الدين الحريص على سلامته قد اشم رائحة الخطر الذى يهدد معتنقيه ، فقاد المؤمنين إلى النضال . وكان من وقت بعيد ينظر بعين الارتياح إلى هجمات العقل الجريء المتربص بالدين ؛ ويبدو له أن طلب العلم إذا لم يقصد به خدمة الدين هو الوثنية بعينها ؛ أما أن يحاول إنسان تفسير الأسرار المقدسة بقواعد العقل والمنطق فهو المعصية والحماقة ؛ والعقل الذى يبدأ بتفسير هذه الأسرار الخفية سينتهى آخر الأمر إلى تدنيها . ولم يكن القديس بالرجل الشرس المتربص للشر ؛ ذلك أنه لما أن لفت وليم التيرى أحد رهبان ريمس نظره فى عام ١١٣٩ إلى ما فى تعاليم أبلار من خطر ، وطلب إليه أن يهتم الفيلسوف ، صرف الراهب من عنده ولم يفعل شيئا . ولكن أبلار نفسه استعجل الأمور بأن كتب إلى كبير أساقفة سان Sens أن تتاح له أثناء انعقاد مجلس الكنيسة المقبل فى تلك المدينة ، فرصة يدفع فيها عن نفسه تهمة الإلحاد التى يذيعها بعضهم عنه . ووافق كبير الأساقفة على هذا الطلب ، لأنه لم يكن يرى بأسا فى أن يكون كرسىه قبلة العالم المسيحى ؛ وأراد أن يكون الكفاح قويا فدعا برنار إلى الحضور ، ولكنه أبى وقال إنه سيكون فى حلبة الجدل « طفلا لا أكثر » أمام أبلار الذى تدرب على المنطق أربعين عاما ؛ غير أنه كتب إلى عدد من الأساقفة يحثهم على الحضور للدفاع عن الدين :

« يحاول بطرس أبلار أن يقوّض فضائل الدين المسيحى حين يدعى لنفسه القدرة على فهم الله فهما كاملا بالاعتماد على العقل البشرى . فهو يرقى إلى السموات العلا ، وينزل إلى الأغوار السحيقة ؛ ولا يستطيع شئ أن يخفى

عنه . . . وهو لا يكتفى بأن ينظر إلى الأشياء من خلال المنظار نظرة غير واضحة ، بل يرى أن لا بد له من النظر إلى الأشياء وجهاً لوجه . . . إن فيه لشبهاً بأريوس حين يتحدث عن التثليث ، وببلاجيوس Pelagius حين يتحدث عن البركة ، ونسطور بوس حين يتحدث عن شخص المسيح . . . إن دين المتقين هو الإيمان والتصديق ، لا المجادلة ؛ أما هذا الرجل فليس له عقل يصدق به ما لم يسبق له أن ناقشه بمنقطه (١٦) .

وتغلب أتباع برنار عليه ، وأظهروا له ضعفهم ، فاضطروه إلى الحضور ؛ فلما أقبل أبلار على سان (يونية سنة ١١٤٠) وجد الجماهير ، كما وجدها في سواسون قبل ذلك الوقت بتسعة عشر عاما ، ناثرة عليه لجرد وجود برنار في المدينة ، ولعدائه الشديد له ، حتى لم يكن يجرؤ على الظهور في شوارعها . أما كبير الأساقفة فقد حقق حلمه ، لأن سان بدت أسبوعاً كاملاً وكأنها مركز العالم كله . لقد جاء إليها ملك فرنسا تحف به حاشيته الفخمة ، وأقبل عليها عشرات من كبار رجال الكنيسة ، وكان برنار الذي أقعدته الرثية وعلت وجهه صرامة القداسة يبعث الرعب في قلوبهم جميعاً ؛ وكان بعض أولئك الأخبار قد أحسوا فرادى أو مجتمعين بوخز الطعنات التي وجهها أبلار لمعائب رجال الدين ، ولفساد أخلاق القساوسة والرهبان ، وبيع صكوك الغفران ، واختراع المعجزات الزائفة . وأيقن أبلار أن المجلس سيدينه ، فحضر جلسته الأولى وأعلن أنه لن يرضى بأن يحكم عليه غير البابا نفسه ؛ ثم غادر الاجتماع وخرج من المدينة . ولم يكن المجلس واثقاً ، بعد أن طلب إليه التناحي عن الحكم ، أن من حقه قانوناً أن يحاكم أبلار ؛ ولكن برنار أكد له أن هذا من حقه ، فأخذ المجلس يطعن في ست عشرة مسألة منتزعة من كتب أبلار ، ومن بينها تعريفه للذنب ، ونظريته في التثليث التي يقول فيها إنه هو القدرة ، والحكمة ، والحب من صفات الإله الواحد .

وسافر أبلار إلى رومة ليعرض قضيته على البابا وهو لا يكاد يملك شروى نقر ،

واعترضه في السفر شيخوخته وضعفه فتأخر كثيراً في الطريق . ولما وصل إلى دير كلوني في برغنديّة استقبله بطرس المبجل بالشفقة والحنان ، فاستراح في الدير بضعة أيام قلبلة . وفي هذه الأثناء أصدر إنوسنت الثاني قراراً بالتصديق على حكم المجلس ، وفرض الصمت الدائم على أبلار ، والأمر بحجزه في أحد الأديرة . ورغب أبلار بالرغم من صدور هذا القرار أن يواصل حججه ، ولكن بطرس أقنعه بالألا يفعل ، وقال له إن البها لا يمكن أن يصدر قراراً يخالف ما يراه برنار . وخضع أبلار لهذا الرأي لما عاناه من الإعياء الجسمي والروحي ، فصار راهبا في دير كلوني واختفى في ظلام أسواره وطقوسه ، وقوى روح زملائه الرهبان بتقواه ، وصمته ، وصلواته . وكتب إلى هلواز — التي لم يرها قط بعد ذلك الوقت — يعترف اعترافاً مؤثراً بإيمانه بتعاليم المسيح ، وألف لها في أغلب الظن ، ترانيم من أجل ما يحتويه أدب العصور الوسطى . وتعزى إليه « مرثية » في صورة رثاء من داود إلى يوناثان ، ولكن في وسع أي قاوي أن يلحق فيها أنيئاً رقيقة :

لو قد رلى أن أرقد معك في قبر واحد

لرأيت السعادة في أن أموت ،

فلست أعرف من النعم التي يمكن أن يهبها الحب في هذه الدنيا ما هو

أعظم من هذه النعمة .

ولو أنني عشت بعد أن تموتين ويبرد جسمك

لكان ذلك هو الموت الأبدي ،

ولن يكون في شبحي نصف روح

يمسك على حياتي أو نصف نفسي .

هأنذا ، ألقى قيثارى ،
ألا ليتنى أستطيع
أن أمسك كذلك دموعى وأنيقى !
لقد آلم العزف يدى
وبحّ صوتى
من فرط الحزن ، وحل بروحى الإعياء .

وأصابه المرض بعد هذا الوقت بقليل ، وأرسله رئيس الدير الرحيم إلى
دير القديس مارسل St. Marcel بالقرب من شالون ليبدل فيه الهواء ؛
وهناك وفى اليوم الحادى والعشرين من إبريل عام ١١٤٢ وافته المنية وهو
فى السادسة والثلاثين من عمره . ودفن فى كنيسة الدير ؛ ولكن هلواز
ذكرت بطرس المبجل بأن أبلار قد طلب فى حياته أن يدفن فى « الروح
القدس » . وجاء إليها الرئيس الرحيم نفسه بالحنة ، وحاول أن يواسيها
بالتحدث عن حبيبها الميت بأنه سقراط زمانه وأفلاطونه وأرسطوطاليسه ؛
وترك معها رسالة تفيض بالحنان المسيحى :

وهكذا يا أختى العزيزة المعظمة فى الله ، إن الرجل الذى اجتمعت
ولمياه ، بعد رابطتكما الجسمية ، برابطة خير منها وأقوى هى رابطة الحب
المقدس ، والذى خدمت . : : الله معه ، هذا الرجل يأخذه الله بدلا منك ،
فهو صورة أخرى منك ، وينفث فيه دفء صدره ؛ ويحتفظ به حين
يُندوى صوت الملاك الأكبر ، وينفخ فى الصور من السموات العلى ، ليرده
إليه نعمة منه ورحمة (٤٨) .

ولحقت بحبيبها فى عام ١١٦٤ بعد أن بلغت من السن ما بلغه هو ،
وكادت تنال من الشهرة مثل ما ناله . ودفنت بجسواره فى حديقة
« الروح القدس » .

«ودمرت هذه الحديقة في أثناء الثورة الفرنسية ، وعبثت الأيدي بالقبور ، ولعلها اختلط بعضها ببعض . ثم نقل ما يظن أنه رفات أبلار وهلواز إلى مقبرة الأب لوشيز Père Lachaise بباريس عام ١٨١٧ . وهناك ترى الرجال والنساء إلى يومنا هذا يأتون في أيام الأحد من فصل الصيف يحملون الأزهار ليزينوا بها القبر (*) .

(*) لقد أوردنا قصة أبلار وهلواز ورسائلهما في كتابنا « أشهر الرسائل العالمية »
فليقرأها من أراد الاطلاع على هذه السيرة العجيبة . (المترجم)

الباب السادس والثلاثون

مغامرات العقل

١١٢٠ - ١٣٠٨

الفصل الأول

مدرسة شارتر

ترى كيف تفسر تلك السورة الفلسفية العجيبة التي بدأت بأنسلم ، وروسلان ، وأبلار ، وبلغت ذروتها في ألبرتس مجنس والقديس تومس أكوناس ؟ لقد كان لهذه السورة ، كما هي العادة ، كثير من الأسباب : منها أن الشرق اليوناني لم يكن قد تخلّى قط عن تراثه الثقافي القديم ، بل كانت كتب الفلاسفة الأقدمين تدرس في كل قرن في القسطنطينية ، وأنطاكية ، والإسكندرية ؛ وكان رجال أمثال ميخائيل بسلس Michael Psellus ، ونقفورس بلميدس Nicephorus Blemydes (١١٩٧؟ - ١٢٧٢) ، وجورج بشميرس George Pachymeres (١٢٤٢؟ - ١٣١٠) ، وبارهبريوس Bar Hebraeus السورى (١٢٢٦؟ - ١٢٨٢) كان رجال من أمثال هؤلاء مطلعين على مؤلفات أفلاطون وأرسطو بلغتها الأصاية ؛ وأخذ المعلمون اليونان يدخلون بلاد الغرب كما أخذت المخطوطات اليونانية تدخلها تدريجاً . وحتى في تلك البلاد نفسها كان قليل من التراث اليوناني قد بقى بعد العاصفة البربرية ؛ فقد بقى الجزء الأكبر من أرغنون أرسطو في المنطق ، ومن كتابي مينومو وتيماوس لأفلاطون ، وكانت

الصورة التي رسمها هذا الفيلسوف لإر Er هي التي لوّنت خيال المسيحيين عن الجحيم . وقد جاءت الموجات المتتابعة من الكتب العربية واليونانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بما تحتويه الفلسفتان اليونانية والإسلامية من أفكار جديدة تتحدى الأفكار المسيحية وتختلف عنها اختلافاً يهدد باكتساح لاهوت العالم المسيحي كله إذا لم تنشئ المسيحية لها فلسفة مناهضة لها . على أن هذه المؤثرات لم تكن تستطيع أن تنشئ تلك الفلسفة المسيحية إذا كان الغرب قد ظل فقيراً كما كان ؛ أما الذي جعل لهذه العوامل أثراً فعالاً فهو نمو الثروة حين أخذت الزراعة تغزو القارة الأوروبية ، واتسع نطاق التجارة والصناعة ، وتكاثرت الأموال وما تؤديه من خدمات . وتعاونت هذه النهضة الاقتصادية مع تحرر المدن ذات الحكم الذاتي ، وقيام الجامعات ، وإحياء الآداب اللاتينية والقانون الروماني ، وتقنين الشريعة الكنسية ، ومجد الفن القوطي ، وازدهار الأدب الخيالي ، و « علم » الشعراء الغزلين « المرح » ، واستيقاظ العلوم ، وبعث الفلسفة ، تعاونت هذه كلها على إيجاد « نهضة القرن الثاني عشر » .

وجاء في أعقاب الثروة الفراغ ، والدرس ، والمدارس ، وكانت كلمة Scholê تعني في أول الأمر الفراغ . وكان الأسكلاستكوس scholasticus هو المدرس أو الأستاذ ، كما كانت عبارة « الفلسفة المدرسية » تعني الفلسفة التي تدرس في مدارس العصور الوسطى الثانوية أو في الجامعات التي نشأت كثرتها الغالبة من هذه المدارس الثانوية . كذلك كانت « الطريقة المدرسية » هي أسلوب الجدل الفلسفي والعرض الفلسفي اللذين يستخدمان في هذه المدارس . وإذا ما استثنينا فصول أبلار التي كانت في باريس أو قريبة منها ، فقد كانت مدرسة شارتر أكثر هذه المدارس نشاطاً وأعظمها شهرة ؛ ففيها امتزجت الفلسفة بالأدب ، وكان في وسع من يتخرج فيها أن يكتب في المسائل الخفية العويصة بالوضوح والظرف اللذين أصبحا من التقاليد المشرقة في فرنسا . وكان أفلاطون ، الذي جعل هو

أيضاً الفلسفة مفهومة مستساغة ، من الفلاسفة المحبيين هناك ؛ وفيها سوّى النزاع القائم بين الواقعيين والقائلين بأن الكليات إن هي إلا ألفاظ وليس لها وجود حقيقي في العقل أو خارجه ، سوّى هذا النزاع بقولهم إن الكليات « الحقيقية » هي بعينها الأفكار الأفلاطونية ، أو النماذج الأولى الخلاقة التي في عقل الله . وبلغت مدرسة شارتر ذروة نفوذها في عهد برنار أحد مواطنيها (حوالي ١١١٧) وأخيه ثيودريك (حوالي ١١٤٠) ؛ وكان ثلاثة من تلاميذها يسيطرون على ميدان الفلسفة بأوروبا الغربية في النصف القرن التالي لحياة أبلار وهم : وليم الكوشى ، وجلبرت ده لا بـُريّه ، ويوحنا السلزبرى .

ويتبين الإنسان اتساع مجال الفلسفة المدرسية بوضوح عجيب في سيرة وليم الكوشى (١٠٨٠؟ - ١١٥٤) . فقد كان رجلاً ملماً بكتب أبقراط ، ولكريشيوس ، وحنين بن إسحق ، وقسطنطين الأفريقى ، بل وحتى دمقريبطس نفسه^(١) . وقد افتتن بالنظرية الذرية ، واستنتج أن جميع أعمال الطبيعة تبدأ في الأصل باجتماع الذرات ، ويصدق هذا على أرقى عمليات الجسم البشرى وأعظمها خطراً^(٢) . والنفس عنده هي الاتحاد العناصر الجوهرية في الفرد مع النفس الكونية أو العنصر الجوهرى في العالم^(٣) . ونهج وليم نهج أبلار في إحدى المسائل الخفية الشديدة الخطورة فكتب يقول : « في الألوهية قدرة ، وحكمة ، وإرادة ، وهى التى يسميها القديسيون أقانيم ثلاثة^(٤) » . وهو يفهم القصة القائلة إن حواء خلقت من ضلع آدم فهماً يعتمد على المجاز الواسع . وهو يرد بعنف على شخص ما يدعى كرنفيوس Cornifius وغيره من « الكرنفيوسيين » الذين يقاومون العلم والفلسفة بحجة أن في الإيمان الساذج ما يكفيهم . « فهم لا يطيقون أن يبحث غيرهم شيئاً ما ، ويريدون منا أن نؤمن كما يؤمن السذج والهمج من غير أن نسأل عن السبب ، كى يكون لهم رفاق في الجهالة . . . ولكننا نقول : إن من واجبنا أن نبحث لكل شىء عن علة ، فإذا عجزنا عن معرفة تلك العلة

وكلنا الأمر إلى ... إلى الروح القدس وإلى الإيمان^(٥) ... (ويقولون) :
لسنا نعرف كيف يكون هذا ، ولكننا نعرف أن في قدرة الله أن يفعله . ألا أيها
البلهاء المساكين ! إن في قدرة الله أن يخلق غراباً من شجرة ، ولكن هل فعل
الله هذا في يوم من الأيام ؟ فعليكم إذن أن تدلوا بعلّة لوجود شيء ما
بالصورة التي هو عليها ، وإلا فامتنعوا عن الاعتقاد بأنه على هذه الصورة...^(٦)
إننا لا نسرنا الكسرة ، وإنما نسرنا الفكة المختبرة ، ونحن نكد في البحث عن
الحقيقة ومرها .

لقد كان هذا القول أكثر مما يطيقه ولیم التيرى ، ولهذا بادر الراهب
المتحمس ، الذى أغرى القديس برنار بمهاجمة أبلار ، بالطعن على هذا الثائر
الجديد صاحب النزعة العقلية والتنديد به عند رئيس دير كليرفو اليعقظ
المرقب . ورجع ولیم الكوشى عن إلحاده ، ووافق على أن حواء خلقت
من ضلع آدم^(٨) ، وهجر الفلسفة لأنها مغامرة لا يتناسب فيها الكسب مع
ما يتعرض له صاحبها من أخطار ، واشتغل مريباً لهترى پلاتنجنت
Henry Plantagenet الإنجليزى واختفى اسمه من التاريخ .

وكان جلبرت ده لا پريه Gilbert de la Porrée (١٠٧٠ — ١١٥٤)
أكثر من ولیم توفيقاً في هذا العمل المفعم بالأخطار . فقد تعلم ودرس في شارتر
وفى باريس ، وصار أسقفاً لپتير Potiers ووضع كتاباً زائستة صبارى
Liber sex preceptorium ظل ستة قرون النص الذى يرجع إليه في علم
المنطق ؛ ولكن التعليق على بؤبؤس قد فهم منه أن طبيعة الله بعيدة عن
إدراك العقل البشرى بعداً يتحتم معه أن يؤخذ كل قول عنها على أنه تشبيه
أو مجاز لا أكثر ، ثم إنه أكد وحدة الله تأكيداً يجعل التثايت يبدو وكأنه مجاز
لا غير^(٩) . وفى عام ١١٤٨ اتهمه القديس برنار بالإلحاد ، وإن كان وقتئذ
سن الثانية والسبعين ، وحوكم على هذه التهمة في أوكسير Auxerre ، وحير

معارضيه بما أورده من فروق دقيقة ، وعاد إلى موطنه غير مدين . وحوكم مرة أخرى بعد سنة من ذلك الوقت ، ورضى أن تحرق بعض فقرات انتزعت من كتبه ، ولكنه عاد حراً إلى أبرشيته ؛ ولما طلب إليه أن يناقش آراءه مع برنار رفض الاقتراح وقال : إن هذا القديس يعوزه التبهر في اللاهوت إلى حد لا يستطيع معه فهم آرائه^(١٠) ، ويقول عنه يوحنا السلزبرى : إن جلبرت ناضج في الثقافة الحرة نضوجاً لا يفوقه فيه أحد من الناس^(١١) .

وكان في مقدور يوحنا أن يقول هذا القول عن نفسه ، لأنه كان من بين الفلاسفة المدرسين أو سعيهم ثقافة وأكثرهم تهدياً ، وأبلغهم قلماً . وكان مولده في سلزبرى حوالى عام ١١١٧ . وتعلم على أبلار في جبل القديس جيفيف ، وعلى وليم الكوشى في شارتر ، وعلى جلبرت ده لا پريه في باريس ، ثم عاد إلى انجائرا في عام ١١٤٩ ، وعمل أميناً لاثنين من رؤساء أساقفة كنتربرى هما : ثيوبولد وتومس أبكت ، وقام لها بعدة مهام دبلوماسية ، زار فيها إيطاليا ست مرات ، وأقام في البلاط البابوى ثمانى سنين ، وشارك بكت في فرنسا ، وشاهد مقتله في كتدرائيته ، وعين أسقفاً لشارتر في عام ١١٧٨ ، ووفى في عام ١١٨٠ . وكانت حياته مليئة بالجد ، متعددة النواحي ، عمل فيها هذا الرجل على وضع المنطق تحت مخبر تجارب الحياة ودراسة الفلسفة بتواضع منقطع النظير . ولما تقدمت به السن ورجع إلى آراء المدارس الفلسفية المختلفة أدهشه أن يراها لا تزال تجادل في الفرق بين الاسمية والواقعية : « ليس في مقدور الإنسان أن يتجنب هذه المسألة ، ولقد هرم العالم وهو يبحثها ، واستغرق بحثها من الوقت أكثر مما استغرقه القياصرة في فتح العالم وحوكمه ... وأيا كانت النقطة التى يبدأ منها النقاش ، فإنه يعود على الدوام ويرتبط بتلك المسألة ، فهى أشبه بجنون روفس Rufus بنيفيا Naevia » إنه لا يفكر فى شيء آخر ، ولا يتحدث عن شيء آخر ، ولو أن نيفيا لم يوجد لظل رفس أبكم لا يبين^(١٢) .

وحسم يوحنا نفسه الأمر من أيسر السبل حين قال : إن الكلى مدرك عقلى ييسر ربط الصفات المشتركة للكائنات المفردة ؛ وكان چون لأبلار هو الذى اقترح النظرية القائلة إن الكليات توجد فى العقل مستقلة عن أفرادها المجسمة المادية .

وألف فى تاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية كتاباً بلغة لاتينية هى أحسن ما كتب منذ ظهرت رسائل ألكوين — ويعده هذا الكتاب شاهداً عجبياً على اتساع الأفق العقلى فى العصور الوسطى اتساعاً مطرداً ؛ وظهر بعده كتاب المتالوجيكون *Metalogicon* الذى خفف فيه علم المنطق بما أضافه من ترجمة لنفسه ، ثم كتاب *Polycraticus* (١١٥٩) الذى وضع له عنواناً ثانوياً غريباً « فى صحائف رجال الحاشية وآثار الفلاسفة » *De nugis Curialium et vistigüo philosophorum* . وكان هذا الكتاب أول مقال فى أدب العالم المسيحي عن الفلسفة السياسية . وهو يكشف عن أخطاء الحكومات القائمة فى أيامه ورذائلها ، ويرسم صورة للدولة المثالية ، ويذكر صفات الرجل المثالى ، ثم يواسينا بقوله : « كل شئ يشترى علناً ، إلا إذا كان تواضع البائع هو الذى يمنع هذا الشراء ، إن نار الجشع الدنسة تهدد مذابيح الكنائس نفسها ... وإن أحبار الكرسي الرسولى نفسه لا يرضون بأيديهم عن أن تدنسها العطايا ، بل لأنهم فى بعض الأوقات يحوسون خلال الأقاليم فى عريضة جنونية » (١٣) . وإذا جاز لنا أن نصدق روايته التى نقلنا منها فقرات من قبل فإنه أبلغ البابا هديران الرابع أن للكنيسة نصيباً موفوراً فيما يسود تلك الأيام من فساد ، وأن البابا أجابه بما معناه أن الآدميين سيظلون آدميين مهما كانت أثوابهم ؛ ويضيف يوحنا إلى ذلك تلك العبارة الحكيمة : « فى منصب من مناصب بيت الله (الكنيسة) إذا كان بعض رجالها بتكاسلون ، فإن غيرهم يضافون إليهم ليؤدوا » (٧ - ج ٦ - ملة ٤)

عليهم . ولقد شاهدت من بين الشمامسة ، ورؤساء الشمامسة ، والأساقفة ، والأخبار من يقومون بما يوجب عليهم الله بمجد وإخلاص يستبين الإنسان معهما أنهم أوتوا من مزايا الإيمان وفضائله أن من عهدوا إليه بمرث أيدنا قد أحسنوا كل الإحسان »^(١٤) . وهو يرى أن الحكومة المدنية أكثر فساداً من رجال الدين ، وأن من الخير لحماية الخلق أن يكون للكنيسة سلطان أخلاقي على جميع العالم ودوله^(١٥) .

وأوسع الفقرات شهرة في كتاب بوليكراتكس هي التي تشير إلى قتل الطغاة .

« إذا حاد الأمراء شيئاً فشيئاً عن الطريق الحق ، فليس من الخير في شيء أن يطاح بهم كلية على الفور ، بل يكفي لومهم على ظلمهم بتعذيبهم والصبر عليهم ، حتى يتبين أخيراً أنهم معاندون مصرون على فعل الشر ... أما إذا تعارض سلطان الحاكم مع الأوامر الإلهية وأراد أن يحملني على أن أشاركه في حربه على الله ، فإني لا أتردد قط في أن أرد عليه بقولي إن الله يجب أن يفضل على كل إنسان على ظهر الأرض أيا كان قدره ... وليس قتل المستبد مشروعاً فحسب ، بل هو حق وعدل »^(١٦) .

كانت هذه سورة من چون مهيجة مثيرة ، أضاف إليها فقرة أخرى في موضع بعدها من الكتاب نفسه « بشرط ألا يكون القاتل مرتبطاً بالولاء للمستبد »^(١٧) . وهي جملة فيها نجاة للمستبدين لأن كل حاكم يلزم رعاياه بأن يقسموا يمين الولاء له . وفي القرن الخامس عشر دافع جان بتي (Jean Petie) عن اغتيال لويس صاحب أورليان بعبارة نقلها عن البوليكرايكس ، ولكن مجلس كنستانس تغلب على بتي بحجة أن الملك نفسه لا يحق له أن يدين متهما دون أن يدعو للمثول أمامه ويحاكمه .

ونحن « المحدثين » لا نستطيع أن نتفق على الدوام مع « المحدثين » في القرن الثاني عشر الذين كان يوحنا واحداً منهم ، وهو يقول من آن إلى آن كلاماً

يبدو لنا أنه هراء ، ولكن هراءه نفسه مصوغ في أسلوب من التسامع والظرف لا نكاد نعثّر على ما يماثله بعدئذ قبل إرزمس Erasmus . وكان يوحنا أيضاً من الإنسانيين ، يحب الحياة أكثر مما يحب الخلود ، ويعشق الجمال والرحمة أكثر مما يعشق العقائد التحكيمية في أى دين ، ويقتبس من الآداب اليونانية - الرومانية القديمة وهو منشرح مغتبط أكثر منه حين يقتبس من صحف الكتاب المقدس . وهو يضع ثبناً « بالأشياء التي يصبح للرجل الحكيم أن شك فيها dubitabilia ، ومنها طبيعة النفس ومشوئها ، وخلق العالم ، والعلاقة بين علم الله السابق وحرية الإرادة . ولكنه كان أحصف من أن يندفع إلى الإلحاد ، بل كان يسير وسط الجدل القائم في أيامه بمحاضرة دبلوماسيّة وسحر خلاب . ولم يكن يرى أن الفلسفة صورة من صور الحرب ، بل كان يراها بلسماً للسلام ، ويقول إن الفلسفة قوة ملطفة معدلة في الأشياء جميعها ، وإن من وصل بطريق الفلسفة إلى الإحسان والمحبة فقد بلغ هدفها الحق » (١٨) .

الفصل الثاني

أرسطو في باريس

نشر بطرس لمبارد أحد تلاميذ أبلار في عام ١١٥٠ كتابا جمع فيه آراء أبلار مطهرة من الإلحاد ، وكان في الوقت عينه بداية للفلسفة المدرسية الرسمية ؛ وكان بطرس هذا ، كما كان أنسلم ، وأرنلدا البريشيائي ، وبنوفتورا ، وتومس أكوناس ، إيطالياً جاء إلى فرنسا ليواصل العمل الراقى في اللاهوت والفلسفة . وكان يجب أبلار ويسمى كتابه نعم و لا كتاب صلواته ، ولكنه إلى هذا كان يريد أن يكون أسقفاً ، وقد طبق في كتابه المسمى أربعة كتب في الآراء Sententiarum libr IV طرائق نعم ولا بعد أن طهرها : وذلك بأن وضع تحت كل سؤال من أسئلة اللاهوت طائفة من العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس ومن كتب آباء الكنيسة بعضها يؤيده وبعضها يعارضه ؛ ولكن بطرس هذا جد مخلصا لكي يحيل كل الآراء المعارضة إلى نتائج تتفق مع الدين القويم . وقد عين أسقفاً لباريس وظل كتابه مدى أربعة قرون النص المحبب في برامج التعليم الديني إلى حد دعا روجر بيكن أن يأخذ عليه أنه حل محل الكتاب المقدس نفسه ؛ ويقال إن أربعة من علماء اللاهوت ومنهم ألبرت وتومس كتبوا شروحا على هذا الكتاب .

وإذا كان كتاب لمبارد قد أيد سلطان الكتب المقدسة والكنيسة على مطالب العقل الفردي ، فقد حال مدى نصف قرن دون تقدم النزعة العقلية ؛ ولكن حادثة عجيبة وقعت في تلك الخمسين عاما بدلت علم اللاهوت ؛ ذلك أن دخول أفكار أرسطو في ثوبها اللاتيني إلى أوروبا بعد عامي ١١٥٠ و ١٢٥٠ دفع علماء الدين الكاثوليك إلى أن يحاولوا التوفيق بين علم ما وراء الطبيعة اليوناني

وعلم اللاهوت المسيحي ، كما أن ترجمة مؤلفات أرسطو العلمية وفيما وراء الطبيعة إلى اللغة العربية دفعت المفكرين المسلمين إلى أن يحاولوا التوفيق بين العقائد الإسلامية والفلسفة اليونانية . وكما أن اصطدام آراء أرسطو بعقول العبرانيين في أسبانيا قد أخذ يدفع ابن داود وابن ميمون في القرن الثاني عشر لأن يحاولوا التوفيق بين اليهودية والتفكير الهليني ، وإن كان أرسطو قد بدا فوق متناول سلطان الكتب المقدسة ، فقد اضطر علماء الدين المسيحي إلى استخدام لغة العقل والمنطق وأسلحتهما . ولو أن الفيلسوف اليوناني كان حيا في هذه الأثناء لتبسم وهو يشهدكم من الأديان التي زلزلت العالم تجل آراء .

ولكن ليس من حقنا أن نغالي في تقدير أثر المفكرين اليونان في ازدهار الفلسفة أثناء تلك الفترة من الزمن . ذلك أن انتشار التعليم ، وما كان للجدل والحياة الذهنية من قوة حيوية في المدارس والجامعات خلال القرن الثاني عشر ، والحافز القوي الذي كان لرجال من أمثال روسلان ، ووليم الشمبوكسي ، وأبلار ، ووليم الكنشيبي ، ويوحنا السالزبري ، واتساع آفاق الفكر بتأثير الحروب الصليبية ، وازدياد علم الأوربيين بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامي في الشرق والغرب - كل هذا كان من شأنه أن يخلق رجالا على شاكلة أكوناس ولو ظل أرسطو مجهولا ، والحق أن منشأ الجلد الذي اتصف به أكوناس لم يكن حب أرسطو بل خشية ابن رشد . ذلك أن الفلاسفة العرب واليهود أخذوا منذ القرن الثاني عشر يؤثرون في التفكير المسيحي في أسبانيا ، فقد دخل الكندي ، والفارابي ، والغزالي ، وابن سينا ، وابن جبرول ، وابن رشد ، وابن ميمون أوروبا اللاتينية من نفس الأبواب التي دخلها منها أفلاطون ، وأرسطو ، وأبقراط ، وجالينوس ، وإقليدس ، وبطليموس .

وكان غزو التفكير الأجنبي على هذا النحو من أقوى الصدمات الذهنية للعقل الغربي الذي لم ينضج بعد ، فلاعجب والحالة هذه إذا قوبل في بادئ الأمر

بالعمل على قمع أوتأخيره ، بل إن علينا أن نعجب من قوة التكييف المدهشة التي مكنت الدين الجدي من امتصاص المعارف القديمة - الجديدة . وكان الأثر الأول لكتابي الطبيعة وما وراء الطبيعة لأرسطو ، ولشروح ابن رشد ، وهي الكتب التي وصلت إلى باريس في العشر السنين الأولى من القرن الثالث عشر ، أن زلزلت عقائد كثيرين من الطلاب ، وأن قام من العلماء أمثال أمليرك البينى Amalric of Bène وداود الدينتى David of Dinant يهاجمون بعض العقائد المسيحية الجوهرية كمقيدة خلق العالم ، والإيمان بالمعجزات ، والخلود الفردى . وظنت الكنيسة أن تسرب الأفكار العربية - اليونانية إلى جنوب فرنسا أدى إلى تحلل الطبقات المتعلمة من الاستمساك بالدين القويم ، وأضعف من عزمها على مقاومة إلحاد الألبجنسيين . ولهذا اجتمع مجلس كنسى في باريس عام ١٢١٠ وأدان أمليرك وداود وحرّم قراءة كتب أرسطو فيما « بعد الطبيعة والفلسفة الطبيعية » كما حرّم قراءة « شروحها » . وإذ كان هذا التحريم قد كرره مندوب من قبيل البابا في عام ١٢١٥ فلن لنا أن نفترض أن مرسوم عام ١٢١٠ قد أغرى الناس بقراءة هذه المؤلفات التي لولا هذا التحريم لكانت عندهم بمقوّة . وأجاز مجلس لانران الرابع قراءة كتابي أرسطو في المنطق والأخلاق ولكنه حرّم غيرهما من كتبه . وفي عام ١٢٣١ عفا جريجورى التاسع عن الأساتذة والعلماء الذين عصوا هذه المراسيم ، ولكنه جدّد المراسيم « إلى أجل موقت حتى تبحث هذه الكتب وتظهر مما فيها » . ويبدو أن الثلاثة الأساتذة الباريسيين الذين عينوا للقيام بمهمة تطهير كتب أرسطو قد تركوا هذا العمل . ولم تنفذ مراسيم التحريم زمناً طويلاً ، لأن كتابي الطبيعة وما وراء الطبيعة (الفيزيكا والمتافيزيكا) وغيرهما من كتب أرسطو كانا يقرآن في جامعة باريس عام ١٢٥٥ (١٩) . وأعاد إربان الرابع أمر التحريم في عام ١٢٦٣ ؛ ولكن يبدو أن توماس أكويناس أكد له أن كتب أرسطو يمكن أن تظهر ،

ولم يعمل إربان على تنفيذ محرمه . وانتهى الأمر في عام ١٢٦٦ إلى أن كان مبعوثو إربان الخامس في باريس يطلبون إلى جميع الطلاب المتقدمين لنيل درجة في الآداب دراسة جميع مؤلفات أرسطو دراسة وافية شاملة (٢٠) .

وأحدثت المشكلة التي واجهت العالم المسيحي اللاتيني في الربع الأول من القرن الثالث عشر أزمة كبرى في تاريخ الدين المسيحي . ذلك أن التعطش إلى الفلسفة الجديدة كان وقتئذ حى ذهنية لا يمكن السيطرة عليها ؛ ولهذا لم تواصل الكنيسة جهودها لفرض هذه السيطرة ، بل إنما بدلا من هذا وجهت قواها لحصار الغزاة وامتصاصهم فيها ، فأخذ رهبانها الأوفياء يدرسون هذا اليوناني المدهش الذي قلب ثلاثة أديان رأساً على عقب ؛ حتى أن الرهبان الفرنسيين وهم الذين يفضلون أوغسطين على أرسطو ، رحبوا بالإسكندر الهاليسي الذي بذل أول الجهود للتوفيق بين « الفيلسوف » والمسيحية . وبذل الرهبان الدمنيكيون كل تشجيع مستطاع لألبرتس وتومس أكوناس في هذا المشروع عينه ؛ ولما أن أتم هؤلاء الرجال الثلاثة عملهم بدا أن أرسطو لم يعد خطراً على المسيحية .

الفصل الثالث

الزنادقة

إذا شئنا ألا نفهم الفلسفة المدرسية على أنها تكديس لا طائل من ورائه للتجريدات المملة^{١٠}، وجب علينا ألا ننظر إلى القرن الثالث على أنه الميدان الذى يصول فيه الفلاسفة المدرسيون ويجولون غير منازعين ، بل أن ننظر إليه على أنه ميدان اضطرع فيه مدى سبعين عاما المتشككة ، والماديون ، والأحديون القاثاؤون بوحدة الوجود ، والجاحدون بالله ، اضطرع فيه هؤلاء مع علماء اللاهوت المسيحيين للاستحواذ على العقل الأوربي .

ولقد لاحظنا من قبل وجود نزعة عدم الإيمان بين أقلية ضئيلة من سكان أوروبا ، وزادت هذه الأقلية فى القرن الثالث عشر على أثر اتصال الأوربيين بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية وتراجم الكتب العربية . ولما تبين الأوربيون وجود دين آخر عظيم ، أخرج رجالا عظاما أمثال صلاح الدين والكندى ، وفلاسفة مثل ابن سينا وابن رشد ، كان ذلك فى حد ذاته كشفاً اضطربت له نفوسهم ؛ ذلك أن مقارنة الأديان لا تنفع الدين أى نفع . ومن الشواهد على هذا ما نقله ألفونسو الحكيم Alfonso the Wise (١٢٥٢ — ١٢٨٤) عن انتشار عدم الاعتقاد بالخلود بين مسيحي أسبانيا^(٢١) ؛ وليس بعيد أن تكون آراء ابن رشد قد تسربت إلى الشعب نفسه . وكان فى جنوبى فرنسا فى القرن الثالث عشر جماعة من أصحاب النزعة العقلية القائلين بأن الله بعد أن خلق العالم تركه تسيرَه القوانين الطبيعية ، وكانوا يعتقدون أن المعجزات مستحيلة ، وأن الصلاة لا تستطيع تغيير مسلك العناصر ، وأن الأنواع الجديدة لم تخلق خلقاً خاصاً وإنما وجدت بالتطور الطبيعى^(٢٢) . وكان بعض أصحاب التفكير الحر

- وبعض القساوسة أنفسهم - يتكبرون تحول العشاء الرباني إلى جسم المسيح (٢٣) . وأخذ أحد المدرسين في أكسفورد يشكو قائلاً « إنه ليس ثمة ما هو أشبه بالوثنية من القربان عند المذبح » (٢٤) . ويقول ألان الليلى Alain of Lille (١١١٤ - ١٢٠٣) إن كثيرين من المسيحيين الزائفين في وقتنا هذا يتكبرون البعث لأن الروح تفتى مع الجسم ؛ وهم يؤيدون اعتقادهم بأقوال أبيقور ولكريشيوس . ويعتقدون مذهب الجوهر الفرد ، ويخرجون من هذا إلى أن خير ما يفعله الإنسان هو أن يستمتع بالحياة على ظهر الأرض (٢٥) .

ويبدو أن انتشار الصناعة في حواضر فلاندرز قد عمل على نشر الإلحاد . وشاهد ذلك أننا نجد داود الدبتنى في بداية القرن الثالث عشر وسيجر البرابتي قرب اختتامه يتزعمان حركة تشكك قوية . وكان داود (حوالى ١٢٠٠) يدرس الفلسفة في باريس ، ويمتّع إنوسنت الثالث بجذله الدقيق (٢٦) ، ويعبث بضرب مادی من عقيدة الأحدية مضمونه أن الله ، والعقل ، والمادة الخالصة (المادة قبل أن تتشكل) أصبحت كلها وحدة في ثالوث جديد (٢٧) وحرم كتابه الكواترنولي Quaternuli ، الذى لا وجود له الآن ، وأحرق بأمر مجلس باريس المقدس الذى عقد في عام ١٢١٠ . وندد هذا المجلس نفسه بأحادية قال بها أستاذ آخر من جامعة باريس هو أمليرك البينى ، ومضمونها أن الله والخلقة شيء واحد . وأرغم أمليرك على أن يرجع عن قوله ومات ، كما يقول ، من حسرة الخيبة (١٢٠٧) (٢٨) . وأمر المجلس بأن تنبش عظامه وتحرق في ميدان باريس إرهاباً لأتباعه الكثيرين . غير أنهم ظلوا مستمسكين بآرائهم على الرغم من هذا ، ووسعوا نطاق آرائه فأذكروا وجود الجنة والنار ، وقوة القربان المقدس . وحرق عشرة من أتباع أمليرك هذا أحياء (١٢١٠) (٢٩) .

وازدهر التفكير الدينى الحر فى جنوبى إيطاليا الذى كان يحكمه فردريك الثانى ، حيث شب القديس تومس ، وحيث أعلن الكردينال أبلدبنى صديق

فردريك جهرة اعتناقه المذهب المادى^(٣٠) . أما في إيطاليا الشمالية فلإن عمال الصناعة ، ورجال التجارة والمال ، والمحامين ، وأساتذة الحمامات اندفعوا إلى حد ما في تيار المتشككين . واشتهرت جامعة بولونيا بعدم مبالأتها بالدين ، فكانت المدارس الطبية فيها وفي غيرها من المدن مراكز للشك ، وفيها نشأ القول المأثور « حيث يجتمع ثلاثة أطباء يكون اثنان منهم كافرين *ubi tres medici duo athei* »^(٣١) ، وكادت آراء ابن رشد حوالى عام ١٢٤٠ تصبح الطراز العصرى بين الطبقات المتعلمة من غير رجال الدين في إيطاليا . وكان آلاف منهم يقبلون عقائد ابن رشد القائلة بأن القانون الطبيعى يحكم العالم دون تدخل من قبل الله ؛ وإن العالم مخلد كالله ؛ وإنه لا يوجد إلا نفس واحدة خالدة هى « عقل » الكون « الفعال » ، وإن النفس الفردية ليست إلا مظهراً أو صورة عابرة زائلة من هذا العقل ، وإن الجنة والنار قصص اخترعت لتغرى العامة أو ترهبهم فيحسن سلوكهم^(٣٢) . وأراد بعض المعتنقين لآراء ابن رشد أن يسترضوا محاكم التفتيش فنقدموا بعقيدة الحقيقة المزدوجة : فقالوا إن القضية قد تبدو صحيحة من ناحية الفلسفة أو حسب التعليل الطبيعى ، ولكنها مع ذلك قد تكون خاطئة حسب الكتب المقدسة أو الدين المسيحى ؛ وأقروا فى الوقت نفسه أنهم يؤمنون بمقتضى الدين بما يشكون فيه حسب قواعد العقل والمنطق . وهذه النظرية تنكر الفرض الأساسى من فروض الفلسفة المدرسية - وهو إمكان التوفيق بين العقل والدين .

وكانت جامعة بدوا فى أواخر القرن الثالث عشر ، وطوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر مركزاً مضطرباً لفلسفة ابن رشد . ونذكر من الشواهد الدالة على هذا الاضطراب أن بطرس الأبانوى Peter of abano (حوالى ١٢٥٠ - ١٣١٦) أستاذ الطب فى جامعة باريس ثم أستاذ الفلسفة فى جامعة بدوا ، ألّف كتاباً يراد به التوفيق بين النظريات الطبية والفلسفية . وقد اكتسب مكانة

ملحوظة في تاريخ العلوم الطبيعية لأنه قال في دروسه إن المخ هو مصدر الأعصاب وإن القلب مصدر الأوعية الدموية ، ولأنه قدّر طول السنة تقديراً مدهشاً في وقته وهو ٣٦٥ يوماً ، وست ساعات وأربع دقائق (٣٤) . وكان لثقته بالفلسفة يُرجع العلل كلها تقريباً لقوة النجوم وحركاتها ، وكاد يبعد الله عن حكم العالم (٣٥) . واتهمه رجال محاكم التفتيش بالإلحاد ؛ غير أن المركيز أزودست Azzo d'Este والبابا هونوريوس الرابع كانا من بين مرضاه فبسطا حمايتهما عليه . ثم اتهم مرة أخرى في عام ١٣١٥ ، ونجا هذه المرة من المحاكمة بأن مات ميتة طبيعية . وحكم قضاة محكمة التفتيش بأن تحرق جثته في ميدان الحريق ، ولكن أصدقاؤه أخفوا رثاته إخفاء محكما اضطرت المحكمة معه أن تنفذ حكمها بحرق صورة له (٣٦) .

ووجد تومس أكوناس بعد انتقاله من إيطاليا إلى باريس أن فلسفة ابن رشد قد استحوذت من زمن بعيد على جزء كبير من الجامعة ، ويؤيد هذا ما لاحظته ولیم الأوفرنى في عام ١٢٤٠ من أن في الجامعة « كثيرين من الرجال يلتهمون هذه النتائج (من فلسفة ابن رشد) من غير تمحيص » ؛ وأن تومس نفسه وجد فلسفة ابن رشد منتشرة بين شباب الجامعة (٣٧) . ولعل ما نقله تومس عن هؤلاء الطلاب قد روع البابا اسكندر الرابع (١٢٥٦) فكلف ألبرتس مجنس أن يكتب رسالة في وصرة العقل ضد فلسفة ابن رشد . ولما جاء تومس ليدرس في باريس (١٢٥٢ - ١٢٦١) ، (١٢٥٩ - ١٢٧٢) كانت حركة الفلسفة الرشدية قد بلغت ذروتها ؛ وقد درس زعيمها في سيجر البرابنتي Siger of Brabant في هذه الجامعة من ١٢٦٦ إلى ١٢٧٦ . وظلت فلسفة ابن رشد والكتلكة تتمخضان من جامعة باريس ميداناً لاقتتالها جيلاً من الزمان .

وكان سيجر (١٢٣٥؟ - ١٢٨١) وهو قس من غرب رجال الأديرة متجراً في العلم ؛ وحتى الأجزاء القليلة الباقية من مؤلفاته تنقل عن الكندي ، والفارابي ، والغزالي ، وابن سينا ، وابن باجة ، وابن حبرول ، وابن ميمون . ويقول سيجر في سلسلة

من الشروح والتعليقات على أرسطو ، وفي مقالة جدلية ضمن **رجلى الفلسفة** **الذائعى الصيت** ، **ألبرت وتومس** ، يقول سيجر فى هذه وتلك إن ألبرت وتومس يفسران الفلسفة تفسيراً خاطئاً وإن ابن رشد يفسرها تفسيراً صحيحاً (٣٩) . وهو يستخلص ما يستخلصه ابن رشد من أن العالم أزلى ، وأن القانون الطبيعى لا يتبدل ، وأن نفس النوع وحدها هى التى تبقى بعد موت الفرد . ويقول سيجر إن الله هو العلة النهائية ، لا العلة الفعالة ، الأشياء — وهو هدف الخليقة لاعلمها . وقد افتن بالمنطق فقاده هذا الافتتان كما قاد فيكو Vico وتنشئة إلى الإيمان بعقيدة تسلسل الأحداث تسلسلاً لانهائياً فقال : بما أن جميع الأحداث الأرضية تحددها فى نهاية الأمر تجمعات النجوم ، وبما أن عدد التجمعات الممكن حدوثها محدود ، فإن كل تجمع لا بد أن يتكرر بصورته نفسها المرة بعد المرة فى زمن لانهائى ، تكررأ تعقبه حتماً نفس النتائج التى أعقبته من قبل ؛ وبذلك تعود « نفس الأنواع ، ونفس الآراء ، والقوانين ، والأديان » (٤٠) . وقد حرص سيجر على أن يضيف إلى هذا « ونحن نقول هذا أخذاً برأى الفيلسوف ، دون أن نقطع بصحته » (٤١) . وكان يضيف مثل هذا الاحتياط إلى كل رأى من آرائه الملحدة . ولم يكن يحجر بعقيدة الحقيقتين ؛ وكان يُعلّم تلاميذه أن بعض النتائج تستتبعها آراء أرسطو ويستتبعها العقل ؛ فإذا كانت هذه النتائج تناقض العقائد المسيحية ، فإنه يؤكد إيمانه بعقائد الدين ، ويسمها هى وحدها ، دون الفلسفة ، بميسم الحق (٤٢) .

ويدل تقدم سيجر إلى المطالبة بأن يكون مديراً للجامعة على أنه كان له فيها أتباع كثيرون ، وإن لم يوفق فى طلبه هذا (١٢٧١) . وليس أدل على تمكن فلسفة ابن رشد فى جامعة باريس من تنديد إتبن تمبيه Étienne Tempier أسقف باريس بهذه الحركة المرة بعد المرة . فى عام ١٢٦٩ حكم بأن ثلاث عشرة.

قضية من القضايا التي يعلمها في الجامعة بعض الفلاسفة مبادئ إلحادية لا تتفق مع الدين ، وهذه القضايا هي :

أنه لا يوجد في الناس كلهم إلا عقل واحد . . . وأن العالم أزل . . . وأنه لم يوجد قط رجل أول . . . وأن النفس تفسد بفساد الجسم . . . وأن إرادة الإنسان تريد وتختار بحكم الضرورة . . . وأن الله لا علم له بالحوادث الفردية . . . وأن أعمال الإنسان لا تسيطر عليها العناية الإلهية (٤٣) .

ويبدو أن مدرسة ابن رشد الفلسفية ظلت تعلم كما كانت تعلم من قبل ، وشاهد ذلك أن الأسقف أصدر في عام ١٢٧٧ ثبثاً بتسع عشرة ومائتي مسألة قرر رسمياً أنها تسم القائلين بها بالإلحاد . وهذه المسائل ، على حد قول الأسقف ، كان يعلمها سيجر أو بويثوس الداشياوي Boethius of Dacia أو غيرها من أساتذة جامعة باريس ومنهم القديس تومس نفسه . وكانت هذه المسائل التسع عشرة والمائتين تشمل التي حكم عليها في عام ١٢٦٩ وغيرها من المسائل الشبيهة بالأقوال الآتية :

أن عملية الخلق مستحيلة . . . أن الجسم إذا فسد (بالموت) لا يمكن أن يقوم بعدئذ بوصف بكونه الجسم نفسه . . . أن من واجب الفيلسوف ألا يؤمن ببعث في المستقبل ، لأن هذا لا يمكن أن يحصه العقل . . . أن أقوال علماء الدين قائمة على الخرافات . . . أن علوم الدين لا تضيف شيئاً ما إلى معلوماتنا . . . أن الدين المسيحي يقف في سبيل العلم . . . أن الإنسان يحصل على السعادة في هذه الحياة لا في غيرها . . . أن العقلاء في هذه الأرض هم الفلاسفة وحدهم . . . أنه ليس ثمة حالة أفضل من أن يجد الإنسان فراغاً لدراسة الفلسفة (٤٤) .

وأدانت محكمة التفتيش سيجر في شهر أكتوبر من عام ١٢٧٧ ؛ وقضى سنيه الأخيرة في إيطاليا سجيناً بأمر المحكمة الرومانية حتى اغتاله معتال نصف مجنون في أرغييتو Orvieto .

الفصل الرابع

تطور الفلسفة المدرسية

لم يكن الحكم على هذه القضايا الإلحادية يكفي لصده هذا الهجوم الشديد على الدين المسيحي . ذلك أن الشباب ثمل يخمر الفلسفة القوي . فهل كان كسب المعركة بالالتجاء إلى العقل ؟ لقد أقبل علماء الدين من الرهبان الفرنسيين والدمنيكيين ، والأخبار من غير الرهبان أمثال وليم الأوفر وهنري الغنّي Henry of Ghent ، للدفاع عن المسيحية وعن الكنيسة ، كما كان المشككون من قبلهم يدافعون عن الإسلام ضد المعتزلة .

وقسم الدفاع نفسه إلى معسكرين رئيسيين : المعسكر الصوفي - الأفلاطوني ومعظم رجاله من الرهبان الفرنسيين ؛ والمعسكر العقلي - الأرسطوطاليسي ومعظم رجاله من الرهبان الدمنيكيين . أما البندكتيون أمثال هيو Hugh ورثرد السانت فكتوري فقد كانوا يحسون أن خير دفاع عن الدين هو إدراك الإنسان المباشر وجود حقيقة روحية أعمق من كل تعمق ذهني . وكان « المتزمتون » أمثال بطرس رجل بلوا Blois ، واستيفن رجل تورناى يقولون إن الفلسفة يجب ألا تبحث في مسائل اللاهوت ، فإذا فعلت فعلها أن تتحدث وتسلك بوصفها خادمة لللاهوت^(٤٦) . ومن واجبتنا أن نذكر أن هذا الرأي لم يكن يقول به إلا قسم من الجبهة المدرسية^(٤٧) .

وعالج عدد قليل من الرهبان الفرنسيين أمثال اسكندر الهاليسي (١١٧٠ ؟ - ١٢٤٥) المسألة عن طريق العقل ، وحاولوا أن يدافعوا عن المسيحية باستخدام المصطلحات الفلسفية والأرسطوطاليسية ، ولكن معظم الرهبان الفرنسيين.

لم يكونوا يثقون بالفلسفة ؛ وكانوا يحسون أن مغامرات العقل مهما تأت
للكنيسة بالقوة والمجد إلى حين ، قد تفلت من السيطرة عليها فيما بعد ، وتبعد
الناس عن الدين بعد أن تترك المسيحية ضعيفة لا نصير لها في عالم جاحد فاسد
الأخلاق . فكانوا لهذا يفضلون أفلاطون عن أرسطو ، وبرنار عن أبلار ،
وأوغسطين عن أكوناس . وكانوا يعرفون النفس كما عرفها أفلاطون بأنها
روح مستقلة تسكن الجسم وتسجن فيه ، وهالم أن يروا تومس يأخذ
بتعريف أرسطو للنفس بأنها « الصورة المادية » للجسم . وقد وجدوا في
أفلاطون نظرية للخلود غير الشخصية لا فائدة منها قط في قمع غرائز الناس
الحيوانية . واتبعوا رأى أوغسطين فوضعوا الإرادة فوق العقل في الله وفي
الإنسان على حد سواء ، وكان الهدف الذي يبتغونه هو الخير لا الحقيقة .
وكانوا في ترتيبهم للقيم يجعلون الصوفي أقرب من الفيلسوف لجوهر الحياة
الخفي ومعناها .

وسيطر القسم الأفلاطوني - الأوغسطيني من جيش المدرسين على العلوم
الدينية التقليدية في النصف الأول من القرن الثاني عشر . وكان أعظم الناطقين
بلسان هذا القسم هو بونا فنتورا التقي - وهو رجل طيب القلب طارد الإلحاد ،
وصوفي يكتب في الفلسفة ، وعالم يستهجن العلم ، وصديق مدى الحياة ومعارض
لتومس أكوناس ، ومدافع عن الفقير الذي يدعو إليه الإنجيل ومضرب المثل لهذا
الفقر ، جمعت طائفة الرهبان الفرنسيين بإشرافه ورعايته قدراً كبيراً من الثروة
الجماعية . وقد ولد جيوفاني دي فدانزا Giovanni di Fidenza في تسكانيا
عام ١٢٢١ ثم أصبح اسمه لسبب لا نعرفه بونا فنتورا - الحظ الحسن . وكاد
يموت وهو صغير من أحد أمراض الأطفال ، وأخذت أمه تصلّي إلى القديس
فرانسيس ليمنّ عليه بالشفاء ؛ وأحس جيوفاني بعدئذ بأنه مدين بحياته إلى هذا
القديس . ولهذا انضم إلى أتباعه وأرسل إلى باريس ليدرس على الإسكندر
الهاليسي ، ثم شرع في عام ١٢٤٨ يعلم اللاهوت في الجامعة ، واختير في عام ١٢٥٧ ،

وهو لا يزال شاباً في السادسة والثلاثين من عمره ، براعياً عاماً لطائفة الرهبان الفرنسيين ، فلم يدخر وسعاً في إصلاح مآدب في الطائفة من تراخ ، ولكن دماءة أخلاقه لم تمكنه من النجاح ، وإن كان هو نفسه يحيا حياة الزاهد البسيطة ؛ ولما جاءه الرسل يبلغونه أنه اختير كرددنالا وجدوه يغسل الصحاف ، ومات بعد عام واحد (١٢٧٤) من فرط الإجهاد .

وكانت كتبه جيدة الأسلوب ، واضحة موجزة . وكان يتظاهر بأنه جامع لها لا أكثر ، ولكنه بحث في كل موضوع مسه بقلمه روح النظام ، والحجاسة ، والتواضع الذى يستل السخائم . وكان كتابه القول الموهج خلاصة للاهوت المسيحى تثير الإعجاب ، كما كان المحرير المفرد ، ورحمة العقل إلى الله درتين في تاج التقى الصوفى . ومن أهم مبادئه أن المعرفة الحققة لا تأتى عن طريق إدراك الحواس للعالم المادى بل تأتى بإدراك النفس للعالم الروحى عن طريق اللقانة . وكان بونا فنتورا يحب للقديس تومس ، ولكنه كان يعارض في قراءة الفلسفة ، وينتقد في صراحة بعض ما استخلصه أكوناس من النتائج . وكان يذكر الرهبان اللمبنيكيين بأن أرسطو كان كافراً ، وأنه يجب ألا توضع أقواله في منزلة أقوال آباء الكنيسة ، وتساءل هل في مقدور فلسفة أرسطو أن تفسر حركات نجم من النجوم لحظة واحدة ؟ (٤٨) . وهو يقول إن الله ليس نتيجة يصل إليها العقل عن طريق الفلسفة بل هو وجود حى ، الإحساس به خير من تحديده ، وإن الخير أسمى من الحقيقة ، والفضائل الساذجة تعلق على كل العلوم . ويقولون إن الأخ إيجيديو Egidio هاله في يوم من الأيام تبهر بونا فنتورا في العلم فتال له : « واحسرتاه ! ماذا نفعل نحن الجهلاء السذج كى نكون خليقين بحب الله ؟ » فأجابه بونا فنتورا بقوله : « أخى ، إنك لتعلم حق العلم أنه يكفياك حب الله » فرد عليه إيجيديو بقوله : « فهل تؤمن إذن بأن في مقدور امرأة ساذجة أن تسرّه كما يسرّه أستاذ في اللاهوت ؟ » . فلما أجابه بنعم اندفع إيجيديو إلى الطريق وصاح

في امرأة متسولة : « ابتهجي ، لأنك إذا أحببت الله ، فقد يكون لك مكان في ملكوت السموات أعلى من مكان الأخ بونا فثتورا ! » (٤٩) .

وجلى أن من الخطأ أن نزن أن « الفلسفة » المدرسية المعروفة بهذا الاسم إنما هي آراء وأساليب في البحث مجدبة متفق عليها بالإجماع . لقد كانت هناك في واقع الأمر مائة من الفلسفات المدرسية ؛ فقد كانت الكلية الواحدة من كليات الجامعة تضم أحد أشياع تومس الذي يمجّد للعقل ، وأحد أنصار بونا فثتورا الذي يستهجنه ويزدرجه ، وأحد أتباع وليم الأوفرنى (١١٨٠ - ١٢٤٠) الذي يقول مع ابن جبرول بحرية الإرادة ، وأحد أتباع سيجر يعلم فلسفة ابن رشد . وكاد الاختلاف والنزاع بين أنصار الدين القويم يبلغان من الشدة ما بلغاه بين الدين واللادين . فكان يوحنا بكهام الأسقف الفرنسي يندد بأكوناس تنديداً لا يقل صرامة عن تنديد تومس بسيجر وأبن رشد ؛ وكتب ألبرتس مجنس في ساعة فارقه فيها صلاحه يقول : « هناك أناس جاهلون لا يتورعون عن محاربة استخدام الفلسفة بكل سلاح ، وأخص بالذكر من هؤلاء الرهبان الفرنسيين - أولئك اللوحوش الكاسرة الذين يسبون ما لا يعرفون » (٥٠) .

وكان ألبرت يحب العلم ويعجب بأرسطو إلا حين يتطرق إلى الإلحاد في الدين ، وكان أول من درس من الفلاسفة المدرسين جميع مؤلفات الفيلسوف الكبرى ، وأخذ على نفسه أن يفسرها تفسيراً يوافق الدين المسيحي . وكان مولده في لاننجن Laningen بسوابيا Swabia حوالي عام ١٢٠١ ووالده هو الكونت بلسادت Bollstädt الثرى ، ثم درس في بلدوا وانضم إلى الرهبان الدمنيكيين واشتغل بالتدريس في مدارس الدمنيك في هلدسهايم Hildesheim ، وفرايبرج Freiburg ، وراتسبون Ratisbon ، واسترسيورج ، وكولوني (١٢٢٨ - ١٢٤٥) وباريس (١٢٤٥ - ١٢٤٨) . ثم عين يعلّم مندوباً إقليمي

لطائفته في ألمانيا ثم أسقفاً لراتسبون (١٢٦٠) على الرغم من تفضيله حياة التدريس . وتقول الرواية المأثورة إنه كان يمشى حافي القدمين في جميع أسفاره (٥١) . وفي عام ١٢٦٢ سمح له أن يعتزل العمل ويأوى إلى دير في كولوني ، ثم ترك ما كان فيه من هدوء وهو في السادسة والسبعين من عمره (١٢٧٧) ليدافع عن عقيدة تلميذه المتوفى تومس أكوناس وعن ذكراه في جامعة باريس . وأفلح فيما نذب إليه ، فعاد إلى دبره ، وتوفى في التاسعة والسبعين من عمره . وإن حياته العامة بالوفاء والإخلاص لدينه ، وتواضعه الخلق ، وتعدد نواحي نشاطه العقلي ، لتظهر فيها حياة الأديرة في خير مظاهرها .

وليس ثمة ما يفسر لنا كيف يستطيع رجل قضى ما قضى من الوقت في التدريس والأعمال الإدارية أن يكتب مقالات في كل فرع من فروع العلم تقريباً ، ورسائل قيمة في كل فرع من فروع الفلسفة وعلوم الدين ، نقول ليس ثمة شيء يفسر لنا هذا إلا هدوء حياة الأديرة الرتيبة والصبر الفائق الذي يمتاز به العلماء الألمان (*) . وقبلها يوجد في التاريخ من كتب هذا القدر من الكتب والرسائل والمقالات ، أو أخذ من غيره مثل ما أخذ ، أو اعترف بمثل صراحته

(*) وإلى القارئ كتب ألبرت الكبرى في الفلسفة واللاهوت بأسمائها الأصلية :

(١) في المطلق *Philosophia Rationalis Perihermenias ; de praedicaabilibus ; de sex principiis ; de praedicamentis Analytica priora, (De interpretatione i.e.) ; libri elenchorum ; Tropica ; Analytica posteriora.*

(٢) وفيما وراء الطبيعة *De unitate intellectus contra Averroistas ; metaphysica ; de fato*

(٣) وفي علم النفس *De anima ; De sensu et sensato, De memoria et reminiscencia, De intellectu et intelligibili, De potentia animae*

(٤) وفي علم الأخلاق *Ethica* (٥) وفي السياسة *Politica*

(٦) وفي اللاهوت *Summa theologiae Commentarium* ؛ *Summa de creaturis in sententias Petri Lombardi ; commentarium de divinis nominibus* وتتكون الرسائل الخمس الواردة في هذا الثبت من واحد وعشرين مجلداً من مؤلفات ألبرت التي لم تنشر كلها بعد .

بدينه لمن أخذ عنهم . ويتخذ ألبرت مؤلفات أرسطو أسساً لكتبه وتكاد عناوينها كلها تكون هي بعينها عناوين مؤلفات الفيلسوف القديم ؛ وهو يستعين بشروح ابن رشد على تفسير مؤلفات ذلك الفيلسوف ، ولكنه يفسر المؤلفات الأصلية والشروح تفسيراً جريئاً إذا ما ناقضت الدين المسيحي . وهو يرجع إلى آراء المفكرين المسلمين بدرجة جعلت مؤلفاته مصدراً هاماً لما نعرفه عن الفلسفة الإسلامية . ولا تخلو صفحتان من كتبه من أقوال يقتبسها من ابن رشد ، ويرجع أحياناً إلى كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون ، ويعترف بأن أرسطو أعظم مرجع في العلوم والفلسفة ، وأوغسطين أعظم مرجع في علوم الدين ، والكتاب المقدس أعظم المراجع في كل شيء . ومقالاته المكثسة التي يخطها الحصر سيئة الترتيب ولا يمكن أن يستخلص منها نظام متسق للتفكير ، وهو يدافع عن عقيدة ما في موضع ، ثم يهاجمها في موضع آخر أو في الموضع نفسه أحياناً ؛ ولم يتسع وقته لتصفية متناقضاته . وكان إفراطه في الطيبة والتقى يحول بينه وبين التفكير الموضوعي ؛ وكان في وسعه أن يتبع تعليماً على أرسطو برسالة طويلة مؤلفة من اثني عشر « كتاباً » في الشفاء على مريم العذراء المباركة يقول فيها إن مريم كانت ملمة إلاما كاملاً بالنحو ، والبيان ، والمنطق ، والحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك .

فما هي إذن أهم أعماله ؟ إن أهم هذه الأعمال هي أنه كان له نصيب وفور في البحث العلمي في ذلك الوقت وفي نظرياته ؛ وأنه في ميدان الفلسفة « قدم أرسطو للآتين » ، وهو كل ما كان يهدف إليه ؛ وكان له الفضل في استخدام مؤلفات أرسطو في تعليم الفلسفة ، وجميع كنوز التفكير والجدل الوثنية والعربية واليهودية والمسيحية التي استخدمها تلميذه الذائع الصيت في فلسفته التركيبية التي تفوق فلسفة أستاذه وضوحاً وتنظيماً . ولنا نجاح في الحقيقة إذا قلنا إنه لولا ألبرت لما وجد توماس .

الفصل الخامس

تومس أكوناس (أو تومس الأكويني)

كان تومس ، كما كان ألبرت ، من أسرة شريفة ، ولكنه تخلى عن الثراء لينال جنة الخلد ؛ فقد كان والده الكونت لاندلف الأكويني Count La of Apuino من النبلاء الألمان ، وابن عم بربرسا ، ومن أبرز الشخصيات في البلاط الأكويني لفرديريك الثاني الزنديق . كذلك كانت أمه من سلالة أمراء صقلية النورمان . ومع أن تومس لإيطالي المولد فقد كان من ناحيتي أبيه وأمه ينتمي إلى أصل شمالي أهم ما يجري في عروقه هو الدم التيوتوني ؛ ولم يكن فيه شئ من ظرف الطليان وخبثهم ، بل شب على ضخامة الجسم الألمانية ، فكان كبير الرأس ، عريض الوجه ، أشقر الشعر ، هادئاً راضياً بجده الذهني ، وكان أصدقاؤه يلقبونه « ثور صقلية الأبكم العظيم » (٥٢) .

وقد ولد في عام ١٢٢٥ بقصر أبيه في ركاسكا Roccasecca ، على بُعد ثلاثة أميال من أكوينو وفي منتصف الطريق بين نابلي ورومة . وكان دير جبل كسينو قريباً من منسقط رأسه ، وفيه تلقى تومس تعليمه المبكر ، ولما باغ الرابعة عشرة من عمره بدأ دراسته في جامعة نابلي واستمرت هذه الدراسة خمس سنين ، وكان في هذه الجامعة ميخائيل اسكت يترجم مؤلفات ابن رشد إلى اللغة اللاتينية ؛ ويعقوب الأناضولي يترجم مؤلفات هذا الفيلسوف إلى اللغة العبرية ؛ وبطرس الأيرلندي أحد أساتذة تومس الشديد التحمس لأرسطو . وكانت هذه الجامعة تروج بالمؤثرات اليونانية ، والعربية ، والعبرية ، تصطدم فيها بالأفكار المسيحية . واتجه إخوة تومس نحو الشعر ؛ ودخل أحدهم رينالدو Rainaldo

فى بلاط فردريك وصار فيه من الصائدين بالزاة ، وطلب إلى تومس أن ينضم إليه ، وأيده فى هذه الدعوة پيرو دل فنى Piero delle Vigne وفردريك نفسه ، ولكن تومس ، بدلاً من أن يقبل الدعوة ، انضم إلى الرهبان الدمينكيين (١٢٤٤) ؛ وأرسل بعد قليل من ذلك الوقت إلى باريس ليدرس اللاهوت ؛ غير أن اثنين من إخوته اختطفاه فى بداية رحلته بتحريض أمهما ؛ وجرى به إلى قصر ركاسكا حيث وضع تحت الرقابة مدة عام (٥٣) ، اتخذت معه فى خلاله كل وسيلة لمنع من الاتجاه إلى هذه الناحية ، وتروى إحدى القصص ، وأكبر الظن أنها موضوعه ، أن فتاة حسناء أدخلت إلى حجرته رجاء أن تغريه بالعودة إلى هذه الحياة الدنيا ، ولكنه اختطف من المدفأة شعلة ملتهبة أخرجها بها من الحجرة ، وحرق علامة الصليب التى كانت بالباب (٥٤) . وما لبثت شدة تقواه أن ضمت أمه إلى جانبه ، فساعدته على الفرار ، ثم أصبحت أخته ماركوتا Marcotta ، بعد أحاديث كثيرة معه ، راهبة بنديكتية .

وكان ألبرت الأكبر أحد معلميه فى جامعة باريس (١٢٥٤) ، فلما نُقل ألبرت إلى جامعة كولونى تبعه تومس إليها ، وظل يدرس معه فيها حتى عام ١٢٥٢ . وكان تومس يبدو غيباً فى بعض الأحيان ، ولكن ألبرت كان يدافع عنه ويتنبأ بعظمته (٥٥) . ثم عاد بعدئذ إلى باريس وأخذ يدرس فيها بعد أن نال درجة البكالوريوس فى علوم الدين ، وحذا فى هذا الوقت حذو أستاذه فبدأ سلسلة من المؤلفات يعرض فيها فلسفة أرسطو فى ثياب مسيحية . وغادر باريس فى عام ١٢٥٩ ليدرس فى المعهد الذى أقامه الديوان البابوى تارة فى أنانى وتارة فى آرفيتو ، وطوراً فى فيترى . والتقى فى الديوان البابوى بوليم موربيك William Moerbeke وطلب إليه أن يصدر ترجمة لانيزية لمؤلفات أرسطو من اللغة اليونانية مباشرة .

وكان سيجر برابانت وقتئذ يتزعم فى جامعة باريس ثورة تدعو إلى فلسفة ابن رشد ، فأرسل تومس ليقاوم هذه الدعوة ؛ ولما وصل إلى باريس نقل مركز

المعركة إلى معسكر العدو برسالته في وصرة العقل ضد فلسفة ابن رشد (١٢٧٠) واختتمها بهذه الفقرة النارية التي لا عهد للناس بها :

انظروا كيف فندنا هذه الأخطاء ؛ إنا لم نَبْنِ هذا التفيد على أسس من وثائق مستندة إلى الإيمان بالدين ، بل بيناه على علل وأقوال منقولة عن الفلاسفة أنفسهم : فإذا وُجد إنسان يفخر مزهواً بحكمته المزعومة ، ويرغب في نقض ما كتبناه ، فعليه ألا يفعل هذا في ركن من الأركان ، أو أمام أطفال لا قدرة لهم على البت في مثل هذه المسائل الشائكة . عليه أن يجيب علناً إذا كان له من الشجاعة ما يمكنه من هذا العمل ، وسيجدي مستعداً لمواجهة ، ولن يجد شخصي العاجز وحده ، بل سيجد كثيرين غيري ممن جعلوا الحقيقة موضوع دراستهم ؛ سنحارب أخطأه ونداوى جهله (٥٦) .

ولم تكن الحرب في ميدان واحد ، لأن تومس لم يكن مضطراً في هذه الفترة الثانية من اشتغاله بالتدريس أن يقاوم فلسفة ابن رشد وحدها ، بل كان عليه فوق ذلك أن يصد هجمات زملائه الرهبان ، الذين لم يكونوا يثقون بالعقل ، ويرفضون قول تومس إنه يمكن التوفيق بين أرسطو والمسيحية . ووجه جون بكهام الذي خلف بونا فنثورا في كرسي الرهبان الفرنسي للفلسفة بجامعة باريس أشد اللوم إلى تومس لربطه اللاهوت المسيحي بفلسفة إنسان وثني . ويقول بكهام فيما بعد إن تومس لم يتحول عن موقفه وردّ عليه « برفق وتواضع عظيمين » (٥٧) . وربما كانت هذه السنوات الثلاث التي احتدم فيها الجدل هي التي أنهكت قواه .

ودعى في عام ١٢٧٢ إلى العودة إلى إيطاليا بدعوة من شارل دوق أنجو ليعيد تنظيم جامعة نابلي ، ثم امتنع عن الكتابة في سنيه الأخيرة ؛ ولستنا نعرف أكان سبب هذا ما اعتراه من ملل أم أنه قد خاب ظنه في فائدة النقاش والجدل . ولما أن ألح عليه صديق له بأن يتم كتابه المزمع في علوم الدين أجابه

بقوله : « لا أستطيع ؛ لقد تكشفت لى أشياء يبدو لى معها أن ما كتبه ليس إلا هباء »^(٥٨). ودعاه جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٤ لحضور مجلس ليون ؛ فبدأ سفره الطويل على ظهر بغل مخترقا لإيطاليا ، ولكنه اعتراه الضعف فى الطريق بين نابلى ورومة ، فأوى إلى الفراش فى دير السترسيين فى فسانوفا Fossanuova بكمپانيا ، وتوفى فيه عام ١٢٧٤ غير متجاوز التاسعة والأربعين من عمره .

ولما ضم بعد وفاته إلى مجمع القديسين شهد الشهود بأنه كان حلو اللسان ، سهل الحديث ، بشوش الوجه وديعاً ... كريم الأخلاق ، صبوراً إلى أقصى حد ، يتلأأ وجهه بالبشاشة والتقوى الممزوجة بالرفقة ، شديد العطف على الفقراء^(٥٩) . وكان منهمكاً فى التقى والدرس انهماكاً يشغل كل تفكيره وكل لحظة يقضيها فى يومه . يحضر جميع الصلوات المقررة فى مواعيدها ، يتلو قداساً أو يستمع لقداسين فى كل صباح ، ويقرأ ويكتب ، ويعظ ويعلم ، ويصلى . وكان من عادته قبل أن يلقي عظة أو محاضرة ، وقبل أن يجلس للدرس أو التأليف ، أن يصلى ؛ وكان زملاؤه الرهبان يظنون أنه « مدين بعلمه إلى صلواته أكثر مما هو مدين به لى جهود عقله »^(٦٠) . ولنا لنجد من حين إلى حين على هامش مخطوطاته دعوات صالحات مثل « السلام عليك يا مريم ! Ave Maria »^(٦١) . وقد انهمك فى الحياة الدينية والعقلية انهماكاً قلماً كان يلاحظ معه ما يحدث حوله ؛ فكانت صحفته ترفع وتغير فى غرفة الطعام دون أن يدري ما بها فى بعض الأحيان ؛ ولكن يبدو أن شهيته للطعام كانت جيدة . دعى مرة للعشاء مع جماعة من رجال الدين على مائدة لويس التاسع ، فترك العنان للتفكير وهو جالس إلى المائدة حتى نسى نفسه ، ثم ضرب المائدة فجاءة بقبضته وصاح قائلاً : « هذه هى الحجة الدامغة ضد المانويين ! » . وأنبه رئيس ديريه على عمله هذا وقال له : إنك جالس إلى مائدة ملك فرنسا ، ولكن لويس أظهر من الرفقة والجمالة ما هو خليق بملك مثله ، فأمر أحد أتباعه بأن يأتى الراهب المنتصر بأدوات

كتابية^(٦٢) . ومع هذا كله كان في مقدور الراهب المنهك في أمور الدين أن يكتب في كثير من شئون الحياة العملية كتابة جيدة المعنى . وكان الناس يلاحظون كيف يستطيع أن يكيف مواعظه لتوائم عقول زملائه الرهبان المجدين في الدرس ، أو عقول العامة السذج . وكان بعيداً عن التكلف ، عديم مطالب الحياة ، لا يسعى إلى ألقاب التعظيم ، ويرفض الرقي إلى مناصب الكنيسة ، وقد انتشرت كتاباته في جميع العالم ، ولكنها لا تحتوى على كلمة واحدة نابية ؛ وهو يواجه بها كل حجة مقاومة لدينه ، ويقرعها بالحسنى وفي هدوء .

وجرى على عادة زمانه وزاد عليها ، فكان يعترف صراحة بما يأخذه عن غيره ، فهو يقتبس من ابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، ولاسحق إسرائيلي ، وابن جبيرول ، وابن ميمون ؛ وما من شك في أن أى طالب لا يستطيع فهم فلسفة القرن الثالث عشر المدرسية من غير أن يدرس ما سبقها من فلسفات المسلمين واليهود . ولا يشارك تومس وليم الأوفرنى في تقديره لابن جبيرول ، ولكنه عظيم الإجلال « للرابي ميسيز Rabbi Moyses » كما يسمى موسى بن ميمون ، ويقول بما قال به هذا الفيلسوف من أنه يمكن التوفيق بين العقل والدين ، ولكنه يوافقه أيضاً على أن بعض أسرار الدين بعيدة عن تناول العقل ؛ وينقل الحجج المؤيدة لهذا البعد من كتاب *دلالة الحائرين* ^(٦٣) . وهو يتفق مع ابن ميمون في أن في مقدور العقل البشرى أن يثبت وجود الله ، ولكنه ليس في مقدوره أن يسمو لمعرفة صفاته ، وهو يتتبع خطى ابن ميمون خطوة خطوة في بحث أزلية العالم^(*) . ويسترشد في المنطق وما بعد الطبيعة بأرسطو ويكاد ينقل عنه في كل

(*) ويقول العالم جلدين Gilson : « لو أن ابن ميمون لم يتأثر بابن رشد فيمتنع فكرة خاصة عن الخلود ، الكان في وسعنا أن نقول إن ابن ميمون وتومس يتفقان في جميع النقط الهامة » ^(٦٥) وفي هذا القول شيء من المبالغة إلا إذا قلنا إن التشليث وتجسد الأقنوم الثاني ، والكفاوة من العناصر غير ذات الشأن في الدين المسيحي

صفحة من كتبه ، ولكنه لا يتردد في أن يخالفه حينما يحيد الفيلسوف عن العقائد المسيحية ؛ وبعد أن يعترف بأن التثليث ، والتجسد ، والافتداء ويوم الحساب لا يمكن إثباتها عن طريق العقل ، يتقبل حكم العقل في جميع المسائل الأخرى قبولاً كاملاً لا تردد فيه ، ارتاع له أتباع أوغسطين . وكان ينزع إلى مبادئ الصوفية في اعترافه بأن بعض العقائد المسيحية فوق متناول العقل البشرى ، ويشاركهم في الشوق إلى الاتحاد مع الله ؛ ولكنه كان من جماعة « العقلين » لأنه يفضل العقل على « القلب » بوصفه أداة توصل إلى الحقيقة . وقد تنبأ بأن أوروبا مقبلة على « عصر العقل » ، وكان يرى أن من واجب الفيلسوف المسيحي أن يستعد لملاقاة هذه الزعة الجديدة في ميدانها . وكان يبدأ حججه المنطقية بأقوال يقتبسها من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة ، ولكنه يقول بصراحة محكمة قوية : « إن الحججة التي تستند إلى أقوال الغير أوهن الحجج » (٦٦) . ومن أقواله في هذا المعنى : « إن دراسة الفلسفة لا تهدف إلى الكشف عما فكر فيه الآخرون بل تريد أن تصل إلى حقيقة الأمور » (٦٧) . وإن كتاباته لتضارع كتابات أرسطو فيما يسرى فيها كلها من منطق .

وقلما نجد في التاريخ كله عقلاً واحداً أخضع مثله ميداناً من ميادين التفكير بمثل هذه السعة لحسن التنظيم والوضوح . ولن نجد في أسلوب تومس ما يبهتنا أو يخلب لبنا ، فهو أسلوب سهل يصل إلى الهدف من أقرب السبل ، موجز ، دقيق ، خال من الحشو والزخرف ؛ ولكننا لا نجد فيه مثل ما نجد في أسلوب أوغسطين من قوة ، وسعة الخيال ، وانفعال ونزعة شعرية . وكان تومس يرى أن لا محل في الفلسفة للبلاغة ، وكان يستطيع إذا شاء أن ينزل الشعراء في ميدانهم ؛ ذلك أن أقرب ما كتبه إلى الكمال هو الترانيم والأوراد التي وضعها لعيد القربان المقدس ، ومن بينها ترنيمة *Lauda Sion salvatorem* التي تقول بوجود جسم المسيح ودمه وجوداً حقيقياً في العشاء الرباني ، وصاغها في شعر فخم

طنان رنان . وفي التساييح ترنيمة تبدأ بعبارة من أقوال أمبروز :
Verqum supernum prodiens ، وتختتم بمقطوعتين *Osalularis Bostia*
 تنشدان أثناء البركة التي يمنحها الكاهن وقت العشاء الرباني . وفي صلاة
 المساء ترنيمة هي أعظم ما وجد من الترانيم في جميع العصور ، وهي مزيج من
 الشعر واللاهوت :

تغنّ ، يا لسان ، بسر الجسم المحيّد ،
 وبالدم الذي لا يقدر بمال ، والذي أراقه
 ملك الخلائق جميعاً ، وثمره أكرم الأرحام ،
 فداء للعالمين .
 أهدته إلينا وولده عذراء لم يمسه بشر ،
 وأقام على هذا الكوكب ينشر بذور الكلمة التي استحالت لحماً ،
 أقام بيننا في تواضع ، ثم اختتم مقامه اختتاماً عجيباً .
 وفي ليلة العشاء الأخير والرسول لا يزالون مضطجعين ،
 مراعين كل ما تقضى به الشريعة القديمة في شأن الطعام الذي
 وضعت الشريعة ،

الطعام الذي يطعمه الاثنا عشر مجتمعين يقدمه لنفسه بيديه ،
 إن الكلمة التي تجسدت تحيل الخبز بكامة إلى لحم ؛
 والنبذ يصبح دم المسيح ، وإذا عجزت الحواس أن ترى .
 فليقلو الطهر في القلب بالإيمان وحده .
 ومن أجل هذا نجلّ هذا العشاء الوباني العظيم ونحن ساجّد ؛
 ألا فلنخل الطقوس القديمة مكانها لهذه الشعيرة الجديدة ؛
 وليُسجّع إيماننا عجز حواسنا المظلمة .

سبحوا بحمد الوالد والمولود وغنوا له أريج الأغاني :

سلام ، وتكريم ، وسلطان ، وبركات كثيرة
وليرفع له تسبيحنا غير منتقص
صادر عن حواسنا وقلوبنا(*) .

وتكاد كتابات تومس تساوى في كثرتها كتابات ألبرت ، وإن كانت
حياة أولهما لا تزيد إلا قليلاً على حياة الأخير . وقد كتب شروحاً على أمطام
بطرس لمبارد ، وعلى أناجيل إشعيا ، وأيوب ، ويولس ، وعلى كتاب تيموس
لأفلاطون ، وعلى مؤلفات بوثيوس والمؤلفات المدسوسة على ديونيسيوس ، وعلى
كتب أرغنون ، وفي السماء والأرض ، والكون والفساد ، والأفلاك ، والطبيعة ،
وما وراء الطبيعة ، وفي النفس ، والسياسة ، والأخلاق ، وفي الحقيقة ، وفي
السلطان ، وفي الشر ، وفي العقل ، وفي الفضيلة ، وغيرها من كتب أرسطو ؛
وكتب يبحث نقطاً تثار عارضة في جلسات الجامعة . وله رسائل في قوانين
الطبيعة ، والكائن ، والجوهر ، وحكم الأمراء ، وعمليات الطبيعة الخفية ، وكتاب
في أربعة مجلدات يسمى : *معرضة المذهب الطائويكي ضد الوثنيين*
Summa de veritate catholica de contra Gentiles (١٢٦٧ -
١٢٧٣) *ومعرضة اللاهوت* Compendium theologiae (١٢٧١ -
١٢٧٣) . ويلاً ما نشر من مؤلفات تومس ١٠ر٠٠٠ صفحة من القطع
الكبير ذى العمودين في كل صفحة .

وكان إعداد خلاصة الدين الكاثوليكي ضد الوثنيين بطلب من ريمند
الليثافورتي Raymond of Penafort زعيم طائفة الرهبان الدمنيكيين ، ليستعين
به على ضم المسلمين واليهود في أسبانيا إلى الدين المسيحي . ولهذا فإن تومس يكاد

(*) والمقطوعتان الأخيرتان تنشدان أثناء البركة التي يمنحها الكاهن وقت العشاء الرباني
وتتلى الترنيمة كلها في موكب يوم خيس الصومود .

يستند في كل ما يورده من حجج في هذا الكتاب إلى العقل والمنطق ، وإن كان يقول في أسف إن « هذا لا يكفي في الأمور المتعلقة بالله » (٦٨) . وهو يتخلى فيه عن الطريقة المدرسية في النقاش ، ويعرض مادته بأسلوب يكاد يكون هو الأسلوب الحديث بعينه ، ويعرضها أحياناً بمرارة لا تليق بهذا العالم الوديع الشبيه بالملك . وهو يقول إن المسيحية دين إلهي بلا ريب ؛ لأنها غلبت رومة وأوربا على الرغم من دعوتها ضد ملاذ الدنيا وملاذ الجسد ، وهى الدعوة التى لا يرحب بها الناس (٦٩) ؛ وهو يعترف صراحة في الجزء الرابع من الكتاب بأن العقائد الأساسية في الدين المسيحي لا يمكن إثباتها بالاستناد إلى العقل والمنطق ، وإنما تتطلب الإيمان بالوحي الإلهي كما جاء في الكتب المقدسة عند اليهود والمسيحيين .

ويوجه تومس أوسع كتبه كلها وهو *فصلصة اللاهوت* إلى المسيحيين أنفسهم ؛ وهو محاولة لشرح مجموعة العقائد الكاثوليكية في الفلسفة واللاهوت والدفاع عنها بالاستناد إلى الكتب المقدسة وكتب آباء الكنيسة وإلى العقل (*) . ومما جاء في مقدمة الكتاب : « سنحاول أن نتبع الأمور المتعلقة بالعقائد المقدسة بإيجاز ووضوح بقدر ما تسمح به مادة هذا الموضوع » . وقد يكون من حقنا أن نبسّم لهذا الإيجاز الذى يحتويه واحد وعشرون مجلداً ، ولكن هذا ما يقوله المؤلف . والحق أن هذه *الفصلصة* ضخمة الحجم ولكنها بعيدة عن الحشو واللغو ؛ وليست ضخامة حجمها إلا نتيجة سعة مجال بحثها ؛ ذلك أن في هذه الرسالة عن اللاهوت رسائل كاملة فيما بعد الطبيعة ، وفي علم النفس ، والأخلاق ، والقانون ؛ وفيها ثمان وثلاثون رسالة ، و٦٣١ سؤالاً أو موضوعاً ، وعشرة آلاف اعتراض أو رد . وترتيب الحجج الخاصة بكل سؤال مما يدعو إلى الإعجاب .

(*) هذا الكتاب من أوله إلى السوال اتسعين من الجزء الثالث بما فيه هذا من تأليف تومس ؛ أما بقية الكتاب فقد يكون من تأليف ريتشارد الپرنوى رفيقه وناسر كتبه .

أما تركيب الكتاب فقد نال من الثناء أكثر مما يستحق ، فهو لا يضارع التنظيم المنطقي لكتاب الأخلاق لاسينوزا أو التابع المسلسل لكتاب الفلسفة التركيبية لاسينسر . ورسالته في علم النفس (الجزء الأول المشتمل على الأبواب من ٧٥ إلى ٩٤) موضوعة بين بحثه في الستة الأيام التي تم فيها الخلق وبين دراسة الإنسان وهو في عهد البراءة الأولى . وشكل الكتاب أكثر طرافة من تركيبه ؛ وهو في جوهره يواصل طريقة أبلار من الحد الذي بلغته على يد بطرس لمبارد ويبلغ بها درجة الكمال : يبدأ بالسؤال ، تتلوه الحجج النافية ، والاعتراضات على الحجج الموجبة ، ثم الحجج الموجبة المأخوذة من الكتاب المقدس ، ومن كتب الآباء ، والمستندة إلى العقل ، ثم الردود على الاعتراضات . وهذه الطريقة تضعيـع الو أحياناً لأنها تورد حججاً واهية ثم تدحضها ، ولكن النقاش أحياناً نقاش جوهري وحق ، ومن خصائص تومس أنه يورد الرأي المخالف لرأيه بصراحة مدهشة وقوة عظيمة ؛ وهذه الطريقة كان الكتاب خلاصة للإلحاد كما هو حصن حصين للعقائد المسيحية ، ويمكن اتخاذه كتاباً جامعاً للشكوك . وقد لا نقنع على الدوام بردوده ، ولكننا لا نستطيع أن نشكو قط من أن الشيطان لم يجد له مدافعاً قديراً .

الفصل السادس

فلسفة تومس

١ - المنطق

ما هي المعرفة ؟ هل هي نور إلهي بعثه الله في الإنسان ، وبغير هذا لا يمكن أن تكون ؟ يخالف تومس منذ البداية أوغطين ، والمتصوفة ، والقائلين بمذهب اللقانة (*) : فالمعرفة في رأيه نتاج طبيعي ، يحصل عليها الإنسان من حواس الجسم الخارجية ، ومن الحاسة الداخلية المعروفة بالشعور بالذات . وهي معرفة محدودة غاية في القصور فما من عالم قد عرف حتى وقتنا هذا حقيقة الذبابة (٧٠) . ولكن المعرفة في داخل حدودها خليقة بأن يوثق بها ، ولا حاجة بنا لأن يتولانا الغضب من أن العالم الخارجي قد يكون كله خداعا في خداع . ويقبل تومس تعريف المدرسين للحقيقة بأنها مطابقة الفكرة للشيء *adequatio rei et intellectus* (٧١) . وإذا كان العقل يستمد كل معلوماته الطبيعية من الحواس (٧٢) فإن معرفته المباشرة للأشياء الخارجية عنه مقصورة على الأجسام - أي على عالم الحس أو المحسوس ، وليس في مقدوره أن يعرف من طريق مباشر العالم الذي فوق المحسوس ، عالم ما وراء الطبيعة ، العقول التي في داخل الأجسام أو الله في خلقه ؛ ولكن في وسعه عن طريق المقارنة والقياس أن يستمد من تجارب الحس معرفة غير مباشرة بالعقول الأخرى ، وأن يحصل بمثل هذه الطريقة على معرفة غير مباشرة بالله (٧٣) . أما العالم الثالث عالم ما فوق الطبيعة - حيث يوجد الله - فليس في مقدور عقل الإنسان أن يعرف عنه شيئا إلا من طريق الوحي .

الإلهي . وفي وسعنا أن نعرف بطريق الفهم الطبيعي أن الله موجود ، وأنه واحد ، لأن وجوده ووحدانيته تتلألآن في عجائب العالم وحسن تنظيمه ؛ ولكننا لا نستطيع بعقلنا وحده أن نعرف جوهره أو حقيقة التثليث ، وحتى علم الملائكة أنفسهم قاصر ومحدود وإلا كانوا آله .

وقصور علمنا في حد ذاته دليل على وجود عالم فوق الطبيعي . ويكشف الله لنا عن هذا العالم في كتيبه المقدسة ، وكما أن من الحق أن يقول الفلاح إن نظريات الفلاسفة كاذبة لأنه يعجز عن فهمها ، كذلك يكون من الحق أن يرفض الإنسان الإيمان بالوحي الإلهي بحجة أنه يبدو له في بعض النقط مناقضاً لمعلومات الإنسان الطبيعية . وعلينا أن نثق بأنه لو كانت معلوماتنا كاملة ، لما كان ثمة تناقض بين الوحي والفلسفة ، ومن الخطأ أن نقول إن قضية ما يمكن أن تكون خاطئة في الفلسفة وصحيحة في الدين ، ذلك بأن الحقائق كلها تأتي من عند الله وهي واحدة . غير أنه يحسن بنا أن نفرق بين ما نفهمه عن طريق العقل وما نعتقد عن طريق الإيمان (٧٤) ، لأن ميداني الفلسفة والتصور ميدانان منفصلان ، ويجوز للعلماء أن يبحثوا فيما بينهم ما يعترض به على الدين ، ولكن « لا يحسن بالسذج من الناس أن يستمعوا إلى ما يقوله غير المؤمنين ضد الدين » لأن العقول الساذجة ليس لها من الاستعداد ما تستطيع أن ترد به على المعترضين (٧٥) . ويجب على العلماء والفلاسفة ، كما يجب على الفلاحين أن ينعنوا أمام قرارات الكنيسة ؛ ومن واجبتنا أن نهتدي بهديها في كل شيء (٧٦) ؛ لأنها هي المكان الذي أودع فيه الله الحكمة الإلهية ؛ وقد أعطى البابا « الحق في أن يصدر أحكاماً نهائية في شؤون الدين حتى بأخذها الناس جميعاً بإيمان لا يتزعزع (٧٧) » . وبغير هذا لا مفر من الفوضى العقلية ، والأخلاقية ، والاجتماعية .

٢ - ما وراء الطبيعة

(الميتافيزيقا)

ميتافيزيقية تومس تعريفات معقدة عويصة وفروق دقيقة يقوم عليها كلها لاهوته .

١ - الجوهر والوجود في الأشياء المخلوقة مختلفتان ، فالجوهر هو ما لا بد منه لإدراك الشيء ، والوجود هو عملية الكينونة . فجوهر المثلث - أى أنه ثلاثة خطوط مستقيمة تضم بينها فراغاً - واحد لا يتغير سواء وجد المثلث أو كان مجرد إدراك ذهني . أما في حالة الله فالجوهر والوجود شيء واحد ؛ لأن جوهره هو أنه العلة الأولى ، والقوة التي تقوم عليها كل الأشياء (أو التي تقف تحت الأشياء) كما يقول اسپنوزا . وتعريفه يحتم وجوده لكي يوجد كل ما عداه من الأشياء .

٢ - والله موجود بالحقيقة ، وهو الكائن المكون لجميع الكائنات ، وعلمها التي تستند إليها . وكل الكائنات الأخرى موجودة بالتصور لا غير ، وبالاشتراك المحدد في حقيقة الله .

٣ - وكل الكائنات المخلوقة فاعلة ومنفعة معاً - أى أنها تفعل وتنفع . وهي أيضاً مزيج من الكينونة والصيرورة : فلها صفات معينة قد تفقد بعضها وتكسب غيرها - فالماء مثلاً قد يندفأ . ويعبر تومس عن هذا التأثير بالعمل الخارجى أو التبدل الداخلى بلفظ الإمكانية *potentia* . والله وحده هو المنزه عن هذه الإمكانية ، فهو لا يفعل ولا يتبدل ، وهو نشاط خالص ، وحقيقة خالصة ؛ وهو من بادئ الأمر كل شيء يمكن أن يكونه . ويمكن ترتيب الموجودات التي دون الله ترتيباً تنازلياً يقوم على عظم إمكانياتها في التأثير بما هو

خارج عنها والتحدد به . وعلى هذا يكون الرجل أرقى من المرأة لأن « الأب هو المبدأ الفعال ، على حين أن الأم هي المبدأ المنفعل أو المادى ؛ فهى تقدم مادة الجسم التى لا صورة لها ، والتى تتلقى صورتها عن طريق القوة المكونة التى فى منى الأب » (٢٨) ،

٤ - كل الكائنات ذات الأجسام تتكون من مادة وصورة ، ولكن الصورة هنا (كما هى عند أرسطو) ليس معناها الشكل بل العنصر الفطرى المنشط المميز . وحين تكون الصورة أو العنصر الحيوى جوهر كائن ما فهى تكون صورة أساسية جوهرية ، وهذا تكون النفس العاقلة - أى القوة التى تهب الحياة والقادرة على التفكير - هى صورة الجسم الأساسية ، والله هو صورة الكون الأساسية .

٥ - والحقائق كلها إما جوهر أو عرض : إما أن تكون موجودات منفصلة كالحجر والإنسان ، أو أنها لا توجد إلا على هيئة صفات فى شىء آخر كالبياض والكثافة . أما الله فهو جوهر محض ، لأنه هو الحقيقة الكاملة الموجودة بذاتها .

٦ - والجواهر كلها فردية ، ولا شىء غير الأفراد موجود إلا فى الفكر ، والفكرة القائلة بأن الفردية خداع هى نفسها خداع .

٧ - وفى الكائنات المكونة من مادة وصورة يكون العنصر الأساسى أو مبدأ الانفراد - أى تضاعف عدد الأفراد فى النوع أو الصنف - هو المادة . أما الصورة أو المبدأ الحيوى فى النوع بأكمله فهى فى جوهرها واحدة . وهذا المبدأ يستخدم فى كل فرد ، مقداراً معيناً وشكلاً من المادة . ويستحوذ عليه ، ويعطيه شكلاً ؛ وهذه المادة التى تعينت بكميتها هى مبدأ الانفرادية - وليست الانفرادية هى الفردية بل الذاتية المنفصلة .

٣ - اللاهوت

المحور الذى تدور حوله فلسفة تومس وموضوع بحثها هو الله لا الإنسان ، وقد كتب فى ذلك يقول : « إن أرقى ما نستطيع تحصيله من معرفة عنه فى هذه الحياة أن نعرف أنه فوق كل ما يمكن أن يدور بخلدنا عنه » (٧٩) . وهو يرفض حجج أنسلم الكونية ، ولكنه يقترب منها حين يقول إن وجوده وجوهره شيء واحد ، فالله عنده هو الوجود نفسه : « أنا من أنا » .

ويقول تومس إنه يمكن البرهنة على وجود الله بعلل طبيعية : (١) فالحرركات كلها تنشأ من حركات سابقة ، وهذه تنشأ من أخرى قبائها ، وهذه إما أن تنتهى إلى محرك أول أو أن تستمر فى الرجوع إلى حركات أسبق منها رجوعا لانهاية له وهذا مستحيل ، (٢) كذلك يتطلب تسلسل العلل علة أولى ، (٣) والعرضى ، وهو ما قد يكون ولكن لا يتحتم أن يكون ، يعتمد على الضرورى الذى لا بد أن يكون ، ويعتمد الممكن على الواقع ، وهذا التسلسل يرجع بنا إلى كائن ضرورى هو الحقيقة الخالصة ، (٤) والأشياء طيبة ، وحقة ، وسامية ، بدرجات مختلفة ، ولا بد أن يكون هناك أصل أو مصدر لهذه الفضائل الناقصة يبلغ حد الكمال فى الطيبة والحقيقة والسمو ، (٥) فى العالم آلاف من الشواهد الدالة على ما فيه من نظام ، وحتى الجهادات نفسها تتحرك بطريقة منظمة ، وكيف يمكن وجود هذا إلا إذا كانت هناك قوة عاقلة هى التى خلقت هذه الأشياء ؟ (*) (٨١) .

وإذا ما استثنينا مسألة وجود الله قلنا إن تومس يكاد يكون لا أدريا فى اللاهوت الطبيعى « لا نستطيع أن نعرف ما هو الله ، بل نعرف فقط ما لا يمكن أن يكونه » (٨٢) - إنه لا يتحرك ، ولا يتعدد ، ولا يتحول ، ولا يحيط به زمان . ولیم تريد العقول المتناهية فى الصغر أن تزيد علمها بما لانهاية له؟ ويقول تومس

(*) ٢١١ ، هـ متقولة عن ألبرت عن أرسطو (٣) عن ابن ميمون (٤) عن أنسلم

إن من الصعب علينا أن نتصور الروح غير المادية (وهو يسبق برجسون في قوله هذا) لأن العقل يعتمد على الحواس . ولأن تجاربنا الخارجية كلها مقصورة على الأشياء المادية ؛ وعلى هذا « فإننا لا نعرف الأشياء المجردة من الأجسام ، والتي لا صور لها ، إلا بمقارنتها بالأجسام المحسوسة التي لها صور » (٨٣) . وليس في مقدورنا أن نعرف الله (كما يقول ابن ميمون) إلا عن طريق الحجاز والتشبيه ، فستدل عليه من أنفسنا ومن تجاربنا ؛ وعلى هذا فإذا كان في الناس خير ، وحب ، وحق ، وعقل ، وقدرة ، وحرية ، أو أية ميزة أخرى ، فلا بد أن تكون هذه أيضاً في خالق الإنسان ، وأن تكون فيه بدرجة أعلى تتفق مع النسبة الموجودة بين اللانهاية وبيننا نحن . وإذا ما استعملنا ضمائر المذكر حين نتحدث عن الله فليس ذلك إلا من قبيل التيسير ، أما الحقيقة فليس ثمة ذكر وأنثى في الله ولا في الملائكة . والله واحد لأنه حسب تعريفه هو الوجود ذاته ، وإن سير العالم الموحد ليكشف عن عقل واحد وقانون واحد . وإن القول بوجود ثلاثة أقانيم في هذه الوحدة الإلهية هو سر غامض لا يدركه العقل ، ولا بد أن نعتقده بإيمان الواصلين .

وليس في مقدورنا كذلك أن نعرف هل خلق العالم في وقت بعينه ، وبذلك يكون قد خلق من لا شيء ، أو هل هو أزلي كما يظن أرسطو وابن رشد ؟ ومن رأيه أن الحجج التي يدلي بها رجال الدين ليثبتوا بها خلق العالم في زمن بعينه حجج واهية يجب رفضها « حتى لا تبدو العقيدة السمحة بأنها قائمة على أسانيد منطقية جوفاء » (٨٤) . ويستنتج تومس من هذا أن علينا أن نعتقد بالاستناد إلى إيماننا وحده بخلق العالم في وقت معين ؛ ولكنه يضيف إلى هذا أن ذلك أمر لا معنى له لأن الوقت لم يكن له وجود قبل الخلق ، إذ ليس ثمة وقت بلا تغير ، ولا مادة تتحرك . وهو يحاول بأقصى جهده أن يشرح كيف ينتقل الله من لا خلق إلى خلق دون أن يعتره تغير . وعلمية الخلق في رأيه أزلية ، ولكنها

تشمل في إرادة القيام بها تحديد الوقت الذي يتطلبه ظهور نتائجها (٨٥) -
وتلك طريقة طريقة يروغ بها هذا الرجل العنيد من المشكلة التي يواجهها .

والملائكة في رأيه هم أرق طبقات الخلق ، وهم عقول بلا أجسام ، غير
قابلين للفساد ، مخلدون . وهم رسل الله في حكم العالم ، بهم تتحرك الأجرام
السمائية وبهم تهتدى (٨٦) ، ولكل إنسان ملك يحرسه ، وكبار الملائكة يعنون
بمهمات كبيرة من الناس . وإذا كان الملائكة عقولا بلا مادة ، فإن في
مقدورهم أن ينتقلوا من أحد أطراف العالم إلى الطرف الآخر من غير أن
يجتازوا ما بينهما من فضاء . ويملاً تومس ثلاثاً وتسعين صفحة في طبقات
الملائكة ، وحركاتهم ، وحجهم ، وعلمهم ، وإرادتهم ، وكلامهم ،
وعاداتهم - وهذا هو أكثر أجزاء الخصومة الطويلة تكلفاً وأكثرها استعصاء
على التنفيذ .

وكما أن هناك ملائكة فكذلك يوجد عفاريات ، وهم أبالسة صغار يأتمرون
بأمر الشيطان ؛ وليس هؤلاء مجرد خيالات تخافها عقول العوام ، بل هم
كائنات حقيقية يسببون ما لا حصر له من الأذى ؛ وفي وسعهم أن يجعلوا
الرجل عاجزاً عن القيام بالوظيفة الجنسية بأن يشيروا فيه كره المرأة (٨٧) ،
ويقومون بضروب مختلفة من السحر ؛ فقد يرقد العفريت تحت الرجل ،
ويتلقى منيته ، ويحملة مسرعاً في الفضاء ، ويجامع امرأة ، فتحمل من منى
رجل غائب (٨٨) . وفي وسع العفاريات أن يمكنوا السحرة من أن يتنبؤوا
بالحوادث التي لا تعتمد على إرادة الإنسان الحرة . وفي وسعهم أن يبلغوا الناس
معلومات بأن يطبعوها في خيالهم ، أو بأن يظهرها أمام عيونهم ، أو يتحدثوا
لهم بصوت مسموع ؛ وقد يتعاونون مع الساحرات ، ويساعدونهن على إيذاء
الأطفال ، عن طريق الحسد (٨٩) .

وكان تومس يعتقد بصدق التنجيم في كثير من الأمور ، شأنه في ذلك
شأن كثيرين من معاصريه ، وكثيرين من معاصرينا نحن :
يجب أن نربط بين حركات الأجسام . . . على هذه الأرض وحركات

الأجرام السماوية وهى علتها . . . وثمة طريقتان يستطيع بهما تفسير قدرة المنجمين فى كثير من الأحيان على التنبؤ بالحقائق برصد النجوم : أولاهما أن عدداً كبيراً من الناس يسرون وراء انفعالاتهم الجسمية ، وبذلك تتجه أعماهم فى معظم الأحيان حسب ميل الأجرام السماوية ، على حين أن هناك قلة منهم - وهم العقلاء وحدهم - يهدثون ميوهم بعقولهم . . . وثانيتهما ناشئة من تدخل العفارىت (٩٠) .

بيد أن « أعمال البشر لا تخضع لفعل الأجرام السماوية إلا خضوعاً عارضاً وبطريق غير مباشر » (٩١) ؛ وفيها مجال كبير لحرية الآدميين .

٤ - علم النفس

يعنى تومس ببحث المشاكل الفلسفية التى يتضمنها علم النفس ، والصفحات التى يخصصها لهذا الموضوع من أحسن ما فى كتابه من تحليل . وهو يبدأ بفكرة أن الكائن الحى عضوى معارضا فى ذلك فكرة أنه آلى : فالآلة تتكون من أجزاء تظم بعضها إلى بعض من الخارج ، أما الكائن الحى فيكون أجزاءه بنفسه ويحرك نفسه بما فيه من قوة داخلية (٩٢) . وهذه القوة الداخلية المكوّنة هى النفس ، ويعبر تومس عن هذه الفكرة بمصطلحات من كتب أرسطو : فالنفس عنده « صورة هيولىة » للجسم - أى أنها هى المبدأ الحيوى والطاقة التى تعطى الكائن الحى وجوداً وشكلاً : « النفس هى المبدأ الأول لغدائنا ، وإحساسنا ، وحركتنا ، وفهمنا » (٩٣) . والنفس ثلاث درجات : النفس النابتة - أى القدرة على النماء ، والنفس الحاسة - أى القدرة على الشعور ، والنفس العاقلة - أى القدرة على التعقل والاستدلال . والأولى موجودة فى كل ما هو حى ، أما الثانية فلا توجد إلا فى الحيوانات والآدميين ، وأما الثالثة فلا توجد إلا فى بنى الإنسان . غير أن الكائنات الحية العليا تمر فى نواتها الجسمى والفردى بالمراحل التى تبقى فيها

الكائنات السفلى ؛ و « كلما علت الصورة في سلم المخلوقات . . . زاد عدد الأشكال الوسطى التي تمر بها قبل أن تصل إلى صورتها الكاملة » (٩٤) - ويشبه هذا القول نظرية « الإعادة » التي ظهرت في القرن التاسع عشر والتي تقول إن جنين الإنسان يمر بالمراحل التي مر فيها النوع أثناء نموه .

وبينا كان أفلاطون ، وأوغسطين ، والرهبان الفرنسيين يظنون أن النفس سجيئة في الجسم ، ويقولون إن الإنسان هو النفس لا غير ، كان تومس جريئاً في قبول فكرة أرسطو ، وهو يعرف الإنسان - بل يعرف الشخصية نفسها - بأنه مزيج من الجسم والنفس ومن المادة والصورة (٩٥) . فالنفس وهى الطاقة الداخلية التى تبعث الحياة ، وتخلق الصورة ، توجد في كل جزء من أجزاء الجسم كاملة غير قابلة للانقسام (٩٦) وهى ترتبط بالجسم بألف طريقة . فهى بوصفها نفساً نباتية تعتمد على الطعام ، وبوصفها نفساً حاسة تعتمد على الإحساس ، وبوصفها نفساً عاقلة تحتاج إلى الصور التى تنتج أو تتركب من الإحساسات . وحتى المقدرة العقلية والمدركات الأخلاقية تعتمد على وجود جسم سليم إلى حد معقول . فالجلد السميك يدل على النفس العديمة الإحساس (٩٧) ؛ وللأحلام ، والانفعالات ، والأمراض العقلية ، والأمزجة أسس في وظائف الأعضاء (٩٨) . ويتحدث تومس في بعض الأحيان كما لو كان الجسم والنفس حقيقة واحدة موحدة ، أى الطاقة الداخلية والصورة الخارجية لكل لا يتجزأ . ومع هذا فقد كان يبدو له واضحاً كل الوضوح أن النفس العاقلة - المجردة ، المعجمة ، والمستدلة ، المصورة للكون ، - حقيقة غير جسمية ؛ وأنها مهما حاولنا ، وعلى الرغم من ميلنا إلى التفكير في جميع الأشياء بمصطلحات مادية ، لانستطيع أن نجد شيئاً مادياً في الإدراك ؛ فهو حقيقة تختلف كل الاختلاف عن جميع الأشياء المادية أو المكانية ؛ ويجب أن نصف هذه النفس العاقلة بأنها روحية ، شئ يعثه فينا الله وهو القوة النفسية القائمة وراء كل الظواهر المادية . والقوة غير المادية وحدها هى التى تستطيع

أن تكون فكرة كلية ، أو تقفز إلى الأمام وإلى الخلف في الزمان ، أو تدرك الكبير والصغير بدرجة واحدة من السهولة^(٩٩) . وفي مقدور العقل أن يدرك نفسه ، ولكن من المستحيل أن يتصور كائناً مادياً يدرك نفسه .

ولهذا فلا حرج علينا إذا اعتقدنا أن هذه القوة الروحية الموجودة فينا تبقى بعد موت الجسم ؛ ولكن النفس التي تفارق الجسم على هذا النحو ليست ذات شخصية ، فهي لا تقدر أن تحسن أو تريد ، أو تفكر ، بل هي طيف لا قوة له ولا يستطيع أن يقوم بعمل بغير الجسم^(١٠٠) ، ولا تكون مع الجسم شخصية منفردة لا يجوز عليها الموت إلا إذا عادت إلى الاتحاد مع الجسم ، أى مع الإطار الجسدى الذى كانت هي حياته الداخلية . ولقد كان السبب الذى دفع ابن رشد وأتباعه إلى النظرية القائلة بأن « لا خلود إلا للعقل الفاعل » وحده ، أو نفس الكون ؛ أو نفس النوع ، هو عدم إيمانهم ببعث الجسم . أما تومس فيسخر كل ما وهب من قوة الجدل ليدحض هذه النظرية ، وعنده أن اختلافه عن ابن رشد في مسألة الخلود هو أهم المشاكل القائمة في القرن الذى يعيش فيه ، وأن ما ينشأ عن الوقائع الحربية من تبديل في الحدود وتغيير في الألقاب يبدو إلى جانبها عبثاً وجنوناً لا أكثر .

ويقول تومس إن للنفس خمس صور أو قوى : النفس النباتية وبها نطمع ، وتنمو ونتكاثر ؛ والنفس الحاسة وبها نستقبل التنبيهات من العالم الخارجى ؛ والنفس المشبهة ، وبها نرغب ونريد ؛ والنفس المحركة وبها تحدث الحركة ؛ والنفس العاقلة وبها نفكر^(١٠١) . والمعلومات كلها تبدأ بالحواس ، ولكن التنبيهات لا تسقط على سطح فارغ أملس ، بل بتأقماها بناءً معقد هو مركز الإحساس المشترك ، الذى يصبوغ هذه التنبيهات أو الأحاسيس فيوئلف منها أفكاراً . ويتفق تومس مع أرسطو ولوك Lock في أنه « لا شيء في العقل لم يكن له من قبل وجود في الحواس » ، ولكنه يضيف إلى ذلك كما يضيف كانت وليبنز قوله :

« إلا العقل نفسه » — وهو قوة منظمة تستطيع تنظيم التنبيهات إلى أفكار ، وأخيراً إلى تلك الكليات والأفكار المجردة التي هي أدوات الاستدلال ، والميزة التي اختلف بها الإنسان على هذه الأرض .

والإرادة أو الرغبة هي الموهبة التي نستطيع بها النفس أو القوة الحيوية أن تتحرك نحو ما يرى العقل أنه خير . ويعرف تومس الخير كما يعرفه أرسطو بأنه « هو الشيء المرغوب فيه »^(١٠٢) . والجمال شكل من أشكال الخير ، لأنه هو الذي تسر رؤيته . ولم كانت رؤيته سارة ؟ لأنها تسر لما بين أجزائها من تناسب وتناسق يجعل منها كلا منظماً . والعقل خاضع للإرادة لأن الرغبة تستطيع أن تحدد اتجاه الفكر ، ولكن الإرادة نفسها خاضعة للعقل لأن رغباتنا تحددها الطريقة التي تدرك بها الأشياء ، والآراء التي تكونها عنها (مقلدين في ذلك غيرنا عادة) . وليست الحرية مستقرة حقيقة في الإرادة التي « يحركها بالضرورة » فهمنا للمادة كما يعرضها علينا العقل^(١٠٣) ، بل هي مستقرة في التمييز (arbitrium) : ولهذا تتناسب الحرية تناسباً مطرداً مع درجات المعرفة ، والقدرة على الاستدلال ، والحكمة ، وعلى قدرة العقل أن يعرض صورة صحيحة للحالة القائمة على الإرادة ، ومن ذلك يرى أن الحكماء وحدهم هم الأحرار حقاً^(١٠٤) . وليس الذكاء خير مواهب النفس وأسمائها فحسب بل هو أيضاً أعظمها قوة : « وطلب الحكمة هو من بين مطالب الإنسان كلها أكملها ، وأسمائها ، وأعظمها نفعاً ، وأجلها للسرور »^(١٠٥) : « وعمل الإنسان الخلق به هو أن يفهم »^(١٠٦) .

٥ — علم الأخلاق

وإذن فغاية الإنسان الحق هي أن يصل إلى الحقيقة في الحياة الدنيا ، وأن يشهد هذه الحقيقة في الله في الحياة الآخرة ؛ ذلك أننا إذا سلمنا مع أرسطو بأن ما يسعى إليه الإنسان هو السعادة ، فأين يجد أحسنها ؟ إنه لا يجدها في الملاذ

الجسمية ، ولا فى الشرف ، ولا فى الثروة ، ولا فى السلطان . بل إنه لا يجدها فى الأعمال الصادرة عن الفضيلة الخلقية ، وإن حصل من هذه كلها على البهجة . ولنسلم كذلك بأن « النظام الكامل للجسم ضرورى . . . للسعادة الكاملة » (١٠٧) . ولكن ليس فى هذه الطيبات كلها ما يضارع السعادة الهادئة الشاملة المتصلة الناشئة من الفهم . ولعل تومس كان يذكر وتشد قول فرجيل : « ما أسعد من استطاع أن يعرف جلال الأشياء ! » فاعتقد أن أسمى عمل تقوم به النفس وأعظم ما تغتبط به — أى اللذة الطبيعية لعقائبتها الخاصة — هى « أن ينقش عليها النظام الكامل للكون وأسبابه » (١٠٨) . وإن السلام الذى يعلو على الفهم لينشأ من الفهم .

ولكن هذه السعادة الدنيوية العليا نفسها لا تترك الإنسان راضياً كل الرضا قانعاً كل القناعة ، فهو يعرف معرفة غامضة أن « السعادة الكاملة الحققة لا يمكن أن تنال فى هذه الحياة » . وأن فى داخله صوتاً لا يمكن إسكاته يجعله يتوق على الدوام لسعادة وفهم لا يتأثران بما يتعرض له الآدميون القانون من تغيرات ومن صروف الزمان . وقد تجد غير هذه الشهوات ما يشبعها فى الطيبات الوسطى ، أما عقل الإنسان الكامل فلن يستريح إلا إذا وصل إلى ذروة الحق وجماعه وهو الله (١٠٩) . ففى الله وحده الخبى الأسمى لأنه مصدر كل الطيبات الأخرى ، ولأنه علة سائر العلل ، وحقبة كل الحقائق ، والهدف الأخير للإنسان هو نور النعم الباهر — الرؤى التى تهب السعادة (*) .

وعلى هذا يكون علم الأخلاق هو الفن والعلم اللذين يعدان الإنسان لبلوغ هذه السعادة النهائية السرمدية ؛ ويمكن تعريف الطبيعة الخلقية أو الفضيلة بأنها السلوك المؤدى إلى غاية الإنسان الحققة وهى أن يرى الله والإنسان بطبعه ميال إلى الخير — المرغوب فيه : ولكن ما يراه هو خيراً ليس فى كل الأحوال خيراً

(*) وهو النور الذى يراه الثلاثة والإبراء عند دخولهم الجنة . (الترجم)

من الناحية الأخلاقية ؛ وقد عصى الإنسان الله بسبب خطأ حواء في الحكم على ما هو خير ، وهو يحمل الآن في كل جيل وزر هذه الخطيئة الأولى (*). وإذا ما سأل إنسان عند هذه النقطة لم خلق الله ، الذى يعرف كل شيء قبل حدوثه ، رجلاً وامرأة قدر عليهما أن يكونا مشغوفين بالمعرفة ، وخلق جيلاً قدر عليه أن يكون ملوثاً بهذا الإثم الموروث ، أجابه تومس أن من المستحيل على أى مخلوق بمقتضى قوانين ما وراء الطبيعة أن يكون كاملاً . وأن حرية الإنسان في أن يأثم هي الثمن الذى يجب عليه أن يؤديه نظير حريته في الاختيار . وإذا سلب الإنسان حرية الإرادة أصبح مجرد آلة ذات حركة ذاتية لا تسمو على الخير والشر بل تنحط دونها ، ولا تكون لها كرامة أكثر من أنها آلة .

وإذا كان تومس قد انغمس في عقيدة الخطيئة الأولى ، وانغمس في مبادئ أرسطو ، وفي الخوف من النساء واعتزلن اعتزالاً ناشئاً من حياة الأديرة ، فقد كان لابد أن يكون سيئ الظن بالنساء ، وأن يتحدث عنهن حديث الرجال ، وليس عليه في هذا لوم . وهو يخلو خلوة أرسطو في أنانيته البالغة الخطورة حين يظن أن الطبيعة كبطارقة العصور الوسطى ترغب على الدوام في أن تخرج ذكوراً ، وأن المرأة مخلوق عاجز عارض ، أو أنها ذكر أخطأه التوفيق (mas occasisnatum) . وأكبر الظن - على حد قوله - أنها نتيجة لضعف قوة التلقيح عند الأب ، أو لعامل آخر خارجي مثل ربيع جنوبية رطبة^(١١١) . وكان يظن بالاعتماد على آراء أرسطو وبعض معاصريه في علم الأحياء أن المرأة ليس لها إلا المادة المنفصلة في الذرية ، أما الرجل فهو الذى يعطى الصورة الفاعلة ؛ وأن المرأة هي انتصار المادة على الصورة ؛ وهى من ثم أضعف الأوعية في الجسم ، والعقل ، والإرادة . وشأنها

(*) لم يكن تومس يعرف أن الكنيسة ستقر نظرية الحمل بلا دنس الخاصة بالمذراء - أى تحررها من التلوث بالخطيئة الأولى - ولهذا ظن أن مريم أيضاً قد « حملت في إثم » وقد أضاف إلى ذلك في شهامة لم تمنح ما قرره قبل « أنها قد ظهرت قبل أن تلد من الرحم »^(١١٦) .

مع الإنسان شأن الحواس مع العقل . وفيها تسود الشهوة الجنسية ؛ أما الإنسان فهو المعبر عن العنصر الأكثر ثباتاً . والرجل والمرأة كلاهما صُوراً في صورة الله ، ولكن الرجل أشبه به من المرأة . والرجل هو مبدأ المرأة وغايتها ، كما أن الله هو مبدأ الكون وغايته ، وهى تحتاج إلى الرجل في كل شيء ، أما هو فلا يحتاجها إلا للتناسل ؛ والرجل قادر على أن يؤدي جميع الواجبات أحسن من أداء المرأة — لا يستثنى من هذا الـمـنـابة بالبـيت (١١٢) ، فهى لا تصلح لأن تشغل أى منصب هام في الكنيسة أو الدولة ؛ وهى جزء من الرجل وإن شئت الدقة الحرفية فهى ضلع من ضلوعه (١١٣) ؛ وعليها أن تنظر إلى الرجل نظرته إلى سيدها الطبيعي ، وأن تقبل إرشاده ، وتخضع لتقويمه وتأديبه ، وهذه الطريقة تؤدى رسالتها وتحظى بسعادتها .

هذا هو ما يقوله تومس عن المرأة ؛ أما الشر فيبذل غاية جهده ليثبت أنه في نظر علم ما وراء الطبيعة لا وجود له ؛ ويقول إن الشر ليس موجوداً إيجابياً ، لأن كل حقيقة بوصفها حقيقة خير (١١٤) ؛ وليس الشر إلا غياب صفة أو مقدرة يجب أن تكون موجودة في الكائن بطبيعته ، أو هى الحرمان من هذه الصفة أو المقدرة . فليس شراً في الرجل ألا يكون له جناحان ، لكن شراً ألا تكون له يدان ، مع أنه ليس من الشر في الطائر ألا تكون له يدان . وكل شيء طيب كما خلقه الله ، ولكن الله نفسه لا يستطيع أن ينقل كماله اللانهاى إلى مخلوقاته . والله يجيز بعض الشرور بقصد الوصول إلى بعض الغايات الخيرة أو لمنع شرور أشد منها كما « تجيز بعض الحكومات ... بحق بعض الشرور — كالعهر مثلاً — خشية ... أن يؤدى منعها إلى أضرار أشد منها » (١١٥) .

والخطيئة عمل من أعمال الإرادة الحرة حين تخرق نظام العقل الذى هو أيضاً نظام الكون . ونظام العقل هو التوفيق الصحيح بين الوسائل والغايات ، وهو فيما يختص بالإنسان تكييف السلوك بحيث يؤدى إلى السعادة السرمدية . والله يهبنا

حرية ارتكاب الخطأ ، ولكنه يهينا أيضاً ، بوحية الإلهي ، الشعور بالصواب والخطأ . وهذا الضمير الغريزي ذو سلطان مطلق يجب أن يطاع مهما تكن النتيجة ؛ فإذا أمرت الكنيسة إنساناً بشيء يخالف ضميره وجب عليه أن يعصى أمرها ، وإذا حدثه ضميره بأن الإيمان بالمسيح شر ، وجب عليه أن ينفر من ذلك الدين (١١٦) .

والضمير في الأحوال العادية لا يميل بنا إلى الفضائل الطبيعية وحدها كالعدالة ، والفطنة ، والجلد ، بل يميل بنا أيضاً إلى الفضائل التي يأمرنا بها الدين كالإيمان ، والأمل ، والصدقات . وهذه الثلاث الصفات الأخيرة هي الصفات الخلقية التي يمتاز بها الدين المسيحي ، وهي أيضاً سبب مجده . والإيمان واجب أخلاقي على الإنسان لأن العقل البشري قاصر محدود ؛ فعلى الإنسان أن يصدق تصديقاً قائماً على الإيمان عقائد الكنيسة التي تعلو على إدراك العقل وعقائدها التي يستطيع أن يعرفها بطريق العقل . وإذا كان الخطأ في شئون الدين قد يؤدي بالإنسان إلى الجحيم ، فإن من الواجب ألا يتسامح في عدم الإيمان إلا إذا قصد بذلك تجنب شر أكبر ؛ « فالكنيسة قد أجازت في بعض الأحيان شعائر الملحدين والوثنيين أنفسهم ، حين كان غير المؤمنين كثيرون العدد » (١١٧) . ويجب ألا يسمح لغير المؤمنين بأن يكون لهم السيطرة أو السلطان على المؤمنين (١١٨) ؛ ويمكن التسامح بوجه خاص مع اليهود لأن شعائرهم ترمز إلى شعائر الدين المسيحي قبل ظهوره ، فتشهد بذلك على صحة هذا الدين (١١٩) . ويجب ألا يُرغم اليهود غير المعمدين على اعتناق الدين المسيحي (١٢٠) ، ولكن الملحدين - وهم الذين تخلوا عن إيمانهم بعقائد الكنيسة - يجوز إرغامهم دون أن يكون في ذلك حرج على من يرغمهم (١٢١) . ويجب ألا يعدّ أي إنسان ملحدًا إلا إذا أصرّ على خطئه بعد أن تبينه له سلطة كهنوتية ؛ والذين يرجعون عن إلحادهم يمكن أن يسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم ، بل يمكن فوق ذلك أن تعاد لهم كرامتهم الأولى ؛ فإذا عادوا

إلى إلحادهم » جاز أن يسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم ، ولكنهم لا ينجون من آلام الموت ، (١٢٣) .

٦ - علم السياسة

كتب تومس في الفلسفة السياسية ثلاث مرات : في شرحه لكتاب السياسة لأرسطو ، وفي *المقدمة في اللاهوت* ، وفي رسالة قصيرة تسمى : *في حكم الأمراء De regimine principum* (*) . ويبدو لأول وهلة أن تومس إنما يُعيد أقوال أرسطو ، ولكننا إذا واصلنا القراءة أدهشتنا كثرة ما في كتاباته من أفكار أصيلة قاطعة .

فهو يقول إن التنظيم الاجتماعي أداة أوجدها الإنسان بدلا من أعضاء الجسم للحصول على مطالبه والدفاع عن نفسه ، وإن المجتمع والدولة قد وجدوا للفرد ، ولم يوجد الفرد للمجتمع والدولة ، وإن السيادة تأتي من عند الله وهي حق للشعب ؛ ولكن الشعب كثير العدد ، مشتت ، متقلب ، جاهل ، وهو لذلك عاجز عن أن يمارس حقوق السيادة بنفسه وبحكمة ؛ ولهذا فإنه يكل هذه السيادة إلى أمير أو زعيم آخر . وتوكيل الشعب من ينوب عنه على هذا النحو يستطاع إلغاؤه على الدوام ، و « لا يحتفظ الأمير بسلطة التشريع إلا من حيث هو ممثل لإرادة الشعب » (١٢٣) .

ويمكن أن ينوب الشعب عنه ممارسة سيادته عدداً كبيراً من الناس أو عدداً قليلاً منهم أو فرداً واحداً . وتصلح الديمقراطية ، والأرستقراطية ، والملكية إذا صلحت القوانين وحسن تنفيذها . ويمكن القول بوجه عام إن خير

(*) لم يكتب تومس من هذه الرسالة إلا الكتاب الأول والفصول ١ - ٤ من الكتاب

الثاني . أما بقية الرسالة فقد كتبها بطليموس اللوق Ptolemy of Lucca .

أنواع الحكومات هو الحكومة الملكية الدستورية ، لأنها تمكن للوحدة ، والاستمرار ، والاستقرار . « وحكم الجماهير » كما يقول هومبروس « على يد الفرد خير من حكمهم على أيدي الكثيرين » (١٢٤) . غير أن الأمير أو الملك يجب أن يختاره الشعب من أية طبقة حرة من السكان (١٢٥) ؛ وإذا استبد الملك وجب خلعها بعمل منظم يقوم به الشعب (١٢٦) ، ويجب أن يظل على الدوام خادماً للقانون لاسيده .

والقانون ثلاثة أنواع : قانون طبيعي مثل « القوانين الطبيعية للكون » ؛ وإلهي كالقوانين الواردة في الكتاب المقدس ، وبشرى أو وضعي كالقوانين التي تسنها الدولة . وقد أصبح النوع الثالث منها ضرورياً بسبب ما في طباع الناس من انفعالات ، وبسبب قيام الدولة . ومن أجل هذا كان آباء الكنيسة يعتقدون أن الملكية الفردية تتعارض مع الشريعتين الطبيعية والإلهية ، وأنها نتيجة لنزعة الإنسان في ارتكاب الآثام . ولكن تومس لا يعترف بأن الملكية تتعارض مع القوانين الطبيعية ؛ فهو يبحث في حجج الشيوعيين أيامه ويرد عليهم كما يرد أرسطو بأن إذا كان كل واحد من الناس يملك كل شيء فإن أحداً من الناس لا يعني بأي شيء (١٢٧) . غير أن الملكية الفردية - في رأيه - وديعة عامة ، « فالإنسان يجب ألا يمتلك الأشياء الخارجية على أنها ملكه الخاص بل على أنها ملك عام ، وبذلك يكون على استعداد لأن ينقلها إلى غيره من الناس إذا ما احتاجوا إليها » (١٢٨) . وإذا ما اشتهى الإنسان الكثير الزائد من الثروة ، أو سعى إلى أكثر مما يحتاجه منها لحفظ مركزه في الحياة ، كان طامعاً أثماً (١٢٩) . « وكل ما يمتلكه بعض الناس أكثر من حاجتهم إنما يقصد به حسب القانون الطبيعي مساعدة الفقراء » و « إذا لم يوجد علاج آخر فلن من حق الإنسان أن يسد حاجته من ملك غيره ، بالاستيلاء عليه سراً أو جهراً » (١٣٠) .

ولم يكن تومس الرجل الذي يجعل الاقتصاد علماً مملاً غير شيق بفصله عن

الأخلاق . فكان يؤمن بحق الجماعة في تنظيم أعمال الزراعة ، والصناعة ،
والتجارة ، والإشراف على الربا ، وبلغ منه أن طالب بتحديد « ثمن عادل »
للخدمات والسلع . وكان ينظر بعين الريبة إلى عملية الشراء بثمن منخفض
والبيع بثمن مرتفع . ويندد أشد التنديد بجميع أنواع المضاربة في التجارة ،
وبكل المحاولات التي تبذل للحصول على الكسب بالمهارة في الاستفادة من
تقلبات السوق (١٣١) . وكان يعارض في الإقراض بفائدة ، ولكنه لا يرى
إثما في الاقتراض « لغرض طيب » من مقرض محترف (١٣٢)

ولم يكن أرق من أهل زمانه في نظره إلى الاسترقاق ، فقد كان الفقهاء
السوفسطائيون ، والرواقيون ، والرومان ، يعلمون أن الناس « بطبيعتهم »
أحرار ؛ وكان آباء الكنيسة يوافقون على الرق ويفسرونه كما يفسرون
المالِك بأنه ناشئ من نزعة الإنسان الآثمة التي كسبها نتيجة لسقوط آدم .
وبرر أرسطو صديق الأقوياء الرق بزعمه أنه نتيجة لعدم المساواة الطبيعية
في الإنسان . وحاول تومس أن يوفق بين هذه الآراء المتعارضة : فقال
إنه لم يكن ثمة رقي في حالة البراءة ، أما بعد سقوط آدم فقد وجد أن سن
الخير إخضاع السذج للعقلاء ، لأن من لهم أجسام قوية وعقول ضعيفة قد
أريد لهم بحكم الطبيعة أن يكونوا أرقاء (١٣٣) . لكن العبد ليس ملكا لسيده
إلا بجسمه لا بروحه ؛ وليس العبد مرغما على قبول الاتصال الجنسي
بالسيد ، ويجب أن تتبع قواعد الأخلاق المسيحية بأجمعها في معاملة العبد .

٧ - الدين

وبدا لتومس أنه ما دامت المسائل الاقتصادية والسياسية في آخر الأمر
مسائل أخلاقية ، فإن من العدل أن يوضع الدين في مرتبة أعلى من مرتبة السياسة
والصناعة ، وأن تخضع الدولة في مسائل الأخلاق لرقابة الكنيسة وإرشادها

وكلما سمت أغراض السلطة ازداد ثقلها ؛ ويجب أن يخضع ملوك الأرض ، الذين يهدون الناس إلى السعادة الدنيوية ، لسلطان البابا الذى يهدى الناس إلى السعادة الأبدية . على أنه يجب أن تبقى الدولة صاحبة السلطان فى الشئون الدنيوية ، غير أن من حق البابا فى هذه الشئون نفسها أن يتدخل إذا خالف الأحكام قواعد الأخلاق الصالحة أو تسببوا فى الإضرار بشعبهم إضراراً كان يستطيع تجنبه . ولهذا فمن حق البابا أن يعاقب الملك المسمى أو يعفى رعاياه من عيّن الولاء له ؛ وفوق هذا فإن من واجب الدولة أن تحمى الدين ، وتؤيد الكنيسة ، وتنقل قراراتها (١٣٤) .

والمهمة العليا للكنيسة أن تهدى الناس إلى سبيل النجاة ؛ وليس الإنسان مواطناً فى هذه الدولة الأرضية وحدها ، بل هو فوق ذلك مواطناً فى مملكة روحية أعظم إلى أبعد حد من أية دولة أخرى . وحقائق التاريخ الكبرى تنبئ أن الإنسان قد ارتكب جرماً لا أحد له بعضيان الله ، فاستحق بهذا العصيان عقاباً لا حد له ، وأن الله الابن قد أصبح إنساناً وقاسى العار والموت ، وأنه قد خلق رصيذاً من البركة المنجية يستطيع الإنسان أن ينجوه رغم خطيئته الأولى ؛ والله يهب من يشاء من هذه البركة ما يشاء ؛ وليس فى مقدورنا أن نتبين أسباب اختياره ، ولكن « ما من أحد من الناس قد بلغ من الجنون حداً يقول معه إن الجدارة هى سبب الاختيار الإلهى » (١٣٥) . وتتردد عقيدة بولس وأوغسطين الرهيبة فى أقوال تومس الرفيق الطريف :

« من الخير أن يسير الله الإنسان بقضائه وقدره ، لأن الأشياء جميعاً خاضعة لمشيئته ... وإذا كان الناس قد هيئوا للحياة السرمدية بمشيئة الله ، فإن من مشيئة الله أيضاً أن يسمح لبعضهم أن يعجزوا عن بلوغ هذه الغاية ، وهذا هو ما يسمى « الشقاء » ... وإذا كان قضاء الله وقدره يشمل إرادته فى أن يهب البركة والمجد ، فإن الشقاء أيضاً يشمل إرادته فى أن يسمح لشخص ما أن يقع فى الخطيئة »

وأن يعاقب على تلك الخطيئة بعذاب الجحيم . . . » اختارتنا فيه قبل تأسيس العالم » (١٣٦) .

ويبدل تومس ما وسعه من جهد ليوفق بين قضاء الله وقدره وبين حرية البشر ، وبين ليم يجب على الإنسان الذي قدر له مصيره أن يعمل لكسب الفضيلة ، وكيف تستطيع الصلوات أن تؤثر في الله الذي لا يتغير ولا يتحول ، وماذا يكون عمل الكنيسة في مجتمع قسم أفراده من قبل إلى ناجين ومعذبين ؟ وهو يجيب عن هذا بأن كل ما هنالك أن الله قد عرف من قبل ما سوف يختاره كل إنسان بحريته ؛ وهو يفترض أن الوثنيين جميعهم من المعذبين مع جواز استثناء عدد قليل منهم بعث الله إليهم بوحى شخصى خاص (*) (١٣٧) .

وأعظم ما بناه الناجون من السعادة هو في رأيه رؤية الله ؛ وليس معنى هذا أنهم سيفهمونه ؛ إذ لا يفهم اللانهاى غير اللانهاى ؛ بيد أن المنعمين بما ينفع فيهم من النعمة الإلهية سوف يشهدون جوهر الله (١٣٩) . وبما أن الخليفة كلها قد نشأت من الله فإنها ستعود إلى الله ، والنفوس البشرية التي هي منحة من كرمه لا تستريح حتى تعود فتتضم إلى مصدرها . وهكذا تتم الدورة المقدسة دورة الخلق والعودة ، وتختتم فلسفة تومس كما بدأت بالله .

٨ - كيف استقبلت فلسفة تومس ؟

لقد رأت الكثرة الغالبة من معاصريه أنها تكديس فظيع للاستدلالات الوثنية شديدة الخطر على الدين المسيحي ؛ وصلمت مشاعر الرهبان الفرنسيين الذين كانوا يسلكون لمعرفة الله طريق الحب الصوفي الذى يقول به أغوستين

(*) إن الفقرة التي تقول إن كثيراً من المنعمين في الجنة يزيد تعيمهم بمشاهدة عذاب المعذبين توجد في ملحق كتاب الخلاصة (٩٧ : ٧) وليست هذه الفقرة المحزنة عن أقوال تومس بل هي من أقوال ريجنلد البيرونى (١٣٨) .

« نزعة » تومس « العقلية » ، ورفعهُ العقل فوق الإرادة ، والفهم فوق الحب . وعجب الكثيرون كيف يمكن الدعاء والصلاة لإله فاتر ، سلبي ، يُعبد كالإله الموصوف في كتاب *المخصوصة* ؟ وكيف يمكن أن يكون عيسى جزءاً من هذا المعنى المجرد ؟ وماذا كان يقول القديس فرانسس عن الله أو بأى شيء كان يتحدث إليه ؟ وبدا لهم قوله إن الجسم والنفس يكونان وحدة سيقضى على عقيدة خلود النفس وعدم فسادها ، وقوله إن المادة والصورة وحدة سيؤدي ، رغم إنكار تومس المتكرر ، إلى الانحدار إلى نظرية ابن رشد القائلة بأن العالم أزلى ، وإن المادة ، لا الصورة ، هى مبدأ الانفرادية سيحول دون التفرقة بين نفس ونفس ، وينحدر بنا إلى نظرية ابن رشد القائلة بوحدة النفس وخلودها اللاشخصى . وشر من هذا كله أن غلبة أرسطو على أوغسطين في فلسفة تومس قد بدت للرهبان الفرنسيس كأنها انتصار للوثنية على المسيحية . ألا يوجد من الآن فى جامعة باريس معلمون وطلاب يرفعون كتب أرسطو فوق الأناجيل ؟

ودافعت المسيحية « السنية » عن نفسها فى الربع الثالث من القرن الثانى عشر عن فلسفة تومس الأرسطوطيلية ، كما قاوم أهل السنة المسلمون ابن رشد لاعتناقه فلسفة أرسطو ونفوه ، وكما حرق اليهود السنيون فى بداية القرن الثالث عشر كتب ابن ميمون لنزعته الأرسطوطيلية . فقد حدث فى عام ١٢٧٧ أن أصدر أسقف باريس بيلعاز البابا يوحنا الحادى والعشرين مرسوما باعتبار ٢١٩ قضية من قضايا تومس خروجاً على الدين . وكان من بين هذه القضايا ثلاث « بنوع خاص » اتهم بها الأخ تومس ، وهى قوله إن الملائكة لا أجسام لها ، وإن كل واحد منهم يكون بمفرده نوعاً منفصلاً عن غيره ؛ وإن المادة أساس الانفرادية ؛ وإن الله لا يستطيع مضاعفة الأفراد فى نوع ما من غير المادة . وقال

الأسقف إن كل من يعتقد هذه العقائد يُعدّ بهذا العمل وحده محروما من الدين . وبعد أيام قلائل من صدور هذا المرسوم أقنع ربرت كلواردبى Robert Kilwardby أحد كبار الرهبان الدمنيك أساتذة جامعة أكسفورد بأن ينددوا ببعض عقائد تومس ومنها وحدة النفس والجسد في الإنسان .

وكان قد مضى على وفاة تومس في ذلك الوقت ثلاث سنين ، ولم يكن في وسعة أن يدافع عن نفسه ، ولكن ألبرت أستاذه القديم ، اندفع من كولونى إلى باريس وأقنع رهبان فرنسا الدمنيك بأن يشدوا أزر زميلهم وأخيهما ودخل راهب فرنسي يدعى وليم ده لا مار William de la Mare في المعركة برسالة سماها : Correctorium fratris Thomae يقول فيها إن تومس على حق في ١١٨ نقطة ، فقام راهب فرنسي آخر يدعى يوحنا بكهام ، كبير أساقفة كنتربرى يندد رسميا بفلسفة تومس وينادى بالعودة إلى بونا فنتورا والقديس فرانسس . وانضم دانتى إلى المتنازعين فصاغ من فاسفة تومس فلسفة معدلة كانت الإطار العام الذى وضع فيه الملهمة المقدسة ، واختار تومس ليقوده على السلم الموصل إلى أعلى سماء . ودامت الحرب مائة عام أقنع بعدها الرهبان الدمنيك البابا يوحنا الثانى والعشرين أن تومس من القديسين ، وكان تقديسه (١٣٢٣) انتصاراً لفلسفته . ووجد المتصوفة من ذلك الوقت في كتاب *المختصة* (١٤٠) أعماق وأوضح عرض للحياة الصوفية الذكورية . ولما عقد مجلس ترنت (١٥٤٥ - ١٥٦٣) وضع كتاب *المختصة* على المذبح إلى جانب الكتاب المقدس وكتاب القوانين الكنسية (١٤١) . وفرض إجناتيوس ليولا Ignatius Loyola على اليسوعيين أن يعلّموا فلسفة تومس ، وقرر البابا ليو الثالث عشر في عام ١٨٧٩ ،

والبابا بندكت الخامس عشر في عام ١٩٢١ أن تكون مؤلفات تومس الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ، وإن لم يعلن أن هذه المؤلفات سليمة من الأخطاء ؛ وهذه الفلسفة تدرس الآن في جميع كليات الروم الكاثوليك ؛ ولقد كسبت لها أنصاراً جديداً في وقتنا الحاضر ، وإن كان لها نقاد من بين علماء الدين الكاثوليك ، وهي الآن من أقوى أنظمة التفكير الفلسفي تأثيراً وأبقاها على الزمن ، لا تقل في ذلك عن الأفلاطونية والأرسطوطيلية .

وبعد فإن من السهل على من يقف الآن على كفى السبعائة العام الأخيرة أن يشير في مؤلفات أكونوس إلى بعض العناصر التي لم تثبت الأيام صحتها . وإن مما يعيبه ويشرفه معاً أنه كان كثير الاعتماد على أرسطو ، وبقدر هذا الاعتماد كان يعوزه الابتكار ويظهر من الشجاعة ما أنار السبل للعقول في العصور الوسطى . وعنى تومس بالحصول على تراجم دقيقة لأرسطو منقولة عن اللغة اليونانية مباشرة ، فكان لهذا يجيد معرفة مؤلفاته الفلسفية (لا العلمية) أكثر مما يجيد معرفتها أى مفكر آخر في العصور الوسطى عدا ابن رشد . ولم يكن يستنكف أن يأخذ العلم عن المسلمين واليهود ، ويعامل فلاسفتهم باحترام صادر عن وثوقه بنفسه . ولما لنجد في نظامه الفلسفي قدراً كبيراً من السخف والأباطيل التي نجد مثلها في جميع الفلسفات التي لا تتفق مع فلسفتنا ؛ وإن من أعجب الأشياء أن يكتب هذا الرجل المتواضع بمثل ما كتب من الطول عن الطريقة التي يعرف بها الملائكة ما يعرفون ، وعما كان عليه الإنسان قبل سقوطه ، وعما كان يؤول إليه أمر الجنس البشرى لولا رغبة حواء في المعرفة . ولعلنا نخطئ إذ نفكر فيه على أنه فيلسوف ، فقد كان هو نفسه أميناً إذ سمى مؤلفه كتاباً في علم الدين ، ولم يدع أنه يسير وراء العقل إلى حيث يقوده ، ويعترف أنه يبدأ بنتائجه ، وهو عمل يسمه معظم الفلاسفة بأنه خيانة للفلسفة وإن كانت كثرتهم تفعله . وقد كان

مجال بحثه أوسع مما جروء عاينه مفكر بعده عدا اسپنسر ، وكان في كل ميدان واضحاً هادئ المزاج بعيداً عن المغالاة يبحث عن الطريقة الوسطى المعتدلة ، ومن أقواله في هذا المعنى « أن الرجل العاقل يخلق النظام » (١٤٢) . ولم يفلح في التوفيق بين أرسطو والمسيحية ، ولكنه وهو يحاول هذا التوفيق كسب للعقل نصراً مؤزراً سيدوم على مدى الأيام ، فقد قاد العقل أسيراً إلى قاعة الدين ؛ ولكنه قضى بانتصاره على عصر الإيمان .

الفصل السابع

خلفاء تومس

يسرف المؤرخ على الدوام في التبسيط ، ويتعجل فيعمد إلى حشد كبير من الأنفس والحوادث لا يستطيع قط أن يلم بها كل الإلمام أو يفهمها كل الفهم ، ويختار من بينها عدداً قليلاً من الحقائق والوجوه يراها أطوع لقلمه من غيرها . وليس من حقنا أن نظن أن الفلسفة المدرسية معاني مجردة أزيلت منها آلاف الحقائق الغريبة ؛ بل علينا أن ننظر إليها على أنها اسم غامض غير دقيق يطلق على مثات الفلسفات المتناقضة والنظريات اللاهوتية التي كانت تعلم في مدارس العصور الوسطى من أيام أنسلم في القرن الحادى عشر إلى أيام أكام Occam في القرن الرابع عشر . والمؤرخ يخضع أشد الخضوع وأنقله على نفسه لقصر الوقت ونفاد الصبر الذى هو من طبيعة بنى الإنسان ؛ ويخط سطرأ واحداً يحط به من قدر رجال خلدوا أسماءهم في أحد الأيام ولكنهم اختفوا الآن في طيات التاريخ .

وكان من أعجب الشخصيات في القرن الثالث عشر الملى بدوى المواهب المتعددة من الرجال رامون لىل * Ramon Lull أو ريمند لىلى Raymond Lully (١٢٣٢-٩ - ١٣١٥) . وقد وُلد في بالما لأسرة قطالية Catalan وشق طريقه إلى بلاط جيمس الثانى في برشلونة ، واستمتع بشباب صاخب ، ثم أخذ يضيّق نطاق عشقه حتى اكتفى بزواج واحدة . ولما بلغ سن الثلاثين نهذ على حين غفلة ملاذ العالم ، والجسم ، والشيطان ، ووهب نشاطه المتعدد النواحي للتصوف والمعارف الخفية ، وحب الإنسانية ، والتبشير بالدين ، والسعى للاستشهاد . ثم درس اللغة العربية ، وأنشأ كلية للدراسات العربية في ميورقة ، وطلب إلى مجلس

ثمنا أن ينشئ مدارس للغات والآداب الشرقية تعد الناس للتبشير بين المسلمين واليهود . واستجاب المجلس لرغبته وأنشأ خمس مدارس من هذا النوع - في رومة ، وبولونيا ، وباريس ، وأكسفورد ، وسلمنقة - كان فيها كراسي للغات العبرية والكلدانية ، والعربية . ولعل لى نفسه تعلم اللغة العبرية لأنه أصبح عالماً متبحراً في القبالة .

ويستحيل علينا أن نقسم مؤلفاته البالغ عددها ١٥٠ أصنافاً . وحسبنا أن نسجلها هنا فنقول إنه في شبابه أنشأ الأدب القطالى بان كتب عدة مجلدات من الشعر الغزلى ، ثم ألف باللغة العربية كتاباً ترجمه فيما بعد إلى اللغة القطالية « كتاب التفكير فى الله » . وليس هذا الكتاب مجرد حلم صوفى بل هو موسوعة فى علوم الدين من ألف ألف كلمة (١٢٧٢) . وبعد عامين من ذلك الوقت ، وكانما بدل نفسه ، ألف كتاباً فى حرب الفروسية ، وألف فى الوقت عينه تقريباً كتاباً فى التربية سماه « كتاب فى عقائد الشباب » ، ثم جرب حظه فى الحوار الفلسفى ونشر فيه ثلاثة كتب يعرض فيها وجهات النظر الإسلامية ، واليهودية ، والمسيحية اليونانية ، والمسيحية الرومانية ، والتتارية ، بتسامح ونزاهة ، ورفق ، تثير الدهشة . وألف حوالى عام ١٢٨٣ رواية دينية طويلة سماها بلونكيرنا Blanquerna حكم الخبراء الذين أوتوا الصبر على قراءتها بأنها « من روائع آداب العصور المسيحية » (١٤٣) . ثم أصدر فى رومة عام ١٢٩٥ موسوعة أخرى سماها شجرة العلم Arbre de sciencis حوت أربعة آلاف سؤال فى ستة عشر علماً مع أجوبة عنها موثوق بها . وحارب أثناء مقامه فى باريس (١٣٠٩ - ١٣١١) فلسفة ابن رشد التى كانت آثارها لا تزال باقية فيها ، وذلك فى عدة مؤلفات دينية صغرى وقعها بلمضاء دقيق دقة لم يعتدها وهو Phantasticus « الواهم » وظل خلال حياته الطويلة يصدر مجلدات فى العلوم والفلسفة بلغت من الكثرة حداً يصعب معه حصرها .

واقفتن في أثناء هذه المشاغل كلها بفكرة استهوت عقول العباقرة في هذه الأيام — وهى أن جميع قوانين المنطق وعملياته يمكن ردها إلى صور رياضية أو رمزية . فيقول ريمند إن « الفن العظيم » — فن المنطق — هو كتابة المبركات الأساسية للفكر البشرى على مربعات متحركة ، ثم جمع هذه المربعات في أوضاع مختلفة ليس القصد منها رد جميع الأفكار الفلسفية إلى معادلات وأشكال فحسب ، بل يقصد بها كذلك أن تثبت بالتساويات الرياضية حقائق الدين المسيحى . وكان ريمند يتصف بما يتصف به بعض مرضى العقول من دعة ولطف ، فيأمل أن يرد المسلمين عن دينهم إلى الدين المسيحى بتأثير فنه المقنع . ورحبت الكنيسة بهذه الثقة ، ولكنها لم ترض عما اقترحه من رد جميع أصول الدين إلى العقل ووضع التثليث والتجسد على مشرحة منطقته (١٤٤) .

واعتزم في عام ١٢٩٢ أن يستعيض عن استيلاء المسلمين على فلسطين بتحويل أفريقية الشمالية إلى بلاد مسيحية ، فعبر البحر إلى تونس ، ونظم فيها سرّاً جالية مسيحية صغيرة ، ثم قبض عليه في عام ١٣٠٧ أثناء رحلة تبشيرية إلى تلك البلاد وجيء به أمام قاضى القضاة . وعقد القاضى مناقشة علنية بين ريمند وبعض علماء الدين المسلمين . ويقول صاحب سيرة ريمند إنه انتصر فيما دار من نقاش وإنه ألقى في السجن ، ولكن بعض التجار المسيحيين أفلحوا في إنقاذه وإعادته إلى أوروبا . ويلوح أنه كان يتوق إلى الاستشهاد فعبر البحر مرة أخرى إلى بوجى في عام ١٣١٤ ، وأخذ يدعو للمسيحية علناً فوجه الغوغاء المسلمون بالحجارة حتى مات (١٣١٥) .

وإذا انتقلنا من ريمند إلى جون دنز اسكوتس John Duns Scotus كنا كمن ينتقل من طرمص إلى كلافيسكورد المصافية المزاج (*) . واشتق

(*) تمثيلتان غنائيتان أولاهما ليزيه والثانية لباج . (المترجم)

اسما جون الثانى والثالث من مسقط رأسه فى دنز Duns من أعمال بروكشير Bérwick-shire (؟) ولما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى دير للرهبان الفرنسيس فى دنفرز Dunfries ، وانضم إلى طائفة الرهبان رسمياً بعد أربع سنين من دخول الدير . وتلقى العلم فى جامعى أكسفورد وباريس ثم علم أكسفورد ، وباريس ، وكولونى ، ومات وهو كهل فى الثانية والأربعين من عمره (١٣٠٨) ، بعد أن خلف وراءه عدداً جماً من المؤلفات معظمها فيما وراء الطبيعة تمتاز كلها بالغموض والخفاء بلوحة يندر أن تظهر مرة أخرى فى الفلسفة إلا إذا ظهر اسكوتس جديد . والحق أن عمل دنزاسكوتس يشبه إلى حد كبير عمل كانت الذى جاء بعده بخمسة قرون — فهو يقول إن العقائد الدينية يجب أن يدافع عنها بأنها لا غنى عنها من الوجهة الأخلاقية العملية لا بتماسكها المنطقى . ورضى الرهبان الفرنسيس أن يذبوا الفلسفة لينقلوا أوغسطين من تومس الدمنيكى فالتخذوا دكتورهم الشاب بطلاهم ونصيراً ، وانصووا تحت لوائه ، فى حياته وبعد مماته ، طوال عدة أجيال من الحرب الفلسفية .

وكان دنز هذا ذا عقل من أشد العقول توقداً وذكاء فى تاريخ العصور الوسطى . فقد درس الرياضة وغيرها من العلوم ، وتأثر فى أكسفورد بجروستسى وروجر بيكين ، فتكونت لديه فكرة صارمة عما يجب أن يكون البرهان الصحيح ، وطبق هذا الاختبار على فلسفة تومس فقضى بذلك على تهوره فى اقتران الدين والفلسفة ، ولما يكدها هذا الاقتران يتم شهر العسل . وكان دنز يفهم الطريقة الاستقرائية فى المنطق ولكنه كان يقول عكس ما يقوله فرانسس بيكن بالضبط ، وهو أن كل استقراء ، أى برهان — من النتيجة إلى العلة — برهان غير موثوق به ، وإن البرهان الحقيقى الوحيد هو البرهان الاستنتاجى أى إظهار أن نتائج معينة لا بد أن تحدث من طبيعة العلة ذاتها . مثال هذا أننا إذا أردنا أن نثبت وجود الله فإن علينا أن ندرس أولاً علم ما وراء الطبيعة — أى أن

تدرس « الكائن بوصفه كائناً » ، ثم نصل عن طريق المنطق الدقيق إلى الصفات الجوهرية للعالم . وفي عالم الجواهر لا بد أن يكون هناك جوهر هو مصدر كل ما عداه منها وهو **الطَّائِنُ الأوَّلُ** ؛ وهذا الكائن الأوَّل هو الله . ويتفق دنز مع تومس في أن الله هو **الحقيقة الخالصة** ولكنه لا يفهم تلك العبارة على أنها الواقعية الخالصة بل يفهم منها أنها الفاعلية الخالصة . فالله هو أولاً لإرادة لا عقل ، وهو علة العلل جميعها ، وهو أزل ، ولكن هذا هو كل ما نستطيع أن نعرفه عنه بطريق العقل . أما أنه إله الرحمة ، وأنه ثلاثة في واحد ، وأنه خلق العالم في وقت ، وأنه يسيطر على جميع الأشياء بقدرته — هذه وجميع عقائد الدين المسيحي كلها تقريباً يجب أن نؤمن بها أى أن نصدقها اعتماداً على الكتب المقدسة والكنيسة ولكننا لا نستطيع إثباتها بالفعل . والحق أننا في الساعة التي نبدأ فيها باستخدام العقل في إثبات وجود الله نقع في متناقضات تحيرنا (وهي التي يسميها كانت « متناقضات العقل الخالص ») . وإذا كان الله قادراً على كل شيء ، فهو علة كل النقاخص ، ومنها كل الشرور ؛ وإذا تكون العلل الثانوية ومنها الإرادة البشرية ، وهما لاحقية ولكي نتلافى هذه النتائج الهدامة ، ولما كانت العقيدة الدينية لازمة للحياة الأخلاقية (وهو ما يسميه كانت « العقل العملي ») فإن من الحكمة ألا نلجأ إلى فلسفة تومس التي تحاول أن تثبت الدين بالفلسفة ، وأن نقبل عقائد الدين بالرجوع إلى الكتاب المقدس وإلى الكنيسة^(١٤٥) . وليس في مقدورنا أن نعرف الله ولكننا قادرون على أن نحبه ، وهذا الحب خير من المعرفة^(١٤٦) .

ودنز في علم النفس « واقعي » من الطراز الدقيق الخاص به : فالكليات عنده حقيقة موضوعية بمعنى أن تلك المظاهر الموحدة التي يجردها العقل من الأجسام المماثلة ليكون منها فكرة عامة ، لا بد أن تكون موجودة في الأجسام ، وإلا لما استطعنا أن ندركها ونجردها . وهريتنق مع تومس في أن جميع المعرفة

الطبيعية مستمدة من الحواس ، أما فيما عدا هذا فإنه يخالفه في جميع آرائه الفلسفية . فهو يقول إن أساس الانفرادية ليس هو المادة بل الصورة ، والصورة بمعناها الضيق الدقيق الذى نستطيع أن نقول عنها « هذه » haecceitas — أى الصفات الخاصة والعلامات المميزة للشخص أو الشيء الفردى . وليست مواهب النفس مُميّزة بعضها عن بعض ، وليست من النفس ذاتها . وليست موهبة النفس الأساسية هى الفهم بل هى الإرادة ، فالإرادة هى التى تعين الإحساس أو القصد الذى يجب أن يتجه إليه العقل ، والإرادة voluntas وحدها لا قوة الحكم (arbitrium) هى الحرية ؛ ومن رأيه أن قول تومس إن تعطشنا للاستمرار وللسعادة الكاملة يثبت خلود النفس قول مبالغ فيه لأنه يمكن تطبيقه على كل حيوان فى الحقول ، وليس فى مقدورنا أن نثبت الخلود الشخصى ، بل علينا أن نؤمن به لا أكثر .

وكان فى وسع الرهبان الدمنيك أن يروا فى دنز انتصار الفلسفة الغربية على الفلسفة الإسلامية ، كما كان الرهبان الفرنسيس يدعون أنهم يرون فى تومس انتصار أرسطو على الأناجيل ، وفلسفة ما وراء الطبيعة عنده هى فلسفة ابن رشد ، وفلسفة شرائع الكون هى فلسفة ابن جبرول ، ولكن الحقيقة الأساسية الداعية إلى الأسى فى اسكوتس هى تخليه عن محاولته إثبات العقائد المسيحية الأساسية بالالتجاء إلى العقل . واشتط أتباعه فذهبوا فى هذه المسألة إلى أبعد من هذا ؛ وأخرجوا عقائد الدين واحدة بعد واحدة من ميدان العقل ، وضاعفوا بذلك ما وضعه من الفروق والمميزات الدقيقة إلى حد جعل لنظ « الدنزي » فى إنجلترا يعنى الأبله المولع بالتقسيم الشعري ، والسوفسطائى : البليد والغبي (*) . وأبى الذين يحبون الفلسفة أن يخضعوا لعلماء اللاهوت الذين نبذوا الفلسفة وتنازعت الدراسات وإفترقتا ؛ وأدى رفض الدين للعقل إلى رفض العقل للدين ، وانتهت بذلك المغامرة الجريئة الكبرى التى قامت فى عصر الإيمان .

(•) dunce واللفظ مشتق من اسمه duns . (المترجم)

وبعد فقد كانت الفلسفة المدرسية مأساة يونانية تكمن في جوهرها الأسباب التي قضت عليها . ذلك أن في محاولتها إثبات الدين عن طريق العقل اعترافا ضمنيا بسلطان العقل ، وأن اعتراف دنز اسكوتس وغيره بأن الدين لا يمكن إثباته بالعقل قد حطم الفلسفة المدرسية ، وأضعف الدين في القرن الرابع عشر إضعافا أدى إلى نشوب الثورة على طول جبهة العقائد الكنسية . لقد كانت فلسفة أرسطو هدية يونانية للمسيحية اللاتينية ، وكانت أشبه بخواص طروادة يخفي في باطنه ألف عنصر من العناصر المعادية لهذا الدين . ولم تكن هذه البذور التي نبتت منها النهضة والاستنارة « هي انتقام الوثنية » من المسيحية فحسب ، بل كانت فوق ذلك انتقاما للإسلام على غير علم منه . فقد غزت المسيحية بلاد فلسطين ، وأخرجت المسلمين من أسبانيا كلها تقريبا فنقلوا علومهم وفلسفتهم إلى أوروبا الغربية ، وكانت هذه العلوم والفلسفة قوة من القوى العاملة على تفكك المسيحية وتفرقها ، وكان ابن سينا وابن رشد ، كما كان أرسطو ، هما اللذان بثّا جرائم النزعة العقلية في أوروبا المسيحية .

ولكن مهما يكن من عيوب المغامرة المدرسية فإن شيئا منها لا يمكن أن يغشى لألاءها الساطع . لقد كانت مغامرة جريئة مشهورة جرأة الشباب وتهوره ، وكان لها ما للشباب من إفراط في الثقة وإسراف في الجدل ؛ وكانت صوت أوروبا الجديدة الناقهة التي كشفت من جديد قوة العقل المثيرة . ولقد استمتعت الفلسفة المدرسية في خلال القرنين اللذين سميت فيهما إلى عليائها بحرية في البحث ، والتفكير ، والتعليم ، لا نكاد نجد ما يفوقها في جامعات أوروبا في هذه الأيام ؛ وذلك على الرغم من المجالس التي كانت تطارد الإلحاد وبالرغم من محاكم التفتيش ؛ واستطاعت بمعونة فقهاء القانون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أن تشحذ عقول الغربيين بما صاغته من أدوات المنطق ومصطلحاته ، وبلاستدلال الدقيق.

المتقن الذى لا يفوقه فى الفلسفة الوثنية شىء . وما من شك فى أن هذه السهولة فى الجدل قد أسرف فيها لإسرافا كبيرا ، وأنها ولدت الجدل المفعم بالحشو ولغو الكلام « والتفتيت المدرسى » الذى لم يثر عليه روجر بيكن وفرانسس بيكن وحدهما ، بل ثارت عليه أيضاً العصور الوسطى نفسها(*) . ومع هذا فلأن كفة الحيز فى هذا التراث ترجح كفة الشر . ذلك أن « المنطق ، وعلم الأخلاق ، وما وراء الطبيعة » على حد قول كندورسيه Condorcet « مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من دقة لا يعرفها الأقدمون أنفسهم » ، كما يقول سير ولیم همنتن إن « اللغات العامية مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من إحكام ودقة تحليلية » (١٤٩) ، وإن أكثر ما فى العقل الفرنسى من صفات خاصة ينفرد بها عما عداه — وهى حبه المنطق ، ووضوحه . ودقته — قد كونه المنطق أيام مجده فى مدارس فرنسا أثناء العصور الوسطى .

وكانت الفلسفة المدرسية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تقدما ثوريا فى التفكير البشرى أو فى إعادته إلى سابق عهده . ذلك أن التفكير « الحديث » يبدأ بنزعة أبلار العقلية ، ويسمولى ذروته الأولى فى وضوح تومس أكوئاس ومغامرته ، ويصاب بهزيمة مؤقتة على يد دنز اسكوتس ، يفيق منها على يد أكّام ، ويستحوذ على البابوية حين يخضع ليو العاشر لسلطانته ، وعلى المسيحية حين يقبض على إرزمس Erasmus ، ويضحك بأعلى صوته فى ربليه ، ويتسم فى مبتأى ، ويصعخب فى قلتر ، وينتصر متهمها فى هيوم ، ويجزن على ما فاتته من نصر فى أناتول فرانس . ولقد كان الاندفاع وراء العقل فى العصور الوسطى هو الذى أقام هذه الطائفة من الفلاسفة المتهورين ذوى الأسماء اللامعة والعقول الباهرة .

(*) يتحدثنا جرالدىس كبرنيس Giraldus Cambrensis عن شاب تسمى خمس سنين يدرس الفلسفة فى باريس على نفقة أبيه الذى لم يكن موفور المال ، فلما عادت لأبيه بمنطقه القامى الصارم أن ست بيضات موضوعة على المائدة كانت اثنتى عشرة بيضة ، فاكان من الالب إلا أن أكمل البيضات الست التى كان فى وسعه أن يراها وترك الأخرى لولده (١٤٨) .

الباب السابع والثلاثون

العلوم المسيحية

١٠٩٥ - ١٣٠٠

الفصل الأول

البيئة السحرية

كان الرومان في أوج مجدهم الإمبراطورى يقدرّون العلوم التطبيقية ، ولكنهم كادوا يفسون علوم اليونان البحتة . ولنا لنجد منذ العهد القديم فى كتاب التاريخ الطبيعى تأليف بلنى الأكبر خرافات يظنها الناس من اختراع العصور الوسطى ، ولا تكاد تخلو منها صحيفتان من ذلك الكتاب . ولقد تأزرت قلة عناية الرومان والمسيحيين بالعلوم حتى كادت تجذب البلاد منها قبل أن يغزوها البرابرة . بزمن طويل وينثرون حطام المجتمع المدمر فى سبيل انتقال الثقافة . ودفن ما بقى فى أوربا من علوم اليونان فى مكتبات التسطنطينية ، وحتى هذا القليل الباقى امتدت إليه يد التدمير حين نهبت المدينة فى عام ١٢٠٤ . وهاجرت علوم اليونان فى القرن التاسع إلى بلاد المسلمين عن طريق الشام ، ونهبت أفكارهم فقامت فى بلادهم نهضة ثقافية من أعظم النهضات وأكثرها إثارة للدهشة فى التاريخ كله ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوربا المسيحية تجاهد للخروج من ظلمات الخرافات والهمجية .

وكان لا بد للعلوم والفلسفة فى العصور الوسطى أن ينمو غرسهما فى جو من

الأساطير ، والخرافات ، والمعجزات ، والفأل ، والطيرة ، والعفاريت ،
والهولاء ، والسحر ، والتنجم ، والنبؤ بالغيب ، وهى العقائد التى لا تنتشر
إلا فى عصور الفوضى والخوف . كل هذه كانت توجد فى العالم الوثنى ،
ولا تزال توجد فى هذه الأيام ، ولكنها يخفف من حدتها فكاهة المدنية والعقول
المستنيرة . وكانت ذات سلطان قوى عند الأقوام الساميين ، وأضحى لها الغلبة
بعد أيام ابن رشد وابن ميمون ، وحطمت فيما بين القرن السادس والقرن
الحادى عشر أسوار الثقافة فى غربى أوروبا ، ونحمرت عقول الناس فى العصور
الوسطى فى بحر زاهر من الآراء الغامضة الخفية والسذاجة التى تصدق كل
ما يقال مهما كان بعيداً عن المعقول . وحسبنا أن نذكر مثلاً لذلك أن أوغسطين
كان يعتقد أن آلهة الوثنيين لا تزال موجودة فى صورة عفاريت ، وأن جنّ
الحراج وجنّياتها حقيقة (١) . كما كان أبلاريطن أن الشياطين تستطيع أن تقوم
بأعمال السحر لمعرفة الوثيقة بأسرار الطبيعة (٢) . وكان ألفنسو الحكيم يؤمن
بالسحر ويقبل النبوءات عن طريق النجوم (٣) ؛ وإذ كان هذا هو اعتقاد
أولئك الرجال فكيف يشك فيه من هم أقل منهم شأنًا ؟

وتسربت طائفة كبيرة من الكائنات الخفية غير الطبيعية من الوثنية إلى
المسيحية ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه لا تزال تتسرب إليها من ألمانيا
واسكنديناوة وأيرلندة فى صورة سحرة ، وجنّ ، ومردة ، وجنّيات ، وأغوال
وهولاء عجيبة ، وشياطين وعفاريت تمتص الدماء . وظلت خرافات جديدة
تدخل أوروبا من بلاد الشرق ؛ فكان الأموات يعيشون فى الهواء فى صورة أشباح ،
وكان الخلائق الذين باعوا أنفسهم للشيطان يجوسون خلال الغابات والحقول كما
كانت نجوس خلالها الذئاب ؛ وكانت أرواح الأطفال الذين ماتوا قبل أن يعمدوا
تغشى المستنقعات وتظهر للناس فى صورة غاز المستنقعات المضىء ؛ ولما أن رأى
القديس إدمند رتش St. Emund Rich جماعة من الغربان السود أدرك من

فوره أنها سرب من الشياطين جاءت لتحمل روح غراب في تلك المنطقة^(٤)؛ وكانت كثير من قصص العصور الوسطى تقول إنه إذا أخرج شيطان من جسم رجل ، فإن في مقدور من حوله أن يروا ذبابة كبيرة سوداء تخرج من فيه^(٥)؛ وكانت دنيا الشياطين لا يعترها الضعف مطلقاً .

وكانت ماثات الأشياء — كالأعشاب ، والحجارة ، والنائم ، والأقراط ، والجواهر — تلبس لكي ترد بقوة السحرية الشياطين وتأتي للابسة بالحظ الطيب . وكان حذاء الفرس مجلبة للحظ الطيب لأنه على شكل الهلال ، الذي كان في وقت ما إلهة معبودة ، وكان الملاحون الذين هم تحت رحمة العناصر الطبيعية ، والفلاحون الذين تتحكم فيهم تقلبات الأرض والسماء ، يرون خوارق الطبيعة أينما ساروا ، ويعيشون في جو من الخرافات والأوهام . وانتقل الاعتقاد بأن لبعض الأعداد قوى سحرية من فيثاغورس عن طريق الآباء المسيحيين : فكان رقم ٣ وهو عدد الثالوث المقدس أكثر الأعداد قداسة ، وكان يرمز إلى النفس البشرية ؛ وكان الرقم ٤ يمثل الجسم ؛ ورقم ٧ وهو مجموع الرقمين برمز إلى الإنسان الكامل ؛ ومن ثم كانت فضائل الرقم ٧ — سبعة أعمار الإنسان ، والكواكب السبعة ، والسيب الفضائل الرئيسية ، والخطايا السبع المهلكة . وكانت عطسة في غير الوقت المناسب نذير سوء ، وكان من الخير أن يتق شرّها بعبارة « يرحمك الله » ، كلما حدثت . وكان مزيج من الدواء يعطى لتوليد الحب أو القضاء عليه ؛ وكان منع الحمل يبصق ثلاث مرات في فم ضفدعة ، أو إمساك حصاة من حجر البشب باليد أثناء الجماع^(٦) . وكان أجوبار Agobard المستنير كبير أساقفة ليون Lyons في القرن التاسع عشر يشكو من أن المسيحيين يؤمنون بهذه السخافات التي لم يكن يستطيع الإنسان قبل ذلك الوقت أن يحمل الكفرة على تصديقها^(٧) .

وقاومت الكنيسة وثنية هذه الخرافات ، ونددت بكثير من المعتقدات

وأعمال الشعوذة ، وعاقبت مرتكبها بضروب من الكفارات متدرجة في صرامتها ، فكانت تندد بالسحر الأسود - الالتجاء إلى العفاريت لنهل السلطان على الحوادث - ، ولكن هذا الضرب من السحر كان واسع الانتشار في ألف مكان خفي . وكان الذين يمارسونه يوزعون سرّاً كتاب اللقمة المحتوى على أسماء العفاريت الكبرى ومساكنها ، وقواها الخاصة (٨) . وكان كل إنسان تقريباً يؤمن ببعض الوسائل السحرية التي تحول مقدره الكائنات فوق الطبيعية إلى غايات محبوبة . وهاهو ذا يوحنا السلزبرى يحدثنا عن ضرب من السحر يستخدمه شماس وقس وكبير أساقفة (٩) . وكان أبسط أنواع السحر ما يحدث بتلاوة الرقية وهي عبارة تتلى عدة مرات في العادة ؛ وبها يمكن اتقاء شر ، وشفاء من مرض ، وإبعاد عدو من الطريق . وأكبر الظن أن معظم المسيحيين كانوا يعدّون علامة للصليب ، والصلاة الربانية ، والسلام عليك يا مريم Ave Maria رقي سحرية ، يستخدمون الماء المقدس ، والعشاء الرباني على أنهما من الطقوس السحرية ذات الآثار المعجزة .

وكاد الاعتقاد بوجود النساء الساحرات يكون عاماً في ذلك الوقت ، فهاهو ذا كتاب التوبة الذي وضعه أسقف إكستر Exter ينسدد بالنساء اللاتي يدعين القدرة على تبديل عقول الرجال بضروب السحر ، كتبديل الكره حبّاً ، والحب كُرهاً ، أو « سحر بضائع الناس وسرقها » ، أو « يدعين القدرة على أن يركبن في بعض الليالي على ظهور بعض الدواب مع حشد من العفاريت في صورة النساء ، وعلى أن ينضممن إلى تلك الجماعات » (١٠) - وذلك هو « سبت الساحرات » الذي ذاعت سمعته السيئة في القرن الرابع عشر . وكان من ضروب سحر النساء السهلة صنع صورة من الشمع للضحية المقصودة ، وإنقاذ الإبر فيها ، وتلاوة صيغ من اللعنات عليها ؛ وقد اتهم وزير من وزراء فليب الرابع بأنه استأجر ساحرة لتفعل هذا بصورة الملك . وكان من المعتقدات المنتشرة أن بعض النساء يستطعن أن

يوذنين أو يقتلن بنظرة من « حيونهن الحاسدة » . وكان برنولد الرچنزبرجى Berthold of Regenesburg يظن أن سيلقى فى الجحيم من النساء أكثر من سيلقى فيها من الرجال لأن كثيرات من النساء يمارسن فنون السحر - فلهذه « رقى للحصول على الزواج ، ورقى للزواج ، ورقى قبل مولد الطفل ، ورقى قبل التعميد ... ومن عجب أن الرجال لا يفقدون عقولهم بسبب فنون السحر الرهيبة التى تمارسها النساء عليهن » (١١) . وكانت قوانين القوط الغربيين اتهم النساء باستحضار العقاريت ، وبتقريب القرابين للشياطين ، وبإثارة العواصف وما إلى ذلك ، وتأمربأن تخلق رؤوس من ثياب عليهن هذه الجرائم ، وجلدهن مائتى جلدة (١٢) . وكانت قوانين كانوت Cnut فى إنجلترا تعرف بأن من المستطاع قتل إنسان بالسحر . وكانت الكنيسة فى بادئ الأمر سهلة مع أصحاب هذه العقائد الشعبية ، ترى فيها بقايا وثنية لن تلبث أن تزول ولكن الذى حدث كان عكس هذا ، فقد أخذت تزيد وتنتشر ، حتى إذا كان عام ١٢٩٨ شنت محكمة التفتيش حملة قوية بغية القضاء على السحر بحرق الساحرات علناً . ذلك أن الكثيرين من رجال الدين كانوا يعتقدون مخلصين أن من النساء من كن على صلة بالعقاريت ، وأن من الواجب أن يحمى المؤمنون من رقاهن السحرية . ويؤكد لنا قيصر بوس المستريباخي Caesarius of Heisterbach أن كثيرين من الرجال فى أيامه يتخالفون مع الشياطين (١٣) ، ويقال إن من يمارسون السحر الأسود كانوا يحتقرون الكنيسة ويسخرون من شعائرها بأن يعبدوا الشيطان بقداس أسود (١٤) . وكان كثيرون من المرضى وضعاف النفوس يعتقدون أنهم قد لبسهم العقاريت ، وأربما كان القصد من الأدعية ، والصيغ ، والاحتفالات التى تنلى أو تقام لإخراج هذه العقاريت والى تستخدمها الكنيسة لهذا الغرض ، أن تتخذ علاجاً نفسانياً لهذه عقول الخرفان .

وكان الطب فى العصور الوسطى إلى حد ما فرعاً من اللاهوت والشعائر

الدينية ؛ فقد كان أوغسطين يظن أن أمراض الآدميين تسببها العفاريت ، ووافق لوتر على ظنه هذا ؛ وبدأ من ثم أن علاج الأمراض بالصلوات ، وعلاج الأوبئة بالمواكب الدينية وإقامة الكنائس ، أمر يتفق مع المنطق السليم . ومن أجل هذا بنيت كنيسة سانتا ماريا دلا سالوتى Santa Matia della Salute في البندقية لمقاومة طاعون ؛ وقد شفيت تلك المدينة - على حد قولهم - من وباء الزحار بفضل الصلوات التى أقامها القديس جربولد Gerbold أسقف بايو Bayeux^(١٥) . وكان الأطباء الصادقون يرحبون بما يسديه الإيمان بالدين من عون لإنجاح وسائل العلاج ، فكانوا يوصون بإقامة الصلوات ، ولبس التمام^(١٦) ؛ ولهذا نجد منذ عهد إدورد المعترف لا بعد الحكام الإنجليز يباركون الخواتم . لعلاج الجذام^(١٧) . وكان الملوك الذين نالوا القداسة بلمس المخلفات الدينية يشعرون أن فى مقدورهم علاج المرضى بوضع أيديهم عليهم ؛ وكان يظن أن المصابين بالداء الخنازيرى يستجيبون أكثر من غيرهم للمس للملوك ؛ ولهذا سمي هذا المرض « داء الملك King's evil » . وما أكثر ما تحمل القديس لويس من العناء الطويل فى مس المصابين بهذا الداء ، ويقال إن فليب قالوا « مس » ألفاً وخمسةائة من الأشخاص فى جلسة واحدة^(١٨) .

وكان ثمة وسائل سحرية للمعرفة وللصحة جميعاً ، فقد انتشرت فى العصور الوسطى كلها معظم الوسائل الوثنية التى كانت تتبع للتنبؤ بالغيب أو رؤية الغائبين على الرغم من تنديد الكنيسة بهذه الوسائل ؛ مثال ذلك أن تومس أبكت Thomas à Becket أراد أن يسدى النصح إلى هنرى الثانى فى مشروعه لغزو بريطانيا فاستشار للملك عرافاً بزجر الطير ومراقبة طيراتها ، وقارئ كف عرف مصير الحملة بدراسة خطوط يده^(١٩) . ويدعى قارئ الكف أن « علمهم » هذا مؤيد من عند الله ، ويستدلون على صدق السحر بآية من سفر الخروج (الآية الثامنة عشرة من الأصحاح الثانى والعشرين) التى تقول : لا تدع ساحرة تعيش .

وكان غير هؤلاء من المتنبيين يحاولون معرفة الغيب بمراقبة حركات الرياح ، أو المياه ، أو الدخان المتصاعد من ناز . وكان بعضهم يعلمون مواضع خبط عشواء على الأرض (أو أية مادة من مواد الكتابة) ويصلون هذه النقط بخطوط ، ويتنبئون بحظ السائل بالنظر في الأشكال الهندسية التي تحدث بهذه الطريقة . ويقال إن بعضهم كانوا يتنبئون بالمستقبل باستحضار أرواح الموتى ؛ من ذلك أن ألبرتس جروتس Alberthus Grotus استحضّر - على حد قولهم - روح زوجة الإمبراطور فردريك بربرسا بناء على طلبه (٢٠) . ومنهم من كان يستشير كتب التنبؤ بالغيب ، كالكتب التي يقال إنها تحتوي على نبوءات السيبيلات Sibyls أو مرلين Merlin أو سليمان . ومنهم من كان يفتح الكتاب المقدس أو الإنباذة في غير موضع معين ، ويتنبأ بالمستقبل بقراءة الآية أو بيت الشعر الذي تقع أعينهم عليه . وكان أكثر المؤرخين جداً ووقاراً في العصور الوسطى يحدون - كما وجد ليثي - أن الحوادث ذات البال قد عرفت قبل وقوعها إما مباشرة أو رمزاً ، بالتلذذ ، أو الرؤى ، أو النبوءات ، أو الأحلام . وكانت توجد أكاداس من الكتب - ككتاب آرنلد الفلانوف Arnold Villanova - تعرض أحدث التفسيرات العلمية للأحلام - ولم تكن هذه التفسيرات أكثر سخفاً مما كتبه أشهر العلماء في القرن العشرين . وكان الناس في الزمن القديم يمارسون الأساليب المتبعة للتنبؤ أو الجلاء البصري كلها تقريباً كما يمارسونها في هذه الأيام .

غير أن زماننا الحاضر ، على الرغم مما بدّل فيه من بعض الجهود ، لم يبلغ ما بلغه عصر الإيمان - في الإسلام أو اليهودية أو المسيحية - من اعتقاد بأن المستقبل مكتوب في النجوم كتابة لا يستطيع حل رموزها (*) . فإذا كان مناخ الأرض - على حد قولهم - ونمو النبات يتأثران تأثراً واضحاً بالأجرام السماوية ،

(*) لعل الكاتب يريد أن بعض المسلمين كانوا يعتقدون أن المستقبل مبين في النجوم وربما كان هذا صحيحاً ولكن الدين الإسلامي نفسه لا يشير بهذا لا تصريحاً ولا تلميحاً . (المترجم)

فكيف لا تؤثر هذه الأجرام ، في أحوال الناس والدول ، بل كيف لا تتحدد هذه الأحوال تحديداً فتسيطر على نموهم ، وطبيعتهم ، وأمراضهم ، ومراحل حياتهم ، وخصوبتهم ، وما يفشو بينهم من أوبئة ، وما يقع لهم من أحداث وثورات ، وتقرر مصيرهم ؟ هذا ما كان راسخاً في عقل كل إنسان تقريباً في العصور الوسطى . وكلما كان بخلو بيت ملك أو أمير من منجم محترف . وكان الأطباء يحجمون مرضاهم ، كما لا يزال كثير من الفلاحين يبدرون حبههم ، حسب أوجه القمر ؟ وكانت معظم الجامعات تدرس مناهج في التنجيم ، ويقصدون به « علم النجوم » ؛ وكان علم الفلك نفسه جزءاً من التنجيم ، وكان من أكبر أسباب تقدمه اهتمام الناس بالتنجيم وأغراضه . وكان العلماء الجادون يقررون أنهم وجدوا علاقات ثابتة منتظمة يمكن التنبؤ بنتائجها بين الأجرام السماوية والأرض ؛ فالذين يولدون وزحل في أوجه يكونون باردى المزاج ، نكدين ، منقبضى الصدور ، والذين يولدون والمشتري في أوجه يكونون معتدلى المزاج مرحين ؛ ومن يولدون تحت تأثير المريخ يكونون ملتهبى المزاج ذوى نزعة عسكرية ؛ ومن يولدون تحت تأثير الزهرة يتصفون بالركة وكثرة النسل ؛ ومن يولدون تحت تأثير عطارد يصيرون خلائق متقلبين لا يثبتون على حال ؛ ومن يولدون والقمر في كبد السماء يكونون سوداوين قد تصل حالهم إلى حد الجنون . وكانت قراءة طالع المولود تنبئ بحياتها كلها بالنظر إلى البرج الموجود وقت مولده . ولهذا فإن من يريد معرفة الطالع الصحيح لشخص ما يجب عليه أن ينظر إلى الساعة ويعرف بالدقة اللحظة التي ولد فيها ، وموضع النجوم بغاية الدقة والتحديد . ومن ثم كانت أهم الأغراض التي وضعت من أجلها الأزياج الفلكية هي المساعدة على معرفة هذه الطوالع .

وتبرز في تلك الأيام أسماء المتبحرين في هذه العلوم الخفية ؛ من هؤلاء بطرس الأبنوى Peter of Abano الذى كان ينزل بالفلسفة فيجعلها تنجيماً . وكان لآرنلد الفلانوفى الطبيب الشهير ولع بالسحر ؛ وكان سكوداسكولى

Cecco d'Ascoli (١٢٥٧ ؟ - ١٣٢٧) مدرس التنجيم في جامعة بولونيا يفخر بأنه يستطيع قراءة أفكار أى إنسان ، أو يعرف ما يخبوه في يده إذا صرف تاريخ مولده . وأراد أن يشرح آراءه هذه فعمل على كشف طالع المسيح ، وأثبت أن البرج الذى كان في السماء ساعة مولده قد جعل صلبه أمراً محتملاً . وأدانت محكمة التفتيش (١٣٢٤) ، وأرغم على إنكار دعواه ، وعنى عنه على شريطة أن يلزم الصمت ، وخرج إلى فلورنس ، ومارس التنجيم لعدد من العملاء ، ثم حرق علناً لأنه أنكر حرية الإرادة (١٣٢٧) . واتهم كثيرون من العلماء المخلصين لعلمهم - ومنهم قسطنطين الأفريقى ، وجريوت ، وألبرتس مجنس ، وروجر بيكن ، وفنسنت البوفيسى Vincent of Beauvais - بالسحر وبالاتصال بالشياطين لأن الناس لم يكونوا يصدقون أنهم حصلوا على علمهم بالوسائل الطبيعية . وكان ميخائيل اسكت هدفاً للريبة لأنه كتب رسائل ذائعة الصيت عن العلوم الخفية ، منها كتاب في التنجيم ، وكتاب في العلاقة بين الصفات الخلقية وصفات الجسم ، وكتابين في الكيمياء الكاذبة . وكان ميخائيل يندد بالسحر ، ولكنه يسره أن يكتب عنه ، وقد ذكر ثمانى وعشرين طريقة للتنبؤ بالغيب ، ويبدو أنه كان يؤمن بها كلها (٢١) . وكان معظم معاصريه دقيق الملاحظة ، يجرى بعض التجارب ، ولكنه يقول إن حمل حجر اليشب أو الياقوت الأصفر يساعد الرجل على الامتناع عن الجماع (٢٢) . وقد بلغ من مهارته أن ظل حسن الصلة بفردريك الثانى والبابابوات ، ولكن دانتي الصلب الذى لا يقبل شفاعته جعل مثواه الجحيم .

وكانت الكنيسة ومحكمة التفتيش جزءاً من البيئة المحيطة بالعلوم الأوروبية في القرن الثالث عشر . وكانت الجامعات تعمل في الأغلب الأعم تحت سلطان الكنيسة ورقابتها . بيد أن الكنيسة كانت تترك للأساتذة قدراً كبيراً من حرية العقيدة ، وكانت في كثير من الأحوال تشجع طلب العلم . من ذلك أن

ولم الأوفرني أسقف باريس (المتوفى عام ١٢٤٩) ، كان يناصر البحث العلمى ، ويسخر من الذين يتسرعون فيرون فى كل حادثة غير مألوفة عملاً من أعمال الله مباشرة . وقد برع جروستسى أسقف لنكلن فى دراسة العلوم الرياضية ، والبصريات ، وفى العلوم التجريبية ، براعة جعلت روجر بيكن ؛ يضعه منزلة أرسطو . ولسنا نعرف أن طائفى الرهبان اللامنك أو الفرنسيس قد أثارتا اعتراضاً على الدراسات العلمية التى قام بها ألبرتس مجنس أوروجر بيكن ؛ أما القديس برنار وبعض المتحمسين المتزمين فكانوا يعارضون فى طلب العلم ؛ ولكن الكنيسة لم تأخذ برأيهم هذا (٢٣) ، وكانت ترى أن من الصعب عليها أن ترضى بتشريح جثث الآدميين لأن من عقائدها الأساسية أن الإنسان خلق فى صورة الله ، وأن الجسم والروح كليهما سبقومان من القبر . وكان المسلمون واليهود يرون معها هذا الرأى بعينه (٢٤) ، كما كانت تقول به الكتلة الغالبة من الناس (٢٥) . وقال جيلدو الشجيفانوى Quido of Vigevano فى عام ١٣٤٥ عن التشريح إنه « محرم بأمر الكنيسة » (٢٦) . ولكننا لانجد ما يحرمه فى أوامرها قبل مرسوم البابا بنيفاس الثامن الصادر فى عام ١٣٠٠ ، وحتى هذا المرسوم لا ينهى إلا عن تقطيع الجثث وغلى لحمها ، لكنى ترسل عظام الصليبيين المعقمة إلى أهلهم ليدفنوها فى بلادهم (٢٧) . وربما فسر هذا تفسيراً خاطئاً ففهم على أنه نهى عن تشريح الجثث بعد الموت ، ولكننا نجد مندينو Mondino الجراح الإيطالى يغلى الجثث ويشرحها حوالى عام ١٣٢٠ ؛ ومبلغ علمنا أن الكنيسة لم تمنع على عمله هذا (٢٨) .

وبعد فلماذا ما بدت ثمار العلوم الطبيعية فى الغرب أثناء العصور الوسطى ضئيلة قليلة الغناء فى هذا الموجز الذى يراه القارئ فيما بعد ؛ فإن علينا أن نذكر أنها نشأت فى بيئة من الخرافة والسحر معادية للعلم ، وفى عصر تتجه فيه خيرة العقول إلى القانون ، واللاهوت ، وفى وقت يعتقد فيه الناس كلهم تقريباً أن المسائل

الكبرى الخاصة بنشأة الكون ، وبنى الإنسان ، والطبيعة ، ومصائر الناس
قد حلت كلها . ولكن العقول في أوروبا الغربية استفادت من رقتها بعمق
عام ١٩٥٠ لما أن ازداد الفراغ ، وتمت الثروة ، وأخذت التراجم تنصب
صبا في أوروبا من بلاد الإسلام ، واشتدت رغبة الناس في المعرفة حتى صارت
ولعاً وتحمساً ، وشرعوا يبحثون شئون العالم القديم العظيم الذي كان يبحثه
اليونان دون أن تقام في وجههم العقبات والعراقيل ، ولم يمض إلا قرن من
الزمان حتى كانت أوروبا اللاتينية كلها تموج بالعلم والفلسفة .

الفصل الثاني

الثورة الرياضية

إن أول الأسماء العظيمة في علوم ذلك الوقت اسم لبونارد وفيبوناتشى

البىزى Leonardo Fibonacci of Pisa .

لقد انتقلت علوم الرياضة السومرية ، التى لا نعرف نشأتها ، إلى بابل عن طريق بلاد اليونان ؛ وانتقل علم الهندسة المصرية ، الذى لا يزال ماثلاً أمام أعيننا فى الأهرام ، إلى أيونيا وبلاد اليونان ، ولعل انتقاله كان عن طريق كريت وروودس ؛ وانتقلت علوم الرياضة اليونانية إلى أيونيا فى أثر الإسكندر ، وكان لها شأن أعما شأن فى ذلك التطور الذى بلغ ذروته فى براهماجيتا Brahmagupta (٥٨٨ ؟ - ٦٦٠ ؟) وترجمت مؤلفات الهنود الرياضية إلى اللغة العربية حوالى ٧٧٥ ؛ وبعد قليل من ذلك الوقت ترجمت مؤلفات اليونان فى هذا العلم إلى تلك اللغة نفسها ؛ ودخلت الأرقام الهندية إلى بلاد المسلمين الشرقية حوالى عام ٨٣٠ ؛ ثم نقلها جربرت Gerbert إلى فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ ، ودخلت علوم الرياضة اليونانية ، والعربية ، والعبرية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بلاد أوربا الغربية عن طريق أسبانيا وصقلية ، وحملها التجار الإيطاليون إلى البندقية وجنوى ، وأملفى ، وبيزا ؛ وشأن النقل فى الحضارة كشأن التناسل فى الحياة .

وظهر طريق آخر من طرق نقل العلوم فى القرن السادس قبل الميلاد وذلك فى صورة « المِعد » الصينى ؛ وهو أداة للعد بنقل عصى صغيرة من الجزيران من مجموعة إلى أخرى ؛ ولا تزال أداة منقولة عن هذه تستعمل فى بلاد الصين إلى يومنا هذا ؛ ويقول هيرودوت إن المصريين فى القرن الخامس

قبل الميلاد كانوا يستخدمون الحصا في العد ، وينقلونه بأيديهم من اليمين إلى اليسار . أما اليونان فقد ساروا فيه من اليسار إلى اليمين ، واستخدم الرومان أشكالاً كثيرة من المِعد ، كانت أدوات العد في أحدها تنزلق في حزوز ، وكانت هذه الأدوات تصنع من الحجارة ، أو المعادن ، أو الزجاج الملون ، وكانوا يسمونها الكالْكولي *Calculi* أى الحجارة الصغيرة (٢٩) . ويذكر يوثيوس حوالي عام ٥٢٥ المعد ويقول عنه إنه يمكن الإنسان من العد بالعشرات ، ولكن هذه البداية لاستخدام الطريقة العشرية أمهلت ، وكان تجار إيطاليا يستخدمون المعد ، ولكنهم يكتبون نتائجهم بالأرقام البرومانية السبعة .

وولد ليو ناردو فيبوناتشي في پيزا عام ١١٨٠ ، وكان والده مديراً لإحدى المؤسسات التجارية في بلاد الجزائر ، وانضم إليه ليوناردو في تلك البلاد وهو في سن المراهقة ، وتعلم على أستاذ مسلم ، ثم طاف ببلاد مصر ، والشام ، واليونان ، وصقلية ، ودرس أساليب التجار ، وتعلم طريقة العد على حد قوله « يوسيلة عجيبة استخدم فيها أرقام الهنود التسعة » (٣٠) ، وهنا كانت الأرقام الهندية في بداية تاريخها الأوربي . تسمى بحق أرقاماً هندية ، وكانت هذه الأرقام التي هي من أسباب الملل والإجهاد لأطفال هذه الأيام موضع الدهشة والبهجة في ذلك الوقت . ولعل ليوناردو قد تعلم اللغة اليونانية كما تعلم العربية ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فلنا نجده ملماً كل الإلمام برياضيات أرنخيدس ، وإقليدس ، وهرون ، وديوفانتس *Diophantus* . ونشر في عام ١٢٠٢ كتاب *العلم Liber abaci* وهو أول عرض أوربي كامل للأرقام الهندية ، وللصفر ، والطريقة العشرية ، يقوم به مؤلف مسيحي ، وكان بداية بعث العلوم الرياضية في بلاد أوروبا المسيحية . وأدخل هذا الكتاب نفسه الجبر العربي في أوروبا الغربية ، وأحدث انقلاباً بسيطاً في ذلك العلم لأنه كان يستخدم من حين إلى حين خروفاً بدل الأرقام لتعميم

المعادلات الجبرية واختزالها . واستخدم ليوناردو في كتابه الهندسة التطبيقية Practica geometrica (١٢٢٠ م) — لأول مرة في العالم المسيحي على ما تعلم — الجبر في حل النظريات الهندسية . ووضع في كتابين آخرين نشرهما في عام ١٢٢٥ طرقات مبتكرة لحل معادلات الدرجة الأولى والثانية . وفي تلك السنة نفسها رأس فردريك الثاني في مدينة بيزا مهرجاناً رياضياً ، وضع فيه يوحنا بالرمو John Palermo مسائل مختلفة حلها فيوناتشي .

وظل تجار أوربا يقاومون طريقة العد الجديدة على الرغم من ظهور هذا المؤلف الذي يُعدّ بداية عهد جديد في تاريخ العلوم الرياضية ، فقد كان كثيرون منهم يفضلون تحريك المِعدّ بأصابعهم وكتابة النتائج بالأرقام الرومانية ؛ وفي عام ١٢٩٩ استطاع « العدّادون » في فلورنس أن يقنعوا ولاية الأمور بسن قانون يحرم استعمال « الأرقام الخيالية الجديدة » (٣٢) ، ولم يدرك إلا عدد قليل من الرياضيين الرموز الجديدة وهي الصفر وترتيب الخانات العشرية في آحاد وعشرات ومئات ... قد مهدت السبيل إلى تطور يكاد يكون مستحيلاً إذا ظلوا يتخذون الحروف القديمة اليونانية والرومانية واليهودية أرقاماً . ولم تحمل الأرقام الهندية آخر الأمر محل الأرقام الرومانية إلا في القرن السادس عشر ، ولا تزال طريقة العد الاثنا عشرية مستخدمة في ميادين كثيرة في إنجلترا وأمريكا لأن رقم ١٠ لم ينتصر بعد في كفاحه الطويل الذي دام ألف عام انتصاراً حاسماً على رقم ١٢ .

وكان للعلوم الرياضية في العصور الواسطة أغراض ثلاثة : خدمة التجار ، وإمساك حسابات رجال الأعمال ، ورسم خرائط للسماء . وكانت علوم الرياضة ، والطبيعة ، والفلك وثيقة الصلة بعضها ببعض ، ومن كتب في واحد منها أفاد العلمين الآخرين ؛ ومن أمثلة هؤلاء العلماء جون الهوليودى John of Holywood (في بوركشير) المعروف في العالم اللاتيني باسم جرانس ده سكرويسكو

Johannes de Sacrobosco الذى درس فى أكسفورد، وكان أستاذاً فى جامعة باريس ، وألف رسالة عن الكرة الأرضية وعرضاً للرياضة الجديدة سماها الرياضه للمحمريين (حوالى ١٢٣٠) . وكان لفظ اللوغاريمات وهو اسم مسموح من اسم الخوارزمى اصطلاحاً لاتينياً يطلق على الطريقة الرياضية التى تستخدم الأرقام الهندية . ويعزو جون إلى العرب فضل اختراع هذه الطريقة ، وهو من المسئولين عن الخطأ الذى أدى إلى تسمية الأرقام الهندية بـ « الأرقام العربية » (٣٢) . وجاء رجل من تشستر يدعى ربرت حوالى ١١٤٩ بحساب المثلثات العربى إلى إنجلترا ، وأدخل لفظ الجيب فى العلم الجديد ، وذلك فى أثناء تعديل أزياج البتاني والزرقلاني .

وكان من أسباب دوام الاهتمام بالفلك حاجات الملاحة والرغبة الشديدة فى التنجم . وكانت المكانة العظيمة التى يمثلها كتاب المجسطى الذى ترجم مراراً كثيرة من أسباب جمود علم الفلك فى أوروبا المسيحية . واستمسكه بنظرية بطليموس نظرية الدوائر المختلفة المراكز والدوائر التى فى محيطات دوائر أخرى ، والقائلة إن الأرض هى محور الكون . وأحست بعض العقول اليقظة كعقول ألبيرتس مجنس ، وتومس أكوناس ، وروجر بيكن ، بقوة النقد الذى وجهه العالم الفلكى البطروجى ، لهذه النظرية فى القرن الثانى عشر ، ولكن لم توجد نظرية سماوية مقبولة محل محل نظرية بطليموس الميكانيكية قبل أيام كوبرنيق . فقد كان علماء الفلك المسيحيون فى القرن الثالث يتصورون أن الكواكب تدور حول الأرض ، وأن النجوم الثوابت مرصوفة فى قبة من البلور يسيرها العقل الإلهى ، وتدور فى حشد منظم حول الأرض . وأن مركز الكون كله وأرقى ما فيه هو ذلك الإنسان الذى يصفه علماء الدين بأنه ذودة حقيرة ملوثة بالذنوب ، ومحكوم على كثرة أفراده . بأن يصلوا نار الجحيم . وقد بحث علماء الفلك الساميون فى القرن

«الثالث عشر رأى هرقليدس القائل بأن منشأ حركة السماء اليومية الظاهرة دوران الأرض حول محورها ، ولكن العالم المسيحي نسي هذا الرأي نسياناً تاماً ، ونقل مكروبيوس Macrobius ومارتيانوس كابلا Martianus Capella رأياً آخر لهرقليدس وهو أن عطارد والزهرة يدوران حول الشمس ، واستمسك جون اسكوتس لإرجينس بهذا الرأي في القرن الثامن ثم طبقه على المريخ والمشتري ، وبهذا أوشكت النظرية القائلة بأن الشمس مركز العالم أن تنتصر (٣٤) . ولكن هذه الفروض الباهرة كانت من بين الأفكار التي اندثرت في المصور المظلمة ، وظلت الأرض مركز الكون حتى عام ١٥٢١ ، وإن كان علماء الفلك جميعهم قد اتفقوا على أن الأرض كرية (٣٥) .

وجاءت الأزياج والآلات الفلكية إلى الغرب من بلاد الإسلام ، أو علمت على غرار الأزياج والآلات الإسلامية . ورصد ولشر اللورني Walcher of Lorraine الذي أصبح فيما بعد رئيساً للدير ملقبن Malvern خسوف القمر في إيطاليا بأسطراب ، وكان هذا أول الأرصاد الفلكية المعروفة في العالم المسيحي الغربي ، ولكن ولیم الكلودي William of St Cloud اضطرب بعد مائتي عام من ذلك الوقت . (حوالي ١٢٩٦) أن يذكر الفلكيين ، بأقواله وبما ضربه لهم من مثل بنفسه ، أن خبر ما يتقدم به العلم هو الملاحظة لا القراءة أو الفلسفة . وخير ما قدم لعلم الفلك المسيحي من عون في ذلك الوقت هو الأزياج الأنثوسية لحركات الأجرام السماوية التي أعدها عالمان يهوديان أسبانيان لأنفسو الحكيم .

وتجمعت المعلومات الفلكية فكشفت عن أخطاء تقويم يوليوس قيصر (٤٦ ق . م) الذي وضع على أساس عمل سوسيجينيس والذي جعل السنة أطول من حقيقتها بإحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية . وكان ازدياد تنقل الفلكيين ، والتجار ، والمؤرخين بين أفطار العالم مما كشف عن الصعاب التي يلاقونها

من جراء اختلاف التقويم . وكان البيزوني قد قام بدراسات نافعة للطرق المختلفة المتبعة في تقسيم الزمن وتاريخ الحوادث (حوالى عام ١٠٠٠) ، وواصل هارون ابن مشلام و ابراهيم بارخية هذه الدراسة فى عامى ١١٠٦ و ١١٢٢ ، وأعة ما ربرت جروستسى ورجر بيكن فعرضا فى القرن الثالث عشر مقترحات عملية ، أسفرت (حوالى عام ١٢٣٢) عن وضع جروستسى لطائفة من الأزياج لتعين أوقات الحوادث الفلكية والتواريخ المتغيرة كتاريخ عيد القيامة ، وكانت هذه الأزياج أول خطوة لوضع التقويم الجريجورى (١٥٨٢) الذى يرشدنا ويصللنا فى هذه الأيام .

الفصل الثالث

الأرض وحياتها

وكان أكثر العلوم تقدماً في العصور الوسطى هو علم طبقات الأرض ؛ وسبب ذلك أن الأرض كانت في رأيهم موطن المسيح ، وغلاف الجنيم ، وأن الأحوال الجوية من تقدير الله . وكان المسلمون واليهود والمسيحيون على السواء يفتشون علم التعدين بغلاف من الخرافات . ويؤلفون « الجوهريات » فيما للحجارة من قوى سحرية . من ذلك أن ماربو Marbood أسقف رنن Rennes (١٠٣٥ - ١١٢٣) كتب بالشعر اللاتيني كتاباً شعبياً سماه كتاب الجواهر . وصف فيه القوى الخفية الكامنة في ستين نوعاً من الحجارة الكريمة ، فقال هذا الأسقف المتبحر في العلوم إنه إذا أمسك الإنسان بيده حجراً من الياقوت الأزرق أثناء الصلاة كان ذلك أدعى لاستجابة الله إلى دعائه (٣٦) ، وإن حنجر عين المهر إذا لف في ورقة من نبات الفار يُخفى من يمسك به عن أعين الناس ، وإن حجر الجمشت يجعله بئامن من السكر ؛ وإن الماس يجعل من يمسك به صنديلاً لا يُهزَم (٣٧) .

وكان التشوف والتحمس للذات أحاطا معادن الأرض بهذه الخرافات هما اللذين بعثا الناس في العصور الوسطى على التجوال في أوروبا وبلاد الشرق ، فأغنوا بذلك علم الجغرافيا على مهل . من هؤلاء جرالدوس كمبرنسس Giraldus Cambrensis - جرالد الويلزي Giraldu of Wales (١١٤٧ - ١٢٢٣) - الذي طاف ببلاد كثيرة وكتب في موضوعات كثيرة ، وأتقن لغات كثيرة ليس

منها لغته هو ، والذي صعب الأمير جون إلى أيرلندة ، وعاش فيها عامين ، ثم طاف بأنحاء ويلز يدعو الناس إلى الحرب الصليبية الثالثة ، وألف أربعة كتب ممتعة عن هذين البلدين . وقد أنفل صحف كتبه بتحيزه وبكثرة ما أورده فيها من أخبار المعجزات ، ولكنه خففها بوصفه الواضح الحى للأشخاص والأماكن ، وحديثه الطريف عن الأشياء التافهة التى توضح خصائص الأشخاص والعصور . وكان واثقاً من أن كتبه سوف تخلد ذكره (٢٨) ، ولكنه استخف بما يمتاز به الزمان من قدرة على النسيان .

وكان هو واحداً من آلاف الرجال الذين حجوا إلى بلاد الشرق فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وقد رسمت خرائط البلاد والطرق ليهتدى بها هؤلاء الحجاج ، وأفاد من ذلك علم الجغرافية . وحدث بين عامى ١١٠٧ و ١١١١ أن أبحر سيجورد جوراسلفار Siguard Jorasalfare ملك النرويج فى حملة صليبية ومعه ستون سفينة ، ومرّ بإنجلترا ، وأسبانيا ، وصقلية ، ووصل إلى فلسطين . وحارب المسلمين كلما لاحت له فرصة لحربهم ، ثم قاد حملته بعد أن هلك منها من هلك إلى القسطنطينية ، ومنها اجتاز بلاد البلقان ، وألمانيا ، والدنمركة بطريق البر حتى وصل إلى النرويج . وتكون قصة هذه الرحلة المفعمة بالأخطار جزءاً من قصص اسكنديناوة الشعبية العظيمة . وفى عام ١٢٧٠ أعاد لىزاتى مالوسلو Lanzarotte Malocello كشف جزائر الخالدات التى كانت معروفة للأقدمين . وتقول إحدى الروايات المتواترة التى لم تحقق بعد إن أوجولينو Ugo'ino وفادينو فيقلدو Vadino Vivaldo أبحرا من جنوى حوالى عام ١٢٩٠ على ظهر سفينتين كئى يصلان إلى الهند بالطواف حول قارة أفريقية . ويبدو أن جميع من كانوا على ظهر السفينتين من الملاحين لقوا حتفهم . وانتقلت قصة هذه الرحلة بطريقة ساخرة فى صورة رسالة من « برستر جون » Prester John منظورى (حوالى عام ١١٥٠) يتحدث فيها عن أملاكه فى أواسط آسية .

وعن جغرافية بلاد الشرق حديثاً مليئاً بالآوهام والتخريفات . وقتلما كان المسيحيون يعتقدون بوجود أرضين وسكان في الأجزاء المقابلة لبلادهم وعلى سطح الأرض ، وذلك على الرغم من قيام الحروب للصليبية وما استتبعته من الأسفار . وكان القديس أوغسطين يرى أن « من غير المعقول أن يسكن الناس في الجهة المقابلة لنا على سطح الأرض ، حيث تغرب الشمس حين تشرق عندنا ، وحيث يمشى الناس وأقدامهم في اتجاه أقدامنا »^(٣٩) ؛ وكان راهب أيرلندى يدعى القديس فرجيل St. Fergil قد أشار حوالى عام ٧٤٨ إلى إمكانية وجود « عالم آخر وخلق آخرين تحت الأرض »^(٤٠) . وقيل ألبرتس مجنس وروجر بيكين هذه الفكرة ، ولكنها بقيت خيالاً جريئاً يطوف بعقول قلة من الناس حتى طاف مجلان Magellan بالكرة الأرضية .

وجاءت إلى أوروبا أهم المعلومات عن للشرق الأقصى من راهبين فرنسيين . ذلك أن إنوسنت الرابع أرسل في إبريل من عام ١٢٤٥ إلى بلاط المغول في قرقورم جيوفى ده بيانوكريبي Giouanni de Piano Carpèni ، وهو رجل بدين في الخامسة والستين من عمره . ولأق جيوفى ورفيقه من الصعاب شد ما يلقاه الإنسان في حياته ، فقد ظل مسافرين خمسة عشر شهراً ، يبدلان الجياد في كل يوم . وإذا كانت قوانين الرهبان الفرنسيين تحرم عليهما أكل اللحم ، فقد كادا يموتان جوعاً بين البدو الذين لا يكادون يجدون غيره طعاماً يمدونهما به وتأخفق جيوفى في مهمته ، ولكنه كتب بعد عودته وصفاً لرحلته يعد الآن من أمهات كتب الأدب الجغرافى — فهو يمتاز بوضوحه ، وإنكاره لشخصه ، واهتمامه بالحقائق دون غيرها لا يذكّر فيها كلمة شكوى أو كلمة عن نفسه . وأرسل لويس التاسع في عام ١٢٥٣ وليم البريكويزى William of Rubruquis (وليم فان رويزبروك William van Ruysbroek إلى الخان الأعظم ليعيد على مسامحه رغبة البابا في عقد حلف معه . وعاد وليم يحمل معه دعوة جافة

بمخضوع فرنسا إلى سلطة المغول^(١) ، وكان كل ما أثمرته البعثة هو وصف
وليم الشيق الممتاز لمعادن المغول وتاريخهم . وعرف الأوروبيون وقتل لأول
مرة منابع نهري الدن Don والفلجا ، وموضع بحيرة بلكاش ، وشعائر
الدلاي لاما Dalai Lama ، وأماكن النساطرة المسيحيين في الصين ،
والفرق بين المغول والتتار .

وأشهر الرحالة الأوروبيين إلى بلاد الشرق الأقصى في العصور الوسطى
وأعظمهم نجاحا هم أسرة بولو تجار البندقية . فقد كان لأندريا بولو
Andrea Polo أبناء ثلاثة هم ماركو الأكبر ، ونقولو ، ومافيو Maffeo ؛
وكانوا كلهم يعملون في تجارة بزنطية ويعيشون في القسطنطينية . وانتقل
نقولو ومافيو حوالي عام ١٢٦٠ إلى بخارى حيث بقيا ثلاث سنين ، ومنها
سافرا في أعقاب بعثة سياسية تنارية إلى بلاط كوبلاي خان في شانجتو .
وأعادهم كوبلاي في بعثة إلى البابا كلمنت الرابع ، واستغرقت عودتهما إلى
البندقية ثلاث سنين ، فلما جاء إليها كان كلمنت قد مات . وفي عام
١٢٧١ خرجا من البندقية عائدين إلى الصين ، وأخذ نقولو معه ابنه ماركو
الأصغر وكان وقتئذ في السابعة عشرة من عمره . وقضيا ثلاث سنين
ونصف سنة في رحلتها محترقين قارة آسية عن طريق بلخ ، وهضبة الهامير
وكاشغر ، ولوب تور وصحراء غربي ، وتنجوت : فلما وصلا إلى تنجوت
كان ماركو في الحادية والعشرين من عمره ؛ وأعجب به كوبلاي ، وخصه
بمناصب رئيسية ، ووكل إليه القيام ببعثات هامة ، وأبقى أفراد أسرة بولو
الثلاثة في الصين سبعة عشر عاما . ثم أبحروا عائدين إلى بلادهم ، وقضوا
في عودتهم ثلاث سنين عن طريق جلاوة ، وسومطرة ، وسنغا فورة ،
وسريدينب ، والخليج الفارسي ؛ ثم ساروا برا إلى طريرزون ، ومنها ركبوا السفينة
إلى القسطنطينية . والبندقية . فلما استقروا فيها لم يصدق أحد ، كما يعرف العالم
كله ، القصص التي أخذ يقصها « ماركو ذو الملايين » عن « بلاد الشرق

الفخمة » . وأسر ماركو وهو يحارب في جيش البندقية في عام ١٢٩٨ ، وألقى في سجن جنوى عاماً كاملاً ، وفيه أُملى قصته على زميل له في السجن ؛ وأثبتت بحوث الرواد بعدئذ صحة عناصر قصته كلها تقريباً ، وكانت تعد من قبل غير معقولة . فقد وصف ماركو للمرة الأولى رحلة تخترق جميع بلاد آسية ، وفي كتابه أول لمحة كتبها أوربي عن بلاد اليابان ، وأول وصف صادق لبيكين ، وجاوة ، وسومطرة ، وسيام ، وبورما ، وسرنديب ، وساحل زنجبار ، ومدغشقر ، وبلاد الحبشة ؛ وكشف كتابه للغرب الستار عن بلاد الشرق ، وساعد على فتح طرق جديدة للتجارة ، ولانتقال الأفكار ، وكان له نصيب في تشكيل علم الجغرافية الذي أوحى إلى كولبس بالسفر إلى الشرق بالاتجاه نحو الغرب .

ولما اتسع ميدان التجارة والأسفار أخذ علم رسم الخرائط يعود متاقلاً إلى المستوى الذي بلغه في أيام أغسطس ، وشرع الملاحون يُعِدُّون كتباً يُهْتَدَى بها إلى الثغور التجارية ، تحتوى خرائط ، ورسوماً ، وإرشادات للسائحين ، وأوصافاً ، لختلف المرافئ ؛ وبلغت هذه الكتب على أيدي أهل بيزا وجنوى درجة كبرى من الدقة . وكانت خرائط العالم التي رسمها الرهبان في ذلك الوقت إذا قورنت بغيرها تسير على نمط محدد لا تحيد له ويصعب فهمها .

وكانت رسائل أرسطو في علم الحيوان ، وكتاب ثيوفراستس الحجة في النباتات ، حافزاً فوريا لعقل الغرب المستيقظ من رقاده ، فأخذ يكافح للخروج من القصص ومن أقوال بليني إلى علم الحيوان والنبات . وكان كل إنسان تقريباً في ذلك الوقت يعتقد أن الكائنات العضوية الصغيرة ، بما فيها من الديدان والذباب ، تتولد من تلقاء نفسها من التراب ، والطين ، والمواد المتعفنة ، الفاسدة . وكادت الكتب التي تصف الحيوانات — الحقيقي منها والخرافي — وترسم صوراً لها تحل محل كتب علم الحيوان ؛ وإذا كان الرهبان هم الذين يؤلفون معظم هذه الكتب فقد كان علم الحيوان يوصف في عبارات مستمدة من كتب اللاهوت

بأنه مستوع للرموز المقبولة للإيمان ، وابتدعت منه مخلوقات إضافية ابتكرها الخيال للهو والتسلية ، أو خلقتها الحاجة إلى التقى والصلاح . انظر مثلاً إلى قول الأسقف هونوريوس الأوتوني Honorius of Autun من رجال القرن الثاني عشر الميلادي :

وحيد القرن ، وحش شديد الافتراس له قرن واحد ، فإذا أريد القبض عليه وُضعت في الحقل فتاة عذراء ، إذا رآها اقترب منها واستراح في حجرها ، وبذلك يُقبض عليه . ويمثل هذا الحيوان المسيح ، ويمثل قرنه قوة المسيح التي لا تُغلب ... فقد انتزع الصيادون وهو في رحم عذراء - أي أن الذين أحبوا المسيح وجدوه في صورة إنسان^(٤٢) .

وكان أقرب كتب الأحياء إلى العلم الصحيح في العصور الوسطى هو كتاب فردريك الثاني المسمى « فن القنص بالطير » وهو رسالة في هذا الفن في ٥٨٩ صفحة ، تعتمد فيما تعتمد عليه على المخطوطات اليونانية والإسلامية ، ولكن الجزء الأكبر منها مستمد من الملاحظة والتجربة . وكان فردريك نفسه من أشهر الصائدين بالبازة ؛ ويحتوى وصفه لأجسام الطير على عدد كبير من المعلومات الأصيلة التي لم يسبقه إليها غيره من المؤلفين ، ويدل تحليله لطيران الطيور وهجرتها ، وتجاربه في تفريخ البيض بالطرق الصناعية ، وأعمال الصقورة ، على روح علمية لا نظير لها في أيامه^(٤٣) . وقد وضع فردريك نصوص كتابه بمئات من صور الطير ، ربما كانت من صنع يده - وهي رسوم « صادقة حتى في أدق التفاصيل »^(٤٤) . ولم تكن مجموعات الحيوانات التي جمعها ، مجرد هوى شاذ يقصد به التظاهر كما كان يظن بعض معاصريه ، بل كانت معملًا يدرس فيه دراسة مباشرة مسلك الحيوانات . وبذلك كان هذا الإسكندر أرسطو نفسه :

الفصل الرابع

المادة والطاقة

كان حظ الطبيعة والكيمياء أحسن من حظ علمى طبقات الأرض والأحياء ، ذلك أن قوانينهما وعجائهما كانت فى جميع الأوقات أكثر اتساقاً مع عقيدة الإيمان بالله من « أنياب العالم الطبيعى ومخالبه الحمراء » . ويدلنا على قوة هذين العلمين فى بداية تلك الفترة ما كان يبذله ألكسندر المالمزبرى Oliver of Malmesbury من جهود لصنع طائرة ؛ فقد أتم فى عام ١٠٦٥ تركيب جهازه ، وعلا به فى الجوف من مكان مرتفع ولقى حتفه (١٥) .

ولم فى علم الميكانيكا فى القرن الثالث عشر اسم عظيم ، اسم راهب دمنيكى سبق إسحق نيوتن إلى عدد من المبادئ الأساسية فى هذا العلم . ذلك هو جردانس نوراريوس Jordanus Nemorarius الذى أصبح فى عام ١٢٢٢ القائد الثانى للرهبان الدمنيكيين . وإن قيامه بأعماله الباهرة فى ميدان العلوم الطبيعية ليس شهد بما كان عليه الإخوان الواعظون من حماسة عقلية وغيره علمية . وقد ألف هذا الراهب ثلاث رسائل فى العلوم الرياضية نأفس فيها رسائل فيبوناتشى فى شجاعته ونفوذه العظيم . استخدم فيها الأرقام الهندية ، وارتقى بعلم الجبر بحرصه الدائم على استعمال الحروف بدل الأرقام فى قوانينه العامة وقد درس فى كتابه Elements super demonstrationem ponderis الجاذبية فى مسير جسم متحرك ، ووضع القانون المعروف الآن باسم بدسية جردانس . وهو أن القوة التى تستطيع رفع جسم معين إلى ارتفاع معين تستطيع رفع جسم أثقل من الأول كالمرات إلى ارتفاع يقل عن الارتفاع الأول كالمرات . وحلل فى رسالة أخرى De ratione ponderis (لعل مؤلفها أحد

تلاميذه) فكرة قوة السكون - حاصل قوة ما في طول ذراع رافعها ،
واسبق الأفكار الحديثة في ميكانيكية الروافع والمستويات المائلة^(٤٦) .
وحاولت رسالة أخرى تعزى إلى « مدرسة چوردانس » أن تعبر عن نظرية
الإزاحة الافتراضية - وهى المبدأ الذى قدره فيما بعد ليوناردرو دافنشى ،
وديكارت ، وچون برنولى John Bernoulli وصاغه آخر الأمر ج .
ولارد چيز J. Willard Gibbs فى القرن التاسع عشر .

وأثر تقدم الميكانيكا فى الاختراع تأثيراً بسيطاً . من ذلك أن ربرت
الإنجليزى Robert of England عرض فى عام ١٢٧١ نظرية رقاص
الساعة عرضاً واضحاً ؛ وفى عام ١٢٨٨ نسمع عن ساعة كبيرة فى برج
بوسمنستر ، كما نسمع حوالى ذلك الوقت نفسه عن ساعات ضخمة
مثالها فى كنائس أخرى بالقارة الأوربية ، ولكننا لانجد دليلاً قاطعاً على أن
هذه الساعات كانت آلات ميكانيكية كاملة ؛ أما أول ذكر صريح لساعة
تدار بالبكرات ، والانتقال ، والتروس فيرجع تاريخه إلى عام ١٣٢٠^(٤٧)

وكان أكثر فروع علم الطبيعة نجاحاً فى ذلك الوقت هو علم البصريات ،
ذلك أن رسالة ابن الهيثم العربية التى ترجمت إلى اللغة اللاتينية قد فتحت
آفاقاً جديدة فى بلاد الغرب ؛ وقد تحدث ربرت جروسستى عن هذا العلم
فى مقال له عن قوس قزح نشر حوالى عام ١٢٣٠ عن فرع ثالث من فن
المنظور . . . لم يطرق بابها ولم يعرفه بيننا أحد حتى هذا الوقت ... (وهو)
يعرفنا كيف نجعل الأشياء الشديدة البعد عنا تبدو شديدة القرب منا ،
وكيف نجعل الأشياء الكبيرة القريبة تبدو جده صغيرة ، وكيف نجعل
الأشياء البعيدة تظهر بالحجم الذى نريده .

ويضيف إلى ذلك قوله إنه يمكن الوصول إلى هذه الأشياء العجيبة بتكسير
« شعاع الضوء » وذلك يجعله يمر خلال عدة أجسام شفافة ، أو عدسات مختلفة
التركيب . وافتن تلميذه روجر بيكن بهذه الآراء أيما افتتان . وبحث چون
بكهام ، وهو فى أغلب الظن تلميذ من تلاميذ جروسستى فى جامعة أكسفورد ،

في انعكاس الضوء ، وانكساره ، وتركيب العين في رسالة سماها *فن المنظور العام Perspetiva Communis* ؛ وإذا ذكرنا أن بكهام أصبح بعدئذ كبير أساقفة كنتربرى ، أدركنا مرة أخرى ما كان بين العلوم وكنيسة العصور الوسطى من وفاق .

وكان من نتائج هذه الدراسات في الضوء اختراع النظارات . فقد كانت المجاهر — النظارات المكبرة — معروفة لليونان الأقدمين^(٤٨) ، ولكن يبدو أن صنع هذه النظارات بحيث تجمع الأشعة جمعاً صحيحاً وهي قريبة من العين كان لا بد أن ينتظر البحوث التي تجرى في هندسة انكسار الضوء . وتوجد وثيقة صينية ترجع إلى تاريخ غير موثوق بصحته بين عامي ١٢٦٠ و ١٣٠٠ تتحدث عن نظارات تسميها آى تاى Ai tai يستطيع بها كبار السن أن يقرأوا الكتابة الدقيقة . وجاء في موعظة لراهب دومنيكى ألثاها في بيسانزا عام ١٣٠٥ : « منذ عشرين عاماً قبل هذا الوقت كشف فن صنع النظارات (أكشالي occhiali) التي تمكن الإنسان من أن يحسن القراءة ... ولقد تحدثت بنفسى إلى الرجل الذي كان أول من كشفها وصنعها » . وورد في خطاب مؤرخ عام ١٢٨٩ : « لقد تقدمت في السنون حتى أصبحت عاجزاً عن القراءة والكتابة بغير النظارات المسماة (أكشالي okial) التي اخترعت من وقت قريب » . ويعزى فضل اختراعها عادة إلى سلفينو دامارتو Salvino da Marto الذي كتب على شاهد قبره المصنوع في عام ١٣١٧ « مخترع النظارات » . وفي عام ١٣٠٥ أعلن طبيب من منبلييه أنه أعد غسيلة للعين يجعل الإنسان في غنى عن النظارات^(٤٩) .

وكانت قوة المغنطيس الجذابة معروفة هي الأخرى لليونان ، ويلوح أن الصينيين هم الذين كشفوا في القرن الأول الميلادى قدرته على تعيين الاتجاه . وتزو إحدى الروايات الصينية المتواترة إلى المسلمين أول استعمال للإبرة المغنطيسية في إرشاد السفن حوالى عام ١٠٩٣ . وأكبر الظن أن استعمالها كان واسع

الانتشار بين الملاحين المسلمين والمسيحيين قبل نهاية القرن الثاني عشر ؛ وترجع أقدم إشارة لهذا الاستعمال عند المسيحيين إلى عام ١٢٠٥ ، وعند المسلمين إلى عام ١٢٨٢^(٥٠) ، ولكن لعل الذين عرفوا هذا السر الثمين من زمن طويل لم يتعجلوا في إذاعته ؛ يضاف إلى هذا أن الملاحين الذين كانوا يفيدون من هذا الاختراع كانوا يُرتاب في أمرهم فيظن أنهم سحرة ، وبلغ من أمرهم أن بعض الملاحين رفضوا أن يسافروا مع أمير سفينة يحتفظ معه بهذه الآلة الشيطانية^(٥١) . ونجد أول وصف معروف ثبتت إبرة تتحرك على نقطة

ارتكاز في رسالته في المغنطيسية كتبها بطرس برجرينس Petrus Peregrinus في عام ١٢٦٩ . وقد سجل الحاج بطرس هذا كثيراً من التجارب ، ودعا إلى الطريقة التجريبية ، وأوضح فعل المغنطيس في جذب الحديد ، ومغنطة غيره من الأجسام ، وتعيين اتجاه الشمال ، وحاول كذلك أن يصنع آلة دائمة الحركة تعمل بمغنطيسات تولد بنفسها القوة اللازمة لتحريكها^(٥٢) .

وكانت البحوث في الكيمياء الكاذبة أكبر العوامل في تقدم علم الكيمياء ؛ فقد أخذت النصوص العربية في هذا العلم تترجم إلى اللغة اللاتينية من القرن التاسع وما بعده ، وما لبثت البحوث الخاصة بهذا النوع من الكيمياء أن انتشرت في بلاد الغرب حتى لم تخل منها الأديرة نفسها . فقد نشر الأخ إلياس خليفة القديس فرانسس كتاباً في الكيمياء القديمة طلبه إليه فردريك الثاني ؛ وكتب راهب فرنسي آخر يشايح فكرة تحويل المعادن بعضها إلى بعض ؛ وكان أشهر الكتب الطبية كلها في ذلك العهد كتاب في العلل يعرض الكيمياء القديمة والتنجيم كما وردا في كتاب مدسوس على أرسطو . وكان عدد من ملوك أوروبا يستخدمون الكيميائيين القدامى ليسدوا ما ينقص من أموال خزائهم بتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب^(٥٣) . وواصل غيرهم من المتحمسين البحث عن إكسير الحياة وحجر الفلاسفة . ولم تنقطع هذه البحوث

رغم أن الكنيسة حرمتها في عام ١٣٠٧ ووصفتها بأنها من البحوث الشيطانية ، ولعل بعض المؤلفين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أرادوا النجاة من غضب الكنيسة بأن عزوا مؤلفاتهم إلى « جبر » Gebir (*) المسلم .

وأضافت التجارب الطبية على العقاقير معلومات كثيرة إلى علم الكيمياء ، كما أن العمليات الخاصة بالصناعة كادت ترغم على الكشف إرغاماً ، وأفاد علم الكيمياء فوائد جمة من أعمال عصر الجعة ، وصنع مواد الصباغة ، والخزف ، والميناء ، والزجاج ، والغراء ، واللاك ، والمداد ، ومواد التجميل . وألف بطرس العمري Peter of St. Omer حوالى عام ١٢٧٠ كتاب صنع الألوان libier de coloribus fasciendis ، فيه ذكر لعدد من المواد الملونة المستخدمة في التصوير تصنف واحدة منها كيفية صنع ألوان زينية بخلط الألوان الملونة بزيث بذر الكتان (٥٤) . ونشرت حوالى عام ١١٥٠ رسالة تعرف باسم Salernus Magister - ربما كانت من رسائل مدرسة الطب في سلرنو - ذكر فيها تقطير الكحول ؛ وكان هذا أول ذكر صريح لهذه العملية المنتشرة في جميع أنحاء العالم في هذه الأيام . وكانت الأقطار التي تنزع العنب تقطر النبيذ وتسمى ما ينتج من تقطير هذا العصير ماء الحياة aqua vitae أو eau de vie أما بلاد الشمال ذات العنب القليل والبرد القارس فكانت تجد تقطير الحبوب أقل نفقة من تقطير العنب ؛ وكان لفظ يسكيثا uisqebeatha الكلتى الذى اختصر فصار وسكى whisky يعنى أيضاً « ماء الحياة » (٥٥) . على أن التقطير كان معروفاً عند الكيميائيين المسلمين قبل ذلك الوقت بزمان طويل ، غير أن استكشاف الكحول ثم استكشاف الأحماض المعدنية بعد ذلك في القرن الثالث عشر وسعا دائرة المعارف الكيميائية وآفاق الصناعة توسيعاً كبيراً .

(*) يريد جابر بن حيان الكيميائى الشهير . (المترجم)

ويكاد يضارع تقطير الكحول فيما له من آثار خطيرة استكشاف البارود . ويرتاب العلماء الآن فيما كان يظن قديماً من سبق الصينيين إلى هذا الاختراع . وليس في المخطوطات العربية ذكر صريح له قبل عام ١٣٠٠^(٥٦) . وكانت أول إشارة معروفة لهذه المادة المفرقة هي التي وردت في كتاب النيران لمحرق الأعداء الذي ألفه ماركس غريقس Marcus Graecus حوالي عام ١٢٧٠ ، فقد وصف مارك اليوناني النار اليونانية والتأاق الفصفوري ، ثم وصف طريقة عمل البارود فقال : حوّل إلى مسحوق دقيق - كلاً على انفراد - رطلا من الكبريت الحى ، ورطلين من الفحم النباتى المصنوع من شجر الليمون الحامض أو الصنصاف ، وستة أرطال من ملح البارود (نترات البوتاسيوم) ، ثم امزجها كلها^(٥٧) . ولم نعر على ذكر لاستخدام البارود في الأعمال الحربية قبل القرن الرابع عشر .

الفصل الخامس

إحياء علم الطب

يخلط الفقر على الدوام بين الأساطير والطب لأن الأساطير حرة لا تمنع لها والعلم غال عزيز المثال . والصورة الأساسية لطب العصور الوسطى هي صورة الأم ومخزنها الصغير من وسائل العلاج المنزلية ؛ والنساء المعجائز غزيرات العلم بالأعشاب واللاصوق ، والرقى السحرية ؛ وجامعى حشائش التطبيق يطوفون بها على الناس ، والعقاقير المحربة ذات الفائدة الأكيدة ، والحبوب ذات القوة المعجزة ؛ والقابلات المتأهبات على الدوام لفصل الحياة الجديدة عن القديمة فى عملية الولادة المخزية السخيفة ، والدجالين المتأهين لمداواة الناس أو قتلهم نظير أنفه الأجور ؛ والرهبان بما ورثوه من طب الأديرة ؛ والراهبات يواسين المرضى فى هدوء بما يقدمن لهم من خدمات أو دعوات صالحات ؛ والأطباء المدربين فى أماكن متفرقة يعالجون القادرين ويمارسون طبهم التأمم على أساس علمى إلى حد ما . وانتشرت العقاقير الغريبة المروعة والصبيغ السحرية العجيبة ؛ وكما أن بعض الحجارة إذا أمسكت باليد كانت فى رأى بعض الناس تمنع الحمل ، كذلك كانت بعض النسوة وبعض الرجال — حتى فى سلرنو مدينة الطب نفسها — يأكلون روث الحمير لتقوى قدرتهم على الإخصاب .

وظل بعض رجال الدين يمارسون الطب حتى عام ١١٣٩ ، وكل ما كان هناك من علاج فى المستشفيات كان يوجد عادة فى ملاجئ أديرة الرجال والنساء . وكان للرهبان فضل عظيم فى حفظ التراث الطبى من الضياع ؛ وهم الذين مهدوا السبيل لزراعة النباتات الطبية ، وربما كانوا يعرفون ما يفعلون وهم يخلطون الطب بالمعجزات : وحتى الراهبات أنفسهن كن فى بعض الأحيان يحذقن علاج

المرضى : فقد كتبت هيلديغاردي Hildegard المتصوفة رئيسة دير بنجن Bengin كتاباً في الطب العلاجي - وهو كتاب الملل والعلاج (حوائى عام ١١٥٠) - وكتاباً في المواد الطبية أفسدته في بعض مواضعه بالترقى السحرية ولكنه مليء بالمعلومات الطبية . وربما كانت الرغبة في القيام بالخدمة الطبية الدائمة من البواعث على التجاء الشيوخ من الرجال وانعجائز من النساء إلى الأديرة . ولما أن تقدم الطب الذي يمارسه غير رجال الدين . وسرى حب الكسب في الثائمين على العلاج في الأديرة ، حرمت الكنيسة في أوقات مختلفة (١١٣٠ ، ١٣٣٩ ، ١٦٦٣) على رجال الدين ممارسة الأعمال الطبية جهرة ، ولم يحل عام ١٢٠٠ حتى كاد هذا الفن القديم كله يصبح في أيدي غير رجال الدين .

ويرجع أكبر الفضل في بقاء الطب العلمى في بلاد الغرب أثناء العصور المظلمة إلى الأطباء اليهود ، الذين نشروا المعلومات الطبية اليونانية - العربية في بلاد العالم المسيحي . وذلك عن طريق الثقافة البيزنطية التي انتشرت في جنوبي إيطاليا وترجمة الرسائل الطبية اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية : وربما كانت مدرسة سلرنو الطبية قائمة في أحسن المواقع . وكانت أحسن المدارس استعداداً للإفادة من هذه الموثرات : فقد كان الأطباء اليونان ، واللاتين ، والمسلمون ، واليهود يعلمون أو يتعلمون فيها : وظلت حتى القرن الثاني عشر أكبر المعاهد الطبية في أوروبا اللاتينية . وكانت النساء يدرسن التمريض والقبالة في سلرنو^(٥٩) وأكثر الظن أن النساء اللاتي يسمين طبيبات سلرنو كن قابلات تدربن في تلك المدرسة . وكان من أشهر : أخرجته مدرسة سلرنو الطبية رسالة في التوليد نشرت في القرن الثاني عشر بعنوان : **ترنولا وعلاج أمراض النساء** ، وأكثر المؤرخين مجمعون على أن برتولا Trotula هذه كانت قابلة في سلرنو^(٦٠) ولقد وصلتنا من مدرسة سلرنو عدة رسائل هامة

تشمل فروع الطب كلها تقريباً ، منها رسالة لأرخماتئوس Archimatheus تصف حال الطبيب وهو واقف بجوار سرير المريض : يجب أن يتحلى الطبيب وهو ينظر إلى حال المريض بالرزانة ، حتى لا تقلل من مكانته خاتمة المريض السيئة ، وحتى يضيف شفاؤه عجيبة أخرى إلى ما اشتهر به من العجائب ؛ وعليه ألا يغازل زوجة المريض أو ابنته أو خادمتها ؛ وحتى إذا لم تكن ثمة ضرورة الدواء ما وجب عليه أن يصف له مركباً عديم الضرر ، حتى لا يظن المريض أن العلاج لا يساوى أجر الطبيب ، وحتى لا يظن أن الطبيعة هي التي شفت المريض دون معونة الطبيب (٦١) .

وحلت جامعة نابلي محل مدرسة سلرنو بعد عام ١٢٦٨ ، حتى لم نعد نسمع عن هذه المدرسة إلا الشيء القليل . وكان خريجوها قبل ذلك العام قد نشروا طب سلرنو في طول أوروبا وعرضها ، وكانت ثمة مدارس للطب صالحة في القرن الثالث عشر في بولونيا ، وبدوا ، وفرارا ، وبروجيا وسينا ، ورومة ومنبلييه ، وباريس ، وأكسفورد ؛ وامتزجت في هذه المدارس التقاليد الطبية الثلاثة الشهيرة — اليونانية ، والعربية ، واليهودية ، وامتصتها امتصاصاً تاماً ، وصيغ التراث الطبي كله صياغة جديدة حتى أصبح هو أساس علم الطب الحديث ، واحتفظ أسلوبا التشخيص القديمان — وهما فحص جدران الصدر بالمسمع وتحليل البول — بشهرتهما وكثرة استعمالهما (ولا يزالان يحتفظان بهما إلى يومنا هذا) . وبلغ من انتشارهما أن كانت المبولة رمز مهنة الطب أو دلالتها في بعض الأماكن (٦٢) . كذلك بقيت أساليب العلاج القديمة بالمسهلات والحجامة ؛ وكان الطبيب في إنجلترا « مركب علقى » . وكانت الحمامات الحارة من طرق العلاج المحببة . فكان المرضى يسافرون « ليأخذوا الماء » من العيون المعدنية . وكان الطبام الخاص بالمرضى بوصف وصفاً دقيقاً في الأمراض كلها تقريباً (٦٣) ، ولكن العقاقير الطبية كانت موفورة ، فقلما كان هناك عنصر من العناصر لا يستخدم في العلاج — من الأعشاب البحرية (الغنية باليود) التي وصفها روجر السلرنو عام ١١٨٠

لعلاج تضخم الغدة الدرقية إلى الذهب الذي كان يتعاطى « لتسكين آلام
لأطراف » (٦٤) — ويظهر أن هذه هي طريقتنا الحديثة لعلاج التهاب المفاصل .
ويكاد كل عضو من أعضاء الحيوان يكون له عمل في أقرب أذن العصور الوسطى —
قرون الغزال ، دماء التنين ، وصفراء الأفاعى ، ومنى الضفادع ، وكان
براز الحيوان يوصف في بعض الأوقات (٦٥) . وكان أكثر العقاقير استعمالاً هو
الترياك *theriacum* ، وهو مزيج غريب من نحو سبع وخمسين مادة أشهرها
لحم الأفاعى السامة . وكانت عقاقير كثيرة تستورد من بلاد الإسلام وظلت
محتفظة بأسمائها العروبية .

ولما ازداد عدد الأطباء المدرسين شرعت الحكومات تنظم صناعة الطب .
من ذلك أن روجر الثانى صاحب صقلية قصر مهنة الطب على الذين ترخص لهم
الدولة ، وأكبر الظن أنه حدا في ذلك حذو السوابق الإسلامية القديمة . وحتم
فرريك الثانى (١٢٢٤) على من يريد ممارسة هذه المهنة أن يحصل على
ترخيص بذلك من مدرسة سلرنو ؛ فإذا أراد إنسان أن يحصل عليها وجب
عليه أن يتلقى منهاجاً يدوم ثلاث سنين في العلوم المنطقية *Scientia logica* —
ونظن أن معنى هذا اللفظ العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ وكان عليه بعدئذ أن
يدرس الطب في المدرسة مدة خمس سنين ، وينجح في امتحانين ، ويتجرب .
عاماً تحت إشراف طبيب مجرب (٦٦) .

وكانت كل مدينة ذات شأن تدفع أجور الأطباء لعلاج الفقراء مجاناً (٦٧).
وكان في بعض المدن أطباء موظفون . من ذلك أنه كان في أسبانيا المسيحية في
القرن الثالث عشر طبيب تستأجره البلدية لاجتابة بقسم خاص من الأهلى ، فكان
يفحص في فترات محددة كل شخص في الإقليم المخصص له ؛ ويسلخ النصيحة له
حسب ما يكشف عنه الفحص . وكان يعالج الفقراء في مستشفى عام ، ويبيع

على زيارة كل مريض ثلاث مرات في الشهر ؛ وكان كل هذا يؤدي من غير أجر إلا إذا زار المريض أكثر من ثلاث مرات في الشهر ، فيصرح له في هذا الحال أن يطلب أجراً عن الزيارة التالية . وكان الطبيب الذي يؤدي هذه الخدمات يعفى من الضرائب ويتقاضى مرتباً سنوياً مقداره عشرون جنيتها (٦٨) قيمتها أربعة آلاف دولار في هذه الأيام (*) .

وإذا كان الأطباء المرخصون قليلي العدد في أوروبا المسيحية أثناء القرن الثالث عشر ، فقد كانت أجورهم عالية ، وكانت لهم منزلة اجتماعية سامية ؛ فمنهم من جمعوا ثروات طائلة ، ومنهم من أصبحوا من هواة جمع التحف الفنية ، ومنهم من كانت لهم شهرة عالمية . فمن هؤلاء الأطباء بطرس هسبانس . Petrus Hispanus - بطرس اللشبوني ولكمبستيلي Peter of Lis bon and Compostela - الذي هاجر إلى باريس ثم إلى سينا وكتب أوسع كتب الطب انتشاراً في العصور الوسطى وهو كتاب كنز الفقراء ، وخير بحث في علم النفس في تلك العصور وهو كتاب النفس De anima ؛ وصار بعدئذ البابا يوحنا الحادي والعشرين في عام ١٢٧٦ ، ثم قضى نحبه حين سقط عليه سقف في عام ١٢٧٧ . وكان أشهر طبيب مسيحي في ذلك الوقت هو آرند الفلانوفى (حوالى ١٢٣٥ - ١٣١١) . وقد ولد بالقرب من بلنسية وتعلم اللغات العربية ، والعبرية ، واليونانية ؛ ودرس الطب في نابلى ، وعلمه هو أو الفلاسفة الطبيعية في باريس ، ومنهلييه ، وبرشلونة ، ورومة ، وألف عدداً كبيراً من الكتب في الطب ؛ والكيمياء ، والتنجم ، والسحر ، واللاهوت ، وعصر النيئند ، وتفسير الأحلام . ولما عين طبيباً لجيمس الثانى ملك أرغونة أنذر الملك مراراً أنه إن لم يحم الفقراء من الأغنياء فإنه سوف يلقى فى الجحيم (٧٠) . وكان جيمس يحبه رغم هذا التحذير

(*) ولم يكن يحق للطبيب حسب قوانين القنوط الغربيين في أسبانيا أن يتقاضى أجراً إذا تولى مريضه (٦٩) .

ويرسله في كثير من البعثات الدبلوماسية . وهاله ما رآه في كثير من البلدان من البؤس والاستغلال ، فأضحى من أتباع يواقيم الفلورى Joachim of Flora وأعلن في رسائل يبعث بها إلى الأمراء والأخبار أن آثام الأقوياء وترف رجال الدين تديران بخراب العالم . ورمى الرجل بالسحر والإلحاد واتهم بأنه صنع باستخدام الكيمياء سبائك من الذهب لربرت ملك نابلي . وأدانته محكمة الكنيسة ولكن البابا بنيفاس الثامن أطلق سراحه ؛ ونجح في علاج البابا الشيخ من حصا في الكلى ، فأهداه البابا قصرأ في أنيانى . ثم أُنذر بنيفاس أنه إذا لم تصلح الكنيسة أحوالها ، فسيحل عليها غضب الله سريعا . وما لبث بنيفاس بعدئذ أن حلت به التوائب التي ذاعت أخبارها في طول البلاد وعرضها ومات من فرط اليأس . وظلت محكمة التفتيش تطارد آرند ولكن الملوك والبابوات كانوا يدافعون عنه لأنه يداوى أسقامهم ، إلى أن مات غريقا أثناء بعثة من قبل جيمس الثانى لالكلمنت الخامس (٧١) .

هذا من حيث الطب ، أما الجراحة في ذلك الوقت فقد كانت تحارب في جبهتين إحداهما الخلائق والثانية ضد المطبيين العموميين . فقد كان الخلافةون من زمن بعيد يعطون الحقن ، ويخضعون الأسنان ، ويعالجون الجروح ، ويحجمون . وكان الجراحون الذين تلقوا تدريبا طبيا يحتجون على أداء هذه الخدمات التي تستخدم فيها القوة العضلية ، ولكن القانون ظل يحمى الخلافةين طوال العصور المظلمة كلها ، حتى لقد ظل من واجبات جراحي الجيش في بروسيا إلى عهد فردريك الأكبر أن يخلقوا ذقون الضباط (٧٢) . وكان من نتائج هذا الخلط في الواجبات أن ظل الجراحون أقل منزلة من الأطباء في العلم وفي نظر المجتمع ، فكان ينظر إليهم على أنهم صنائع بسطاء يطيعون أوامر الطبيب الذي كان قبل القرن الثالث عشر يستتكف أن يمارس الجراحة بنفسه (٧٣) . وكان مما يثبط هم الجراحين زيادة على هذا خشيتهم من السجن أو الموت إذا أخفقوا في أعمالهم ؛

كان واسع الانتشار عند الأطباء المسلمين ، لأن جروح المشرط أضمن من النار شفاء ولا تترك من الأثر في الجسم مثل ما تتركه النار . وقال ولیم في رسالة عامة إن سبب تضخم الغدة اللمفاوية والقرحة الزهرية هو الاتصال الجنسي بعاهر مصابة بالمرضين ، ووصف داء الاستسقاء وصفاً دقيقاً وقال إنه ينشأ من تحجر الكليتين وضيقهما ، وأسدى نصائح طبية ممتازة للصحة والتغذية لكل من في حياة الإنسان .

ونقل تلميذاه هنرى المندفيلي Henri de Mondeville (١٢٦٠ - ١٣٢٠) وجيدو لانفرانشي Guido Lanfranchi (المتوفى عام ١٣١٥) المعارف الطبية من بولونيا إلى فرنسا . وعمل المندفيلي ماعمله تيودوريكو فحسن طرق التعقيم بأن دعا إلى العودة إلى طريقة إبقراط وهي الاحتفاظ بالجرح نظيفاً بأبسط الوسائل . ولما نفي لانفرانشي من ميلان في عام ١٢٩٠ انتقل إلى ليون وباريس ، وألف كتاب التشريح الكبير *Chirurgia Magna* الذى أصبح المرجع المعتمد في هذا العلم في جامعة باريس . وقد وضع لانفرانشي مبدأً بفضله أنقذ علم التشريح من الوسائل الممجة وهو : « ليس في وسع إنسان أن يكون طبيباً قديراً إذا كان يجهل علم التشريح ، وليس في مقدور إنسان ما أن يجرى جراحات ناجحة إذا كان يجهل الطب » . وكان لانفرانشي أول من استخدم تشريح الأعصاب لعلاج التشنوس ، وإدخال أمبومية في المرىء ، وهو أول من أدلى بالوصف الجراحي لارتجاج المخ . وقصارى القول أن الفصل الذى وصف فيه إصابات الرأس من المعالم البارزة في تاريخ الطب .

وقد وزد ذكر الجراحات المنومة في كتب أريجن Origen (١٨٥-٢٥٤) وهيلارى أسقف بواتيه Hilary Bishop of Poitiers (حوالى ٣٥٣) . وكانت طريقة التخدير المألوفة في العالم المسيحي أثناء العصور الوسطى هي طريقة

الاستنشاق مصحوبة في أغلب الظن بشرب مزيج أساسه المندرغورة(*) ،
 ومحتو في للعادة على الأفيون وعصير الشوكران ، والتوت . وقد ورد ذكر
 هذه « الإسفةنجة المنومة » في القرن التاسع وما بعده (٧٨) . أما التخدير
 الموضوعي فكان يستعان عليه بضمادة غمست في محلول شبيه بهذا : وكان
 المريض يوقظ بثشميمه عصير الشمر . ولم تكن أدوات الجراحة وقتئذ قد
 تقدمت عما كانت عليه عند اليونان الأقدمين ؛ أما فن التوليد فقد انحط عما كان
 عليه في عهد سورانس Soranus (عام ١١٠ م) وبولس الإيجيني
 Paul of Aegina (حوالى ٢٤٠ م) . وقد ذكرت العملية القيصرية(**)
 في الأدب ولكن يبدو أنها لم يكن يلجأ إليها . وكان تقطيع الجنين عند
 تعسر الولادة لتخليصه من الرحم يلجأ إليه في كثير من الأحيان لأن القابلة
 قلما كانت تعرف كيف تغير وضع الجنين . وكانت الولادة تحدث في كرسى
 يعد لهذا الغرض خاصة (٧٩) .

وتقدمت المستشفيات وقتئذ عما عرف عنها في أى عصر من العصور القديمة
 فقد كان عند اليونان الأقدمين مؤسسات دينية لعلاج المرضى ؛ وأنشأ
 الرومان مستشفيات لعلاج جنودهم ، ولكن نظم الصدقات المسيحية كانت
 هى السبب في تقدم نظام المستشفيات تقدماً كبيراً . وحسبنا أن نذكر عن هذا
 التقدم أن القديس باسيلي أسس في مدينة قيصرية من أعمال كبادوكيا داراً سميت
 بالباسيلياس نسبة إليه ، كان فيها عدة مباني للمرضى ، والممرضات ،
 والأطباء ، والمصانع ، والمدارس . وافتتح القديس إفرام Ephraim
 مستشفى في الرها عام ٣٧٥ ؛ وأنشئت مستشفيات أخرى في جميع أنحاء
 الشرق اليوناني وتخصصت وتنوعت . وكان عند اليونان البيزنطيين مصحات
 للمرضى ؛ وملاجئ للقطاء ، وأخرى لليتامى ، وملاجئ للفقراء .

(*) وتسمى البيروج وهى نبات من الفصيلة الباذنجانية معروف في العالم القديم شبيه
 بصورة الإنسان (من قاموس الدكتور شرف) . (المترجم)
 (**) وهى تقليب الجنين بشق البطن بدون استئصال الرحم . (المترجم)

وغيرها للفقراء أو العاجزين من الحجاج أو للشيخ الطاعنين في السن . وقد أسست فايبرلا Fabiola في رومة عام ٤٠٠ أول مستشفى في البلاد المسيحية اللاتينية . وأنشأت أديرة كثيرة مستشفيات صغيرة ، وقام عدد من الرهبان — رهبان المستشفيات ، ورهبان المعبد ، والأنطونيين ، والألكسيين Alexians ، — والراهبات بالعناية بالمرضى . ونظم إنوسنت الثالث في رومة عام ١٢٠٤ مستشفى الروح القدس Santo Spirit ، وقامت بوحى منه مؤسسات من نوعه في جميع أنحاء أوربا ، فكان في ألمانيا وحدها في القرن الثالث عشر أكثر من مائة من « مستشفيات الروح القدس » . وكانت المستشفيات في فرنسا تعنى بالفقراء ، والطاعنين في السن ، والحجاج ، كما تعنى بالمرضى ، وكانت كمؤسسات الأديرة تستضيف هذه الطوائف ؛ وأنشأ لويس التاسع حوالي عام ١٢٦٠ ملجأ في باريس يدعى *les quize-vingt* ؛ وكان في بادئ الأمر مأوى للمكفوفين ، ثم أضحى مستشفى للرمم ، وهو الآن من أهم المراكز الطبية في باريس ؛ وأنشئ أول المستشفيات الإنجليزية المعروفة في التاريخ . ليس من الضروري أن يكون أول ما أنشئ منها في إنجلترا) بكنزبري عام ١٠٨٤ . وكانت هذه المستشفيات تقوم في العادة بأداء الخدمات بالمجان لمن يعجزون عن أداء الأجر ، وكانت ممرضاتها (ما عدا مستشفيات أديرة الرجال) من الراهبات . واتخذت الأثواب التي ترتديها « ملائكة الرحمة ورسلها » ، وهي التي تبدو في نظرنا مرهقة لمن ، في القرن الثالث عشر ، وأكبر الظن أنها اتخذت هذا الشكل لحماية من الأمراض المعدية ؛ ولهذا السبب عينه جرت عادة قص الشعر ونغطية الرأس (٨٠) .

وتطلب مريضان معينان اتخاذ وسائل خاصة للوقاية ، وهذان المرضان هما « نار القديس أنطونيوس » وهو وباء جالدي — لعله مرض الحمرة — وهو مرض بلغ من خبثه أن تألفت حوالي عام ١٠٩٥ طائفة من الرهبان هي جماعة

الأنطونيين لمعالجة ضحاياهم . ويذكر جريجورى التورى Gregory of Tours (حوالى عام ٥٦٠) مستشفيات الجذام ؛ ونألفت جماعة القديس لازار St. Lazarus من الرهبان للخدمة فى مستشفيات الجذام . وكانت أمراض ثمانية تعد من الأمراض المعدية : وهى الطاعون الدملى ؛ والتدن الرئوى ، والصرع ، والجرب ، والحمرة ، والبثرة الخبيثة ، والرمد الحبيبي ، والجذام . وكان يحرم على المصاب بأحد هذه الأمراض أن يدخل مدينة إلا معزولا عن غيره ، أو أن يعمل فى بيع الطعام أو الشراب . وكان يفرض على المجدوم أن يحذر الناس من اقترابه بالنفخ فى قرن أو بندق ناقوس . وكان مرضه يبدو عادة فى شكل طفح صديدى على الوجه والجسم . وليس هذا المرض شديد العدوى ، ولكن أكبر الظن أن ولاية الأمور فى العصور الوسطى كانوا يخشون انتشاره بطريق الجماع . وربما كان هذا اللفظ يشمل فيما يشمله ، ما يعرف الآن عند الأطباء بأنه مرض الزهري ، ولكننا لانجد إشارة صريحة لهذا الداء قبل القرن الخامس عشر^(٨١) . ويبدو أنه لم تتخذ أية وسيلة خاصة لعلاج المصابين بأمراض عقلية قبل القرن الخامس عشر .

وعانت العصور الوسطى من فتك الأوبئة أكثر مما عاناه أى عصر آخر معروف ، وذلك لأن الفقر كان يحول بين أهلها وبين النظافة أو الغذاء الصالح ، ومن أمثلة ذلك « الوباء الأصفر » الذى اجتاج أيرلندة فى عامى ٥٥٠ و٦٦٤ وأهلك كما تقول الأخبار غير الموثوق بصحتها ثلثي الأهلين^(٨٢) . واجتاحت أوبئة مثله بلاد ويلز فى القرن السادس ، وإنجلترا فى القرن السابع . وفشا فى فرنسا وألمانيا فى أعوام ٩٩٤ ، ١٠٤٣ ، ١٠٨٩ ، ١١٣٠ وباء يسميه الفرنسيون mal des ardents (وباء الاحتراق) وقد وصف بأنه يحرق الأمعاء . وربما كان الصليبيون هم الذين نشروا وباءى الجذام والأمعقربوط ، ويبدو أن مرض التئى البولندى Plica Polonica —

وهو مرض من أمراض الشعر - قد جاء به الغزاة المغول إلى بولندة حين غزوها في عام ١٢٨٧ هـ وكان السكان البائسون يعززون هذه الأوبئة للقحط ، والجذب وجيوش الحشرات ، وتأثير النجوم ، وتسميم اليهود لآبار المياه ، أو غضب الإله . وأقرب من هذه الأسباب إلى العقل ازدحام المدن الصغيرة المسورة بالسكان ، وعدم وجود الاحتياطات الصحية أو مراعاة قواعدها ، وما ينشأ عن ذلك من ضعف مقاومة الأهليين للعدوى التي يحملها الجنود والحجاج والطلاب العائدون إلى أوطانهم^(٨٣) . وليست لدينا إحصاءات عن عدد الموتى في العصور الوسطى ولكن أكبر الظن أن الذين كانوا يصلون إلى سن النضوج لم يزيدوا على نصف المواليد ، وكانت خصوبة النساء تعمل جاهدة للتكفير عن غياب الرجال وبسالة الجنود .

وتحسنت وسائل المحافظة على الصحة العامة في القرن الثالث عشر . ولكنها لم تبلغ قط في العصور الوسطى الدرجة الممتازة التي بلغت أيام الإمبراطورية الرومانية . وكانت معظم المدن ، وأحياء المدن ، تعين موظفين للعناية بشوارعها^(٨٤) ، ولكن أعمال هؤلاء الموظفين كانت بدائية ، وكان من يزورون المدن المسيحية من المسلمين يشكون - كما يشكون من يزورون المدن الإسلامية من المسيحيين في هذه الأيام - من قذارة « مدن الكفار » ورأحتها الكريمة^(٨٥) . فقد كانت الفضلات وأقذار البالوعات تجري فوق البالوعات في شوارع كبردج التي تبلغ الآن درجة كبرى من الجمال والنظافة ، وكانت تنبعث منها « روائح كريهة يعرض منها الكثيرون من المدرسين والطلاب »^(٨٦) . وكانت لبعض المدن في القرن الثالث عشر قنوات مغطاة لنقل ماء الشرب ، وبالوعات ، ومراحيض عامة ؛ وكانت الأمطار هي التي يعتمد عليها في معظم المدن لاكتساح الأقذار ، وكان تدنيس الآبار ينشر وباء التيفود ؛ وكانت المياه التي تستعمل في عمل الخبز وعصر الخمر تؤخذ عادة - في البلاد الواقعة في

شمال الألب - من الحجارى المائية التى تتلقى أقذار المدن^(٨٧) . وكانت إيطاليا أكثر رقياً من غيرها من البلدان ، وأكبر السبب فى هذا ما ورثته عن الرومان ، وما سببه فردريك الثانى ، من تشريعات مستنيرة لإزالة الأقدار ، ولكن عدوى الملاريا الناشئة من المستنقعات المحيطة بها جعلت رومة مدينة غير صحية ، قتلت كثيرين من كبار موظفيها وزائريها ، وأنجحت المدينة بين الفينة والفينة من الجيوش المعادية التى استسلمت للحمى وسط انتصاراتها .

الفصل السادس

ألبرتس مجنس ١١٩٣ - ١٢٨٠

تبرز أمامنا في تلك الفترة من الزمان أسماء ثلاثة رجال، وهبوا أنفسهم للعلم : أدلارد الباثي Adelard of Bath ، وألبرت العظيم ، وروجر بيكن . فأما أدلارد فقد تلقى العلم في كثير من الأقطار الإسلامية ثم عاد إلى إنجلترا وكتب (حوالي عام ١١٣٠) حزاراً طويلاً سماه *الأسئلة الطبيعية* يشمل كثيراً من العلوم . ويبدأ الكتاب على الطريقة الأفلاطونية بوصف اجتماع أدلارد بجماعة من أصدقائه ، ويسألهم عن الحالة في إنجلترا ، فيجيبونه بأن الملوك يشعلون نيران الحروب ، والقضاة يرتشون ، وكبار رجال الدين يسرفون في شرب الخمر ، وأن اليهود جميعها تنكث ، والأصدقاء كلهم يتحاسدون . ويتقبل أدلارد هذا على أنه هو الحال الطبيعية التي لا تقبل التغير ، ويعرض على أصدقائه أن ينسوها . ويسأل ابن أخ لأدلارد عمه ماذا تعلم في بلاد المسلمين ؟ فيجيبه بأنه يفضل علوم المسلمين عن علوم المسيحيين ، فيتحداه أصدقاؤه وتكون أجوبته لهم مختارات طريفة من جميع علوم ذلك العصر . ويندد فيها بما تفرضه التقاليد والسلطات من قيود ثقيلة ويقول : لقد تعلمت عن أساتذتي العرب أن أسترشد بالعقل ، أما أنتم يا من أسرتكم ... السلطات ، فإنكم تسيرون إلى حيث يقودكم المقود والزام . . . وماذا عسى أن تسمى السلطة غير المقود والزام ؟ » إن الذين يحسبون الآن من أصحاب السلطان إنما حصلوا على سلطانهم باتباع العقل ، لا السلطات . ثم يقول لابن أخيه : « فإذا شئت إذن أن تسمع مني أكثر مما سمعت فأعط العقل وخذه . . . إذ ليس شيء أكثر ضماناً من العقل . . . وليس شيء أكثر كذباً

من الحواس» (٨٨) . ويدل أدلارد ببعض الأجوبة الطريفة وإن كان يسرف في اعتماده على المنطق الاستدلالي . فإذا سئل ما الذى يمسك الأرض في الفضاء. أجاب بأن أسفل الأرض ومركزها شيء واحد ؛ ويسأل إلى أى مدى يسقط الحجر إذا أُلقي في ثقب يخترق مركز الأرض إلى الجانب الآخر منها ؟ فيجيب بأنه لا يصل إلا إلى مركز الأرض . وهو يذكر في وضوح مبدأ عدم فناء المادة ، ويقول إن مبدأ الاستمرار العالمى يجعل وجود الفراغ مستحيلا . وجملة القول أن أدلارد برهان ساطع على يقظة العقل في أوروبا المسيحية أثناء القرن الثانى عشر . فقد كان شديد التحمس لإمكانات العلوم ، ويسمى في زهو وخيلاء عصره أى عصر أدلارد بالعصر الحديث^(٨٩) ، وأعلى ما وصل إليه التاريخ كله .

أما ألبرتس مجنس فلم تبلغ روحه العلمية ما بلغته روح أدلارد ، ولكن شغفه بمعرفة حقائق الكون أدى به إلى إنتاج ضخيم أكسبه اسم « العظيم » . واتخذت معظم مؤلفاته العلمية ، كما اتخذت معظم مؤلفاته الفلسفية ، صورة شروح لرسائل أرسطو المقابلة لها ، ولكنها تحتوى من حين إلى حين سمات جديدة من الملاحظات المبتكرة ، وتتاح له وسط سحب المقتبسات المنقولة عن المؤلفين اليونان ، والعرب واليهود فرص ينظر فيها إلى الطبيعة بنفسه . وقد زار معامل التجارب ، والمناجم ، ودرس كثيراً من المعادن المتنوعة ، وفحص عن حيوان بلاده الأصلية - ألمانيا - ونباتها ، ولاحظ حلول البحر محل الأرض والأرض محل البحر ، وفسر بذلك وجود الحفريات القديمة في الصخور . وإذا كانت فلسفته قد طغت على علمه فحالت بينه وبين الدقة العلمية ، فقد ترك نظرياته « القَبَليّة »^(٩٠) تؤثر في نظرياته العلمية ، مثال ذلك ادعاؤه أنه رأى شعر الخيل يتحول في الماء إلى ديدان . ولكنه كان مثل أدلارد يرفض تفسير الظواهر الطبيعية بأنها تحدث

(*) النظريات القبليّة هي التي تكون في عقل الباحث قبل أن يثبتها بالأدلة الاستقرائية .

مبعأ لإرادة الله ، ويقول إن الله يعمل وفق علل طبيعية ، وإن من واجب الإنسان أن يبحث عن الله في هذه العلل نفسها .

وقد طمست ثقته بأرسطو رأيه في التجارب العلمية . وإنا لنشير عقولنا فقرة شهيرة في الكتاب العاشر من مؤلفه De vegetabilis يقول فيها : « إن التجربة وحدها هي التي توصل إلى الحقائق المؤكدة Experimentum solum Certificat » ولكن كلمة تجربة experimentum كان لها وقتئذ معنى أوسع من معناها في هذه الأيام كما يبدو ذلك من سياق هذه الفقرة : « إن كل ما هو مدون هنا إما ثمرة تجربتنا أو مأخوذ من مؤلفين نعلم أنهم قد كتبوا ما أيدهم تجربتهم الشخصية ، لأن التجربة وحدها هي التي توصل إلى الحقائق المؤكدة » . ومع هذا كله فقد كان عمل ألبرتس تقدماً سليماً عظيماً النفع . ويسخر ألبرتس من المخلوقات الأسطورية أمثال الحيوان الذي نصفه أسد ونصفه نسر ؛ والهولة المفترسة القدرة التي لها جسم امرأة ، وجناحا الطير الخارج ومخالبه وقدماه ، والتي هي رسول انتقام الآلهة ، والخرافات . وقصص الحيوانات الخرافية الواردة في أحد الكتب الواسعة الانتشار في ذلك الوقت وهو كتاب Physiologus ؛ ويذكر فيما يذكره أن « الفلاسفة يذكرون كثيراً من الأكاذيب » (٩٠) . وكان في بعض الأحيان - ولا نقول في أغلب الأحيان - يجرى تجارب ، كما حدث حين أثبت هو ورفاقه أن « زير الحبيسة » (Cicada) ظل يغني لحظة وجيزة بعد أن قطع رأسه . ولكنه كان يثق بأقوال بلاني ثقة الإنسان البريء بأولياء الله الصالحين ، ويصدق تصديق السذج البلهاء القصص التي يرويها الكذابين من صائدي الوحوش والسماك .

وقد خضع لزمانه حين آمن بالتنجيم ، ويعلم بالغيب وعزاقوى عجيبة للجواهر والأحجار ، ويدعى أنه شاهد بعينه يا قوتة زرقاء شفت قرحاً . وهو يرى ، كما يرى تومس الواثق من نفسه ، أن السحرة من الحقائق المؤكدة ، وأنه من فعل

العفاريات ، ويؤمن بأن الأحلام تنبئ أحياناً بالحوادث المستقبلية ، ويقول : « إن النجوم في الحقيقة هي التي تحكم العالم » في الأحوال الجسمية ، وأن اقتران الكواكب يفسر في أغلب الظن « أحداثاً خطيرة وأعاجيب عظيمة » ، وأن المذنبات قد تنذر بالحروب وموت الملوك : « إن في الإنسان مصدراً مزدوجاً للعمل - الفطرة والإرادة ؛ فأما فطرته فتحكمها النجوم ، وأما الإرادة فحررة ؛ لكن الإرادة إذا لم تقاوم ، اكتسحتها الفطرة » . ويعتقد أن في وسع المنجمين القادرين أن يتنبؤوا إلى حد كبير بما سوف يحدث للإنسان في حياته ، أو بنتيجة ما سوف يقدم عليه من المشروعات ؛ وذلك بالنظر في مواقع النجوم . وهو يقبل ببعض التحفظ نظرية الكيميائيين القدامى ، (أو المذهب النووي الحديث) القائل بتحول العناصر بعضها إلى بعض (٩٢) .

وكان أحسن ما عمله في علم النبات . فقد كان أول عالم في النبات من أيام ثيوفراستس (على قدر ما وصل إليه علمنا) يدرس النبات للعلم بالنبات لا لفائده في الزراعة أو الطب . وقد صنف النباتات ، ووصف ألوانها ، ورائحتها ، وأجزاءها ، وثمارها ، ودرس قوة إحساسها ، ونومها ، وتذكيرها وتأنيثها ، ونموها ، وحاول أن يكتب مقالا في الفلاحة . وقد دهش همبولدت Humboldt إذ وجد في كتاب النبات لألبرت : « ملاحظات غاية في الدقة عن التركيب العضوي للنبات وعن وظائف أعضائه » (٩٣) . وأما كتابه الضخم في الحيوان فمعظمه شرح لأرسطو ، ولكننا نجد فيه أيضاً ملاحظات أصيلة . فهو يحدثنا مثلاً بأنه « سافر في بحر الشمال للقيام ببعض أبحاثه » ، وبأنه نزل في الجزائر ، وعلى الشواطئ الرملية ليجمع « نماذج للدرس » (٩٤) وقد وازن بين الأعضاء المتماثلة في الحيوان والإنسان (٩٥) .

وذا ما نظرنا إلى هذه الكتب في ضوء علمنا الحاضر حكمنا على أن فيها كثيراً من الأغلاط ، ولكننا إذا نظرنا إليها في ضوء ما كانت عليه عقول الناس في الزمن الذي ألفت فيه حكمنا بأنها من أعظم ما أثمرته العقول في العصور

الوسطى . فقد كان الناس في ذلك الوقت يعترفون بأن ألبرت أعظم المعلمين في زمانه ، ولقد طال به العمر حتى رأى رجالا من طراز بطرس الأسباني Peter of Spain ، وفنسنت البوفيزي اللذين ماتا قبله ينقلون عنه في مؤلفاتهم . نعم إنه لم يكن في مقدوره أن يضارع ابن سينا أو ابن ميمون أو تومس في دقة الحكم وصدقه أو في قبضته على ناصية الفلسفة ، ولكنه كان أعظم علماء التاريخ الطبيعي في زمانه .

الفصل السابع

روجر بيكن - حوالى عام ١٢١٤ - ١٢٩٢

ولد أشهر علماء العصور الوسطى فى سمرست حوالى عام ١٢١٤ ، ونحن على يقين من أنه عاش حتى عام ١٢٩٢ ، وأنه قال عن نفسه فى عام ١٢٦٧ إنه شيخ كبير (٩٦) . ودرس فى أكسفورد على جروستسى وكسب من هذا العالم المحيط بشتى الفنون افتناناً بالعلم . وكانت الروح الإنجليزية ، روح النفعية والاعتماد على الاختبار ، قد أخذت تتشكل . وسافر بيكن إلى باريس حوالى عام ١٢٤٠ ، ولكنه لم يجد فيها الحافز القوى الذى بعثه فيه أكسفورد ، وأدهشه كثيراً أن لم يجد إلا قلة ضئيلة من أساتذة جامعة باريس تعرف لغة من لغات العلم خلاف اللغة اللاتينية ، وأنهم لا يولون العلم إلا قدرأ ضئيلاً من وقتهم ، وأنهم ينفقون الكثير منه فى الجدل المنطقى والميتافيزيقى وهو الذى كان يبدو لبيكن عديم النفع فى الحياة إلى حد الإجماع . ودرس الطب وشرع يكتب رسالة فى تخفيف متاعب الشيخوخة . وسعى للحصول على ما يلزمه من المعلومات لهذه الرسالة بالدفر إلى إيطاليا ؛ ودرس اللغة اليونانية فى بلاد اليونان الكبرى (*) ، وفيها عرف بعض المؤلفات الطبية الإسلامية ، ثم عاد إلى أكسفورد فى عام ١٢٥١ ، وانضم إلى هيئة التدريس فى تلك الجامعة ، وكتب فى عام ١٢٦٧ يقول إنه أنفق فى العشرين السنة السابقة على ذلك العام أثنى جنيه فى شراء « الكتب السرية والآلات » وفى تعليم الشبان اللغات والعلوم الرياضية (٩٧) . واستأجر اليهود ليعلموه هو وطلابه اللغة العبرية وليعاونوه على قراءة العهد القديم بلغته الأصلية .

(.) انظر اليونان فى الزمن القديم يطلعون هذا لاسم على جنوب إيطاليا . (المترجم)

وانضم إلى طائفة الرهبان الفرنسيين حوالى عام ١٢٥٥ ، ولكن يبدو أنه لم يصبح في يوم من الأيام قسا .

وعافت نفس بيكن ميتافيزيقية المدرسين ، فألقى بنفسه بحماسة بالغة في تيار العلوم الرياضية ، والتاريخ الطبيعى ، والفلسفة . وليس من حقنا أن نفكر فيه على أنه مبتكر قد ، وصوت عالمى يدوى في ببداء الفلسفة المدرسية ؛ لأن الواقع أنه كان في كل ميدان مديناً لمن سبقوه ؛ وأن ما وهب من القدرة على الابتداع كان هو الذروة المحتموة لتطور طويل المدى . ولقد وضع ألكسندر نكهام ، وبارثلميو الإنجليزى Bartholomew the Englishman ، وربرت جروستستى ، وآدم مارش Adam Marsh في أكسفورد تقاليد علمية ثابتة ، ورثها بيكن ، وأعلنها إلى العالم ؛ وكان يعترف بفضل أولئك السابقين عليه ويثنى عليهم ثناء لا حد له : وكان يعترف كذلك بما للعلوم والفلسفة الإسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحى كله ، وبما هو مدين لليونان عن طريق العلماء المسلمين ؛ وأشار إلى أن علماء اليونان والمسلمين « الكفرة » كانوا هم أيضاً ممن تلقوا الوحي والهداية من الله (٩٨) . وكان يحل لإسحق لإسرايلى ، وابن جبيرول وغيرهما من المفكرين العبرانيين ، ووجد في نفسه من الشجاعة ما يمكنه من أن يقول كلمة طيبة عن اليهود الذين كانوا يقيمون في فلسطين حينما صلب المسيح (٩٩) . ولم يكن يأخذ العلم بنهم عن العلماء وحدهم ، بل كان يأخذه أيضاً عن أى إنسان تستطيع معارفه في الصناعات اليدوية أو الأعمال الزراعية أن تزيد ما لديه من معلومات . وكتب في هذا المعنى بتواضع لا عهد لنا به :

لأريب فى أن إنساناً ما لن يستطيع ، قبل أن يرى الله وجهاً لوجه ، أن يعرف شيئاً مؤكداً تأكيداً نهائياً ... لأنه لا يوجد إنسان ملم بجميع أحوال الطبيعة إلا ما يمكنه من أن يعرف كل شىء .. عن طبيعة ذبابة واحدة وخواصها .. وإذا كانت الأشياء التى يجهلها الإنسان لا حصر لها ؛ وكانت أعظم وأجمل إذا

قيست إلى ما يعرفه منها ، فإن من يمتدح نفسه بكثرة ما يعرفه ، مخبول قد اختلت موازين عقله . وكلما زاد الناس حكمة ، كانوا أكثر تواضعاً واستعداداً لتلقى العلم من غيرهم ؛ وهؤلاء لا يحتقرون من يأخذون عنه لسداجته ، ولكنهم يظهرون التواضع للفلاحين ، وللعجائز من النساء وللأطفال ، لأن السذج وغير المتعلمين يعرفون أشياء كثيرة تخفى على الحكماء ولقد عرفت أنا نفسى من أناس ذوى مكانة وضعية حقائق أكثر أهمية من التى عرفتها من جملة العلماء الذائعى الصيت . فليحذر كل إنسان إذن أن يفاخر بما أوتي من حكمة (١٠٠) .

واندفع فى العمل بجهد وسرعة أثرتا فى صحته حتى اعتل جسمه فى عام ١٢٥٦ ، فانسحب من الحياة الجامعية ولم نعد نعرف عنه شيئاً فى العشر السنين التالية . وأكبر الظن أنه ألف فى هذه الفترة بعض كتبه الصغيرة أمثال : فى المعربات المخرقة وفى قرى الاختراع والطبيعة العجيبة ، وتقدير الحوادث الطبيعية . ووضع فى هذا الوقت خطه « الكتاب الرئيسى » وهو موسوعة من عمل رجل واحد أراد أن تكون فى أربعة مجلدات : (١) النحو والمنطق . (٢) الرياضة ، والهيئة ، والموسيقى . (٣) العلوم الطبيعية — البصريات ، والجغرافية ، والتنجم ، والكيمياء القديمة ، والزراعة ، والطب ، والعلوم التجريبية . (٤) ما وراء الطبيعة والأخلاق .

وبعد أن كتب أجزاء متفرقة من هذه الموسوعة وافته فرصة خيل إليه أنها فرصة سميدة ، فحالت بينه وبين لإنجاء برنامجه . ذلك أن جاي فولك Guy Foulques كبير أساقفة نربونة ارتقى عرش البابوية فى شهر فبراير من عام ١٢٦٥ وتسمى باسم كلمنت الرابع ، وجاء معه إلى البابوية ببعض الروح الحرة التى نشأت فى جنوبى فرنسا من اختلاط الشعوب والعقائد الدينية . وكتب إلى ييكن فى اشهر يونية يأمره بإرسال « تسخة مبيضة » من مؤلفاته « سرأ وعاجلا »

و « دون مبالاة بتحريم أى رئيس دينى ، أو لائحة الطائفة التى تنتمى إليها » (١٠١) .
وشرع بيبكن بكل ما فى وسعه من جهد (كما يتبين ذلك من أسلوبه الحماسى)
يعمل ليتم موسوعته ؛ ولكنه خشى أن يتوفى كلمنت أو يفقد اهتمامه بالعمل
قبل تمامه ، فأجله ، وألف فى اثنى عشر شهراً — أوجع من مخطوطاته —
الرسالة الأولية المعروفة لنا باسم الكتاب الأكبر Opus Maius ، وظن أن
هذا المؤلف نفسه قد يكون أطول مما يريده البابا الكثير المشاغل فكتب
عناصر منه سماها الكتاب الأصغر ؛ وأرسل هذين المخطوطين فى أوائل عام
١٢٦٨ إلى كلمنت ومعها مقال عن تضاعف الرؤية . وخشى أن تضيع هذه
فى طريقها إلى البابا فكتب خلاصة أخرى لآرائه هى الكتاب الرابع وأرسلها
إلى كلمنت مع رسول خاص ، مصحوبة بعنونة ، وأشار على البابا أن يجرى
بها تجارب بنفسه . وتوفى كلمنت فى شهر نوفمبر من عام ١٢٦٨ . ومبلغ علمنا
أن كلمة واحدة لم ترسل إلى الفيلسوف من البابا نفسه أو من جاءوا بعده
اعترافاً منه أو منهم بوصول هذه الكتب .

فالكتاب الأكبر إذن هو عندنا « أكبر مؤلفات » بيبكن ، وإن كان
هو لم يردده إلا أن يكون فاتحة لمؤلفاته . وهو كتاب ضخم يضم ثمانمائة صفحة
مقسمة إلى سبع رسائل : (١) فى الجهل والخطأ . (٢) وفى العلاقة بين الفلسفة
وعلوم الدين . (٣) وفى دراسة اللغات الأجنبية . (٤) وفى فائدة العلوم الرياضية .
(٥) وفى فن المنظور والبصريات ، (٦) وفى العلوم التجريبية . (٧) وفى الفلسفة
الأخلاقية . وفى الكتاب قدره الخلق به من السخافات ، وفيه كثير من
الاستطراد ، وأكثر مما يليق من المقتبسات الطويلة من مؤلفات غيره ؛
ولكنه يمتاز بالقوة ، والإخلاص ، والاتجاه إلى القصد مباشرة ، ويقبل عليه

القراء في هذه الأيام أكثر من إقبالهم على أى مؤلف آخر من مؤلفات العصور الوسطى في العلوم أو الفلسفة . وإنا ليسهل علينا أن نفهم الاضطراب الحماسى ، والإشادة بالبابوية ، والحرص الشديد على الجهر بالتمسك بالدين القويم ، والنزول بالعلم والفلسفة إلى منزلة الخدم لعلوم الدين ، نقول إنا ليسهل علينا أن نفهم وجود هذا كله في كتاب يبلغ هذا المبلغ من اتساع المدى وتعدد الموضوعات ، كتب ليكون خلاصة عاجلة ، ويراد به الحصول على تأييد البابا للتربية العلمية والبحث العلمى . ذلك أن روجر بيكن كان يشعر به فرانسس بيكن وهو أن تقدم العلوم في حاجة إلى معونة رؤساء الدين وكبار رجال الدولة ، وإلى أموالهم لتبناى بها الكتب ، والآلات والسجلات ، ومعامل الاختبار ، والتجارب ، ولأداء أجور الموظفين .

وكأنما أراد أن يستبق سمييه إلى تحطيم « الأصنام » بثلاثمائة عام ، فبدأ بذكر أربعة أسباب هى التى توقع الإنسان فى الخطأ وهى : « الاقتداء بالمراجع الراهنة غير الجديرة بأن يقتدى بها ، والعادة التى استقرت من زمن بعيد ، وإحساس الجماهير الجاهلة ، وتغشية الجهل بستر من للتظاهر بالحكمة » (١٠٢) . ويحرص على أن يضيف إلى هذا أنه « لايشير بحال من الأحوال إلى تلك السلطة القوية الموثوق بها التى .. وهبت إلى الكنيسة » . (٥) وهو يأسف لتسرع أهل زمانه واعتقادهم أنه يكفى لأن تكون قضية ما فى رأيهم قد ثبتت بالدليل إذا وجد فى أرسطو ، ويجهز بأنه لو أوتى السلطة الكافية لأحرق جميع كتب هذا الفيلسوف ، لأنها فى رأيه منبع الأخطاء ومصدر الجهل (١٠٣) ، ثم تراه بعد هذا لا تخلو صفحتان من كتابه دون عبارة مقتبسة من أرسطو .

ويكتب فى أول الجزء الثانى يقول : « وبعد أن أقصيت أسباب الخطأ الأربعة وألقيت بها فى الدرك الأسفل أحب أن أبين حكمة واحدة لا أكثر هى الحكمة الكاملة ، وهى الحكمة التى يحتوئها الكتاب المقدس » . وفى رأيه أنه

إذا كان فلاسفه اليونان قد ألهموا نوعاً من الإلهام الثانوى ، فسبب ذلك أنهم اطلعوا على كتب الأنبياء والبطارقة^(١٠٤). ويبدو أن بيكن يؤمن بقبصص الكتاب المقدس إيماناً ساذجاً ، ويعجب لم لا يسمح الله للناس أن يعيشوا ستمائة عام^(١٠٥). ويؤمن كذلك بقرب نزول المسيح وبنهاية العالم . وهو يدفع عن العلم لأنه يكشف عن الخالق في خلقه ، ولأنه يمكن المسيحيين من أن يهلوا الكفار الذين لا يتأثرون بالكتاب المقدس . وهكذا « يتأثر العقل البشرى فيؤمن بحقيقة مولد المسيح من العذراء ، لأن بعض الحيوانات تحمل وهى عذراء وتلد صغاراً ، ومن أمثلة ذلك الصقورة والقردة ، كما يقول أمبروز في كتابه الأيام الستة^(*) . هذا إلى أن الخيل في كثير من البلدان تحمل بفعل الرياح وحدها حين تشتهى الذكر كما يقول بلنى^(١٠٦) ، وتلك كلها أمثلة يؤسف لها اعتمد فيها على أصحاب « السلطة » العلمية لا أكثر .

ويبذل بيكن في الجزء الثالث من كتابه غاية جهده ليعلم البابا اللغة العبرية لأن دراسة اللغات في رأيه لازمة للدين ، والفلسفة ، والعلوم ، وذلك لأن الترجمة أيا كانت لا تنقل معنى الكتب المقدسة أو أقوال الفلاسفة الكفرة نقلاً دقيقاً . ويتحدث بيكن في الكتاب الأصغر حديثاً علمياً مدهشاً عن التراجم المختلفة للكتاب المقدس ويثبت علمه الواسع بالنصوص العبرية واليونانية . ويقترح أن يعين البابا لجنة من العلماء المتبحرين في اللغات العبرية واليونانية ، واللاتينية لمراجعة الترجمة اللاتينية القديمة لهذا الكتاب ، وأن تكون هذه الترجمة المراجعة - لأهم

بطرس لمبارد هي التي تدرس مع علوم الدين ويبحث على إنشاء كراسى أساتذة لتدريس اللغات العبرية واليونانية والعربية ، والكالدانية ، ويعارض في استخدام القوة لتحويل غير المسيحيين إلى الدين المسيحي ، ويتساءل

(*) يريد الأيام الستة التي خلق الله فيها العالم . (المترجم)

كيف تستطيع الكنيسة أن تتصل بالمسيحيين اليونان ، والأرمن ، والسوريين ، والكلدان إلا عن طريق لغاتهم . وكان يمكن جعل بجد في هذا الميدان ويعظ الناس ، وكان أول العلماء في العالم المسيحي الغربي يتم وضع كتاب نحو يوناني ليستخدمه الذين يعرفون اللاتينية ، وأول مسيحي يؤلف في نحو اللغة العبرية . وكان يقول إن في مقدوره أن يكتب باللغتين اليونانية والعبرية ، ويبدو أنه درس أيضاً اللغة العربية (١٠٧) .

وحين يصل يمكن إلى موضوع الرياضيات تصبح كتبه مسرحاً للتحمس البليغ والنظريات الغامضة . ويقول عن الرياضيات : « واعتقادي أن العلوم الرياضية لازمة وأنها تلي في ذلك اللغات » . ويكشف عن خضوعه لتأثير الدين حين يقول إن العلوم الرياضية « يجب أن تساعد على معرفة مكان الجنة والنار » ، وتزيد من علمنا بجغرافية الكتاب المقدس والتواريخ الدينية ، وتمكن الكنيسة من إصلاح التقويم (١٠٨) . ويقول : وللاحظ كيف تساعدنا « القضية الأولى في الهندسة » - وهي إنشاء مثلث متساوي الأضلاع على خط معلوم - على « أن ندرك أننا إذا سلمنا بشخص الله الأب ، تبدى أمامنا الثلاث ذو الأشخاص المتساوين » (١٠٩) ثم ينتقل من هذا المركز السامى الذى يضع فيه الرياضة فيسبق استباقاً مدهشاً علم الطبيعة الرياضية الحديث بإصراره على أن العلم لا يبلغ حد الكمال في الخصائص العلمية إلا إذا صاغ نتائجه كلها في صورة رياضية ، وإن كان لا بد له أن يجعل التجارب هي الطريقة التي يستخدمها في الوصول إلى تلك الغاية . وعنده أن جميع الظواهر غير الروحية أثّر من آثار المادة والقوة ، وأن جميع القوى تعمل في تناسق وانتظام ، ولهذا فإنها يمكن التعبير عنها بخطوط وأشكال . ومن الواجب تحقيق الأشياء بالبراهين المبنية بخطوط وأشكال » ، وليست جميع العلوم الطبيعية في آخر الأمر إلا علوماً رياضية (١١٠)

ولكن إن كانت الرياضة هي النتيجة ، فإن التجربة يجب أن تكون وسيلة العلم وطريقة اختيار نتائجه . ولقد أحدث بيكن ثورة علمية أداها الرياضيات والتجارب ، على حين أن الفلاسفة المدرسين من أبلار إلى تومس أكوناس قد وضعوا كل ثقتهم في المنطق ، وكادوا يضمنون أرسطو إلى الثالوث المقدس ، لأنهم في واقع الأمر جعلوه روحاً قدساً . فهو يقول إن أدق النتائج التي يؤدي إليها المنطق تتركنا غير واثقين من صدقها حتى تؤيدها الخبرة ، فالحرق وحده هو الذي يقنعنا بحق أن النار تحرق ؛ « ومن يُرد أن يتهجج ابتهاجاً لازيب فيه بالحقائق الكامنة وراء الظواهر الطبيعية فليهب نفسه للتجارب العلمية » (١١١) . ويبدو أنه في بعض الأوقات يرى أن التجربة experimentum ليست وسيلة من وسائل البحث ، بل هي الطريقة النهائية من طرق البرهان بوضع الأفكار - التي وصل إليها الإنسان بالخبرة والاستدلال - موضع الاختيار . وذلك بأن تصنع على أساسها أشياء ذات فائدة عملية (١١٢) . وهو يدرك ويعلن في وضوح . أكثر من فرانسيس بيكن أن التجربة في العلوم الطبيعية هي البرهان الذي لا برهان غيره . ولم يكن يدعى أن هذه الفكرة جديدة أتى بها من عنده ، بل يعتقد أن أرسطو ، وجالينوس ، وبطليموس ، والعلماء المسلمين ، وأدلارد ، وبطرس الأسبانيولي ، وربرت جروستستي ، وألبرتس تجنس وغيرهم قد قاموا بالتجارب العلمية أو امتدحوها ، وكل ما فعله روجر بيكن أن جعل الضمني صريحاً ؛ وأن ثبت راية العلم في الأرض المنزعة من بيداء الجهل .

ولم يفد روجر بيكن العلوم نفسها ، كما لم يفدها فرانسيس بيكن ، إلا في القليل الذي لا يغني ، إذا استثنينا من ذلك علم البصريات وإصلاح التقويم . ذلك أن هذين الرجلين لم يكونا عالِمين بل كانا من فلاسفة العلم . وقد واصل روجر عمل جروستستي وأمثاله فاستنتج أن التقويم اليوليوسي بالغ في طول السنة الشمسية فزادها يوماً في كل ١٢٥ سنة - وهو أدق تقدير وصل إليه العالم في ذلك

الوقت - وأن التقويم كان في عام ١٢٦٧ متقدماً عن الشمس بعشرة أيام :
ولهذا اقترح إسقاط يوم من التقويم اليوليومي في كل ١٢٥ سنة . ولا تكاد
الصفحات المائة التي خصها بعلم الجغرافية في الجزء الرابع من الكتاب الكبير
تقل براعة عن هذه الفكرة البارة . فقد تحدث روجر بحماسة بالغة مع وليم
ريبرسكوي William of Rubresquis عن عودة زملائه الرهبان الفرنسيين
من الشرق ، وعرف الشيء الكثير عنه ، وانطبع في ذهنه قول وليم إن ثمة
ملايين لا حصر لها من الناس لم يسمعوها شيئاً قط عن الدين المسيحي . وأعلن
بالاستناد إلى أقوال وردت في أرسطو وسنكا أن « البحر الذي يفصل طرف
إسبانيا الغربي عن شرق الهند يمكن اجتيازه في بضعة أيام قليلة جداً إذا كانت
الرياح موافية » (١١٣) . وقد اقتبس كولبس الفقرة التي نقلت عنه في *مصور*
العالم (١٤٨٠) لكردنال بيردايي Pierre d, Ailly في خطاب كتبه إلى
فرديناند وإزبلا في عام ١٤٨٠ وقال إنها مما أوحى إليه بالرحلة التي قام بها
في عام ١٤٩٢ (١١٤) .

وكأنما كان يمكن في العمل الذي قام به في علم الطبيعية يرى بعين الخيال
المخترعات الحديثة ، وإن كان يغشاها من حين إلى حين الآراء السائدة في
عصره . وإلى القارئ ترجمة حرفية لفقرات مشهورة يقفز فيها من القرن
الثالث عشر إلى القرن العشرين :

يختص جزء من خمسة أجزاء من كل علم بصنع آلات عظيمة النفع إلى
أقصى حد كالات التي تستخدم في الطيران ، أو بالانتقال في مركبات لاتجرها
دواب ، ولكنها تجري مع هذا بسرعة لاتعادلها قط سرعة أخرى ؛ أوفى عبور
البحار من غير مجاديف وبسرعة أكبر مما يظن أنها مستطاعة على أيدي الآدميين .
ذلك أن هذه الأشياء قد حدثت في أيامنا هذه . وليس من حق أي إنسان أن
يسخر أو يدهش منها . وهذا الجزء من العلم يرينا كيف نصنع آلات يستطيع

بها رفع أنقال لا يصدقها العقل أو إنزالها بغير مشقة ولا جهد.... (١١٥). ألا إن من المستطاع صنع آلات طائرة . . . إذا جلس الرجل في وسط الواحدة منها أمكنه أن يديو دولاباً عجيب الابتكار تستطيع به أجنحة صناعية أن تضرب الهواء كما يضربه جناح الطائر . . . ويمكن أيضاً صنع آلات يمشى بها الإنسان في البحر أو النهرو في قاعهما نفسه ، من غير خطر عليه (١١٦) .

وفي الكتاب الأكبر فقرة فسرت بأنها تشير إلى البارود :

لقد كشفت فنون جديدة لمقاومة أعداء الدولة يستطيع بها إهلاك كل من يجروء على مقاومتها وإن لم يستخدم في ذلك سيف أو غيره من الأسلحة التي تحتاج إلى الاتصال البدني . . . ذلك أن دويماً مروعاً يصدر من قوة الملح المعروف بنترات البوتاس إذا اشتعل فيه جسم ضئيل الحجم ، وهو قطعة صغيرة من الرق . . . وهذا الدوى المروع يفوق هزيم الرعد وينبعث منه بريق أشد من البرق الذي يصحب الرعد .

وفي فقرة لعلها مدسوسة على الكتاب الثالث يضيف يمكن إلى القول السابق قوله إن بعض اللعب « المفرقة » تستعمل في ذلك الوقت وتحتوى على خليط من نترات البوتاس (بنسبة ٤١٢٪) والفحم النباتي (بنسبة ٢٩٤٪) والكبريت (بنسبة ٢٩٤٪) (١١٧) ، ويشير إلى أن قوة هذا المسحوق المفرقة يمكن مضاعفتها بوضعه في داخل مادة صلبة . وهو لا يدعى بأنه اخترع البارود ، وكل ما في الأمر أنه كان من أوائل من درسوه كيميائياً وتنبأوا بإمكانياته .

وخير ما كتبه بيكن على الإطلاق هو الجزء الخامس من الكتاب الأكبر « في علم المنظور » . وفي الرسالة المكتملة له في نضاعف الرؤية . وقد تفرعت هذه المقالة البارعة في البصريات من كتاب جروستستي عن قوس قزح ، ومن تايخيس وتلو Witelو لكتاب ابن الهيثم ، ومن دراسات علم البصريات التي تنقلت من

ابن سينا ، إلى الكندي ، إلى بطليموس ، وبلغت غايتها في إقليدس (٣٠٠ ق.م)
الذى برع في تطبيق الهندسة النظرية على حركات الضوء . وكان من البحوث
التي قام بها بيكن : هل الضوء هو انبعاث جزيئات من الجسم المرئي ؟ أو هل هو
تحرك الوسط الكائن بين هذا الجسم والعين ؟ ويعتقد بيكن أن كل جسم مادي
يشع قوة في جميع الاتجاهات ، وأن هذه الإشعاعات قد تنفذ في الأجسام الصلبة :

ليس ثمة جسم يبلغ من الكثافة حداً يمنع الأشعة منعاً باتاً من أن تمر فيه
ذلك أن المادة التي تتركب منها الأجسام واحدة فيها جميعاً ، ولهذا فليس ثمة
جسم لا تحدث الأفعال التي تصحب مرور شعاع ما تغيراً فيه ... إن أشعة
الحرارة والصوت تخترق جدران إناء من الذهب أو الشبه ، ويقول بوثيوس
إن عين الوشق (*) تخترق الجدران السمكية (١١٨) .

ولسنا واثقين من هذه القوة المعزوة إلى الوشق ، ولكننا إذا استثنينا
هذا القول حق علينا أن نعجب بهذا الخيال الجريء لذلك الفيلسوف ، وهو
« الخيال المماسك في كل أجزائه » . وحاول بيكن وهو يقوم بالتجارب على
العدسات والمرايا أن يصوغ قوانين انكسار الضوء ، وانعكاسه ؛ وفعل الأشعة
الضوئية في تكبير الأجسام وتصغيرها . ومثل لنفسه قدرة العدسة المحدبة على
تركيز كثير من أشعة الشمس في نقطة واحدة ، ثم تشتيت هذه الأشعة خلف
هذه النقطة لتكون منها صورة مكبرة فكتب يقول :

في مقدورنا أن نشكل الأجسام الشفافة (العدسات) ونرتبها بالنسبة إلى
قوة بصرنا والأجسام المرئية ترتيباً يجعل الأشعة تنكسر وتنحني في أى اتجاه
نريده ، فنرى من أية زاوية نشاء الجسم قريباً منا أو بعيداً عنا . وعلى هذا فإن
في وسعنا أن نقرأ أصغر الحروف من بعد لا يصدقها الإنسان ، وأن نعد حبات

(*) Lynx وهو حيوان من فصيلة الهر مرتفع الجسم عند مؤخره ، ذو شعر طويل ،
وذيل قصير ، تنتهى أذناه بمصيلتين من الشعر ويقال إنه حاد البصر . (المترجم)

التراب او الرمل ... وعلى هذا فإن جيشاً صغيراً يمكن أن يبدو للناظر كبيراً ... وقريباً منه كل القرب ... وفى وسعنا أيضاً أن نجعل الشمس ، والقمر ، والنجوم تبدو كأنها قد نزلت إلينا ، ... وما إلى هذا من الظواهر الكثيرة المماثلة مما لا يتقبله عقل الشخص الذى يجهل الحقائق ... (١١٩) ويمكن إلى هذا تصوير السماء بكل ما لها من طول وعرض بصورة مجسمة تتحرك حركتها اليومية ، وقيمة هذا عند الرجل العاقل تعادل مملكة بأسرها ... وثمة عجائب أخرى غير هذه يخططها الحصر ويمكن عرضها على العين (١٢٠) .

تلك فقرات ذات روعة وجلال ، ويكاد كل عنصر من عناصر النظرية التى نبسطها يوجد قبل بيكن وخاصة فى كتب ابن الهيثم ؛ ولكنه هو الذى جمع مادتها كلها فى صورة عملية ثورية استطاعت وقت أن حل أوانها أن تبدل العالم . وهذه الفقرات هى التى أرشدت ليونارد دجس Leonard Digges (المتوفى حوالى ١٥٧١) إلى وضع النظرية التى اخترع المرقب على أساسها (١٢١)

ولكن ما الذى يحدث إذا زاد تقدم العلوم الطبيعية من قدرة الإنسان دون أن يسمو بأغراضه ؟ لعل أكثر نظرات بيكن نفاذاً إلى الصميم هى سبقه إلى تصوره مشكلة لم تتضح للعالم إلا فى أيامنا هذه ، فهما هو ذا فى الكتاب الأكبر يعبر عن اعتقاده الراسخ أن العلم وحده لا ينجى الإنسان :

كل هذه العلوم السالفة الذكر نظرية . ولسنا ننكر أن لكل علم وجهة عملية ؛ ... ولكن الفلسفة الأخلاقية وحدها هى التى نستطيع أن نقول عنها ... إنها عملية فى جوهرها ... لأنها تبحث فى سلوك الإنسان ، فى الفضيلة والرذيلة ؛ فى السعادة والشقاء ... والعلوم الأخرى كلها لا قيمة لها إلا من حيث أنها تعين على العمل الصالح ؛ وعلى هذا الاعتبار تصبح العلوم « العملية » ، كالتجارب والكيمياء ، وغيرهما علوماً نظرية إذا قورنت بالعمليات التى تعنى بها العلوم الأخلاقية أو السياسية . وعلم الأخلاق هذا هو سيد كل فرع من فروع الفلسفة (١٢٢) .

ويصور بـيكن حكمه الأخير في صالح الدين لا في صالح الفلسفة ، فبالأخلاق وحدها يؤيدها الدين يستطيع الإنسان أن ينجى نفسه . ولكن أى دين يقصد ؟ إنه يحدثنا عن ندوة الأديان - البوذية ، والإسلام ، والمسيحية - وهى الندوة التى عقدت ، على ما يقول ولیم البرسكوى في قرقورم Karakorum بناء على دعوة منجوخان وتحت رياسته (١٢٣). ويفاضل بيكن بين الأديان الثلاثة ، ويصدر حكمه في صالح الدين المسيحى ، ولكنه لا يصدر هذا الحكم له بوصفه ديناً يتعبد به الناس في العالم وكفى . وهو يشعر بأن البابوية ، مهما وجه إليها جروستسى من نقد لاذع ، هى الرابطة الروحية لأوروبا ، وبدونها تمزقها فوضى العقائد والحروب ، وكان يأمل أن يدعم الكنيسة بالعلوم ، واللغات ، والفلسفة ليمكنها من أن تحكم العالم حكماً روحياً خيراً من حكمها الحاضر (١٢٤). ونختم كتابه كما بدأ بالجهر الصادر عن عقيدة قوية بولائه للكنيسة ، ويمجد في نهايته القربان المقدس - كأنه يقول إن الإنسان إذا لم يعمل من حين إلى حين للاتصال بأسمى مثله العليا احترق في لهيب هذا العالم .

ولعل عجز البابوات عن الاستجابة بوسيلة ما إلى المنهج الذى وضعه بيكن وإلى دعواته المتكررة قد أظلم روحه وأمرّ قلمه . وكانت نتيجة هذا أنه نشر في عام ١٢٧١ موجزاً للمراسم الفلسفية غير كامل لم يضيف إلا القليل للفلسفة ، ولكنه أضاف الشيء الكثير إلى الأهمقار الدينية التى كانت تمزق المدارس تمزيقاً . وفيه قضى قضاء عاجلاً على الجدل الآخذ وقتئذ في الضعف بين الواقعية والصورية فقال : « ليس الكلى إلا تماثل عدة أفراد » و « في الفرد الواحد من الواقعية أكثر مما في الكليات كلها مجتمعة » (١٢٥). وأخذ بنظرية أوغسطين ووصل إلى أن جهود الأشياء كلها لإصلاح شأنها قد أحدثت سلسلة طويلة من التطورات (١٢٦). كما أخذ بفكرة أرسطو القائلة بوجود العقل الفاعل

أو العقل الكوفي الذى « يسرى إلى عقولنا وينيرها » وأقرب اقتراباً شديداً من مبدأ وحدة الوجود الذى ينادى به اين رشد (١٢٧) .

ولكنه لم يهز مشاعر معاصريه بأرائه الفلسفية بقدر ما هزها بهجومه على منافسيه وعلى مبادئ زمانه الأخلاقية . ذلك أنه فى موجز المراسات الفلسفية كاد يلهب بسوطه جميع نواحي الحياة فى القرن الثالث عشر : اضطراب نظام المحاكم البابوية ، وانحطاط طوائف رهبان الأديرة ، وجهل رجال الدين ، وثقل مواظبتهم وخلوها من التشويق ، وفساد أخلاق طلاب العلم ، وما فى الفلسفة من لغو وتلاعب بالألفاظ . وذكر فى رسالة له عن أخطاء الطب « ستة وثلاثين عيباً أساسياً كبيراً » فى النظريات والأعمال الطبية فى عصره ، وكتب فى عام ١٢٧١ فقرة ربما تدعونا إلى التسامح فى عيوب أيامنا هذه :

يُرتكب فى عصرنا هذا من الذنوب أكثر مما يرتكب فى أى عصر قبله . فالكرسى البابوى يتمزقه خداع الظالمين وغدرهم ... ولقد فشا الكبرياء بين الناس ؛ وغلت مرابح الطمع فى الصدور ؛ وأنشب الحسد أنيابه فى جميع النفوس ؛ والبلاط البابوى كله يسر به الفجور بالعار ، والنهم هو سيد الجميع ... وإذا كان هذا هو شأن الرأس فماذا عسى أن تفعل سائر الأعضاء ؟ فلننظر إلى كبار رجال الدين كيف يجرون وراء المال ، ويهملون العناية بالأرواح ، ويرفعون إلى المناصب العليا أبناء إخوتهم وأخواتهم وغيرهم من الأصدقاء وأولى الأرحام ؛ والمحامين الماكرين الذين يفسدون كل شىء بنصائحهم ... ولننظر إلى طوائف الرهبان من رجال الدين ، لست أستثنى أحداً مما أشاهده بينهم ؛ انظروا فى أية هاوية تردوا ، وهووا من شامخ مجدهم فرادى وجماعات ، وهام أولاء الرهبان (الإخوان) بالحد قد فسدوا فساداً مروعاً وحادوا عن تقواهم الأولى . إن رجال الدين على بكرة أبيهم لاهم لهم إلا التكبر ، والفجور ، والبخل ، وحيثما يجتمع طلاب العلم ...

لا تسمع منهم إلا اغتياب غير رجال الدين والشهير بحروبهم ومنازعاتهم
وغيرها من الرذائل . والأمراء ، والأشراف ، والفرسان يظلم بعضهم
بعضاً ، ويشقون رعاياهم بحروبهم ومطالبهم التي لا حدها والشعب
الذى يشقى بأمرائه ، يحقد على هؤلاء الأمراء ، ولا يدين لهم بولاء إلا إذا
أرغم على ذلك قوة واقتداراً ؛ وقد أفسده المثل السيئ الذى ضربه له سادته
وكبرائه ، فترى أفرادهم يظلم بعضهم بعضاً ويخدعه ويغشه ، ونحن نشهد
هذا كله بأعيننا فى كل مكان ، وهم منهمكون فى فسقهم ونهمهم ، وقد
بلغوا من الانحطاط حداً يعجز اللسان عن النطق به . أما التجار والصناع
فحدث عنهم ولا حرج ، لأن الخداع والغش هما ديدنهم فى جميع أقوالهم
وأفعالهم . . . لقد كان الفلاسفة الأقدمون ، وإن أعوزتهم الكياسة المنعشة
التي تجعل الناس خليقين بالخلود ، يعيشون خيراً منا إلى أبعد حد مستطاع ،
سواء فى أدبهم أو فى احتقارهم هذا العالم وكل ما فيه من بهجة وغنى ،
وثروة ، وألقاب التكريم ، كما يتبين الناس جميعاً من مؤلفات أرسطو ،
وسنكا ، وتلى Tully ، وابن سينا ، والفارابى ، وأفلاطون ، وسقراط
وغيرهم ؛ وبهذا وصلوا إلى أسرار الحكمة ، وكشفوا عن جميع المعارف ؛
أما نحن المسيحيين فلم نكشف شيئاً بما كشفه أولئك الفلاسفة ؛ بل إننا لنعجز
عن إدراك حكمته . ومنشأ جهلنا هذا هو أن أخلاقنا شر من أخلاقهم
وليس ثمة بين العقلاء من يخالجه أدنى شك فى أن الواجب يقضى بتطهير
الكنيسة (١٢٨) .

ولم تنطع فى عقله صورة طيبة من الفلاسفة المعاصرين له ، وشاهد ذلك
ما كتبه عنهم إلى كلمنت الرابع يقول إن أخداً منهم لا يستطيع فى عشر سنين
أن يؤلف كتاباً مثل الكتاب الأكبر ، فقد كانت مؤلفاتهم فى نظر بيكن
مجلدات ضخمة من « الكذب الذى لا استطاع وصفه » والحشو الذى
لا ضرورة له (١٢٩) ؛ وكان هيكل تفكيرهم كله يقوم على الكتاب المقدس

ومؤلفات أرسطو ، وذاك قد أسىء فهمه وهذه قد أسيئت ترجمتها (١٣٠) .
وكان يسخر من نقاش تومس الطويل في عادات الملائكة ، وساطاتهم ،
وذكائهم ، وحركاتهم (١٣١) .

وما من شك في أن هذا الإسراف في اتهام حياة أوربا وأخلاقيها ،
وتفكيرها ، في ذلك القرن المتألى الباهر قد جعل بيكن وحده في ناحية
وأوربا كلها في ناحية أخرى . ولكننا لا نجد دليلاً على أن طائفته أو الكنيسة
قد اضطهدته أو تدخلت في حرية فكره أو قوله قبل عام ١٢٧٧ ، أى قبل
أن يكتب المراثاة السالفة الذكر بست سنين . ولكن حدث في تلك السنة أن
أخذ يوحنا الفرشلى John of Vercelli رئيس الرهبان الدمنيك وجيروم
الأسكولى Jerome of Ascoli رئيس الرهبان القرنسيس يتفاوضان ليخففا
من حدة بعض النزاع الذى شجر بين الطائفتين . واتفقا على أن يمتنع الإخوان
في كل طائفة عن نقد الطائفة الأخرى ، وأن « كل أخ يتبين أنه أساء إلى أخ
من الطائفة الأخرى بالقول أو بالفعل يجب على مجلس مقاطعته أن يوقع عليه
من العقاب ما يرضى أخاه الذى أسىء إليه (١٣٢) . وبعد قليل من ذلك
الوقت قام جيروم — على حد قول أفيار قادة الطائفة الأوربية والعسبرين
التي كتبت في القرن الرابع عشر — « عملاً بمشورة كثيرين من الإخوان
فعارض واستقبح تعاليم الأخ روجر بيكن مدرس علم اللاهوت المقدس
لأنها تحتوى على بدع تثير الشك ، ومن أجل هذا حكم على روجر
المذكور بالسجن » (١٣٣) . . ولسنا نعلم عن هذه المسألة شيئاً غير هذا ؛ فهل
كانت هذه « البدع » هي الإلحاد ، أو ارتياب من حكموا عليه في أنه
يمارس فنون السحر ، أو أن هذا الأمر يخفى في طياته قراراً بإسكات هذا
الناقد البغيض إلى الدمنيك والقرنسيس على السواء ؟ ولسنا نعرف كذلك
ما فرض من التضييق على بيكن في سجنه أو طول الزمن الذى ظل فيه

سجيناً مضيقاً عليه . وكل ما نعرفه أن بعض المساجين الذين حكم عليهم بالسجن في عام ١٢٧٧ ؛ قد أطلق سراحهم في عام ١٢٩٢ ، وربما كان بيكن ممن أطلق سراحهم في ذلك الوقت أو قبله . لأنه نشر في عام ١٢٩٢ *موجزاً في الدراسات اللاهوتية* ، ثم لا نجد بعد ذلك لإكلمة في سجل قديم : « دفن الدكتور روجر بيكن بالليل القدر في كنيسة جريسي فريرز Greyc Friars (كنيسة الرهبان الفرنسييس) بأكسفورد في عام ١٢٩٢ » (١٣٤) .

ولم يكن لبيكن في عصره إلا أثر قليل . فكل ما ينكره به ذلك العصر أنه رجل يأتي بكثير من الأعاجيب ، وأنه ساحر ومشعوذ . وقد صور بهذه الصورة في مسرحية كتبها روجر جرين Roger Green بعد ثلاثمائة سنة من وفاته . وليس من السهل علينا أن نعرف مقدار ما يدين له به سميه فرانسيس بيكن (١٥٦١ — ١٦٢٦) ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا أن فرانسيس وروجر على السواء كليهما رفضا منطق أرسطو ، والطريقة المدرسية ، وارتابا في الاعتماد على المراجع القديمة ، وعلى العادات وغيرها من أصنام التفكير التقليدي ، وامتدحا العلوم ، وذكرنا ما يتوقع اختراعه بالاعتماد عليها ، ورسمنا منهاجاً لها ، وأكدنا فائدتها العملية . وأخذت شهرة بيكن تعظم وتنتشر ببطء من القرن السادس عشر حتى أصبحت حياته من القصص الخرافية — فقليل إنه مخترع البارود ، والبطل الحر التفكير ، الذي ظل طول حياته مضطهداً من رجال الدين ، والمبتكر العظيم للتفكير الحديث . والآن أخذت الآلة تنقلب ، فالمؤرخون يقولون إنه لم تكن لديه إلا فكرة مهوشة عن التجارب العلمية ، وإنه لم يجر من هذه التجارب إلا القليل ، وإنه كان في الدين أكثر حرصاً على تقاليده من البابا نفسه ، وإن صفحات كتبه تنتشر فيها الخرافات ، والسحر ، والخطأ في الاقتباس ، والهم المكاذبة ، والقصص غير الصادقة المأخوذة من التاريخ .

وهذا كله صحيح ؛ وصحيح أيضا أنه وإن لم يجر من التجارب إلا القليل ، قد ساعد على دعم مبدأ التجربة العلمية ، ومهد السبيل إلى قيامها ، وأن جهره بالتمسك بالسنن الدينية قد يكون لإجراء سياسيا من رجل يسعى للحصول على تأييد البابوية للعلوم التي كانت ماثراً للريبة . أما أخطاؤه فقد كانت عبدوى زمانه ، أولعها قد نشأت من العجلة التي تسير بها روح تحرص على أن تجعل المعارف كلها ميدانا لها . وأما امتداحه نفسه فقد كان هو البلسم الشافي لتجاهل عبقريته ؛ كذلك كان هجومه على غيره تنفيسا لغضب إنسان جبار خابت آماله ، فأخذ يشهد إخفاق أحلامه النبيلة تغرق في بحر من الجهل وهو عاجز عن إنقاذها . وأما هجومه على النقل في الفلسفة والعلم فقد أنار السبيل لتفكير أوسع مجالا وأكثر حرية مما كان في زمانه ؛ كذلك كان تأكيديه لأسس العلم وأهدافه الرياضية تقدما بخمسائة عام عن العصر الذي يعيش فيه ؛ وخير من هذا كله في تحذيره الناس من إخضاع الأخلاق للعلم درس لرجال الغد يجب أن يأخذوا به . وملاك القول أن الكتاب الأكبر رغم أخطائه وآثامه ، خليف باسمه ؛ وأنه أعظم من أى مؤلف في جميع آداب ذلك القرن العجيب .

الفصل الثامن

أصحاب الموسوعات

وقف العلماء المحيطون بمختلف العلوم موقفاً جريئاً بين العلم والفلسفة يعملون لبث النظام والوحدة في معارف عصرهم التي كانت آفاقها تزداد اتساعاً على مر الأيام ؛ وليكونوا من العالم الفن ، والصناعة والحكومة ، والفلسفة والدين ، والأدب والتاريخ ، وحدة كلية منتظمة يمكن أن تتخذ أساساً للحكمة . ولهذا بز القرن الثالث عشر سائر القرون بما وضع فيه من الموسوعات ، والخلاصات التي كانت كتباً جامعة طابعها التركيب . وكان أكثر أصحاب الموسوعات تواضعاً يقنعون بتلخيص موضوعات العلوم الطبيعية ، ومن هؤلاء الكسندر نكهام رئيس دير سرنسستر Cirencester . (حوالى عام ١٢٠٠) ، وتوماس الكنتمبري Thomas of Cantimpré راهب الدمينيكي الفرنسى (حوالى عام ١٢٤٤) ؛ وقد كتب كلاهما موجزاً في العلوم بعنوان *طبعة الأشياء* ، ومنهم بارثلميو الإنجليزى Bartholomew of England وهو راهب فرنسيى أخرج مجلداً كثير الحشو في *مفاتيح الأشياء* (حوالى ١٢٤٠) ؛ وفي عام ١٢٦٦ كتب برونزو لاتيني Brunetto Latini وهو مسجل صكوك من فلورنس نفي من بلده لمبادئه السياسية الجلفية (Quelf) ، وأقام بضع سنين في فرنسا ، كتب بلغة دوئيل lange d'oïl كتاب *الكنتز* Le Livre de Tresor وهو موسوعة موجزة في العلوم والأخلاق والتاريخ والحكم . وظلت هذه الموسوعة واسعة الانتشار حتى أن نابليون نفسه فكر في أن تصدر الدولة طبعة منها بعد أن تراجع ، وذلك بعد خمسين عاماً من إصدار ديدرو Diderot موسوعته الكبرى التي هزت العالم هزاً . وكانت هذه

المؤلفات كلها التي صدرت في القرن الثالث عشر تمزج اللاهوت بالعلوم ،
والخرافات بالمشاهدات ، لأنها كانت تنفّس هواء زمانها ؛ ولو أننا قلنا
لنا أن نعرف نظرة الناس إلى علمنا الجامع بعد سبعة قرون من هذه الأيام
لأغضبنا ما نرى .

وأشهر موسوعات المسيحيين في العصور الوسطى موسوعة فنسنت
بوفيه المسماة المرأة الكبيرة (١٢٠٠ - ١٢٦٤ أو حوالي ذلك الوقت) . وقد
انضم بوفيه هذا إلى جماعة الرهبان الدمنيك ، وأصبح معلماً للويس التاسع
وولده ، وعهد إليه الإشراف على مكتبة الملك ، وأخذ على عاتقه هو
وجماعة من أعوانه أن يضع في صورة سهلة التناول جميع ما يحيط به من
ألوان المعرفة . وقد أطلق على موسوعته اسم صورة العالم *Imago mundi* ،
ومثل فيها العالم بمرآة ينعكس عليها الذكاء القرطبي والتخطيط الإلهي ،
وكانت موسوعة ضخمة تعادل في حجمها أربعين مجلداً من المجلدات الكبيرة
الحجم في هذه الأيام . وأتم منها فنسنت مع النساخين ثلاثة أجزاء : المرأة
الطبيعية ، ومرآة العقائد ، ومرآة التاريخ ، وأضاف إليها من خلفه في هذا
العمل ، حوالي عام ١٣١٠ مرآة الأوهام ومعظمها مأخوذ من موجز
توماس أكوئاس . وكان فنسنت نفسه إنساناً متواضعاً ظريفاً ، قال عن
نفسه . « إني لا أعرف علماً واحداً » ، وهو يتصل من أنه ابتكر شيئاً ما ،
ويقول إن كل ما أراد أن يفعله هو أن ينقل أقوال ٤٥٠ مؤلفاً يونانياً ،
ولاتينياً ، وعربياً . وقد نقل أخطاءه باني بأمانة ، وصدق كل عجائب
التنجيم ، وملاً صفحه بالصفات السحرية للنبات والحجر ، ولكن عجائب الطبيعة
وروائع جمالها تبدو مع ذلك واضحة في كتابه من حين إلى حين ، تنفذ من خلال
ما فيه من أقوال غير ذات قيمة ، ويحسن هو بها كما لا يستطيع أن يحسن بها
ملتهم الكتب فحسب :

أعترف ، وأنا الإنسان المذنب ، ذو العقل الملوّث في الجسد ، أننى تدفعنى الروح السامية نحو الخالق المسيطر على هذا العالم ، وأننى أزداد تعظيماً له حين تقع عينى على ما خلقه ... من عظمة وجمال . ذلك بأن العقل إذا ارتفع من الأقدار التى يحجبها ، وسما ، وهو القادر على السمو ، إلى نور التأمل ، أبصر من شأقه علوه عظمة الكون المحتوى على أماكن لا حصر لها مليئة بطوائف المخلوقات المختلفة الأنواع (١٣٥) .

ويضارع النشاط العلمى الذى انبثق فى القرن الثالث عشر عظمة فلسفاته المختلفة ، وآدابه المتنوعة الباهرة ، من الشعراء الغزليين إلى دائئى . لقد كان علم تلك الأيام ، كما كانت موهباته العظيمة والمسورة الدلرية ، يعانى الشيء الكثير من إسراف أصحابه فى الوثوق به ، ومن عجزهم عن بحث فروضه ، ومن خلط المعارف بالدين بلا تفريق بينهما . ولكن سفينة العلم الصغيرة التى كانت تسبح فى بحر من المزاغم الخفية خطت خطوات واسعة فى عصر الإيمان نفسه . فقد بدأ أدلارد وجروستسنى ، وألبرت ، وأرتلد الفلانوفى ، ووليم السليستوى ، وهنرى المندفيلى ، ولا نقراتشى ، وروجرييكن ، وبطرس الحاج وبطرس الأسبانى ، بدأ هؤلاء كلهم مشاهدات وملاحظات جديدة ، وتجارب صغيرة أخذت تحطم ما كان لأرسطو ، وبلنى ، وجالينوس من سلطان على العقول . وملاً التحمس للارتياح والمغامرة أشرعة سفينة الرواد ، وقد عبر عن ذلك الإخلاص العلمى الجديد ألكسندر نكهام فى بداية ذلك القرن للعجيب فكتب يقول « إن العلم لا ينال إلا بثمن باهظ ، هو اليقظة الدائمة ، وإنفاق الوقت الطويل ، وبالجد والكدح المتواصلين ، وباستخدام للعقل بحماسة وقوة » (١٣٦) .

ولكن مزاج العصور الوسطى يتحدث إلينا قبيل نهاية كتاب ألكسندر أحاديثه ، ويتحدث إلينا برقة لا تتناسب مع عصره فيقول :

ربما عشت أيها الكتاب بعد ألكسندر هذا ، وربما أكلني الدود قبل
أن تقرض صفحاتك ... إنك مرآة عقلي ، وشارح تأملاتي ... والشاهد
البصاق على ضميري ، والمواسي الرحيم لأحزاني ... وإنك أنت المستودع
الأمين الذي أودعت فيه أسرار قلبي ... فيك أقرأ ما في نفسي ... سوف تقع
في يدي قارئ تقي ينزل من عليائه فيدعولي بنجر ، وإذن فسيفيد منك
صاحبك أيها الكتاب الصغير ، وإذن ستجزي إسكندر أحسن جزاء
وأعظمه ، ولست آسفاً على كلحي ، فستصادف إخلاص قارئ صالح
يضعك تارة في حجره ، ويرفعك تارة إلى صدره ، ويتخذك حيناً وسادة
تحت رأسه ، ويطويك برفق ، ويدعولي في حرارة وإخلاص عيسى المسيح
الذي يعيش مع الله والروح القدس خلال الأحقاب التي لا نهاية لها -
آمين (١٢٢) .

الباب الثامن والثلاثون

عصر الخيال

١١٠٠ - ١٣٠٠

الفصل الأول

إحياء اللغة اللاتينية

كل عصر في حياة العالم عصر خيال ، لأن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا بالخبز وحده ، والخيال عماد الحياة ، ولعل القرنين الثاني عشر والثالث عشر من تاريخ أوروبا كانا إلى حد قليل أبعد خيالا من معظم العصور الأخرى . ذلك أن هذين القرنين لم يرثا جميع المخلوقات الخفية التي ابتدعتها خيال أوروبا الوثاب فحسب ، بل قبلا الملحمة المسيحية بكل ما فيها من جمال الخيال ورهبتة ، واتخذوا الحب والحرب فناً دينياً ؛ وشهد هذان القرنان الحروب الصليبية وجاءا بمئات القصص والعجائب من بلاد الشرق ، وكتبوا في واقع الأمر أطول القصص الخيالية المعروفة في التاريخ كله .

وكان مما ساعد على ازدهار الأدب في هذين القرنين ازدياد الثروة ، والفراغ ، والأدب غير الديني ، ونشأة المدن والطبقة الوسطى ، وارتفاع شأن المرأة في الدين ، ونظام الفروسية . ولما تضاعف عدد المدارس بهر شيشرون ، وفرجيل ، وهوراس ، وأوفيد ، وليفي ، وسالست ، ولوكان ، وسنكا ، واستاتيوس ، وجوفنال ، وكونتليان ، وسيونوتيوس ، وأبوليوس ، وسيدونيوس ، وحتى ماريثال وپترونيوم

السفهيان المفحشان ، بهر هؤلاء بفهم وعالمهم الغريب كثيراً من ملاجئ الأساتذة والأديرة المنعزلة عن العالم وتسربا في بعض البلاد إلى قصور الأعيان ، واختلست الأرواح المسيحية من جيروم إلى الكوين ، إلى هلواز ، وهيدلبرت ، دقائق من أوقات صلواتهم لينشدوا أغاني الإنياذة وهم صامتون . وكانت جامعة أورليان تعز عزازاً خاصاً قوياً بأداب رومة الوثنية ، حتى شكوا أحد المتزمتين وهو مرتاع وجل قاتلاً إن الآلهة القدامى ، لا المسيح أو مريم ، هي التي تعبد فيها . وكاد القرن الثاني عشر يصبح « عصر أوغد » ، فقد أنزل فرجيل عن العرش الذي رفعه إليه ألكوين حتى جعله شاعر بلاط شارلمان ؛ وكان الرهبان ، والسيدات ، « والعلماء الجاثلون » على السواء يقرأون بنشوة وابتهاج كتب النحولت ، والهيرموبرات ، وفي ألحج . وفي وسعنا أن نعنو عن كثير من أسباب اللهو المباح عند الرهبان الذين أحبوا هذه الكتب الملعونة ، وحفظوها من الضياع ، ولقنوها بإخلاص ووفاء إلى الشبان المتبرمين الشاكرين .

ونشأت من هذه الدراسات القديمة لغة لاتينية خاصة بالعصور الوسطى ، كان فيها من التنوع وأسباب المتعة ما يعد من أعظم المفاجآت السارة في الكشوف الأدبية . مثال ذلك أن القديس برنار الذي لم يكن يعتد إلا قليلاً بالمازايا العقلية ، كتب رسائل تفيض بالحب الرقيق ، والقدح الفصيح ، واللغة اللاتينية الممتازة ؛ وقد احتفظت عظمة بطرس دميان ، وبرنار ، وأبلار ، وبرثولد الرچز يرجى للغة اللاتينية بقوتها وحيويتها .

وكتب المؤرخون الإخباريون في الأديرة بلغة لاتينية فظيعة ؛ ولكنهم لم يكونوا يدعون أنهم يكتبون كتابة تشجع الحمال لدى القراء . بل كانوا يسجلون أولاً نشأة أديرتهم وتاريخها — انتخاباتها ، ومبانيها ، ووفاء رؤسائها ، ومعجزات الرهبان ومنازعاتهم ؛ وأضافوا إلى ذلك مذكرات عن الخسوف

والكسوف ، والمذنبات ، والجفاف ، والفيضان ، والقحط ، والأوبئة ،
ونذر أيامهم ؛ وتوسع بعضهم فضمن كتاباته بعض الحوادث القومية والدولية
نفسها . وقل منهم من كان يبحث في المراجع التي يعتمد عليها بروح النقد
الصحيح ، أو يفحص عن العلل ؛ وكان معظمهم مهملين غير دقيقين ،
يضيفون إلى أرقامهم صفراً أو صفرين ليبعثوا الحياة في الإحصاءات الميتة ،
وكلهم بلا استثناء يأتون بالمعجزات ، ويظهرون سذاجة واستعداداً ظريفاً
لتصديق كل ما يقال . من ذلك أن الإخباريين الفرنسيين افترضوا أن فرنسا
قد استوطنتها الطروداديون النبلاء ، وأن شارلمان فتح أسبانيا واستولى على
بيت المقدس ، وحاول كتاب أعمال الفرنسيين Gesta Francorum (حوالي
١١٠٠) أن يروي بأمانة نسبية قصة الحرب الصليبية الأولى ، ولكن كتاب
أعمال الرومان Gesta Romanorum (حوالي ١٢٨٠) يروي في صراحة
تاريخاً مختزلاً لتشوسر ، وشيكسبير ، وألفا من كتاب الروايات . وجعل
جوفري المنموتى Geoffrey of Monmouth حوالي (١١٠٠ - ١١٥٤)
من كتابه تاريخ بريطانيا Historia Britonum ضرباً من الأساطير القومية ،
وجد فيها الشعراء قصص الملك لير ، وآرثر ، وميرلين Merlin ، ولانسلت
Lancelot ، وترسترام Tristram ، وبرسفال Perceval ، وجريل المقدس
Holy Grail . ومن الأدب الخيالي حتى الآن ثثرة جوسلين Jocelyn وما رواه
من أخبار بيوري سانت إدمندس Bury St. Edmonds (حوالي ١٢٠٠)
وما رواه الأخ سلمبيني Salimbene عن بارما (حوالي ١٢٨٠) .

وفي عام ١٢٠٨ أهدى ساكسولانج (اللغوي) Saxo Lange الذي سمي
بعد وفاته ساكسولانجوى Saxo Grammaticus إلى أبسالوم كبير أساقفة لند
Lund كتابه أعمال الدنمركيين ، وهو كتاب فيه بعض الحشو وفيه من سرعة
التصديق ما لا يصدق الإنسان^(١) . ولكنه مع ذلك قصة قوية حية ، فيها من

الاتصال أسيكتر مما في كثير من تواريخ الغرب في هذه الأيام . ففي الكتاب الثالث من هذا المؤلف نقرأ عن أملت Amleth أمير جتلندة Jutland الذي قتل عمه الملك وتزوج الملكة . ويقول سكسو إن أملت هذا « اختار أن يتظاهر بالبلادة وفقدان الوعي فقداناً كاملاً ، وضمن بهذا الصنع الماكر سلامته » .

وارتقى خمسة من المؤرخين اللاتين في ذينك القرنين من طبقة الإخباريين إلى طبقة المؤرخين وإن احتفظوا بالطابع الإخباري . من هؤلاء ولیم الملمزبری (حوالي ١٠٩٠ — ١١٤٣) الذي رتب مادة كتابه أعمال الأسيكابر Gesta Pontificum ، وأعمال الملوك انجلیز Gesta Regum Anglorum ليجعل منها قصة متصلة حية ، نزيهة ، جديرة بالثقة ، تروى أخبار الأسيكابر والملوك . وأرسل أوردركس فيتالس Ordericus Vitalis (حوالي ١٠٧٥ — ١١٤٣) المولود في شروزبري Shrewsbury إلى دير القديس إيفرول St. Evroul في نورمندي في العاشرة من عمره وفاء لنذر ، وعاش فيها بقية سنيه الثمان والسنين ، ولم ير خلالها أبويه . وقضى من هذه السنين ثمانى عشرة في كتابة تاريخ الكنيسة المكون من خمسة مجلدات ، ولم يتمتع عن العمل في خلال تلك السنين ، كما يقول الرواة . وأشد أيام الشتاء برداً حين كانت أظباعه تفقد حساسيتها من فرط البرد . ومن عجب أن عقلاً مضيقاً عليه في المكان يستطيع التحدث هذا الحديث الحسن في مختلف الشؤون الدينية والدنيوية ، فضلاً عن استطرادات في تاريخ الرسائل والأخلاق العادية . وقص أوتو Otto أسقف فرايزنج (حوالي ١١١٤ — ٥٨) في كتابه في الريفين تاريخ الدين والعالم الديني من خلق آدم إلى ١١٤٦ . وبدأ ترجمة مليئة بالفخر لابن أخيه فردريك بربرسا ، ولكنه توفي ولما يتجاوز بطله منتصف حياته . وعين رجل فرنسي مولود في فلسطين يدعى ولیم الصوري William of Tyre (حوالي ١١٣٠ — ١١٩٠) مستشاراً لبولودون الرابع ملك بيت المقدس ،

ثم أصبح بعدئذ كبير أساقفة صور ؛ وتعلم اللغات الفرنسية ، واللاتينية واليونانية والعربية وقليلاً من اللغة العبرية ؛ وكتب بلغة لاتينية سليمة كتاباً هو خير ما يعتمد عليه من المصادر في تاريخ الحملات الصليبية الأولى ، وسماه تاريخ موادث ما وراء البحار *Historia reum in partibus transmarinis gestarum* . وقد حاول فيه أن يفسر الحوادث جميعها بالاستناد إلى الأسباب الطبيعية . وكانت نزاهته في تصوير أخلاق نور الدين وصلاح الدين من أكبر أسباب عقيدة أوربا المسيحية في هذين العاملين اللذين يخالفانها في الدين . وكان ماثيو باريس (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٥٩) راهباً في دير سانت أولبنز ، وشغل أولاً منصب مؤرخ لديره ، ثم بعد ذلك منصب مؤرخ للملك هنرى الثالث ، واستعان بهذين المنصبين على تأليف كتابه التاريخ الكبير بلغة شيقة ممتعة ؛ وهو يروى الحوادث الهامة التي وقعت في تاريخ أوربا بين عامى ١٢٣٥ ، ١٢٥٩ . ويمتاز كتابه بالوضوح والدقة ، ولكن فيه تحيزاً لم يكن متوقفاً منه ؛ ونجد فيه « بالبخل الذى نقر الشعب من البابا » ، وانحاز إلى فردريك الثانى ضد البابوية . وملاً صفحاته بأنباء المعجزات ، وروى قصة اليهودى الجوال (فى عام ١٢٢٨) ، ولكنه روى بصراحة تشكك أهل لندن فى انتقال بعض نقط من دماء المسيح إلى دير وستمنستر (١٢٤٧) . ووضح كتابه بعدة خرائط لإنجلترا رسمها بنفسه ، وهى خير ما رسم من الخرائط فى ذلك الوقت ، وربما كان هو الذى رسم أيضاً الأشكال التى وضع بها كتابه . وإنا لنعجب بجده وغيرة علمه ، ولكن الصورة التى رسمها للنبي محمد (١٢٣٦) تكشف عما يمكن أن يكون عليه رجل مسيحى متعلم من جهل عجيب بالتاريخ الإسلامى .

أما أعظم المؤرخين فى ذلك العصر فهما فرنسيان كتباً بلغتهما القومية ، وكان لهما مع الشعراء الغزلين ورواة الملاحم وشعرائها الفضل فى جعل اللغة الفرنسية لغة

أدبية . فأما أولهما جيوفروي ده فيل هاردون Geoffroy de Villehardouin (حوالى ١١٥٠ — حوالى ١٢١٨) . فكان من النبلاء والمحاربين لم ينل من التعليم النظامى إلا القليل ؛ ولكن جهله بالخيال البلاغية التى تعلم فى المدارس هو الذى مكنته من أن يعلى كتابه فتح القسطنطينية (١٢٠٧) بلغة فرنسية دقيقة خالية من التعميق ، تنتج نحو الغرض من أقرب طريق ، ومن أن يجعل هذا الكتاب من أهم ما كتب فى فن كتابة التاريخ . ولم يكن من أسباب شهرة هذا الرجل بعده عن التحيز ، فقد كان وثيق الصلة بالحرب الصليبية الرابعة ، واضطلع فيها بدور هام ، فلم يستطع لهذين السببين أن يرى تلك الخيانة الجميلة الظاهرة ، خيانة الحقيقة والتاريخ ، بعين الرجل الموضوعى الذى ينظر إلى الحقائق دون غيرها ؛ ولكن من أهم مزاياه أنه كان فى وسط الحوادث نفسها يشهدها ويحس بها حين وقوعها ، مما أضفى على كتابه حيوية لا يكاد يبلها الزمن . وظهر بعد قرن أو نحوه من ذلك الوقت جان سير ده جوانفيل Jean Sire de Joinville قيم القصر فى شمبانيا ؛ وبعد أن خدم لويس التاسع فى حملته الصليبية وفى فرنسا ، كتب وهو فى الثامنة والخمسين من عمره كتابه تاريخ ألفرديس لويس (١٣٠٩) ؛ ونحن نحمد له وصفه خلائق التاريخ وصفاً أميناً بعيداً عن التكلف ، واهتمامه بعاداتهم وقصصهم التى توضح سيرهم وتثير ما يكتنفها من ظلمات . وبفضلهم نستطيع أن نحس بالجو الذى كان سائداً فى ذلك العصر كما لا نحس به فى كتاب فيل هاردون ، فتصحبه حين يخرج من قصره بعد أن يرهق ما يمتلكه كله تقريباً لينضم إلى الحملة الصليبية ؛ ويقول إنه لم يجرؤ على النظر إلى الوراء حتى لا يذوب قلبه أسى حين تقع عينه على زوجته وأبنائه ، ولعله لن يراهم بعد ذلك اليوم . ولم يكن لهذا الرجل ما كان لفيل هاردون من دهاء وسعة حيلة ، ولكنه كان يمتاز بالإدراك الفطرى السليم ، وكان يرى ما فى قديسه من عيوب ، ولهذا رفض أن ينضم إلى الحملة الصليبية التالية حين طلب إليه لويس الانضمام إليها ،

لأنه رأى ببصيرته أن هذه مغامرة لا يرجى لها فلاح ، ويقول إنه حين سأله هذا الملك الورع : « أيهما تفضل - أن تصاب بالجدام أو أن ترتكب خطيئة موبقة ؟ » .

« فأجبتُه وأنا الذى لم يكذب عليه قط بأنه خير لى أن أرتكب ثلاثين خطيئة موبقة من أن أصاب بالجدام . ولما خرج الرهبان من حضرته استدعانى وحدى وأجلسنى عند قدميه وقال لى : كيف تجرؤ على هذا القول ؟ ... فأجبتُه بأنى قلته مرة أخرى بعد ذلك الوقت ؛ فرد على بقوله : لقد تسرعت وكنت أحمق فى ردك ، فإن من واجبك أن تعرف أنه ليس ثمة جدام أبشع من ارتكاب الخطيئة الموبقة ... وسألنى : هل غسلت أقدام الفقراء يوم خميس الصعود ؟ فأجبتُه : يا مولاي ، لو فعلت لأصبت بالغيثان ، إني لن أغسل قط أقدام أولئك الأودياء . فقال لى الملك : الحق أنك قد اخطأت إذ نطقت بهذا القول ، لأن عليك ألا تحتقر ما فعله الله ليعلمنا ، ولهذا فإني أرجوك بحق حبك الله أو لا وحبك إياي ثانياً أن تعود نفسك غسل أقدام الفقراء » (٢) .

ولم تكن حياة القديسين كلها تروى بمثل هذا الصدق وتلك الأمانة ؛ ذلك أن الإحساس بالانتماء للأمانة ومراعاة الضمير فى رواية التاريخ كانا من الضعف فى عقول الناس فى للعصور الوسطى بحيث يخيل إلينا معهما أن كتاب هذه القصص الأخلاقية كانوا يظنون أن لا ضرر مطلقاً فى اعتقاد الناس أن ما يروونه صحيح كله ، وأن الخير كل الخير فى أن يصدقوه . وأكبر الظن أن المؤلفين كانوا فى معظم الأوقات يأخذون القصص المنتشرة عن غيرهم ، وأنهم كانوا يصدقون ما يكتبون : وإذا أخذنا تراجم القديسين على أنها قصص لا أكثر وجدناها مليئة بالطرائف والمتع . فلينظر القارئ مثلاً إلى الطريقة التى حصل بها القديس كرسطوفر Christopher على اسمه لقد كان فى أول حياته رجلاً جباراً من أهل كنعان يبلغ طوله

ثمانى عشرة قدماً ، ثم دخل فى خدمة أحد الملوك لأنه سمع أن هذا الملك أقوى رجل فى العالم . وحدث فى يوم من الأيام أن رسم الملك على نفسه علامة الصليب حين ذكر بعضهم أمامه اسم الشيطان ، فاستدل كرسنفر من هذا على أن الشيطان أقوى من الملك ، ولم يكن منه إلا أن دخل فى خدمة الشيطان . ولكن الشيطان رأى علامة الصليب إلى جانب الطريق فولى هارباً ، واستدل كرسنفر من هذا على أن عيسى (عليه السلام) أقوى بلاء شك من الشيطان ، فوهب نفسه للمسيح . ووجد الرجل مشقة فى الصوم المسيحي ، فقد كان جسمه الضخم يتطلب الطعام الكثير ، وكان لسانه الكبير يتعثر فى أبسط الصلوات . ووضعه ناسك صالح على شاطئ مخاضة أغرق تيارها السريع كثيرين ممن حاولوا اجتيازها . وحل كرسنفر المسافرين على ظهره ونقلهم إلى الشاطئ الآخر فى أمان دون أن يبتلوا بالماء ، حتى كان فى يوم من الأيام يحمل طفلاً صغيراً ليعبر به المجرى ، فوجده ثقيلاً ؛ ولما سأله عن السبب أجابه الطفل بأنه يحمل ثقل العالم كله ؛ ولما وصل هذا الطفل إلى بر السلامة شكر له حسن صنيعه وقال له : « أنا المسيح عيسى » ثم اختفى ؛ وفى هذه اللحظة أزهرت فجأة عصا كرسنفر وكان قد غرسها فى الرمل (٣) . ثم لينظر القارئ إلى قصة القديس جورج شفيع بريطانيا . فمن هو هذا القديس ؟ لقد كان بالقرب من سيلنم Silenum فى ليبيا تين يقدم له فى كل عام شاب أو شابة طعاماً له ؛ وكان الشاب (أو الشابة) يختار بالقرعة ويقدم للتين حتى لا يسم القرية بنفسه . ووقعت القرعة فى أحد الأعوام على ابنة الملك العذراء ، ولما أقبل اليوم الموعود مشت نحو البركة التى يقيم فيها التين ، فرآها القديس جورج وسألها عن سبب بكائها ، فأجابته الفتاة قائلة : « أبها الشاب ، أرى أن لك قلباً كبيراً نبيلاً ، ولكنى أرجوك أن تبادر بالابتعاد عني » . وأبى الشاب أن يجيبها إلى ما طلبت ، وما زال بها حتى أجابته عن سؤاله ، فلما فعلت قال لها :

« لا تخافى فإنى سأساعدك باسم عيسى المسيح » . وخرج الثنين من الماء فى هذه اللحظة ورسم جورج علامة الصليب ، ونادى باسم المسيح ، وهجم على الثنين ، وطعنه بحربته ، وأمر الفتاة أن تلقى بمنطقتها حول عنق الثنين الجريح ، ففعلت ما أمرها به ؛ وخضع الثنين لسحر جمالها الفتان كما يخضع له كل شهم من الرجال ، وسار خلفها مطيعاً ذليلاً طوال حياتها وجمع ياقوبو ده ثوراجين Jacopo de Voragine كبير أساقفة جنوى هاتين القصتين وأمثالها فى كتاب ذائع الصيت نشر حوالى ١٢٩٠ ؛ فكان يروى لكل يوم من أيام السنة قصة قديسها المخصص هذا لليوم له ، وسمى كتابه قراءات عن القديسين Legenda sanctorum . وصارت مجموعة قصص ياقوبو من الكتب المحببة للقراء فى العصور الوسطى ، وأطلقوا عليها اسم القراءات الذهبية . وأشارت الكنيسة بوجوب الاحتياط تصديق بعض هذه القصص^(٤) ، ولكن الناس أحبوها وصدقوها كلها ، ولعلمهم لم يكونوا فى هذا أكثر انخداعاً فى الحياة عن السذج من الناس الذين يصدقون القصص الخرافية فى هذه الأيام .

وكان الشعر أحسن ما كتب باللغة اللاتينية فى العصور الوسطى ، ولم يكن الكثير منه شعراً إلا بالاسم فحسب ، لأن جميع المواد التقنية على اختلاف أنواعها - من تاريخ ، وقصص ، ورياضة ، ومنطق ، ودين ، وطب - كانت تكتب فى أبيات موزونة مقفاة ، ليسهل بذلك استظهارها . وكتبت أيضاً ملاحم تافهة عظيمة الطول مثل ملحمة الكسندريسي Alexandreis (١١٧٦) التى نظمها ولتر الشاتيلونى Walter of Châtillon وتبدو لنا هذه الملاحم الآن مملّة بقدر ما تبدو قصيدة الفردوسى المفقود Paradise Lost وكتب أيضاً جدل شعري - بين الجسم والنفس ، والموت والإنسان ؛ والرحمة والصدق ، والفلاح والقس ، والمرأة والرجل والنبيذ والماء ، والنبيذ والجعة ، والورد والبنفسج ، والطالب الفقير والقس

الذى ينال من الطعام كفايته . بل ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فكتب .
جدلا بين هيلين وجنيميد ليوازن بين فضائل عشق الرجال للنساء وعشق
الرجال للغلمان(*) . وقصارى القول أن شيئا ما من شئون الآدميين لم يكن .
غريبا على الشعر .

وترك الكتّاب من القرن الخامس وما بعده قياس أوزان الشعر بمقدار
ما فيه من الحروف المتحركة كما كانوا يفعلون في الشعر القديم ، وجاء
الشعر اللاتينى المستمد من الشعور العام لا من الفن العلمى بنوع من الشعر
جديد يعتمد على التبرات والوزن والقافية . وكانت هذه الضروب من
الشعر موجودة بين الرومان قبل أن تغزو الأوزان اليونانية بلادهم ، وظلت
ألف عام مع الطراز اليونانى . وبقيت الأنماط الفصحى - من شعر سداسى
الأوتاد ، ومراث ، وشعر من نوع شعر ساففو طوال العصور الوسطى ؛ ولكن
العالم اللاتينى حل هذه الأنماط ، فقد خيل إليه أنها لا تتناغم مع أمزجة
التقى ، والرحمة ، والركة ، والأدعية الدينية التى نشرها الدين المسيحى ؛
فدخلت فيه أوزان أكثر منها بساطة ، هى الأبيات القصيرة من البحر
العميق(*) . تكاد تنقل كل عاطفة بشرية من خلجات القلب إلى ضربات
أرجل الجند الزاحفين إلى الحرب .

وما من أحد يعرف من أين جاءت القافية إلى العالم المسيحى الغربى
وإن كان الكثيرون يبدون آراء تعتمد على الخلدس وحده . لقد
اتبعت القافية فى عدد قليل من القصائد الوثنية كقصائد إينوس ،
وشيشرون ، وأبوليوس ؛ وكانت تستعمل أحيانا فى الشعر العبرى
والسريانى ، واستعلت مراراً متفرقة فى الشعر اللاتينى أثناء القرن
الخامس ؛ وهى شائعة الاستعمال فى الشعر العربى منذ عهد قديم يرجع
إلى القرن السادس الميلادى . ولعل حب المسلمين للقافية قد أثر فى

(*) Iambic بحر من الشعر مؤلف من فواصل قصيرة تليها فواصل طويلة ، أو من
مقاطع لها نبرة صوتية تليها مقاطع غير ذات نبرة صوتية . (المترجم عن قاموس سعادة)

المسيحيين الذين اتصلوا بالإسلام ؛ وبذكرنا الإفراط في التزام القافية في
أواسط الأبيات وأواخرها في شعر العصور الوسطى اللاتيني بهذا الإفراط
عينه في الشعر العربي . ومهما يكن في هذا من خير أو شرف فإن هذه
الصنيع الجديدة قد أنتجت ضرباً جديداً من الشعر اللاتيني ، يختلف
في كل شيء عن الشعر القديم ، موفوراً وفرة عجيبة ، يبلغ من الجودة
درجة لم تكن متوقعة . وإلى القارئ مثلاً من شعر بطرس دميان
(١٠٠٧—١٠٧٢) الناسك المصلح يشبه دعوة المسيح بدعوة محب فتاة يحبها :

منذا الذي يدق بابي ؟

أتريد أن تبدد أحلام ليلي ؟

فيناديني ؛ يا أجمل العذارى ،

يا أختي ؛ ورفيقتي ، يا جوهرة متألقة !

أسرعي ! قومي ! افتحي يا أحلى الفتيات !

* * *

أنا ابن الملك العلى الأعلى

أنا أكبر أبنائه وأصغرهم

هبط من السماء إلى هذه الظلمة

ليحرر أرواح الأسرى .

لقد تحملت الموت وكثيراً من ضروب الأذى .

* * *

فغادرت فراشي من فوري

وهرولت نحو عتبة الباب

لكي يفتح البيت كله إلى الحبيب

وتتملى روحى بروية

من تتحرق شوقاً إليه .

ولكنه مرّ بنا مسرعاً

وغادر بابي

فماذا أفعل أنا الشقية البائسة ؟

فتبعت والدمع ينهمر من عيني

الشاب الذى صوّرت يدها الإنسان .

وكان قول الشعر عند بطرس دميان أمراً عارضاً ؛ أما عند هيلدبرت الفرديني Hildebert of Lavardin (١٠٥٥ — ١١٣٣) كبير أساقفة تور فكان هياماً شق به طريقه إلى الإيمان . ولعل برنجر Birenger عالم تور Tours الذى درس على فلبرت فى بلدة شارتر Chartres قد بعث فيه حباً للأدب اللاتينية القديمة . ونزلت به محن كثيرة سافر بعدها إلى رومة ، وهو لا يدرى أى الأمرين أقوى عنده من الآخر : أهو السعى إلى البركة البابوية ، أم إلى رؤية الأماكن التى جعلتها القراءة عزيزة عنده ؟ وتأثر الرجل بعظمة العاصمة القديمة واضمحلالها ، وأنطقه شعوره بمحنة الطراز القديم :

« أى رومة ! ليس فى المدائن كلها ما يماثلك ! وإن كدت تصبحين خربات ! ألا ما كان أعظمك وأنت بمنجاة من الدمار ! إنا نتعلم منك فى محنتك ؛ لقد حطم كبرياءك مر الدهور ، فتداعت فى المنافع حصون قبصر مع هياكل الأرباب . وتهدمت تلك الصروح ، تلك الصروح الشاهقة التى كان البرابرة العتاة يرتعدون خوفاً حين يرونها قائمة ، ويحزنون حين يرونها متداعية . . . ولكن كر الدهور وقعقة السيوف لا يقويان على إبادة هذا المجد . »

فى هذه المراثاة برع شاعر فى العصور الوسطى فى استخدام اللغة اللاتينية براعة لا تقل عن براعة فرجيل نفسه . ولكنه لم تفارقه قط نزعة المسيحية ، فقد كان يمجّد من السلوى فى المسيح ومريم أكثر مما يمجّد فى جوهر وميترفا ، ولهذا

نراه فى قصيدة متأخرة عن القصيدة السابقة يهجر الأرضة القديمة ويقول :

(رومة تتحدث) : إن هذه الهزيمة أحلى عندى من تلك الانتصارات ،
وإنى فى فقرى لأعظم منى فى غناى ، وإنى وأنا ملقاة على الأرض لأعظم منى
وأنا رفيعة العباد ، ولقد أمدنى عَلم الصليب بأكثر مما أمدتنى النسور ،
ووهبنى بطرس أكثر مما وهبنى قيصر ، وحبتنى الجموع العزلاء بأكثر مما
حبانى القواد المدججون بالسلاح . لقد سدت الأم وأنا قائمة على قدمى ،
وهأنذا وأنا مخربة أضرب فى أعماق الأرض ؛ ولقد سيطرت على الأجسام
وأنا قائمة ، وهأنذا وأنا محطمة جائية أحكم الأرواح ؛ لقد كنت فى الزمن
القديم آمر شعبا بائسا ، أما الآن فإنى أصدر أوامرى إلى أمراء الظلام ؛ لقد
كانت المدائن مملكتى فى الزمن القديم أما الآن فمملكتى هى السماء .

إن اللغة اللاتينية لم يكتب بها حتى ذلك الوقت شعر يضارع هذا الشعر
منذ أيام فورتناتس Fortunatus .

الفصل الثانى

الخمير والمرأة والأغانى

من الطبيعى أن يكون علمنا بالنواحي الوثنية أو المتشككة فى حياة العصور الوسطى قطعاً متفرقة ؛ ذلك بأن الماضى لم يصل إلينا نزيهاً أميناً إلا فى دمائنا . وهذا يزيد من إعجابنا بروح التسامح والتحرر — أو روح الزمالة فى الغبطة — التى حملت دير بندكتيرن Benediktbeuern (فى بافاريا العليا) على الاحتفاظ بالخطوط الذى شق طريقه إلى المطبعة فى عام ١٨٤٧ وسمى باسم قصائمه *Carmina Burana* والذى يعد الآن أهم ما لدينا من المصادر لشعر « العلماء الجوالين » (*) . ولم يكن هؤلاء من الذين يضربون فى الآفاق ؛ فقد كان منهم رهبان ضلوا فى طريقهم إلى أديرتهم ، ومنهم قساوسة فقدوا مناصبهم ، وكانت كثرتهم طلاباً فى طريقهم من موطنهم إلى جامعتهم أو من إحدى الجامعات إلى الأخرى ؛ وكثيراً ما كانوا يقطعون طريقهم هذا سيراً على أقدامهم . وكان كثيرون من الطلاب يرجعون على الخانات فى الطريق ، ومنهم من كانوا يتذوقون الخمير والنساء ، ويستمعون إلى المعارف غير المدونة ، ومنهم من كانوا يؤلفون الأغاني ، ويتغنون بها ، ويبيعونها لمن يطلبها ؛ ومنهم من فقدوا أملهم فى أن يكونوا من رجال الدين فكانوا يعيشون بأقلامهم يخصصون بشعرهم الأساقفة أو الأعيان . وكانت أكثر ميادين نشاطهم فرنسا وألمانيا الغربية ؛ ولكن شعرهم ما لبث أن انتشر بين البلدان المختلفة لأنهم كانوا يكتبونه باللغة اللاتينية . وكانوا يدعون أنهم ينتظمون فى هيئة خاصة هى نقابة الجوالين ، واخترعوا لهاموساً وهو ما

(*) ومن المصادر الأخرى مخطوط فى مكتبة هارلم ألف قبل عام ١٢٦٤ ونشره تومس وايت فى عام ١٨٤١ باسم « قصائد لاتينية قعزى عادة إلى والترميس » .

وقديساً شفيعاً هو شخصية أسطورية شبيهة بشخصيات ريليه وسموه جلياس Golias . ولنا لنجد من ذلك الزمن البعيد ، وهو القرن العاشر الميلادى ، ولتر كبير أساقفة سان Sens ساخطاً أشد السخط على « أسرة جلياس » المردولة ، كما أن مجلساً كنسياً عقد فى عام ١٢٢٧ جهر بسخطه على الجلياردى Golardi لأنهم ينشدون أشعاراً يسخرون فيها من أقدم الأناشيد والطقوس الدينية^(٦) . ويقول مجلس سلزبرج المنعقد فى عام ١٢٨١ لهم « يسرون بين الناس عراة ، وينامون فى أفران الخبز ، ويفشون الحنات ، وأماكن الألعاب ، والمواخير ، ويكسبون عيشهم برذائلهم ، ويتشبهون أشد التشبه بشيعتهم »^(٧) .

ولسنا نعرف من هؤلاء الشعراء الجلياردين ، إلا أفراداً قلائل ، منهم شاعر يسمى هيو Hugh أو هوجو برعاس Hugo Primas ، وكان راهباً علمانياً فى أورليان عام ١١٤٠ يصفه كاتب من منافسيه^(٨) بأنه « إنسان ذئب ، مشوه الوجه » ، ولكنه اشتهر « فى كثير من الأقاليم » بحضور البديهة ، وقرض الشعر ، هلك لأن أحداً لم يبتع شعره ؛ وكان يقذف الأغنياء من رجال الدين بأقذع أنواع الهجاء التى يملها عليه حقه . كان رجلاً غزير العلم ، صفيق الوجه ، قليل الحياء ، يصوغ أفحش المعانى فى شعر سداسى الأوتاد ، لا يقل روعة عن شعر هيلديبرت .

وكان أوسع منه شهرة شاعر آخر لا نعرف الآن اسمه ولكن المعجبين به كانوا يسمونه « كبير الشعراء Archipoeta » (حوالى ١١٦١) ؛ وهوفارس ألماني يفضل الخمر والمداد عن السيف والدم ، ويعيش عيشاً مضطرباً على الصدقات التى كان يمدده بها من حين إلى حين رينلد فن داسل Rainald Von Dassel كبير أساقفة كولونى المنتخب ، وسفير ببرسا فى بافيا . وحاول رينلد أن يصلح ما فسد من أخلاقه ، ولكن الشاعر توسل إليه أن يتركه وشأنه ، وكان ذلك فى قصيدة من أشهر ما قيل من القصائد فى العصور الوسطى ، وهى قصيدة « اعتراف

جالوت» - التى أصبحت المقطوعة الأخيرة منها نشيد الشراب المحبب الشائع
فى الجامعات الألمانية :

١ أنا الذى فاضت نفسى بالحقد الدفين الشديد ،

استمع يا ضاح إلىّ أعلن ما فى نفسى من حقد مريب :

لقد خلقت من عنصر واحد ، مادنى الطيش ،

أشبه الأشياء بورقة من شجرة فى مهب الريح .

* * *

٢ لم أطق حتى اليوم الأحزان ولا الاعتدال فى الشهوات ،

أحب الزكات ، والمرح عندى أحلى من الشهد .

وكل ما أمرت به فينوس هو عندى الغبطة التى لاتعادلها غبطة ،

وهى لم تتخذ قط لها مسكناً فى قلب خبيث .

* * *

٣ إلى أسير فى الطريق الرحب شاباً غير نادى على شىء ،

ألا فلفتنى فى الرذائل لفساكى أنسى كل الفضائل (*) .

فإن شرهى لعب اللذات أكثر من شوقى إلى ماكوت السموات ،

لأن ما كان فى من روح قد مات ، وأصبح من الخير لى أن

أنجى الجسد .

* * *

٤ عفواً أيها السيد الصالح ، يا صاحب العقل الحصيف ،

إن هذا الموت الذى أسمى إليه حلوا ، وهو سم ما أحلاه .

لقد تفلدت فى جسمى سهام لحاظ فتاة جميلة .

(*) يذكرنا هذا بقول أبي نواس : تكثر ما استطعت من الخطايا . . . الخ . انظر

الحزء ١٣ من هذه السلسلة . (المترجم) .

وماذا على العقل لو عبدها إن لم يكن لإلها من سبيل ؟

* * *

٥ ألا تحرقك النار إن جلست في وسطها ؟
وإن جئت إلى بافيا ، فهل تعود منها طاهراً عفيفاً كما جئتها ؟
بافيا التي تجتذب الشباب بأطراف أناملها ،
الشباب الذي وقع في شرك عينها وافتتن بسحر شفقتها .

* * *

٦ جىء ههوليتس ليتعشى في بافيا ،
فلما أصبح الصباح اختفى ههوليتس عن الأنظار .
فليس في بافيا طريق لا يؤدي إلى الفجور ،
وليس في أبراجها الكثيرة برج واحد للعفاف .

* * *

٧ إن هذا هو معقد أملى ، فإذا دنت الساعة منى ،
فدعنى أمت في الحانة وكأس الخمر إلى جوارى ،
والملائكة يطلون على ويغنون مغتبطين :

(*) « رضى الله عن هذا السكر »

وتشمل قصائد بيرن جميع موضوعات الشباب : تشمل الربيع ، والحب ،
والافتخار بغواية النساء ، والفحش الرقيق ، وأغاني الحب الحنونة التي لا يستجيب
لها الحبيب ، وأغنية ينشدها طالب علم يشير فيها بوقف الدرس ، وتقرير يوم عطلة
للحب .. وفي إحدى الأغاني تفاجئ فتاة شاباً أثناء كدحه وتسأله : « ماذا تفعل
ياسيدى ؟ هيا بنا ناعب سوياً » ؛ وتغنى أنشودة أخرى بخيانة النساء . وأخرى

(*) ما أشبه هذه القصيدة بشعر عمر الخيام الذي ذكر المؤلف شيئاً منه في الجزء الذي سبقه
للحضارة الإسلامية في هذا المجال . (المترجم) .

عبرها بحزن فتاة غدر بها الحبيب ، وكانت بدانتها سببا في الضربات يكيلها لها أبواها . ويتغنى كثير من القصائد بملذات الشراب ، والميسر ؛ ومنها ما يندد بثروة الكنيسة مثل « قصيدة الإنجيل حسب المارك القضى » ؛ ومنها ما يقلد أنبل الترانيم ، ومنها قصيدة على غرار قصائد هوثمان Whitman تتغنى بالطريق المفتوح (١٠) . وكثير منها شعر غث لكن منه ما هو آية رائعة من آيات الشعر الغنائى . وها هي ذى أنشودة محب يتغنى فيها بالموت المثالى :

لما أن استسلمت في غير مبالاة للحب ولى ،
ضحك الجمال من كوكبها الوضاء البعيد في السماء ،
ونمرتنى نشوة لا حد لعظمتها ،

ولم يتسع قلبي لهذه الغبطة العظيمة التى فاضت على
حين بدلتنى حبيبتى ، وقد طوقتني بذراعيها ، غير ما كتبت ،
وصبت كل ما فى شففتها من رحيق فى قبلة حباتي بها .
وما أكثر ما أحلم بالحرية التى نلتها من صدرها الاين .
لقد أصبحت بعدها ربا آخر بين أرباب السماء ،

وإذا ما وجدت يدي مرة أخرى فوق صدرها فسأكون المحكم الأعلى
بين الآلهة والخلق (*) (١١) .

ومعظم الشعر الغزلى فى قصائد بيرن شهوا صريح . نعم إن فيه أبيانا تفيض رقة وظرفاً ولكنها أبيات قليلة نادرة الوجود ؛ وكان علينا ولولم نعتز على هذا الشعر أن نتوقع وجود ترانيم الفينوس تنشأ عاجلا أو آجلا إلى جوار ترانيم الكنيسة . ذلك أن المرأة ، وهى الدعامة القوية الوفية للدين ، هى أكبر منافس للآلهة . وظلت الكنيسة تستمع وهى صابرة لهذه الأغاني ، أغاني الحب والحمر ،

(*) وهذا يذكرنا أيضاً بقول امرئ القيس فى معلقته : وبیضة خدر . . . الخ . (الترجم)

ولكن مجلساً لها عقد في عام ١٢٨١ قرر أن كل قس (ومن ثم كل طالب) يؤلف أغاني شهوانية أو خارجة على الدين ، أو يتغنى بها ، يفقد بذلك منصبه الديني وحقوقه . وبذلك انحط من بقي من الطلاب بعد هذا القرار مالياً لجوليات إلى منزلة المغنى ، وخرج من سلك الأدباء إلى سلك الوزانين المضحكين . ولم يحل عام ١٢٥٠ حتى كان عهد الطلاب الجوالين قد انقضى . ولكنهم كانوا قد ورثوا تياراً وثقافاً يسرى في طبقات القرون المسيحية ، ولهذا فإن مزاجهم وشعرهم بقيا كامنين حتى دخلا في عصر النهضة .

وكان الشعر اللاتيني نفسه يلفظ آخر أنفاسه بانهضاء عهد الطلاب الجوالين ؛ ذلك أن القرن الثالث عشر قد وجه العقول نحو الفلسفة ؛ وانزوت الآداب القديمة وقنعت بمنزلة صغرى في براميج الجامعات . ولم يجد الأدب الظاريف الممتع أدب هيلد بيرت ويوحنا السلزبرى الذى كان يضارع أدب عصر أغسطس ، لم يجد هذا الأدب من يرثه . ولما تهرم القرن الثالث عشر واتخذ دانتى اللغة الإيطالية أداة يكتب بها شعره ، أضحت اللغات القومية لغات الأدب ؛ وحتى التمثيل ربيب الكنيسة وخادمها خلع عنه رداء اللاتينية ونطق بلغات الشعوب .

الفصل الثالث

بعث التمثيل

مات فن التمثيل القديم قبل بداية العصور الوسطى ، لأنه انحدر إلى تمثيليات هزلية ماجنة ثم حلت محله استعراضات للألعاب ؛ وكانت تمثيليات سنكا وهرسوينا Hroswitha حركات رياضية لا أكثر ، ويبدو أنها لم تجد سبيلها إلى المسرح . وبقيت بعد ذلك ناحيتان من نواحي النشاط التمثيلي تصلان الماضي القديم بالزمن الذى تلا العصور الوسطى : أولاهما مناظر المحاكاة التى كانت تجرى فى الأعياد الزراعية ، وثانيتها التمثيليات الهزلية التى كان يمثلها المغنون الجوالون والمهترجون فى أمهاء القصور أو ميادين القرى (١٢) .

ولكن أشهر منابع التمثيل فى العصور الوسطى هى الطقوس الكنسية شأنها فى هذا شأن اليونان القديمة . فالقداس نفسه منظر تمثيلي ، والحرم المقدس مسرح مقدس ، وكان القساوسة القائمون بخدمة القداس يلبسون حللا رمزية ؛ ويقومون هم وخدم الكنيسة بالحوار . وأناشيد القساوسة والمرتلين المتبادلة ، والمرتلين بعضهم مع بعض ، توحى بأن التمثيل تطور من الحوار الذى نشأت منه المسرحية الديونيسية . وفى الاحتفالات التى كانت تقام فى بعض الأعياد المقدسة نشأ العنصر التمثيلي نشأة واضحة صريحة ؛ فقد كان الناس فى بعض الطقوس الدينية التى تقام فى يوم عيد الميلاد فى القرن الحادى عشر يدخلون الكنائس فى زى رعاة الغنم ويحييم غلام « ملاك » من المغنين بقوله : « أخبار سارة » ، ويتعبدون أمام صورة طفل من الحبس فى مذود . ثم يدخلون ثلاثة « ملوك » من باب فى الجهة الشرقية ويقودهم إلى المذود نجم يُجرّ على سلك (١٣) . وكانت بعض الكنائس تمثل فى

الثامن والعشرين من ديسمبر « مذبحه البرشين » : فكان بعض الغلمان المرتلين يمشون في صحن الكنيسة وجناحيها ، ويسقطون على الأرض كأن هيرود قد ذبحهم ، ثم يقومون ، ويسيرون إلى الحرم المقدس ، يرمزون بذلك لصعودهم إلى السماء^(١٤) . وفي يوم الجمعة الحزينة كانت كنائس كثيرة ترفع صور المسيح المصلوب من المذبح ، ثم تحمل هذه الصور وتودع في مستقر يشبه الضريح المقدس ، تعاد منه بعد ذلك إلى المذبح في صباح عيد الفصح باحتفال مهيب رمزاً لبعث المسيح^(١٥) . وكتب جريجوري نزيانزين Gregory Nazianzen بطريق القسطنطينية في عام ٣٨٠ لا بعد قصة آلام المسيح في صورة تمثيلية يوربيدية Euripidean^(١٦) ، ولا تزال تمثيلية آلام المسيح من ذلك الوقت حتى الآن ذات شأن عظيم عند الشعوب المسيحية . وكانت الكتب تقول إن أول مسرحية من هذا النوع هي التي مثلت في سينا حوالى عام ١٢٠٠ ، ولكن أكبر الظن أن مسرحيات أخرى كثيرة من نوعها مثلت قبل ذلك التاريخ بزم من طويل .

وإذ كانت الكنيسة تستعين بالبناء ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى لتطبع في عقول المؤمنين المناظر والأفكار الرئيسية في الملحمة المسيحية ، فإنها بذلك كانت تلجأ إلى خيال الشعب وتزيد تقواه بما تضيفه على المناظر التمثيلية في الأعياد الكبرى من روعة وتفصيل مطردة الزيادة ، وكانت النصوص الموضحة التي أضيفت إلى الطقوس الدينية لتكسبها الروعة الموسيقية ، كانت هذه النصوص الموضحة تحول أحياناً إلى تمثيلات قصيرة . من ذلك أن نصاً موضحاً لعيد الفصح في مخطوط من القرن العاشر في سانت جول St. Gall يدخل الحوار الآتي في ترنيمة مقسمة لتمثل فيها الملائكة والمريمات الثلاث^(١٧) .

الملاحظة : منذ الذى تبحث عنه فى الضريح يا خادماى المسيح ؟

المريمات : نبحث عن المسيح الذى صلب يا رسلا من السماء .

(*) مريم أم المسيح ، ومريم أختها ، ومريم المجدلية . (المترجم)

الموسى : ليس هو فى هذا المكان ، لقد صعد كما قال من قبل ،
اذهبن وأذعن أنه قد صعد .

المرتلون ، صهيما : احمدا الرب ، الرب قد صعد (١٧) .

وأخذت المذاظر الدينية منذ القرن الثانى تزداد تعقيداً على مر الأيام حتى
لم يعد تمثيلها فى داخل الكنيسة مستطاعاً ، ولذا أقيم طوار مرتفع فى خارجها
ومثل المسرحية فوقه ممثلون يختارون من بين أفراد الشعب ، ويدربون على
استظهار أدوار مطولة مكتوبة . وأقدم ما لدينا من أمثلة لهذا الضرب من
التمثيل تمثيلية آدم التى كتبت فى القرن الثانى عشر باللغة الفرنسية بينها سطور
باللغة اللاتينية مكتوبة بالمداد الأحمر لتكون تعليمات للممثلين .

وفى هذه المسرحية يظهر آدم وحواء فى دثارين أبيضين يلعبان فى جنة
ممثلة بأعشاب وأزهار أمام الكنيسة . ثم تظهر الشياطين فى الأتواب الحمراء
الملتصقة بالجسم التى أضحت من ذلك الوقت ثيابهم الخاصة فى دور التمثيل ،
ويجرى أولئك الشياطين بين النظارة يلوون أجسامهم ويقطبون وجوههم
تقطيماً مروعاً رهيباً ، ويقدمون الفاكهة المحرمة لآدم فرفضها ، فيقدمونها
لحواء ، فتتناولها ، وتقنع آدم بأن يحذو حذوها . ويدان آدم وحواء برغبتها
فى المعرفة فيسلكان فى أغلال من الحديد وتجرحهما الشياطين إلى الجحيم ممثلة
بحفرة فى الأرض ينبعث منها صوت رهيب دال على الفرح . وفى الفصل
الثانى يستعد قاين لذبح هابيل وينادى : « يا هابيل سوف تموت » ، فيسأله
هابيل : « ولم أموت ؟ » فيجيبه قاين : « أتريد أن تعرف لم أريد أن
أقتلك ؟ ... سأخبرك . سبب ذلك أنك تفرط فى سعيك لتتال الخطوة
عند الله » . ويلقى قاين بنفسه فوق هابيل ويضربه حتى يموت . واكن
مؤلف الرواية تأخذه الرأفة فيكتب بين السطور بالمداد الأحمر : « سيكون
تحت ثياب هابيل جفنة » (١٨) .

وأطلق فيما بعد على هذه التمثيليات المستمدة من الكتاب المقدس اسم « الأفعال الخفية » ؛ واللفظ مشتق من الكلمة اللاتينية ministerium ومعناها الفعل ، وكان هذا أيضاً هو معنى drama . ولما أضحت القصة تمثل أحداثاً وقعت بعد زمن الكتاب المقدس سميت بمسرحيات المعجزات ، وكانت تدور في العادة حول بعض الأفعال العجيبة التي قامت بها العذراء أوفام بها بعض القديسين . وقد كتب هيلاريوس Hilarius تلميذ أبلاز كثيراً من هذه المسرحيات (حوالي ١١٢٥) بخليط من اللغتين اللاتينية والفرنسية ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى كانت اللغات القومية الأداة التي تكتب بها « مسرحيات المعجزات » . وأخذت الفكاهات المتزايدة الصراحة تصبح فيها ذات شأن مطرد الزيادة ، كما أصبحت موضوعاتها تتجه شيئاً فشيئاً وجهة دينوية غير دينية .

وكانت « المهازل » في هذه الأثناء قد أخذت تتطور تطوراً مستقلاً نحو المسرحيات . ويتمثل هذا التطور في مسرحيتين قصيرتين وصلتا إلينا من قلم آدم ده لا هال Adam de la Halle (حوالي ١٢٦٠) ، وهو رجل أحذب من أراس Arras . وتلدور إحدى هاتين المسرحيتين ، مسرحية آدم Li Jus Adam ؛ حول حياة المؤلف نفسه . فقد كان يفكر في أن يكون قساً ، ولكنه أحب مارية الحسناء . « وفي يوم جميل من أيام الصيف مماؤه صافية ، وجوه لطيف ، بينا كانت الطيور تنطلق بأصواتها العذبة ، تحت بين الأشجار العالية على شاطئ النهر فتاة هي الآن زوجتي . . . لقد رويت الآن ظمأى منها » . ويخبرها بهذا في صراحة ظريفة ويعتزم الذهاب إلى باريس وإلى الجامعة . ويدخل المؤلف في هذا الفصل الخاص بشئونه هو وزوجته ، طيباً ، ومجنوناً ، وراهباً ، يستجدي الناس الصدقات ويعدهم بالمعجزات ، وجماعة من الجنيات ينشدن الأناشيد ، ويذكرنا هذا بأدوار لرقص التي تتحم إقحاماً في التمثيليات الغنائية الحديثة . ويسىء آدم إلى إحدى الجنيات ، فتصب عليه لعنة تمنعه أن يفارق زوجته طول حياته ، ومن

هذا الهراء أخذت المسرحيات تتطور نظوراً مستمراً حتى وصلت إلى مسرحيات برناردشو Bernaad Shaw .

وكلما بعدت المسرحيات عن الموضوعات الدينية واقتربت من الموضوعات الدنيوية ، انتقل تمثيلها شيئاً فشيئاً من الكنيسة وما حوّلها إلى السوق العامة أو إلى غيرها من ميادين البلدة . ذلك أنه لم تكن هناك وقتئذ دور للتمثيل ، فكانوا إذا أرادوا أن يمثلوا في مكان ما تلك المسرحيات القليلة - وكان ذلك يحدث في العادة في عيد من الأعياد الصيفية - يقيمون مسرحاً مؤقتاً ، ويضعون مقاعد للنظارة ، وينشئون مظلات مزركشة لأصحاب المقامات العالية . وكان من المستطاع أن تستخدم البيوت المحيطة بالميدان لتمثيل المناظر الخلقية وغيرها مما يحتاجه الممثلون . وكان الذين يقومون بالأدوار في المسرحيات الدينية هم الشبان من رجال الدين ؛ أما في المسرحيات غير الدينية فكان الممثلون هم أهل المدينة « الماجنين » أو المغنين الجوالين ؛ وقلما كانت النساء يشتركن في التمثيل . ولما زاد بعد التمثيلات عن الكنيسة في منازرها وموضوعاتها ، نزعَت هذه التمثيلات إلى التهريج والحلاعة والفحش ؛ ورأت الكنيسة ، وهي التي نشأت في أحضانها المسرحية الجديدة ، أن لا بد لها من أن تعلن أن التمثيلات القروية تجافي الأخلاق الفاضلة . وهكذا نرى جروستسقي أسقف لنكلن يضم التمثيلات ، ومنها « تمثيلات المعجزات » إلى مجالس الشراب . « وعيد الحمقى » (*) ، ويقول إن هذه أعمال يجب ألا يشهدها أي مسيحي ؛ وصدرت بعده أوامر شبيهة بهذا الأمر (بين عامي ١١٣٦ و ١١٤٤) تقضي بأن الممثلين الذين يشتركون في هذه التمثيلات يحرمون من الدين . أما القديس تومس فكان أكثر من هذا تسامحاً ، وقال إن مهمة التمثيل قد وجدت لمواساة الإنسانية ، وإن الممثل الذي يمارسها على خير وجه ربما نجا من الجحيم برحمة من الله .

(*) اسم كان يطلق على رأس السنة عند بعض كنائس فرنسا في العصور الوسطى وسمى كذلك لما كان يحدث فيه من الحلاعة . (المترجم)

الفصل الرابع

الملاحم والقصص المنشورة

سار اصطباغ الأدب بالصبغة الدنيوية مع نشأة اللغات القومية جنباً إلى جنب . ويمكن القول بوجه عام إن رجال الدين وجددهم هم الذين كانوا يفهمون اللغة اللاتينية قبل القرن الثاني عشر ، وإن الكتاب الذين كانوا يريدون أن يتصلوا بغير رجال الدين كانوا مضطرين إلى الكتابة باللغات القومية ؛ وكان جمهور القراء يزداد اتساعاً كلما زاد النظام الاجتماعي نماء ، وأخذت الآداب القومية ترتقى تدريجاً لتسد مطالب هذا الجمهور . وكانت نتيجة هذا أن نشأ الأدب الفرنسي في القرن الحادي عشر ، والأدب الألماني في القرن الثاني عشر ، والإنجليزي والأسباني والإيطالي في القرن الثالث عشر .

وكان من الطبيعي أن تصبح الصورة الأولى لهذا الأدب القوي هي الأغنية الشعبية ، ثم طالت الأغنية فأضحت هي القصيدة الغنائية ، ثم كبرت القصيدة الغنائية بما أدخل عليها من تطور وتضخم فصارت هي الملحمة الصغرى كملحمة بيولف Beowulf ، وأغنية رولان Chanson de Roland ونيبلنجنلايد Nibelungenlied والسيد Cid . وأكبر الظن أن أغنية رولان ضمت بعضها إلى بعض حوالي عام ١١٣٠ من أغان كانت شائعة في القرن التاسع أو القرن العاشر . وهي تروى في أربعة آلاف بيت من الشعر النهل المنسجم العميق الوزن قصة موت رولان في رنسفال Roncesvaux . وتفصيل ذلك أن شارلمان بعد أن « فتح » بلاد الأندلس الإسلامية كان عائداً بجيشه نحو فرنسا ، فما كان من جانيلون Ganelon الخائن إلا أن دل العدو على طريق الجيش ، وتطوع رولان لقيادة المؤخرة لينجها من مأزق خطر . وبينما هو سائر في أخذود ضيق

ملتو في جبال البرانس إذ انقض حشد من الباشقنس من شعاب الجبال على قوة رولان الصغيرة . وبرجوه صديقه ألفيه أن ينفخ في بوقه الكبير ليستنجد بشارلمان ، ولكن رولان يأبى أن يطلب النجدة ، ويقود هو وألفيه ، وتوربين Turpin كبير الأساقفة ، جنودهم ، ويدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت حتى يقتلوا كلهم تقريباً . وينزف الدم من جروح ممينة في رأس ألفيه ويغشى عينه فيظن رولان جندياً من الأعداء ويضربه بسيفه ويشق خوذته من أعلى رأسه إلى موضع أنفه ، ولكنه ينجو من الموت :

وينظر إليه رولان وهو يضربه ؛

ويسأله بصوت لين حنون :

« أيها السيد الرفيق ؛ أتفعل هذا بجد ؟

إني أنا رولان الذي يحبك أعظم الحب

ولم تطلب إلى النزال »

فيقول ألفيه : « أنا الآن أستمع قولك ؛

ولكني لا أراك ، رعاك الله وأنجأك !

لقد ضربتك ، فاغفرها لي ! »

فيجيبه رولان : « لم أصب بسوء

وأعفو عنك لساعتي وأشهد الله . »

فلما نطق بهذا انحنى كلاهما لصاحبه

وافترقا متحابين (٢٠) .

وينفخ رولان أخيراً في بوقه العاجي ، ويواصل النفخ حتى ينبثق الدم من صدغيه ، ويسمعه شارلمان فيعود لنجدته و « لحيته البيضاء تطير في الريح » . ولكن الطريق طويل و « الجبال شاذجة ، شاسعة مظلمة ، والوديان عميقة ، والأنهار سريعة التيار » . ورولان في هذه الأثناء حزين مكب على جثة ألفيه

يناديهما بقوله : « أيها السيد الرفيق ، لقد كنا زميلين أياماً وليالي طوالاً ، لم تسيء إلىّ فيها ولم أسيء إليك ، فإذا مت فالحياة من بعدك كلها آلام » . ويتوسل إليه كبير الأساقفة وهو يحتضر أن ينجو بالهرب . ويأبى رولان ، ويواصل الحرب حتى يفرّ المهاجمون ، ولكنه هو أيضاً يصاب بجرح مميت . ويستجمع آخر ما فيه من قوة ويحطم فوق صخرة من الصخور سيفه دورندال Durendal المطعم بالجواهر حتى لا يقع في أيدي الكفار . و « رقد الكونت رولان تحت شجرة صنوبر ووجهه متجه نحو أسبانيا . . . وطافت به وقتئذ ذكريات كثيرة . ففكر في البلاد التي فتحها ، وفي فرنسا الخلوة ، وفي أسرته ، وفي شارل الذي رباه ، وبكى » . ورفع قفازه إلى السماء دليلاً على خضوعه لله ، ووفائه . ويقبل شارل ويجده قد مات . تلك هي خلاصة القصة مترجمة ولكن الترجمة أياً كانت لا تستطيع محاكاة أصلها السهل الجذل ، وما من أحد غير من نشأ على حب فرنسا وتكريمها يستطيع أن يحس بالقوة والعاطفة اللتين تفيض بهما هذه الملحمة التي يحفظها كل طفل فرنسي ويتلوها في كل صلواته .

ووهب شاعر مجهول حوالى عام ١١٦٠ أسبانيا ملحمة قومية يمجّد فيها أخلاق راي Ruy أو ردريجو دياز (المتوفى سنة ١٠٩٩) ، وهي المعروفة بملحمة السيد Poema de Cid . وموضوعها هي الأخرى القتال بين الفرسان المسيحيين والمسلمين في الأندلس ، وتمجيد بطولة سادة الإقطاع ، وشرفهم ، وعظمتهم ، وتفضيل أجداد الحرب عن ذلة الحب . وينفى رولان ملك جاحد بفضله ، فيودع زوجته وأبناءه في أحد الأديرة ويقسم ألا يعيش بينهم بعدئذ حتى ينتصر في خمس معارك ، ويخرج لقتال المسلمين . ويردد النصف الأول من القصيد ذكر انتصارات هومرية . وينهب السيد في خلال الفترات الواقعة بين المعارك أموال اليهود ، ويوزع الصدقات على الفقراء ، ويقدم الطعام بيده إلى مجذوم ، ويأكل معه في صحفة واحدة ، ويأمن معه في فراش واحد ، ويتبين أنه ألعازر Lazarus الذي

رفعه السبح من بين الموتى . وليست هذه بطبيعة الحال هى صفات السيد التاريخية ، ولكنها لا تسمى إلى التاريخ أكثر مما تسمى ، إليه أغنية رولان يتمجدها شارلمان وجعلها إياه مثلاً أعلى للرجال ، وأضحت ملحمة السيد حافظاً قوياً للتفكير الأسبانى والعزة الوطنية الأسبانية ، وألفت مئات الأغاني الشعرية التى تدور حول بطلها ، كما ألفت عنه مئات من الكتب متفاوتة القرب من الحقيقة التاريخية . وبعد فليس فى الأشياء ما هو أبعد عن قلوب الناس من الصدق ، وعماد الناس والدول هو الروايات الخيالية التى تتعاقب على مدى الأيام .

* * *

وانتقل بعد ذلك إلى أيسلندة فنقول إن أحداً لم يفسر لنا بعد كيف أخرجت هذه الجزيرة الصغيرة ، التى قست عليها الطبيعة وفصلتها البحار عن غيرها من البلدان ، فى تلك الفترة من الزمان ، أدباً لا يتناسب فى مداه ولا فى بهائه مع مكانها وحجمها . لقد ساعدها على ذلك عاملان : قدر كبير من الروايات التاريخية المتواترة ، العزيزة على قلب كل جماعة من الناس معزولة عن غيرها من الجماعات ، وحب للقراءة ، أو الاستماع إلى القارئى — أعان عليه طول ليلالى الشتاء . لقد وجد فى الجزيرة منذ القرن الثانى عشر لا بعد كثير من دور الكتب بالإضافة إلى مكتبات الأديرة . ولما أن أصبحت الكتابة من مميزات الشخص المهذب ، صاغ الكتاب من رجال الدنيا والدين هذه القصص الشعبية صياغة أدبية بعد أن كانت من قبل ملكاً للشعراء الشعبيين .

وكان من المصادفات النادرة أن زعيم كتاب القرن الثالث عشر فى أيسلندة كان هو أغنى أهلها ، والرجل الذى اختبر مرتين ليكون رئيساً لجمهوريةها — الناطق بالقانون كما يسمونه فيها . كان أسنرى استورلسون Snorri Sturlson (١١٧٨ — ١٢٤١) يحب الحياة أكثر مما يحب الأدب ، وكان كثير الأسفار ، منهمكاً فى السياسة والمنازعات ، ثم قتله زوج ابنته وهو فى الثانية والستين من عمره .

وقد روى في كتابه العالم المستدير Heimskringla تاريخ بلاد الشمال وقصصها بما فطر عليه رجل الجلد والعمل من بساطة وإيجاز ، وروى في كتاب إذا استرا استورلسونر Edda Snorra Sturlisnar أو إذا المنشورة موجز التاريخ الوارد في الكتاب المقدس ، وشذرات من أساطير الشماليين ، وضمنه مقالا في أوزان الشعر ، ورسالة فيه ، وشرحا فذاً لنشأة هذا الفن من البول يقول فيه إن طائفتين من الأرباب اقتتلوا ثم عقدوا الصلح بأن أخذوا يصبقون في جرة ، ونشأ من هذا البصاق نصف إله يدعى أكفازير Kvasir . علم الناس الحكمة كما علمهم إياها پروميثيوس . وقتل الأقزام أكفازير ، ومزجوا دمه بالخمير وصنعوا رحيقا يهب كل من يشربه القدرة على الغناء . واتخذ الإله العظيم أودين Odin سبيلا إلى المكان الذي خزن فيه الأقزام هذا الخمر الشعري ، وشربه كله ، وطار إلى السماء ، غير أن بعض السائل المحبوس خرج منه بطريقة قلما تستخدم في الفساق العامة ؛ وسقط هذا الماء الإلهي رذاذاً مائهما على الأرض ، وامتنص من سقط عليه موهبة قرص الشعر^(٢١) . ذلك هراء جاء به عالم من العلماء وليس هو أبعد عن العقل من التاريخ .

وهذه الفترة من تاريخ أيسلندة غنية بأدبها غنى تمار فيه العقول ، ولا يزال هذا الأدب يفيض طرافة ، ومرحا ، وفكاهة ، وفتنة شعرية تسرى في نثره . وكتبت في ذلك العهد مئات من القصص المنشورة بعضها قصير وبعضها في طول الروايات الثرية ، بعضها تاريخي وبعضها يخلط التاريخ بالأساطير . وكلها بوجه عام ذكريات للحضارة من عصر الهمجية ، مليئة بأعمال المروءة والعنف ، يُعتمدُها التقاضى ويُخفف من ملأها الحب . وكثيراً ما يرد في قصص إنجلنجا Ynglinga تأليف أسنرى ذكر فرسان الشمال الذين يحرق بعضهم بعضاً ، أو يحرق الواحد منهم نفسه ، أو ذكر أبائهم أو أقاناح شرابهم . وأوسع هذه القصص خيالا

قصص الفلسفاساجا Volsungasaga . وقد وردت قصصها في صورة باكرة في الإدا الكبرى أو الإدا الشعرية ؛ وأحدث صورة لها هي التي وردت في هاتم النبليين Niblungs تأليف فاجنر Wagners .

والفلسف Volsung هو كل من تناسل من ويلز Waels ، وويلز هذا ملك من ملوك الشمال ، وهو ابن حفيد أودين وجد سيغورد Sigurd (سيغفريد Siegfried) . والنيلنجون حسب نص النبليين Nibelungenlied ملوك برغنديون ، أما في الفلسفاساجا فهم سلالة من الأقزام يحرسون في بلاد الرين كنزاً وخاتماً من الذهب يجلان عن التقدير ، ولكنهما يجلبان النعمة لكل من يمتلكهما . ويقتل سيغورد فهنر Fahnir الثنين الذي يحرس الكنز ويستولى عليه ، ويصل في تجواله إلى تل تحيط به النيران وتنام عليه برندهلد Brundhild الفلكبرية Valkyrie (نصف الإلهة التي من نسل أودين) . وتلك إحدى صور قصة الجميلة النائمة Sleeping Beauty . ويفتن سيغورد ببجها وتفتن هي به ، ويقسمان بيمين الوفاء ، ثم يتركها ويواصل أسفاره - كما يفعل الرجال في كثير من قصص العصور الوسطى . ويلتقي في بلاط جيوكي Gukil أحد ملوك بلاد الرين بالأميرة جدرون Gudrun ، وتسقيه أمها شراباً مسحوراً ينسيه برندهلد ويتزوج جدرون ؛ ثم يتزوج جنار Gunnar بن جيوكي برندهلد ويأق بها إلى بلاط أبيه ، ويسووها نسيان سيغورد إياها فتعمل على قتله ، ثم تندم على فعلتها فتعلو كومة حريقة ، وتنتحر بسيفه وتخرق معه .

وأحدث صورة لهذه القصص الأيسنانية هي قصة أنجال المحرق Njai (حوالي ١٢٢٠) . وشخصيات هذه النسبة واضحة تحددهم أعمالهم وأقوالهم أكثر مما يحددهم وصفهم . والقصة محكمة البناء وتنتقل حوادثها المثيرة تنقلًا يحتمه السياق حتى تصل إلى الكارثة التي تدور حولها حوادثها - وهي احتراق بيت

نجال ؛ واحترقه هو وزوجته برجثورا Bergithura وأبنائه على أيدي جماعة مسلحة من الأعداء يقودهم شخص يدعى فلوسى Flosi يحقد على أبناء نجال ويعمل على الانتقام منهم :

ثم نادى فلوسى . . . نجال وقال له .

« إني آذن لك ، يا سيد نجال ، أن تخرج لأنه لا يليق بك أن تحترق في داخل الدار »

فبرد عايه نجال قائلا : لن أخرج لأنى شيخ كبير ، لا أقوى على الثأر لأبنائى ، ولكن لن أعيش مجللاً بالعار »

ثم نادى فلوسى برجثورا قائلا : « أخرجى يا صاحبة الدار لأنى لا أريد أن أحرقك داخل البيت مهما تكن الأسباب :

فتجيبه برجثورا بقولها : « لقد تزوجت نجال وأنا صغيرة ، ووعدته أن ألقى وإياه نفس المصير »

ثم عادا بعد ذلك إلى البيت :

وسأله برجثورا : « أية نصيحة تتبعها الآن ؟ » .

فيجيبها نجال : « سندهب إلى فراشنا ، ونرقد عليه ، فطالما ناقت نفسى إلى الراحة »

ثم قالت للغلام ثورد Thord بن كارى : Kari : « سأخرجك أنت ولن تحترق هنا »

فيجيبها الغلام قائلا : « لقد وعدتني يا جدتى ألا نفترق ما دمت أرغب البقاء معك ؛ ولكنى أرى أن موتى معك ومع نجال خير من حياتى بعدكما »

ثم حملت الغلام إلى سريرها و... ووضعت بينها وبين نجال ، ورسمتا عليهما

وعلى الغلام علامة الصليب ، وأسلما أرواحهما إلى الله ، وكان هذا آخر لفظ سمعه الناس منهما (٢٢)

وكان عصر الهجرة (٣٠٠ - ٦٠٠) قد ترك في ذكريات الشعوب والمغنين المضطربة ألف قصة وقصة عن الفوضى الاجتماعية ، والشجاعة الحمجية ، والحب القاتل ؛ وانتقلت بعض هذه القصص إلى بلاد النرويج وأيسلندة وأثمرت الفسفاياها ، وكثير منها متقاربة الأسماء والموضوعات ، وقد عاشت وتضاعف عددها في ألمانيا في صورة قصص تاريخية ، وقصائد غنائية وقصص شعبية ، حتى قام رجل ألماني غير معروف في زمن غير معروف أثناء القرن الثاني عشر وصاغ من تلك المواد النيبانجليم أو أغاني النيبانجيم . وهي مصوغة في قصص مسلسل من الشعر لكل بيتين منه قافية واحدة بلغة القسم الأوسط من ألمانيا العليا ؛ وقصصها مزيج من الانفعالات البدائية والأمزجة الوثنية .

وحكم الملك جنثر Gunther وأخواه برغندية زمناً ما في القرن الرابع الميلادي في قصرهم في ورمز على ضفة نهر الرين ، وكانت تقيم معهم في ذلك القصر أختهم الشابة كريمهيلد Kremhild - التي لم يكن أجمل منها في بلد من البلاد . وكان الملك سجمند في هذه الأثناء يحكم الأراضي الوطيفة ، وأقنع ابنه سيجفريد (سيجورد) ضيعة غنية بالقرب من أكسنتين Xanten الواقعة هي الأخرى على ضفة الرين . وترامت إلى مسامع سيجفريد أخبار جمال كريمهيلد فذهب لزيارة بلاط جنثر وأقام هناك على الرحب والسعة مدة عام ، ولكنه لم ير كريمهيلد قط وإن كانت هي قد أبصرت من نافلتها الشبان يتشاقفون في فناء القصر ، فأحبته من أول نظرة . ذلك أن سيجفريد كان يفوق سائر الشباب في قراع السيوف ، وأظهر بسالة عظيمة في حربه في صفوف البرغندين ؛ وأراد جنثر أن يحتفل بعقد الصلح بعد انتصاره فأمر سيدات القصر أن يشهدن الاحتفال !

وازيقت كثيرات من بنات الأشراف أحسن زينة ، وثاقت نفوس الشبان لنيل رضا السيدات وإعجابهن ، ونزلوا عن حقهم في أرض الملك الغنية نظير فوزهم بهذا الإعجاب : وتبدت كريمهيلد كأنها كوكب الصباح يتألق بين السحب الدكناء ، ولم يكد يراها الشاب الذي انطوى قلبه على حبها من زمن بعيد حتى ذهب عنه ما كان يحس به من تعب وسر سيجفريد وحزن ، فقد قال في نفسه : « كيف أخطب ود فتاة مثلك ؟ تلك لاريب أضغاث أحلام ، ولكن الموت عندي أفضل من البعد عنك » . . . واحمرت وجنتاها حين أبصرت أمامها ذلك الرجل ذا النفس العالية ، وقالت : « مرحباً بك يا سيجفريد ، أهيا الفارس الباسل النبيل » . وامتلاء قلب الفارس شجاعة حين سمع هذه الألفاظ ، وانحنى أمامها انحناءة جميلة شأن الفارس الشهم ، وشكر لها تحيتها . وارتبط قلباهما برباط الحب القوي وتبادلا النظرات سراً .

وترامت أخبار برنهيلد ملكة أيسلندة إلى جنثر وكان أعزب ، وقيل له إنها لا يناها إلا من يتفوق عليها في ثلاث تجارب للقوى ، وإنه إذا أخفق في أية تجربة منها جوزى بقطع رأسه . ووافق سيجفريد على أن يساعد جنثر على نيل برنهيلد إذا زوجه بكريمهيلد . ويعبران البحر بسرعة القصص وسهولتها ، ويلبس سيجفريد طيلساناً سحرياً يخفيه عن الأنظار ، ويساعد جنثر على الخروج ظافراً من التجارب الثلاث ، ويأتي جنثر ببرنهيلد إلى موطنه ليتزوجها على كره منها . وتساعد ست وثمانون فتاة كريمهيلد على إعداد الأثواب الغالية للعروس . ويحتفل بزواج جنثر وبرنهيلد . وبزواج سيجفريد وكريمهيلد . احتفالاً فخماً .

ولكن برنهيلد تبصر سيجفريد فتحس أنه هو لا جنثر الذي يليق أن يكون زوجها . ويقبل جنثر عليها ليلة زفافها فترده عنها خائباً ، وتربطه في عقدة وتعلقه على الجدار . وينطلق جنثر من العقدة ويستنجد بسيجفريد ؛ وفي الليلة الثانية يتخفى البطل في زى جنثر وينام بجرار برنهيلد ، بينما يكون جنثر نفسه مختبئاً في

حجارة مظلمة يستمع إلى كل شيء ولا يرى شيئاً . وتلقى برنهيلد بسيجفريد بعيداً عن القراش وتشببك معه في معركة تفرى العظم ، وتحطم الرأس ، ولا تجرى على سنن متبعة . ويقول في نفسه أثناء المعركة : « واحسرتاه ! لاني إذا مت بيد امرأة فإن الزوجات جميعهن سيحتقرن أزواجهن » . وتهزم برنهيلد آخر الأمر ، وتعد أن تكون زوجة . وينسحب سيجفريد دون أن يراه أحد حاملاً معه منطقها وقرطها ، ويحل جنثر محله بجوار الملكة الخائرة القوى . ويهدى سيجفريد المنطقة والقرط إلى كريمهيلد ، ويأتي بها إلى أبيها ، فيتوجه ملكاً على الأراضي الوطنية . ويستخدم سيجفريد ما له من ثروة في سنيلنجن فيلبس زوجته ووصيفاتها من الثياب ما لم تلبسه امرأة أخرى قبلهن .

وتزور كريمهيلد بعد فترة من ذلك الوقت برنهيلد في مدينة ورمز . وتبصر برنهيلد أبواب كريمهيلد الغالية فتدب الغيرة في قلبها ، وتدكرها بأن سيجفريد من أتباع جنثر . وترد عليها كريمهيلد بأن تكشف لها عن المنطقة والقرط لنثبت لها أن سيجفريد لا جنثر هو الذي غلبها على أمرها . وكان لجنثر أخ نكد غير شقيق يدعى هاجن Hagen ملأ صدره حقداً على سيجفريد ، فأرسل إليه يدعوانه للخروج إلى الصيد . وينحن سيجفريد فوق مجرى ماء ليروى ظمأه . فيطعنه هاجن بحربة ، وتبصر كريمهيلد بطلها يلقي منيهة « فيغمى عليها وتفقد وعيها طوال ذلك اليوم وتلك الليلة » . وترث كنز نيلنج بوصفها أرملة سيجفريد ، ولكن هاجن يغري جنثر باغتصابه منها ، ويدفن جنثر وإخوته هذا الكنز في نهر الرين ويقسموا ألا يكشفوا لأحد عن مخبئه .

وتظل كريمهيلد ثلاثة عشر عاماً تفكر في الثأر لزوجها من هاجن وإخوتها ، ولكنها لا تجد الفرصة التي تمكنها من هذا الثأر ، ثم تقبل ما عرضه عليها إيتزل Etzel (أتلا Atilla) ملك الهون من زواجه بها ، وتنتقل إلى فيينا Vienna لتعيش فيها وتكون زوجة له . « وكان إيتزل ذا شهرة عظيمة تجتذب إلى بلاطه

بلا انقطاع أشجع الفرسان مسيحين وكفاراً على السواء وكان الإنسان يرى عنده ما لا يستطيع أن يراه في هذه الأيام - يرى المسيحين والكفرة جنباً إلى جنب . وكان الملك ندى اليد سخياً على الناس جميعاً أيا كانت عقائدهم ، فلم يكن ثمة أحد لا ينال رفته . وظلت كريمهيلد تحكم البلاد « حكماً صالحاً » مدى ثلاثة عشر عاماً بدا فيها أنها لم تعد تفكر في الانتقام ؛ وبلغ من أمرها أن طلبت إلى إلتزل أن يدعو هاجن وإخوتها إلى وليمة ؛ ويلبي هؤلاء الدعوة رغم تحذير هاجن ؛ ولكنهم يأتون معهم بحاشية من الفلاحين والفرسان المسلحين . وبينما كان إخوة الملك وهاجن ومن معهم من الفرسان يستمتعون بضيافة حاشية الهون في هو إلتزل ، إذ يقتل الفلاحون الذين في خارج البهو بأمر كريمهيلد ، ويتلقى هاجن النبا ، فيستل سيفه ، وتندور معركة رهيبة في البهو بين البرغنديين والهون (ولعل القصة ذكرى حربهم الحقيقية التي دارت في عام ٤٣٧) . ويطيح هاجن بضربة الأولى برأس أرتليب Artlieb ابن كريمهيلد وإلتزل البالغ من العمر خمس سنين ويلقى برأسه في حجر كريمهيلد وجنثر . ولما كاد البرغنديون جميعاً يهلكون يطلب جرنوت Gernot أخو كريمهيلد وجنثر إلى إلتزل أن يسمح للباقيين من الزوار بالخروج من البهو . ويظهر فرسان الهون رغبتهم في إجابة هذا الطلب ولكن كريمهيلد ترفضه ، وتستمر المذبحة ؛ ويتوسل إليها جزهر Gissler أخوها الأصغر الذي كان غلاماً بريئاً في الخامسة من عمره لما قتل سيجمفريد ويناديهما : « أختي يا أجهل النساء ، بأي ذنب أستحق الموت بأيدي الهون ؟ لقد كنت على الدوام وفيالك ، لم تمسك يداي بأذى ، ولكني جئت إلى هذا المكان يا أعز الأخوات لأني وثقت بحبك ، فهلا رحمتي » . وترضى كريمهيلد بأن يخرج الباقيون إذا أسلموا هاجن ، فيرد عليها جرنوت بقوله : « ذلك ما يأباه الله في علو سمائه ، خير لنا أن نهلك عن آجرنا من أن نقتدى أنفسنا بواحد منا » . وتخرج كريمهيلد الهون من البناء ، وتغلق الأبواب على من

فيه من البرغنديين ، وتأمر بإحراقه . ويجن البرغنديون من فرط الحرارة والظماً فيصيحون من شدة الألم ، فيأمرهم هاجن بأن يطفئوا ظمأهم بشرب دماء القتلى ، فيصدعوا بما يؤثرون ، ويخرج بعضهم من بين الأخشاب الملتهبة المتساقطة ، وتستمر المعركة دائرة في الفناء حتى لا يبقى حياً من البرغنديين غير جنثر وهاجن . ويقا تل ديتريخ Dietrich القوطى هاجن ، وينتصر عليه ؛ ويأتى به إلى كريمهيلد مكبلاً بالأغلال . وتسأله هاجن أين أخفى كنز نيبيلنج ، فيجيبها بأنه لن يكشف لها عن ذلك السر ما دام جنثر حياً ؛ ويقتل جنثر ، وكان لا يزال حياً ، بأمر أخته ، ويحمل رأسه إلى هاجن ، ولكن هاجن يتحداها بقوله : « إن مكان الكنز لا يعرفه الآن إلا الله وحده وأنا ، وإن تعرفى هذا السر أيتها المرأة الشيطانة » ؛ فتقبض بيدها على سيفه وتقتله به . وتشتمز نفس هادبراند Hildébrand القوطى مما سفكته كريمهيلد من الدماء فيقتلها .

تلك قصة رهيبة تجرى فيها الدماء كما تجرى فى أية قصة أخرى فى عالم الأدب أو فى هو دونه . وإنا لنظلم هذه القصة بعض الظلم إذا انتزعنا لحظاتها الرهيبة مما يحيط بها من ولائم ، ومثاقفة ، وصيد ؛ وشئون النساء . ولكن هذا هو الموضوع الذى تدور حوادثها حوله — فتاة رقيقة يبد لها ما صادفته من الشر امرأة وحشية سفاحية . ومن عجب أنه فلما يبق فى القصة بعد هذا شىء يقربها من الدين المسيحى ، فهى فى الواقع مأساة يونانية تدور حول الانتقام ، ولا تفعل ما تفعله المآسى اليونانية إذ تأبى أن تقع أعمال العنف على المسرح . وتطغى هذه الجرائم على جميع فضائل الإقطاع فلا يكاد يظهر منها شىء حتى لإكرام رب الدار أضيافه الذين دعاهم لزيارته ، وليس ثمة ما يفوق وحشية هذه القصة إلا وحشية أيماننا نحن .

الفصل الخامس

شعراء الفروسية الغزلون(*)

في أواخر القرن الثالث عشر ، أى في الوقت الذى كنا نتوقع فيه أن يكون الأدب الأوربي مصطبغاً بالحماسة الدينية التى يعثها في الناس الحروب الصليبية ، في أواخر هذا القرن بالذات نشأت في جنوبي فرنسا مدرسة من الشعر الغنائى أرسقراطية ، وثنية ، غير كهنونية ، عليها الطابع العربى ، تنبئ بانتصار المرأة على القيود الثقيلة التى فرضتها نظرية سقوط آدم . وانتقل هذا الطراز الشعرى من طولوز إلى باريس ومن باريس إلى لندن مع إليانور الأكتانية ، واستحوذ على قلب ابنها الباسل رتشارد الأول ، وأوجد المتصبيين بالشعر من الألمان ، وصاغ النغمات العذبة الهادئة التى مهدت السبيل إلى دانتي .

ويتلألاً في بداية هذا الطراز من الشعر وليم التاسع كونت پواتو ، ودوق أكتين ، وجد إليانور نفسها . وألنى هذا الخليع المستتر نفسه في الحادية عشرة من عمره (١٠٨٧) حاكماً لفرنسا الجنوبية يكاد يكون مستقلاً بحكمها ؛ واشترك في الحرب الصليبية الأولى وتغنى بنصرها ؛ ولكنه كان مثل كثيرين غيره من النبلاء في أرضه التى طغى عليها الإلحاد ، فكان قليل الإجلال للكنيسة يسخر من قساوستها . وقد وُصف في ترجمة پروفنسالية له بأنه « من أكثر خلق الله أدباً وظرفاً ، ومن أكثرهم غواية للنساء ، وأنه فارس مغوار ، كثير الثورط في مغامرات الحب ، يجيد الغناء وقرض الشعر ، وقد ظل وقتاً طويلاً يحول في البلدان ويغوى النساء » (٢٣) . وقد اختطف وهو متزوج كوثنة شاتل رول Châtellerault الحسناء ، وعاش معها علناً دون حياء ؛ ولما أمره أنجوليم Angoulême الأصلع

(*) Troubadour انظر اشتقاق هذا اللفظ فيما بعد . (المترجم)

الجرىء أن يقلع عن غيه أجابه بقوله : « سأنبذ الكوننة في الساعة التي يحتاج فيها شعرك إلى مشط » ، والتقى يوماً ما بأسقف بواتيه بعد أن حكم بطرده من الكنيسة وقال له : « اغفر لي وإلا قتلتك » فرد عليه الأسقف وهو يمد له عنقه : « اضرب » ، وأجابه ولیم : « لست أجابك بالقدر الذي يكفي لأن أبعث بك إلى الجنة »^(٢٤) . ووضع الدوق طرازاً من الشعر الغزلي يكتب إلى النبيلات ، وكان يفعل ما يقول ، وكانت حياته قصيرة مليئة بالمرح ، فقد مات في السادسة والخمسين من عمره (١١٣٧) ، وأورث إليانور ضياعه الواسعة وذوقه الشعري والغرامي .

وجمعت إليانور الشعراء حولها في طولوز ، وسرهم أن يغنوا لها ولحاشيتها بجمال النساء وما تبعته مفاتهن من نشوة . وشرع برنار ده فنتادور Bernard de Ventadour ، وكان شعره في نظر پترارك لا ينقص إلا قليلاً عن شعره هو نفسه ، يتغنى بجمال فيكوننة فنتادور ، وحملت الفيكوننة مديحه محمل الجذ فاضطر زوجها أن يحبسها في برج قصره . وشجع هذا برنار فراح يتغنى بجمال إليانور نفسها وتبعها إلى رون Rouen ؛ ولما أن فصلت حب ملكين أفرغ ما في قلبه من هيام في لحن حزين ذائع الصيت ، وبعد جيل من ذلك الوقت أصبح الشاعر الغزلي برتران ده بون Bertrand de Born صديق رتشرد الأول الحميم ، ومنافسه المتفوق عليه في حب السيدة مينز المرتنيكية Dame Maens of Martignac ؛ وصحب شاعر غزلي آخر يدعى پير فيدال Peire Vidal (١١٦٧ ؟ - ١٢١٥) رتشرد الأول في الحرب الصليبية ، ورجع سالماً ، وعاش بعد مجيئه فقيراً يقترض الشعر حتى ظفر آخر الأمر بضیعة وهبها له ريمند السادس كونت طولوز^(٢٥) . ولدينا أسماء ٤٤٦ شاعراً آخر من الشعراء الغزليين ، ولكن حسبنا هؤلاء الأربعة دليلاً على ما كانت عليه هذه الطائفة المغنية من انحلال .

كان بعض أفرادها موسيقيين أفاقيين ، وكانت كثيرتهم من صغار النبلاء المولعين بالغناء ، وكان أربعة منهم ملوكاً — رتشرد الأول ، وفردريك الثاني ،

والفنسوا الثانى ، وبدرو الثالث ملك أرغونة . وظل هؤلاء الشعراء قرناً من الزمان (١١٥٠ — ١٢٥٠) يسيطرون على أدب فرنسا الجنوبية ، ويشكلون عادات الطبقات الأرستقراطية التى كانت تنتقل فى ذلك الوقت من الوحشية الريفية إلى الفروسية التى كادت تكفّر بالهجمات عن آثام الحرب ، وبالظرف والأدب عن الفجور والفسق . وكانت لغة شعراء الفروسية الغزليين هى لانجك Lsngne Dioc أو لغة الرومان Roman التى كانوا يتكلمون بها فى جنوبى فرنسا وشمالى أسبانيا الشرقى . أما اشتقاق اسمهم فهو موضع الخلاف الشديد ، والراجح أن كلمة تروبودور Troubadour مشتقة من الكلمة الرومانية تروبار Trobar ومعناها يمجّد أو مخترع ، كما أن من الواضح أن الكلمة الإيطالية Trovatore (تروفاتورى) مشتقة من تروفارى Torvare ، ولكن من الناس من يقول إنها مشتقة من كلمة الطرب العربية ومعناها الغناء^(٢٦) . وكانوا يسمون فهم « الحكمة المرحية » gai saber أو gaya ciencia ولكنهم كانوا يرونه من الأعمال الحديدية التى تتطلب وقتاً طويلاً من المران على الشعر ، والموسيقى ، وآداب الحديث التى تليق بالفرسان أولى النبيل والشهامة . وكانوا يزيون بزى الأشراف ، ويتشحون برداء طرزت حواشيه بالذهب والفراء الثمينة ، وكثيراً ما كانوا يركبون وهم مدرعون بدرع الفرسان ، ويتسابقون فى ألعاب البرجاس ، ويقاتلون بالرماح والأقلام فى سبيل السيدات اللاتى يقدمون لهن شعرهم وإن لم يقدموا لهن حياتهم . ولم يكونوا يكتبون لغبر طبقة الأشراف ، وكانوا عادة يلحّنون بأنفسهم شعرهم الغنائى ويستأجرون المغنين ليغنوه فى المآدب وألعاب البرجاس ، ولكنهم كثيراً ما كانوا هم أنفسهم يعزفون على القيثارة وينفسون بأغنية عن عاطفة مكبوتة .

وأكبر الظن أن العواطف التى كانوا يعبرون عنها لم تكن إلا صورة أدبية ، وأن تحرقهم لم يكن أكثر من رغبة ، وأن مسكنهم مع حبيباتهم فى السماء تعبير عن إشباع رغبتهم ، وأن يأس التروبودور المحزن إن هو إلا رخصة شعرية وأداة للتعبير .

ويبدو أن الأزواج الذين كانوا يسمعون هؤلاء الشعراء يتشبهون بنسائهم لم يكونوا يرون في هيامهم أكثر من هذا ، وأنهم لم يكونوا أكثر حرصاً على أزواجهم من معظم الذكور . وإذا كان الزواج بين الأشراف لا يعدو أن يكون حادثاً من حوادث تداول الثروة ، فقد كان الحب إذا وجد يعقب الثروة لا يسبقها كما يحدث في القصص الفرنسية . وأما ما وجد من الحب في أدب العصور فكان كله من فرنسيسكا Francesca وبيترس Beatrice في الجنوب إلى إيسلد Isolde وچنيفير Guinevere في الشمال ، حباً حراماً إذا استثنينا منه بعض الأمثلة القليلة . وكان عجز الحب عن الوصول إلى السيدة المتزوجة هو الذى أوجد طائفة التروبادور ؛ ذلك أن من الصعب خلق رواية غرامية تدور حول الرغبة المشبعة ، وحيث لا توجد العقبات لا يوجد الشعر . ولسنا نسمع إلا عن أفراد قلائل من شعراء الفروسية الغزلين حظوا آخر الأمر بعطف السيدات اللائى اختاروهن موضوعاً لأغانيهم ، ولكن هذا لم يكن إلا خرقاً للمألوف من القواعد في الشعر ، فقد جرت العادة أن يطفى الشاعر حرقة بقبله من الحبيبة أو بلمس يدها . وكان هذا التمتع من أسباب الرقة والظرف ؛ ومن أجل هذا انتقل شعر التروبادور - ولعله تأثر في هذا الانتقال بعبادة مريم - من الشهوانية إلى ما يقرب من الرقة الروحية .

لكنهم قلما كانوا رجالاً أنقياء صالحين ، وكان عدم تفهمهم من أسباب التنافر بينهم وبين الكنيسة . وقد ألف بعضهم القصائد في هجو كبار رجال الدين ، وفي السخرية من الجحيم^(٢٧) ، والدفاع عن الملاحدة الألبجنسيين ، والإشادة بالحملة الصليبية التى انتصر فيها فردريك العاصى حيث أخفق لويس الصالح . ولم يرض جولم أديمار Guillem Adémar إلا عن حملة صليبية واحدة ، وكان سبب رضائه عنها أنها أبعدت من طريقه زوج سيدة يتشبه بها . وكان

ريمون چوردن Ra mon Jorden بفضل ليلة يقضيها مع محبوبته عن أية جنة
شماوية يعدونه بها (٢٨) .

وكانت الصور الإنشائية في نظر شعراء الفروسية الغزلين أجل شأنًا من
الوصايا الأخلاقية . وكان لكل ضرب من قصائدهم اسم يتسمى به فالطائرو
Canzo أغنية الغرام ، و البلاتي plante مرثية لصديق أو حبيب مات ،
و التسمو Tenson حوار مقفى عن الحب ، والأخلاق ، والفروسية ،
والسرفنتى sirvente أغنية الحرب ، والنزاع والهجوم السياسى ، والسمنت
sixtene قصيدة تتألف من ست مقطوعات معقدة القافية ، في كل واحدة منها
ستة أبيات ، اخترعها أرنو دانييل Arnaud Daniel وأعجب بها دانتى ،
و السرعوية pastourelle حوار بين شاعر فروسية غزلى وراعية ، والفجرية
aubade أو alba أغنية الفجر ، وهى فى العادة تنزل العاشقين بأن النهار سوف
يفضح أمرهم ، والسيرينا أو السرينير serena أو serenade أغنية المساء ،
و البلادا balada قصة شعرية . وها هى ذى فجرية لشاعر غير معروف تنطق
ببعض أبياتها فتاة من فتيات القرن الثانى عشر تذكرنا بجوليت Juliet :

فى حديقة ينشر فيها الشوك الأبيض أوراقه ،

كانت سيدتى يضطجع حبيبها بجوارها

حتى نادى الرقيب بطلوع الفجر - ويلاه الفجر الذى يحزن المحبين !

رباه ؟ يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

أتوسل إليك يا رب ألا ينقضى الليل ، الليل الحبيب ،

وألا يتعد عنى حبيبى ،

وألا ينادى الرقيب « الفجر » — الفجر الذى يقضى على السلام !
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

« صديقتى الجميلة الحلوة ، أنيلينى شفتيك — شفتينا مرة أخرى !
ها هى ذى الطيور فى المراعى تشدو
فليكن نصيينا الحب ، ونصيب الحسود الألم !
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

من تلك الريح الحلوة التى تقبل من بعيد
شربت حتى ارتويت من أنفاس الحبيب ،
نعم ، من أنفاس حبيبي المرح العزيز !
رباه ! يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً

* * *

ألا ما أجمل فتاى وما أظرفها ،
وما أكثر من يرقبون الطريق الذى يتجلى فيه جمالها
ولا يطوف بقلبها طائف القدر !
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً ! (٢٩) .

وقضى على حركة شعراء الفروسية الغزلين فى فرنسا . منتصف القرن الثالث عشر ، وكان من أسباب القضاء عليها ما فى صياغتها وعواطفها من تكلف وتصنع أخذوا يتزايدان على مر الأيام ، وما حل بجنوبي فرنسا من دمار بسبب الحروب الدينية الألبجسسية ، فقد تهدمت فى الوقت العصيب كثير من القصور التى كان يأوى إليها شعراء الفروسية الغزلون ؛ ولما أن قاست طولوز نفسها حصاراً مزدوجاً انهيار نظام الفروسية هذا فى أكسن . وفر بعض المغنين إلى أسبانيا وبعضهم إلى

إيطاليا ، وفيهما بعث فن أغاني الحب بعثاً جديداً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، ولم يكن بترارك ودانتي إلا ورثين للتر وبيدور . وكان ما خلفوه من تقاليد الشهامة والمرح عوناً على صياغة دستور الفروسية ، وتحويل سكان جنوبي أوروبا المجمع إلى رجال مهذبين ، ولقد ظلت الآداب من ذلك الحين تحس بأثر أغانيهم الرقيقة ، ولعل الحب تفوح منه في هذه الأيام رائحة ذكية مستمدة من عطر مديحهم .

الفصل السادس

المتصبيون بالشعر من الألمان

انتشرت حركة شعراء الفروسية الغزلين من فرنسا إلى جنوبي ألمانيا حيث ازدهرت في عصر أباطرة هوهنستارفن الذهبي وكان الشعراء الألمان يسمون المنيا نجر Mennisänger أي المتصبيين بالشعر ، ووجد شعرهم في الوقت الذي وجدت فيه في دستور الفروسية المعاصر خدمته المحبوب Minnedienst وخدمته الحبرات Fraundienst . ونحن نعرف أسماء ثلثمائة من هؤلاء المتصبيين ، ولدينا ثروة موفورة من شعرهم ؛ وكان بعضهم من طبقة الأشراف الدنيا ، وبعضهم من الفقراء ، يراعهم الأباطرة أو الأدواق . وكان كثيرون منهم أميين وإن التزموا قواعد صارمة في الوزن والقافية ، وكانوا يملون ألفاظ أغانيهم وموسيقاها ؛ ولا يزال الشعر يسعى في ألمانيا إلى يومنا هذا ومختبر Dichtung أي الإملاء . وكانوا عادة يتركون المغنين العازفين يغنون أشعارهم ، وكانوا أحياناً ينشدونها بأنفسهم . ويروى لنا الرواة مباراة غنائية Sängerkrieg عظيمة عقدت في قصر وارتيرج Wartburg عام ١٢٠٧ ، ويقال إن تان هوزر Tannhäuser وولفرام فن إشنباخ Wolfram von Eschenbach اشتركا فيها^(٣٠) (*) . وظل المتصبيون قرناً من الزمان يعملون على رفع منزلة المرأة في ألمانيا ، وأضحت نساء طبقة الأشراف الباعثة والملهمة لثقافة أرق من أية ثقافة عرفت تلك البلاد فيما بعد حتى عصر شلر Schiller وجيته .

(*) لقد خلطت القصص بين تان هوزر ، وهومن المتصبيين المتأخرين ، وبين الفارس تان هوزر الذي فر من فينسبرج Venusberg إلى رومة ووجد له مكاناً صغيراً في إحدى المسرحيات الغنائية .

ويُضَمّ ولفرام وولتر فن در فوجلويد Walther von der Vogelweide إلى طائفة المتصبيين لأنهما كتبا أغاني في الحب ، ولكن الأفضل أن يسلك ولفرام وقصائده المعروفة باسم بارزفال Parzival في سلك كتاب الروايات الغرامية . وكان مولد ولتر « ابن مرج الطيور » في مكان ما في التيرول Tirol قبل عام ١١٧٠ . وكان من طبقة الفرسان ولكنه من فقرائهم ، وزاد أحواله سوءاً على سوء بأن اتخذ الشعر صناعة له . ونسمع عنه وهو في سن العشرين يكسب قوته بالغناء في بيوت الأشراف من أهل فينا . وكان وهو في سن الشباب هذه يكتب في الحب كتابة شهوانية طليقة أغضبت منه منافسيه ، ولا يزال الألمان حتى الآن يعتزون بقصيدته تحت شجرة التيليا : Unter den Linden :

تحت شجرة التيليا وعلى الخلدنج

كان لنا نحن الاثنين فراش ،

وهنا كنت تبصيرنا وقد التفت حولنا

الأزهار المتقطعة والكلاؤ المشيم ؛

ومن أجمة في الوادي — تندرادي —

يشدو البلبل بألحانه العذبة .

* * *

وأسرعتُ إليه من خلال الفضاء بين الأشجار ،

ووصل حبيبي إلى المكان قبلي ،

وهناك وقعت في شرك الحبيب — وكنت أسعد الفتيات ،

وحظيت بسعادة ليس فوقها سعادة .

وهناك قبلي مراراً — تندرادي .

انظروا إلى شففى ما أشد حمرتها !

* * *

وهنا أسرع وهو مغتبط

فأقام لنا عريشاً من الأزهار ،

ولا يزال هذا دعاية زائلة ،

لأن الذين يمرون بهذا الطريق ويرون المكان الذى

وضعت فيها رأسى بين الورود — تندرady !

* * *

ولو أن إنساناً (لا قدر الله !) كان بالقرب منا

لجلانى العار ، فقد رقدنا هناك سوياً :

ولكن هذا لم يعرفه أحد غيرى أنا والحبيب

والعندليب الصغير — تندرady ! —

وأنا أعرف أنه لن ينم علينا (٣٣)

ونضج تفكيره لما كبر ، وبدأ يرى فى المرأة مفاتن ومحاسن أبجل من
بشرتها البضة ، وبدت له فوائد الاتحاد بالزواج أعظم قيمة من التقلب بين
النساء : « ما أسعد الرجل وما أسعد المرأة ، اللذين يرتبط قلباهما بالإخلاص
المتبادل ، واللذين تزداد حياتهما قيمة على مر الزمن ، وبارك الله فى بينهما
وجميع أيامهما » (٣٣) . وأخذ يندد بتملق زملائه الشعراء نساء البلاط ، وقال
إن لقب « المرأة » أعظم قيمة لديه من لقب « السيدة » ، وإن النساء
الصالحات والرجال الصالحين هم الأشراف بحق ، وإن « النساء الألمانيات
يضارعن الملائكة فى الجمال ، وإن من يذمهن كذاب أشر » (٣٤) .

ومات الإمبراطور هنرى السادس فى عام ١١٩٧ وعمت القوضى بلاد ألمانيا
مدى جيل كامل ولم تنقطع إلا بعد أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد . ولم يعد

الأشراف يناصرون الأدباء ويبسطون عليهم رعايتهم ، فأخذ ولتر يتنقل من بلاط إلى بلاط يغنى غناء البائس الشقي طلباً للقوت ، ينافسه فيه المشعوذون والمهرجون الأذلاء . وحسبنا دليلاً على ما كان يعانيه في ذلك الوقت هذه العبارة المنقولة من حساب نفقات ولفجر Wolfger أسقف باسو Passau « خمسة صلوات صرفت في ١٢ نوفمبر عام ١٢٠٣ إلى ولتر فن درفوجلويد ليشتري بها ستر من الفراء يتقي بها برد الشتاء »^(٣٥) . وكانت هذه حسنة مضاعفة لأن ولتر جبليني متحمس ، هجا في شعره البابوات ، وندد بعيوب الكنيسة ، وثار على نقل الأموال الألمانية فوق جبال الألب لتقلها خزائن كنيسة القديس بطرس^(٣٦) . غير أنه كان على الرغم من هذا مسيحياً صادقاً ، ألف نشيداً عظيماً سماه « نشيد الصليبيين » ، ولكنه كان يستطيع في بعض الأوقات أن يسمو فوق المعارك الحربية ويرى أن الناس كلهم إخوة :

الناس كلهم من أم واحدة
ونحن جميعاً أكفاء من الخارج والداخل ؛
وأفواهنا تطعم كلها بطعام واحد ،
وإذا ما سقطت عظامهم وأصبحت كومة مختلطة
فهل تعرفون يا من تميزون الأحياء بنظرة إليهم
أيهم الدنفى الآن وأيهم الشريف
بعد أن أكل الدود لحومهم وتعرت عظامهم ؟
إن المسيحيين واليهود والكفار كلهم يتعبدون
والله يبسط رعايته على جميع الخلق^(٣٧) .

وظل ولتر ربع قرن في تجواله وفقره ، ثم وهبه فردريك الثاني ضيعة جودخلا ثابتاً (١٢٢١) ، فاستطاع أن يقضى السبع السنين الباقية من حياته

هادئاً مطمئناً . وقد أحزنه أن شيخوخته ومرضه لا يمكنانه من الاشتراك في الحرب الصليبية ، وطلب إلى الله أن يغفر له عجزه عن أن يحب أعداءه^(٣٨) . وقد أوصى في قصيدة له بمن يرث مخططاته « فللحساد سوء حظي ، وللكاذبين أحزاني وللمحبين الغادرين حماقائي ، وللسيدات آلام قلبي »^(٣٩) . ودفن في كاتدرائية ورزبرج Würzburg وأقيم بالقرب منها نصب تذكاري يعلن حب ألمانيا لأعظم شعراء عصره .

وقضى على حركة الشعراء المنتصبيين بعد موته ما تورطت فيه من إسراف ومغالة ، وحل بها ما حل بألمانيا من دمار بعد سقوط فردريك الثاني . ويصف لنا الريبخ فن لختنشتاين Ulrich von Lichtenstein (حوالى ١٢٠٠ - ١٢٧٦) في سيرته الذاتية الشعرية (Frauendienst) كيف نشأ وسط عواطف « خدمة السيدات » . فاختر سيدة لتكون له معبودة ، وخيبت شفته الشراء ليقبل نفورها منه ، وحارب من أجلها في ألعاب البرجاس . ولما قيل له إنها عجبت حين عرفت أنه لاتزال له إصبع كانت تظن أنه فتمدها في الدفاع عن شرفها ، قطع هذا العضو الآثم وبعث به إليها دليلاً على الولاء والخضوع . وكاد يغى عليه من شدة الفرح حين أسعده الحظ بشرب الماء الذى غسلت فيه يديها^(٤٠) . ولما تلقى منها رسالة ظل يحملها في جيبه عدة أسابيع حتى وجد شخصاً يستطيع أن يثق بأنه سيقروها له سرّاً ، لأن الريبخ كان يجهل القراءة^(٤١) . ولما وعدته بأنها ستعطف عليه انتظر وفاءها بوعدها يومين كاملين في ثياب المتسولين بين المجنومين الواقفين ببابها ، ثم أذنت له بالدخول ، ولما تبينت إلحاحه أمرت به فأنزل من نافذة مخدعها في ملاءة سرير . وكان له في ذلك الوقت زوجة وأبناء .

واختتمت حركة الشعراء المنتصبيين اختتاماً فيه بعض الكرامة بموت هنريخ فن مايسن Henrich von Meissen الذى أحرز بأغانيه في تكرمهم

التساء لقب « صراع النساء » . ولما مات في مينز عام ١٣١٧ حملت نساء المدينة نعشه وأخذن يندبنه حتى وورى التراب في كتدرائية المدينة ، وسكن فوق تابوته خمراً بلغ من كثرتها أن جرت في طول الكنيسة كلها^(١٢) . وخرج فن الغناء بعد موته من أيدي الفرسان إلى أيدي الطبقة الوسطى ؛ وزالت نزعة عباد السيدات الغرامية ، وحل محلها في القرن الرابع عشر مرح جماعة المغنين في المدن وفنهم العارمان يرفعان إلى ريات الشعر قيام طبقة الملاك الوسطى .

الفصل السابع

الروايات الغرامية

أما في الروايات الغرامية فقد كانت الطبقة الوسطى هي المسيطرة على الميدان ؛ ذلك أن شعراء شمالى فرنسا أبناء الطبقة الدنيا - المعروفين عند الفرنسيين باسم التروفر Trouvères أى المخترعين - كانوا يحمون ليالى الطبقات الوسطى والعليا بقصص شعرية تتحدث عن الحب والحرب ، كما كان شعراء الفروسية الغزلون - التروبادور والتروفتورى يكتبون الأغاني الشعرية الرقيقة لنساء جنوى فرنسا وإيطاليا .

وكانت كتابات المخترعين تتخذ صور القصص الشعرية ، ballade والأغاني الشعرية lai ، والتحدث بأعمال الأبطال Chanson de geste ، والقصص الغرامية . وقد وصات إلينا نماذج جميلة من الأغاني الشعرية من قول كاتبة قديمى لإنجلترا وفرنسا كلتاها أنها أول شاعراتها العظميات . فقد انتقلت Marie de Franca (مارية الفرنسية) من بريطاني لتعيش في إنجلترا في أيام هنرى الثانى (١١٥٤ - ١١٨٩) . وأشار عليها أن تصوغ عدداً من أقاصيص البريطانيين شعراً ، ففعلت وخلعت عليها من طلاوة اللفظ وقوة العاطفة ما لم يفتقها فيها أى شاعر من شعراء الفروسية الغزلين . وخلقت بإحدى قصائد العاطفية أن تحتل مكاناً في صفحات هذا الكتاب ، هي جديرة به ، لموضوعها غير العادى - حديث المحبوبة الحية إلى حبيبها الميت :

هل أحببكَ هناك إنسان طوال الصيف والشتاء ؟

وهل وجدتَ هناك جمالا وضع في التبر معك !

وهل قبلت الميت الطويلة أحلى مما كانت قبلى لك ؟

أو هل انتقلت إلى سعادة بعيدة ونسيتنى كل النسيان ؟
أى نوم رقيق همت به فلفك لفاً رقيقاً ؟
وأى موت ساحر أغواك بقوته العجيبة فاستحوذ عليك بالليل والنهار ؟
إنك ترقد فى بقعة صغيرة تحت الكأل بعيدة عن الشمس والظلال
ولكنها لشدة حزنى بعيدة عنى بعد السماء ...
ستظل ترقد فى ذلك المكان كما ترقد الآن
وإن كان فى العالم العلوى شخص آخر يحيا حياتك مرة أخرى
ويحب حبيبته كما كنت تحبها .
أليس مقامك حلواً تحت النخيل ؟
أليس اليوم الدفء الهادئ الطويل الجميل الذى لا يعرف كنهه
خيراً من الحب ومن الحياة ؟
ألا ما أشبه أوراق الشجر العطرة العريضة العجيبة
بالأبدى تنسج برد الليل إلى نهايته ،
تنسج النوم الذى لا يستطيع الطير البراق مقاومته ،
أما أنت فالموت ينسج لك النوم
ويسلبك فى الصباح وفى الظهيرة
كثيراً من الأنفاس العجيبة القوية .
ويقين أنك وأنت فى هذا المكان
قد وجدت الموت إنعماً لذيذاً .
لا تستمسك من هذه الساعة بكلمة قلاتها أو غنيها
فما من شك فى أنك قد سمعت من زمن بعيد أغاني كثيرة أعذب منها ،
لأن التربة الخصبة قد وصلت بلاريب إلى قلبك ، وحولت إيمانك أزهاراً ،
واختلست الريح الدفئة شيئاً فشيئاً روحك أثناء للساعات الغادرة .
ووجدت كثير من البذور الطرية نربة من التفكير المثمر

أنبتت زهرة تستقبل الشمس ، ولولاها لما استقبلتها ،
ولا ريب في أنك قد استمعت إلى كثير
من العواطف القوية الجائشة

التي جعلت ذلك الموضوع أجمل مما كان
وجعلت جزءاً من عواطفك لا يحنو علىّ هناك (٤٣) .

وربما نشأت أغاني الأفعال من قصص الحوادث أو الأغاني . فكان
الشاعر ينسج حول حادث تاريخي ، يأخذه عادة من المؤرخين الإخباريين ،
قصة من المغامرات الخيالية يرويها في أبيات ذات عشرة مقاطع أو اثني عشر
مقطعاً ، وتبلغ من الطول ما لا تتسع له إلا ليالى الشتاء في الشمال . ولقد
كانت أغنية رولان مثلاً متقدماً لهذه الأغاني . وكان البطل المحب لأغاني
الأفعال الفرنسية هو شارلمان ؛ وقد أفاد الشعراء الغزلون الفرنسيون
من عظمت التاريخة فرفعوه في شعرهم إلى درجة من العظمة لا يكاد
يسمو إليها آدمي ، فبدلوا هزيمته في أسبانيا فتحاً مبيناً ، وسيره في
حملات مظفرة إلى القسطنطينية ؛ وبيت المقدس ، ومن حول لحيته
البيضاء الخرافية هالة من العظمة والجلال . وكانت الأغاني الفرنسية
مرآة ينعكس عليها عصر الإقطاع في موضوعاته ، وأخلاق أهله ،
وأمزجتهم . وكما كان بيولف والنيبلنجليد يرددان أصداء « عصر
الأبطال » في زمن الهجرات ، كانت هذه الأغاني الفرنسية — أيا كان
موضوعها ، أو مكانها أو زمانها — تتحرك في جو إقطاعي إلى أهداف
إقطاعية في أنواب إقطاعية . وكان موضوعها الذي لا تنفك تردده
هو الحرب ، بين سادة الإقطاع ، أو بين الدول ، أو الأديان ، ولم
تكن المرأة والحب يجدان بين قعقة السيوف إلا أصغر مكان :

ولما صلحت أحوال النظام الاجتماعى ، وارتفعت منزلة المرأة على أثر
ازدياد الثروة ، تخلت الحرب عن مكانها فى هذه الأغاني للحب ، فأضحى
هو موضوع الشعراء الرئيسى ، فلما كان القرن الثانى عشر حلت القصص
الغرامية محل أغاني الأفعال ، وجلست على عرش الأدب ، وظلت تجلس
عليه قروناً عدة . وكان اللفظ الفرنسى roman المقابل للرواية الغرامية يعنى
فى أول الأمر أى مؤلف مكتوب باللغة الفرنسية التى كانت تسمى هى الأخرى
رومان Roman دليلاً على أنها من تراث الرومان الأقدمين . ولم تكن
القصص الغرامية Romances تسمى فى اللغة الفرنسية بهذا الاسم لأنها قصص
وجدانية ، بل كان الأمر عكس هذا أى أن بعض العواطف أضحت
توصف بأنها رومانسية romantic (وجدانية) لأنها كثيراً ما كتبت بهذه
اللغة الرومانية roman الفرنسية . فكانت رواية الوردة Roman de la rose
أو طروادة le Troie أو الثعلب de Renard لا تغنى أكثر من قصة عن
وردة ، أو عن طروادة ، أو عن ثعلب باللغة الرومانية أى الفرنسية الأولى ؛
ولمذ كانت كل صورة أدبية يجب ألا تولد فى عرف الأدباء إلا من أبوين
شرعيين ، فإن لنا أن نعزو أصل الروايات الغرامية إلى أغاني الوُفُعال ممتزجة
مع ما كان فى قصائد شعراء القروسية الغزلين من عواطف الغرام . ولعل
بعض مادة هذه القصص قد أخذت من الروايات اليونانية مثل إثيوبيا Ethiopica
لهليودورس Heliodorus . وكان لكتاب واحد يونانى ترجم إلى اللغة اللاتينية فى
القرن الرابع أثر عميق فى هذه الناحية ، ونعنى به سيرة الإسكندر الخيالية التى تعزى
زوراً إلى كلستينز Callisthenes مؤرخه الرسمى . ذلك أن القصص التى تروى
عن الإسكندر أضحت المعين المحبب الذى لا ينضب للفيض المتتابع من «سلاسل»
الروايات التى انتشرت خلال العصور الوسطى فى أوروبا وفى بلاد الشرق الناطقة
باللغة اليونانية . وكانت أبجل صورة لهذه القصة فى بلاد الغرب رواية الإسكندر

Roman d'Alexandre من تأليف الشاعرين الغزليين لامبيرلى تور Lambert li Tors وإسكندر البرناني Alexander of Bernay حوالى عام ١٢٠٠ . وتقع هذه الرواية فى عشرين ألفاً من الأبيات الاثنى عشرية المقاطع ، أى من البحر المعروف بالبحر « الإسكندرى » .

وأكثر من هذه تنوعاً وأرق منها عاطفة سلسلة الروايات الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية التى أخذت موضوعاتها من حصار طروادة . وكان أكبر ملهم لهذه الروايات هو فرجيل لاهومر . وكانت القصة التى كتبها ديدو Dido رواية غرامية حققة وإن جاءت فى هذا الوقت البعيد . ألم يستوطن الطرواديون الفارون من هزيمة هم غير خليقين بها فرنسا ، وإنجلترا ، كما استوطنوا إيطاليا ؟ ثم قام حوالى عام ١١٨٤ شاعر فرنسى غزلى يسمى بنوا ده سانت مور Benoît de Ste-Maure بإعادة قصة طروادة فى ثلاثين ألف بيت من الشعر ، ترجمت إلى أكثر من عشر لغات ، ودخلت فى آداب أكثر من عشر أمم . وفى ألمانيا كتب ولفرام فن إسشنباخ Wolfram von Eschenbach قصة حصار طروادة التى لا تقل فى حجمها عن الإلياذة نفسها ، وفى إيطاليا أخذ بوكاشيو Boccaccio من بنوا Benoît قصة فيلوسترانو Filostrato ؛ وفى إنجلترا كتب ليامون Layamon قصة بروت Brut (حوالى عام ١٢٠٥) فى ٣٢٠٠٠ بيت وُصف بها تأسيس لندن على يد بروتس ابن حفيد إينياس Aeneas ؛ ومن بنوا جاءت قصة ترويلس وكرسدى Troilus and Criseyde لتشوسر ومسرحية شيكسبير .

وكانت السلسلة الثالثة العظيمة من روايات العصور الوسطى الغرامية هى روايات آرثر Arthur . ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن آرثر هذا نبيل مسيحي إنجليزى ، حارب الغزاة السكسون فى القرن السادس . ولسنا ندرى من هو الذى خلق منه هو وفرسانه تلك القصص البديعة المطربة التى لم يتذوق جمالها.

إلا محبو مالورى Malory وحدهم ؟ ومنذا الذى ابتدع جاوين Gawaine وجالاهاد Galahad وپرسفال Perceval ، ومرلين Merlin وچنثير Guenevere . ولانسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وفروسية المائدة المستديرة Round Table ذات الصبغة الدينية المسيحية ، وقصة الكأس المقدسة Holy Grail (*) ؟ لم يصل الأدباء إلى جواب مؤكد عن هذه الأسئلة بعد نقاش دام مائة عام كاملة ، ذلك أن البحث يقضى على الحقيقة المؤكدة (**). ونجد أقدم إشارة لآرثر في كتب المؤرخين الإخباريين الإنجليز ، ونظهر بعض عناصر قصته في أفهار ننيوس Nenius (٩٧٦) ، ووسّع نطاق هذه القصة في التاريخ البريطانى Historia Britonum لجوفرى المنموثى Geoffrey of Monmouth ؛ وصاغ قصة جوفرى شعراً فرنسياً ربرت ويس Robert Wace وهو شاعر غزلى من جرسى Jersey في واية بروتس الإنجليزى Le Brut d'Angleterre (١١٥٥) ؛ وفيها نجد للمرة الأولى قصة المائدة المستديرة . والراجع أن أقدم أجزاء متقطعة لهذه القصة هي بعض قصص ويلز التي جمعت الآن في مابنوجيون Mabinogion ؛ وأقدم مخطوطات عثرنا عليها للقصيدة بعد نمائها وتطورها مخطوطات فرنسية . والإجماع منعقد على أن مكان بلاط آرثر والكأس المقدسة في ويلز والجنوب الغربى من بريطانيا . وأقدم رواية كاملة منشورة للقصة هي التي نجدها في مخطوط إنجليزى يعزى إلى ولتر ماب Walter Map أحد كبار شامسة أكسفورد (١١٣٧ — ١١٩٦) وإن كان هذا مشكوكاً في صحته . وأقدم صياغة شعرية لهذه السلسلة هي التي نجدها في روايات Romans كريتيان ده تروى Chretien de Troyes (حوالى ١١٤٠ — ١١٩١) .

(*) الكأس التي استعملها المسيح في العشاء الأخير . (المترجم)
 (*) (يريد في أغلب الظن ما كان يظنه الناس حقيقة مؤكدة . (المترجم)

ولسنا نعرف عن حياة كريتيان إلا قدراً ضئيلاً لا يكاد يزيد على ما نعرفه عن حياة آرثر . نعرف عنه أنه ألف في بدء حياته الأدبية قصة مفقودة تدعى *Tristan* . ووصات هذه القصة إلى يدي الكونتة ماري ده شمپاني *Marie de Champagne* ابنة إليانور الإكتانية ، ويلوح أنها قد بعثت في قلبها الأمل بأن كريتيان هو الرجل الخليق بأن يصوغ « الحب الرقيق » ، وأنبل المثل العليا للفروسية في صورة الرواية الغرامية . واستدعته ماري لأن يكون شاعرها الغزلي — إذا صح هذا التعبير — في بلاطها بتروى *Troies* . وكتب وهو في رعايتها (١١٦٠ — ١١٧٢) أربع روايات غرامية في شعر مقفى (الشعر الدوبيت العربي) كل بيتين منه ذوا قافية واحدة ، وفي كل بيت ثمانية مقاطع . وهذه الروايات هي *Eric et Enide* و *Yvaine* وفارسى العربى *Le Chevalier de la Charette* — ولم يجد هذا الشاعر عنواناً أرقى من هذا لقصة « الفارس الكامل » لانسلت *Lancelot* . وبدأ في عام ١١٧٥ أثناء إقامته في بلاد فليب كونت فلاندرز رواية كونت دل جرال *Conte del Graal* أو پرسقال له جالوا *Perceval le Gallois* ، وكتب منها ٩٠٠٠ بيت وتركها ليتمها غيره في ٦٠٠٠٠ بيت . ويظهر جو هذه في القصص بداية *أرك* :

عقد الملك آرثر في يوم عيد الفصح مجلساً للبلاط في كاردجان *Cardigan* ، ولم يشهد الناس قبل ذلك الاجتماع حاشية أغنى من حاشيته ، فقد حضر الاجتماع كثيرون من صفوة الفرسان الأقوياء ، البواسل ، ذوى الجرأة والشجاعة ، كما اجتمع منها كثيرات من النساء والفتيات ذوات الثراء الواسع ، وبنات الملوك ذوات الرقة والجمال . وقبل أن ينفض الاجتماع في ذلك اليوم أبلغ الملك فرسانه أنه يرغب في أن يخرج في اليوم الثانى لصيد الوعل الأبيض ؛ وكان ذلك استمساكاً منه بالعادة القديمة . فلما سمع لورد جاوين هذا غضب أشد الغضب وقال : « مولاي !

لن يعود عليك من هذا الصيد ثناء ولا رضاء . فنحن نعرف من زمن بعيد ما هى هذه العادة عادة الوعل الأبيض : نعرف أن من يقتل الوعل الأبيض يجب أن يقبل أجل فتاة فى حاشيتك ولكن هذا قد يؤدى إلى شر مستطير ، لأن فى هذا المكان خمسمائة فتاة من ذوات الحسب والنسب ، . . . وما من واحدة منهن إلا لها فارس جرى مغوار ، على استعداد لأن يعلن بالحق أو بالباطل أن السيدة التى هو متم بها أروعهن كلهن جمالا وأعظمهن رقة . فأجابه الملك بقوله : « لى أعلم هذا حق العلم ، ولكن علمى به لا يحول ببنى وبين تنفيذ ما اعتزمت . . . وسنذهب غداً لنصيد الوعل الأبيض وسيكون ذلك اليوم يوم بهجة ومرح » (٤٤) .

وفى بداية الرواية أيضاً نجد المباحات القصصية الممتعة . « لقد عمدت الطبيعة فى تكوين إنيد Enide إلى كل ما لديها من حنق ، ودهشت الطبيعة خمسمائة مرة من نجاحها فى إبداع هذا المخلوق الكامل » . ويقال فى قصة لانسلت إن « الحب الكامل مطيع على الدوام ، يسارع إلى تنفيذ رغبات حبيبته وهو مسرور . . . والألم (فى سبيلها) محبب إليه ، لأن الحب الذى يهديه ويقوده فى سبيله يخفف هذا الألم بل يمحوه » (٤٥) . غير أن الكوننة مآرى كان لها فى الحب رأى فيه شىء من المرونة :

إذا وجد الفارس فتاة أو عذراء مهجورة ، وإذا كان يعنى بسمعته الطيبة ، فإن نفسه لا تطاوعه بأن يعاملها معاملة غير شريفة إلا بقدر ما تطاوعه لأن يقطع عنقه . وإذا ما هاجمها فإنه سيجلج بالعار فى كل بلاط ، أما إذا انتزعها منه وهى تحت حراسته بجذ السلاح فارس آخر اشتبك معه فى معركة ، فإن من حق هذا الفارس الثانى أن يفعل بها ما يريد دون أن يحلل عار أو يستحق من أجله لوماً (٤٦) .

وشعر كريتيان ظريف ولكنه ضعيف ، وسرعان ما يمل الإنسان ثقله وكبرته فى عصر السرعة الحديث . لكنه يمتاز بأن فيه أكمل تعبير باقى حتى اليوم عن المثل الأعلى للفروسية ، وذلك فى الصورة التى رسمها الكاتب للحاشية

تبدو فيها المجاملات ، والشرف ، والبسالة والإخلاص للحبيب أجل قدراً من الكنيسة أو العقيدة . ولقد أثبت كريتيان في روايته الأخيرة أنه خليف باسمه(*) ، ورفع سلسلة الروايات التي تدور حول الملك آرثر إلى الذروة العليا بأن أضاف إليها قصة الكأس المقدسة(**) فقد جاء في القصة أن يوسف الأريماثيائي Joseph of Arimathea تلقى بعض دم المسيح المصلوب في وعاء شرب منه المسيح نفسه أثناء العشاء الأخير ؛ وجاء يوسف أو واحد من نسله بهذا الوعاء والدم الخالد إلى بريطانيا ، حيث احتفظ به ملك مريض سجين في قصر خفي عجيب ، ولن يعثر على الكأس ويطلق سراح الملك بسوءاله عن سبب مرضه إلا فارس كملت طهارة حياته وقلبه . وتقول قصة كريتيان إن پرسقال الغالى أخذ يبحث عن الكأس ، أما الصيغة الإنجليزية للقصة فتقول إن الذى أخذ يبحث عنها جلاهاد الابن الطاهر للانسلاوت الماوٲ . وتتفق القصتان في أن الذى عثر عليها صعد بها إلى السماء . وفي ألمانيا بدل ولفرام فن اسشنباخ پرسقال فجعله پارفيزال Parvizal وأعطى القصة أشهر صورة كانت عليها في العصور الوسطى .

وولفرام هذا فارس باقارى (حوالى ١١٦٥ — حوالى ١٢٢٠) كان يكسب قوته بشعره ، ثم وجد له نصيراً فى هرمان Hermann أمير ثورنجميا Thuringia ، وأقام فى قصر وارتنبرج Wartburg عشرين عاماً ، وكتب أشهر قصيدة فى القرن الثالث عشر . وما من شك فى أنه كان يعلمها إملاء لأن الرواة يؤكدون لنا أنه لم يتعلم قط القراءة . وهو يقول إنه لم يأخذ قصة پارزيفال عن كريتيان بل أخذها عن شاعر پروفسالى يدعى كيو Kiot . ولستنا نعرف شاعراً يسمى بهذا الاسم ، كما أننا لا نعرف أحداً تعرض لهذه القصة بين زمنى كريتيان (١١٧٥)

(*) أى بأنه مسيحى صميم . (الترجم)

(**) Holy Grail ويقال إن لفظ Grail مأخوذ من لفظ Gratalis المشتق من اللفظ

اللاتفى crater ومعناه الكأس .

ووافرام (١٢٠٥) . ويبدو أن أحد عشر «كتاباً» من «كتب» قصيدة
ووافرام البالغ عددها ستة عشر تعتمد على قصة كوت دل هيرال Conte del Graal
لكريتيان ، ولم يكن المسيحيون الصالحون والفرسان الأنجاد من
رجال العصور الوسطى يرون أن من واجبه أن يعترفوا بما عليهم من ديون
أدبية ، بل إن الكتاب كانوا يرون أن مادة الروايات الغرامية ملك مشاع ،
من حق كل من يشاء أن يستعيرها إذا كان في وسعه أن يرقى بها ، ولقد فاق
ووافرام في هذه الناحية أستاذه كريتيان .

وبارزيفال في قصة ووافرام ابن فارس من أنجو Anjou رزقه من الملكة
هرزيليد Herzeleide (الخزينة القلب) حفيذة تيتورل Titurel — أول
حراس الكأس — وأخت أمفورتاس Amfortas الملك المريض في ذلك
الوقت . ويبلغها قبل أن تلد بارزيفال بقليل أن زوجها خر صريعاً في معركة
بين الفرسان أمام الإسكندرية . وتعزم ألا تعرض بارزيفال للموت وهو
صغير السن ، فتربيته في عزلة في الريف ؛ وتحقق عنه أصله الملكي ، وينشأ
جاهلاً بفنون القتال وحمل السلاح :

وحزن لذلك أهلها أشد الحزن ، لأنهم رأوه عملاً مشنوماً ،
وقالوا إن هذه النشأة لا تليق قط بابن ملك عظيم ،
ولكن أمه أخفته في أودية الغابات البرية ،
وحال حبها وحزنها بينها وبين التفكير في مبلغ إساءتها للطفل المملوك .
فلم تعطه قط سلاحاً من أسلحة الفرسان إلا ما كان يصنعه لنفسه
في أثناء لعبه من الأعشاب التي قنبت في طريقه المنعزل .
فقد صنع لنفسه منها قوساً وسهماً ، يقذف بها ،
وهو مرح غافل عن التفكير ،
الطيور وهي تشدو فوق رأسه على الأشجار المورقة .

فلما أن سقط طير الغاب المغرد ميتاً عند قدميه ،
مال برأسه ذى الشعر الذهبي في دهشة وحيرة صامتة ،
واندفع في غضب الطفولة وحيرتها الصامتة يقتلع غدائر شعره الذهبي ؛
(فأنا أعلم حق العلم أنه لم يكن على ظهر الأرض كلها من يضارعه
في جماله)

وطاف بعقله أن الموسيقى التي ظل طول حياته يعزفها بيده
قد ملأت بأنغامها العذبة قلبه نشوة ، فأحزنه هذا التفكير وأمضه (١٧) .
ويبلغ پارزيقال طور الرجولة وهو قوى الجسم فارغ العقل ، حتى تقع عينه
في يوم من الأيام على فارسين في الطريق ، فيعجب بدروعهما البراقة ، ويظنهما
إلهين لافارسين ، ويعتزم أن يكون له مثل ما لهما من رونق وبهاء . ويعود
إلى موطنه ليجث عن الملك آرثر الذي يجعل الرجال فرساناً ، وتخزن أمه لذهابه
حزناً يكاد يقتلها . ويلتقي پارزيقال في طريقه بدوقة نائمة فيختلس منها قبلة ،
ويسلبها منطقها ، وخاتمها ، ويرتكب بعمله هذا إثماً يندسه سنين طوالاً .
ثم يلتقي بإيثر Ither ، الفارس الأحمر ، ويرسل معه هذا الفارس رسالة
يدعو فيها الملك آرثر للقتال . ويدخل پارزيقات على الملك ويستأذنه في أن
يجيب هو دعوة إيثر ، فيأذن له ويعود إلى إيثر ، ويقتله — لأن الحظ في
القصص يكون في جانب الميئدي — ، ويلبس دروعه ، ويركب طلباً
للمغامرات . ويطلب إلى جرنمانز Gernemanz في أثناء الليل أن يستضيفه ،
ويعجب به البارون الشيخ ، فيعلمه أساليب القتال الإقطاعية ويسدى إليه
نصيحة الفرسان :

اشفق على المحتاجين ، وكن رحيماً ، كريماً ، متواضعاً . إن الرجل الكريم
المحتاج يستحي أن يسأل ، فتقدم إليه أنت بالعون قبل أن يسألك . . . ولكن
كن حازماً لا تبجل يدك مغلوطة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط . . . لا تكثر
من السؤال ، ولا ترفض الإجابة عن سؤال خليك أن تسأله . لاحظ واستمع . . .
أعف عن يستسلم لك مهما تكن إساءته إليك . . . تخلق بأخلاق الرجولة

وكن مرحاً . . . احترم النساء وأحبن ، فذلك مما يزيد في شرف الشاب —
كن ثابتاً غير متقلب فإن الثبات من شيم الرجال . ألا ما أقل ما ينال من
الثناء شخص يخون الحب الشريف (٤٨) .

ويخرج پارزيقال مرة أخرى في طلب المغامرات ، ويفك الحصار
عن كندورامور Kondurramur ، ويتزوجها ، ويتحدى زوجها بعد
عودته ، وبيارزه ، ويقتله ، ثم يترك زوجته لبحث عن أمه . وتشاء
الصدف أن يصل إلى قصر « الكأس المقدسة » فيستضيفه حراسه الفرسان ،
وتقع عينه على الكأس (والكأس في هذه القصة حجر ثمين) ، ويذكر
نصيحة جورنماتز الطيب ، فلا يسأل عن الكأس المسحورة أو الملك المريض ،
ولم يكن يعرف أنه عمه . ويصحو في صباح اليوم الثاني فيجد القصر كله
خاوياً على عروشه ، فيخرج على ظهر جواده ، وترفع أيد مجهولة الجسور
الموصلة إلى القصر كأنها تنهاه عن العودة إليه . وينضم مرة أخرى إلى بلاط
آرثر ، ولكن العرافة كندري Kondury تهمة في أثناء هذا الترحيب
بالجهل وقلة الأدب لأنه لم يسأل عن سبب علة أمفورتاس ، ويقسم
پارزيقال أن يعود مرة أخرى لطلب الكأس .

ولكن سورة من الغضب تظلم عليه حياته في تلك الساعة . فهو يشعر
أنه غير جدير بما وجهته إليه كندري من تقريع ، ويدرك كثرة ما في العالم من
مظالم ، ويخرج عن طاعة الله ، ويظل أربع سنين لا يزور كنيسة ، ولا ينطق
بصلاة (٤٩) . وتصيبه في تلك السنين مائة من الكوارث ، ويظل يبحث عن
الكأس ولكنه لا يجدها . ثم يعثر في يوم من الأيام على خلوة ناسك يدعى
تريفريزنت Treverezent ويتبين أنه عمه ، ويعرف منه قصة الكأس ، وأن
علة أمفورتاس التي تفارقه سببها أنه ترك حراسة الكأس ليشغل نفسه بحب غير
مشروع . ويعيد الناسك پارزيقال إلى الدين المسيحي ، ويتحمل عنه عقاب
ذنوبه . وهكذا يهون پارزيقال على نفسه ، ويتطهر من خطايا ، وجهله وينجيه

عذابه من آثامه ، فيعود إلى البحث عن الكأس المقدسة . ويكشف الناسك إلى كندري أن پارزيقال ابن أخى أمفورتاس ووارث ملكه ، فتبحث عنه وتعلن إليه أنه اختير ليخلف أمفورتاس على العرش وليكون حارساً على الكأس . ثم تقوده إلى القصر الخفى ، ويسأل أمفورتاس عن سبب مرضه ، ويشنى الملك الشيخ لساعته . ويجد پارزيقال زوجته كندوبرامور وتأتى إليه لتكون ملكته . ويرزقان بولد يدعى لوهنجرين Lohengrin .

وكأنما أراد جتفرايد السلزبرجى Gottfrind of Salisburg أن يمد قاجنر Wagner بموضوع آخر لمسرحياته الموسيقية ، فأخرج حوالى عام ١٢١٠ أعظم تراجم قصة ترستان نجاحاً . وهذه القصة تمجد الزنا وعدم الوفاء تمجيداً حماسياً ، وتندد بالدستور الأخلاقى والإقطاعى والمسيحى على السواء .

ولد ترستان ، كما ولد پارزيقان ، لأم صغيرة السن تدعى بلانش فليير Blanche fleur (الزهرة البيضاء) ولما يمضى إلا وقت قصير على نبأ يأتها بأن زوجها الأمير قتل فى معركة . ولهذا تسمى الطفل ترستان - أى الحزين - وتموت بعد مولده . ويكفل الولد عمه مارك Mark ملك كورنول Cornwall ويجعله من الفرسان . ولما بلغ أشده واستوى نبغ فى ألعاب البرجاس وقتل مورولد Morold خصمه الأيرلندى ، ولكنه يخرج فى المعركة جرحاً مسموماً يقول له عنه مورولد وهو يحتضر إنه لا يشفيه إلا إيزيولت Isenlt ملكة أيرلندة . فيتخفى فى زى تانتريس Tantris العازف على القيثارة ، ويزور أيرلندة وتشفيه ماكتها . ويعين مربياً لابنة الملكة واسمها أيضاً إيزيولت . ويود بعدئذ إلى كورنول ويحدث مارك عن جمال إيزيولت الصغيرة وحسن صفاتها وأدبها ، ويرسله مارك مرة ثانية ليخطب له هذه الفتاة . وتأتى إيزيولت أن تفارق وطنها ، وتتبين أن ترستان هو قاتل عمها مورولد فيقتلها قتلًا حثيثاً عليه ، ولكن أمها تقنعها بالرحيل ، وتعطى وصيفتها برنجين Brangane شراً مسحوراً يبعث الحب

فى القلوب لتسقيه إيزيولت ومارك لتستير به جهما . وتخطئ الوصينة
فنتسقيه إيزيولت وترستان فلا يلبث الاثنان أن يحتضن كلاهما الآخر ،
وتكثر الخيانات ويفتقدان على أن يخفيا جهما ؛ وتزوج إيزيولت مارك ،
وتنام مع ترستان ، وتدبر مكيدة لقتل برنجين لأنها تعرف أكثر مما ينبغي
أن تعرفه . ومارك هو الرجل الشهم النبيل فى هذه القصة (وليس الأمر
كذلك فى قصة مالورى) ؛ فهو يكشف الخديعة ، وينجبر إيزيولت
وترستان أنهما أعز عليه من أن ينتقم منهما ، ويقنع فى ذلك بنى ابن أخيه
من البلاد . ويلتقى ترستان فى تجواله بإيزيولت ثالثة ويقع فى حبها ، وإن
كان قد أقسم أن يكون هو وملكة مارك « قلباً واحداً ، وروحاً واحدة » ،
وجسماً واحداً ، وحياة واحدة » . وهنا يترك جتفرايد القصة ناقصة
حطمت فيها جميع المثل العليا للفرسية . أما بقية القصة فن صنع مالورى
وعصر متأخر ؛

وأخرجت ألمانيا فى هذا الجيل العجيب ، الجيل الأول من القرن
الثالث عشر شاعراً آخر يكون هو وولتر ، وولفرايم ، وجتفرايد أربعة
لا يدانهم أربعة سواهم فى أى مكان آخر فى أدب العالم المسيحى فى أيامهم .
بدأ هارتمان فن أو Hartman von Aue بتقليد كريتيان تقليداً أعرج فى

روايته الشعريتين إرك Erec و إوين Iwein واكنه لما انتفت إلى أقاصيص
بلاده سوابيا Swabia أخرج آية فنية صغرى هى Der arme Heinrich
(حوالى عام ١٢٠٥) . وكان « هنرى المسكين » كما كان أيوب رجلاً
غنياً يصاب وهو عنفوان مجده بداء الجذام ولا يستطيع أن يشفيه منه
إلا موت عذراء طاهرة من أجله (إذ لا بد أن يقول السحر فى العصور
الوسطى كلمته فى القصص) . ولا يتوقع هنرى أن يجد هذه التضحية
فيسلم للحزن واليأس ، ولكن فتاة هذه صفاتها فى الوجود ، تعزم أن
تموت كى يشفى هنريخ من دائه الوبيل . ويظن أبواها أن قرارها هذا موحى

به من عند الله فيوافقان على هذا العمل الذى لم يكن أحد يظن أنهما سيوافقان عليه ، وتكشف الفتاة عن صدرها الجميل للنصل . ولكن هنريخ تدب فيه نخوة الرجولة على حين غفلة ، فيأمر بالأتقن الفتاة ، ويرفض هذه القضية ، ويمتنع عن العويل ، ويرضى آلامه معتقداً أنها من عند الله ، وتبدل روحه بفضل هذه النزعة الجديدة ، فيزول مرضه الجلثاني زوالاً سريعاً ، ويتزوج الفتاة التى أنقذته ويعوض هارتمان القصة عما فيها من سخف وبعد عن المعقول بشعره البسيط الساس الخالى من التكلف ، وقد احتفظت ألمانيا بهذه القصيدة - هذا العصر القليل الإيمان .

وثمة قصة أجمل منها كتبها شاعر فرنسى غير معروف فى وقت ما فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وسماها هنريه هسما أو كسان ونيقولا . C'est d'Aucaassin et Nicolette . والقصة نصفها رواية غرامية ، ونصفها سخرية من الروايات الغرامية ، صيغت كما يليق بها أن تصاغ تارة شعراً وتارة نثراً ، ووضعت لها علامات موسيقية بين النصوص الشعرية .

وخلصتها أن أوكسان ابن الكونت بوكير Beaucaire يغرم بنيةقولا متبناة فيكونت بوكير . ويعارض الكونت فى زواجه بها لأنه يريد أن يزوج ابنه من أحد البيوت الإقطاعية التى تستطيع أن تمدد بالعون فى الحرب ، ويأمر تابعه الفيكونت أن يخفى الفتاة . ويرى أوكسان أن يراها فيشير عليه الفيكونت أن « يدع نيقولا وشأنها وإلا فلن يرى الجنة قط » . ويرد عليه أوكسان رداً يتفق مع نزعة التشكك التى أخذت تنلهم فى الوقت :

ما شأنى أنا والجنة ؟ لى لا يهمنى قط أن أدخلها ، وكل الذى يهمنى أن أحظى بنيةقولا ... ذلك أن الجنة لا يدخلها إلا القساوسة الطاعنون فى السن ، والشيوخ المقعدون ، والمرضى الذين لا يبارحهم السعال ليلاً أو نهاراً أمام مذابح الكنائس ... أما أنا فلا شأن لى بهؤلاء ، بل لى أن أرى أن يكون مأواى الجميم ، لأن الجميم مثنوى العلماء الظرفاء ، والفرسان الأنجاد الذين يقتلون فى ألعاب

الفرسية أو الحروب العوان ، كما هي مأوى النأبل القوى والرجل الوفي :
إني أريد أن أكون مع هولاء . وإليها تذهب السيدات الحسان الطريقات
اللائى لكل منهن أصدقاء - اثنان أو ثلاثة - زيادة على زوجها . وفيها يمر
العازون ، والمغنون ، وملوك العالم . سأذهب مع هولاء إذا كانت تقولت
صديقتى الحلوة الجميلة إلى جانبي .

ويقلق والد يقولت باب حجرتها عليها ، كما يجلس والد أوكسان ابنه
في سرداب أرضى حيث يتغنى الصبي بدواء عجيب مسحور :

يقولت - يا زهرة الزئبق البيضاء ،
يا أحلى فتاة وجدت في غريش ،
يا حلوة كالكرمة
التي تفيض بها الكأس المتبلة حلاوة ،
حدث لك في يوم من الأيام ،
أن جاء من ليموزين Limousin
حاج متعب خائف ،
يرقد من شدة الألم على فراشه ،
يتقلب ويخشى الموت حين يتنفس ،
مكئب أشد الاكتئاب ،
قاب قوسين أو أدنى من الموت .
فدخلت با ذات الطهر والبقاء .
ومشيت بخفة حتى أبصرك الرجل العليل ،
ورفعت ذيل ثوبك المسبل ،
ورفعت الجلباب الموشى بالقراء ،

ورفعت الشعار وكشفت له بخفة
عن كل عضو فيك جميل .
وحدث وقتئذ حادث عجيب ،
فقد قام في تلك الساعة سليماً معافى ،
وغادر فراشه ، وأمسك بيده الصليب ،
واتجه مرة أخرى نحو بلاده العزيرة .
يا زهرة الزئبق البيضاء الحلوة ،
ما أحلى وقع قدميك !
وما أحلى ضحكك وما أحلى حديثك !
وما أجمل لعبنا معاً !
وما أحلى قبلاتك وما ألين ملمسك !
إن الناس كلهم لا بد مولعون بك (٥١) .

وفي هذه الأثناء تفتل زهرة الزئبق حبلاً من أغصان فراشها وتنزل به إلى
الحديقة . وتمسك ذيل ثوبها بكلتا يديها . . . وانزلت بخفة فوق الندى
الرائحة على الكأ ، وخرجت بهذه الطريقة من الحديقة . وكان شعرها
ذهياً ، جعلت منه غداً حب صغيرة . وعيناها زرقاوين باسمتين ، ووجهها
جميل يسر المرء أن يراه . لها شفتان أشد حمرة من الورد أو الكرزة . في حر
السمف ، وأسنان بيضاء صغيرة ، ولديان ناهبان يبدوان تحت ثيابها كأنهما
رمحان ، وكانت ذات خصر نحيل تكاد يداك تنطبقان عليه ، وكانت
الأبرار التي تنكسر تحت قدميها تبدو سوداء أمام باطنهما وبشرتها .
ألا ما أنصع بياض تلك الفتاة الحسنة (٥٢) .

، شحذ سمها إلى نافذة سجن أو كسان ذات القضبان الحديدية وتقص خصلة
من شعرها وتلقها إليه ، وتقسم أن حبها لا يقل عن حبه . ويرسل والدها من
يحبها . فتفر إلى الغابات وتعيش مع الرعاة الذين يعرفون قدرها . ويظن

والد أوكسان بعد مضي فترة من الزمان أنها أصبحت بعيدة عن والده فيطلق سراحه . فيخرج أوكسان إلى الغابات ويبحث عنها وتعرضه في ذلك البحث حوادث لا تخلو من الهزل ، ثم يعثر عليها ويردفها خلفه على جواده و « يقبلها وهما راكبان » . ويريدان الفرار من أبويها اللذين يتعقبانها ، فيركبان سفينة يعبران بها البحر المتوسط ، وينزلان في أرض بلد فيها الرجال ، ويحترق الناس بالتزامى المرح بالفاكهة . ويعتقلهما محاربون أقل من هؤلاء رقة ، ويفترقان مدى ثلاثة أعوام ، ثم يجسعان آخر الأمر مرة أخرى ؛ ويموت الوالدان الحائقان لحسن الحظ ، ويصبح أوكسان ونيقولات كونت بوكير وكنتتها .

وليس في أدب فرنسا الموفور الثراء ما هو أبداع من هذه القصة .

الفصل الثامن

الرجوع إلى الهجاء

وكانت الفكاهة التي تخللت فصول هذه القصة توحى بأن الفرنسيين بدأوا يتخمون بالروايات الغرامية . ذلك أن أشهر قصائد العصور الوسطى — وهى القصيدة التي يعرفها من القراء أكثر ممن يعرفون المسلاة الإلهية — بدأت قصة غرامية وانتهت بأن كانت أقوى وأفحش قصيدة هجائية في التاريخ كله . وتفصيل ذلك أن جيوم ده لوريس Guillaume de Lorris (*) ، وهو طالب صغير السن في أورليان ، كتب حوالى عام ١٢٣٧ قصيدة رمزية كان يقصد بها أن تشمل جميع فنون الحب ، وأن تكون بفضل صيغتها التجريدية نموذجاً لجميع الروايات الغرامية وخلاصة هذه الروايات . ولسنا نعرف عن وليم الاوارى هذا William of the Loire (*) أكثر من أنه كتب الأبيات الأولى البالغ عددها ٤٢٦٦ من رواية الوردة Roman de la rose . وهو يصور نفسه فيها يطوف في حلمه بحديقة حب فخمة تتفتح فيها كل زهرة معروفة وتشدو فيها جميع الطيور ، وتجتمع فيها أزواج سعيدة تمثل كل ما في حياة الحب من متعة ونعيم — المرح والسرور ، والأدب والجمال ، ويرقص كل زوجين اثنين من هذه المتع تحت رئاسة إله الحب . ذلك دين جديد يحتوى فكرة جديدة عن الجنة تحمل فيها المرأة محل الله . وفي هذه الجنة يرى الحالم زهرة أبهى من كل ما يحيط بها من جمال ، ولكنها تحرسها ألف شوكة . وهذه الوردة هى رمز المحبوب . وتتألف من شوق بطل الرواية إلى بلوغها وقطفها قصة جميع الحملات الغرامية التي تثيرها الشهوة المكبوتة التي تثير الخيال وتغذيه . وليس في القصة كلها إنسان سوى راويها نفسه ، أما من بقى من الممثلين فيها فتجسيد

(*) جيوم ده لوريس كما يكتبه الفرنسيون . (المترجم)

الصفات خلقية توجد في كل القصور التي يطاردها فيها الرجال النساء : المظهر الجميل ، والكبرياء ، والنثالة ، والحياء ، والثراء ، والبخل ، والحسد ، والحمول ، والنفاق ، والشباب ، واليأس ، و « الفكر الجديد » نفسه - ومعنى الفكر الجديد هنا هو التذبذب . وأعجب ما في القصة أن جويوم استطاع بهذه التجريدات أن يقرض شعراً ممتعاً - ولعل سبب ذلك أن الحب أيا كان عصره وأيا كان مظهره فيه من المتعة بقدر ما في الدم من حرارة (*) .

ومات وليم صغير السن دون أن يتم قصيدته ؛ وظل العالم أربعين عاماً حائراً لا يدري هل فعل المحب الذي أصابه كيوبد إله الحب بمهمه فأخذ يرتجف من شدة الحب ، نقول هل فعل أكثر من أن يقبل الوردة . ثم أمسك فرنسي آخر يدعى جان ده مونج Jean de Meung بالشعلة ، وبلغ بها أكثر من اثنين وعشرين ألف بيت من الشعر في قصيدة بينها وبين قصيدة وليم من البعد مثل ما بين ربلية وتيسن Tennyson . ذلك أن مرور جيل من الزمان قد بدل مزاج القوم ؛ وأن الروايات الغرامية قد استنفدت إلى حين كل ما عندها من حديث ، وأخذت الفلسفة تغشى بستار العقل شعر الإيمان ؛ وكانت الحروب الصليبية قد أخفقت ، وبدأ عصر الشك والهجاء . ويقول بعضهم إن جان كتب الجزء العاصف المعجاج الذي أكمل به القصيدة بناء على إشارة الملك فليب الرابع الذي بعث بمحاميه المتشككين ليضمحكوا في وجه البابا . وكان مولد جان كلوڤنيل Jean Clopinel في مونج القائمة على شاطئ نهر اللوار حوالي عام ١٢٥٠ ، ودرس الفلسفة والأدب في باريس ، وأصبح من أعظم رجال زمانه تبحراً في العلوم . ولنا ندرى أى عامل من عوامل الشر والفساد أغراه بأن يسخر علمه ، وبغضه للكهنوتية ، واحتقاره للمرأة والروايات الغرامية ،

(*) لا تقل ترجمة تشوسر للنصف الأول من قصيدة رواية الوردة The Romaunt

of the Rose في خيالها عن أصلها الذي كتبه وليم نفسه .

أن يسخر هذا كله ليكمل به أعظم قضيده غرامية في الأدب كله . فقد أخذ جان يبسط آراءه في جميع الموضوعات من خلق العالم إلى يوم الحساب بينما ينتظر الحبيب المسكين في الحديقة طوال هذا الوقت ليقطف الوردة . ويصوغ أبياته في شعر من نفس البحر ذي الثمانية المقاطع والقافية الواحدة . في كل بيتين كالذي صاغ فيه ولیم قصيدته ، ولكنه بما فيه من حماسة وطرب بعيد كل البعد عن أشعار ولیم الحاملة . وإذا كان قد بقى في قلب جان شيء من الغرام فقد كان ذلك هو صورة أفلاطون الخيالية للعصر الذهبي في الماضي « لا يقول أحد فيه إن هذا الشيء أو ذاك ملك له ، ولا يعرف فيه الناس الشهوات أو السلب والنهب » ، ولم يكن فيه سادة لإقطاعيون ، ولا دولة ، ولا قانون ، يعيش الناس فيه دون أن يأكلوا اللحم أو السمك أو الطير ، و « تكون فيه جميع خيرات الأرض ماكما مشاعاً بينهم » (٥٣) . وليس جان متحرراً من الدين ، فهو يقبل عقائد الكنيسة دون أن يحيط من قدرها ، ولكنه يبغض « أولئك الفجار البدن المترفين ، والإخوان المتسولين ، الذين يخدعون الناس بالألفاظ الكاذبة ، ويملاؤن بطونهم باللحم والشراب » (٥٤) وهو لا يطيق المنافقين ، ويوصيهم بأكل البصل والثوم ليسر لهم أن يذرفوا دموع التماسيح (٥٥) . ويقر بأن « حب امرأة طريقة » ، خير ما في الحياة من نعم ، ولكن يبدو أنه لم يتذوق قط هذه النعمة (٥٦) ، ولعله لم يكن خليقاً بأن يتذوقها لأن الهجاء لم يكن قط طريق كسب فتاة حسناء ؛ ولأن جان كان شديد التأثر بأوقد ، وقد تتلمذ عليه إلى حد جعله يفكر في وسائل الانتفاع بالنساء ، ويعلم غيره هذه الوسائل ، أكثر مما يحسن . وهو يجهر بأن الاقتصار على زوجة واحدة سخي ، لأن الطبيعة قد أعدت الكل لكل - كل النساء لكل الرجال . وهو ينطق الرجل المشيع بهذه الأبيات بوثب بها زوجته المزدانة :

وماذا تجدى هذه المظاهر كلها ؟
وأى نفع يعود على من الأثواب الغالية وهذه الحلل ذات القطع
الشاذ الغريب ؟

وماذا يعينى من هذه العصائب التى تلوين بها شعرك وتعقصينه ،
وتجدلينه بخيوط من الذهب ؟ ولماذا تطعين بالعاج
مرايا مرصعة بالمينا ، منشورة عليها دوائر ذهبية ؟
وما شأن هذه الجواهر الخليفة بتيجان الملوك ،
لولؤ وياقوت أحمر وأزرق جميل ، يبعث فيك الغرور الجنونى
الممقوت ؟

وما جدوى هذه الأقشة الغالية !
والطيات المثناة المجلولة ، والمناطق التى تطوقين بها خصرك .
محلاة ومزدانة بالنقوش الكثيرة ؟
ثم قولى لم تختارين أن تلبسى فى قدميك حذاءين ملتصعين
إلا إذا كنت تشهين أن تكشفى عن ساقيك الجميلتين ؟
قسما بالقديس ثيبو Thibaud لأبيعن هذه الأشياء الغثة
قبل أن تمضى من هذا الوقت ثلاثة أيام ، ولأنبذلك نبذ الثوب
الخلقى ! (٥٧) .

ولإننا لتجد بعض السلوى حين تعرف أن إله الحب يهاجم فى آخر الأمر ،
على رأس أتباعه الذين يخطئهم الخصر ، البرج الذى يقوم فيه الخطر ، والحياء ،
والخوف (تردد السيدة) بحراسة الورد ، ويدخل الترحاب الحبيب إلى الكعبة
الداخلية ويتركه يقتطف أمل أحلامه . ولكن ألهذه الخاتمة الغرامية التى طال
انتظارها أن تمحو ١٨٠٠٠ بيت من الواقعة الفظة والبهادة الساخرة ؟

وكان أكثر ما يقبل الناس على قراءته فى أوروبا الغربية فى القرنين الثانى
عشر والثالث عشر كتب ثلاثة هى رواية الورد ، والقصة الذهبية ، وريتر

الثعلب . وبدأت قصة Reynard باللاتينية في إيسنجرينس Ysingrinus حوالى عام ١١٥٠ ثم انتقلت منها إلى عدة لغات قومية بأسماء مختلفة Roman de Renart ، Reynard the Fox ، Reineke de Vos ، Reinaert ، وانتهى تطوُّرها برواية Reineke Fuchs بلحيته . وأضاف مؤلفون مختلفون نحو ثلاثين قصة مرححة لهذه السلسلة حتى بلغ مجموعها ٢٤٠٠٠ بيت خصصت كلها تقريباً لهجاء الإساليب الإقطاعية ، وحاشية الملوك ، والاحتفالات المسيحية ، والعيوب الأدبية على لسان الحيوان .

ويحتال رينال الثعلب حيلة شيطانية على الأسد نوبل Noble (الشريف) ملك الدولة ، ويُعْطَر درع نوبل بالسيدة هاروج Dame Harouge الفهدة ، وينصب لها من الدسائس ما لا يقل عن دسائس تليبران Tallyrand حتى ترضى أن تكون عشيقته . ويسترضى نوبل وغيره من الوحوش بأن يهب كلامها طلسماً يبنى الزوج بخيانات زوجته . وهذه الطريقة تنكشف مخازرهمية ، ويضرب الأزواج زوجاتهم الخائنات ، فتفر الزوجات ويحتمين برنار فيتخذهن جميعاً حريماً له . وتقول إحدى القصص إن الحيوانات تشتبك في ألعاب الفروسية ، وتبدو بأثواب الفرسان الزاهية في استعراض رائع . ونرى الثعلب في قصة رينار الميت La Mort Renart يحضر ، ويقبل برنار Bernard الحمار كبير أساقفة الحاشية ليقوم له بالمراسم الدينية ، ويخاطبه بلغة توفى على الغاية في العاطفة والإخلاص ، ويتصنع منتهى الجدل والوقار . ويعترف رينار بلذنبه ، ولكنه يشترط إذا شئ من مرضه أن يصبح في حل من يمينه غير مقيد بها . وتدل المظاهر كلها على أنه مات ، وتجتمع كل الوحوش الكثيرة العدد التي خانها في زوجاتها ، أو ضربها ، أو مزق لحمها ، أو خدعها ، تنظاها بحزنها ، ولكنها في خبيثة أمرها سعيدة بموته . ويلقى كبير الأساقفة على قبر الميت عظة شبيهة بأقوال ربله ، ويلوم رينار لأنه كان يرى « أن كل شيء حسن إذا استطعت أن

تستحوذ عليه . ولكن رينار تدب فيه الحياة حين يرش عليه الماء المقدس ، ويقبض على عنق شانتكلير (الدبك) وهو يطوح بالمبخرة ، ويخرج إلى الغابة بفريسته . وبعد فلذا أراد الإنسان أن يفهم العصور الوسطى على حقيقتها فعليه ألا ينسى رينار .

ذلك أن قصة رينار أعظم القصص الخرافية التي تروى على لسان الحيوان لهجاء الإنسان . وكانت هذه القصص عادة تكتب بالشعر ذى الثمانية الأوتاد ، ويتراوح طولها بين ثلاثين بيتاً وألف بيت ، ومنها ما هو قديم يرجع إلى عهد إيسوب Aesop أو إلى أقدم من عهده ، وجاء بعضها من بلاد الهند عن طريق المسلمين . وكان أكثره قذفاً في حق النساء أو القسيسين ، يحسد النساء على ما حبتهن الطبيعة من سلطان ، والقسيسين على ما لهم من قوى غير طبيعية ؛ يضاف إلى هذا أن النساء والقساوسة قد عابوا على المغنين تلاوة القصص الخرافية الشائنة . ذلك أن الخرافات كانت تتجه على الدوام لأصحاب البطون القوية ، وتستخدم لغة الحانات والمواخير ، وصاغت آلافاً من الفكاهات شعراً . ولكن تشوسر ، وبوكاشيو ، وأريستو Ariosto ، ولافتين ، ومائة غيرهم من القصاصيين استمدوا من معينها الفياض كثيراً من القصص المثيرة للدهشة .

وكانت نهضة الشعر الهجائى سبباً في انحطاط منزلة الشعر الغنائى . واشتق الشعراء المغنون الجوالون اسمهم Minstrels الإنجليزى من لفظ Ministeriales ، وهم فى الأصل خدم فى حاشية البارونات ، اشتقوا اسمهم الفرنسى Jonglenurs من اللفظ اللاتينى ioculator أى صاحب النكات . وقد قام هؤلاء بوظيفة شعراء اليونان الدوارين والماجنين الرومان ، وشعراء اسكنديناوة القدماء ، والمغنين الإنجليسكسون ، وشعراء ويلز وأيرلندة المداحين . وكان المغنون حين بلغت الروايات الغنائية قمة مجدها فى القرن الثانى عشر يقومون مقام الطباعة فى هذه الأيام ؛ وقد احتفظوا بمكانتهم بما كانوا يروونه أحياناً من القصص الخرافية بأن

تسمى أدباً . فكان الواحد منهم يمسك بقيثارة أو الكمان الكبيرة وينشد الأغاني أو القصص القصيرة ، أو الملاحم ، أو قصص مريم أو القديسين ، وأغاني أعمال الأبطال ، والروايات الغرامية أو خرافات الحيوانات (*) . وإذا حل موسم الصوم الكبير ، وقل عليهم الطلب ، عقدوا إذا استطاعوا مؤتمراً للمغنين والماجنين كالمؤتمر الذي نعرف أنه عقد حوالى عام ١٠٠٠ ، وفيه يتعلم بعضهم ما عند البعض الآخر من حبل وأساليب ، وما عند شعراء الفروسية الغزلين والقصاصيين من أغان وقصص جديدة . ومنهم من كان يرضى ، إذا تبين أن أقواله ذات طابع عقلى أقوى مما يطيقه المستمعون ، أن يسلوهم بالشعوذة ، والألعاب البهلوانية ، وثنى الأجسام ، والمشى على الحبال . ولما أخذ القصاصون يتنقلون فى المدن يروون أقاصيصهم ، ولما انتشرت عادة القراءة وقل الطلب على القصاصيين ، تحول المغنى الجائل تدريجاً إلى ممثل للمهازل ذات الأغاني والرقص ، وأصبح المغنى فى واقع الأمر مشعوذاً ، يقذف بالسكاكين ، ويحرك الدمى ، ويعرض ألعاب اللببة المدربة ، والقردة ، والخليل ، والديكة ، والكلاب ، والجمال ، والآساد . ومن المغنين من حول خرافات الحيوانات إلى روايات هزلية ، ومثلها دون أن يمحو ما فيها من فحش . وقاومت الكنيسة شيئاً فشيئاً هذه الطائفة ، وحرمت على الصالحين الاستماع إلى أفرادها ، وعلى الملوك أن يطعموهم ، وكان هونوريوس أسقف أوتون Autun يرى أن أحداً من أولئك المغنين أو القصاصيين لن يدخل الجنة .

وكان حب الشعوب لأولئك المغنين والقصاصيين ورواة خرافات الحيوانات ، والترحيب بالصاحب الذى لقيته ملحمة چان ده مونج عن الطبقة الوسطى

(*) ما أشبه هؤلاء « بالشعراء » الذين ينشدون على الرابطة قصص أبي زيد اللؤلؤ وغيره من الأبطال والذين أخذوا مع الأسف الشديد ينقرعون فى هذه الايام . (المترجم)

bourgeoisie من الطبقات المتعلمة الجديدة وطلبة الجامعات المتمردين ؛
كان هذا خاتمة ذلك العصر . نعم إن الروايات الغرامية ظلت باقية ،
ولكنها كانت تتحداهما من كل ناحية القصائد الهجائية ، والفكاهات ،
والمزاج الدنيوى الواقعى الذى ينسخر من قصص الفروسية قبل أن يولد
سرفتير Cervantes بزمن طويل . وظل الهجاء قرناً كاملاً من ذلك
الوقت هو المسيطر على الميدان ، يقرض بأنياه قلب الإيمان ، حتى
تزعزت جميع دعائم صرح العصور الوسطى ، وتحطمت أضلعه ،
وتركت نفس الإنسان مزهوة ترنح على حافة العقل .

الباب التاسع والثلاثون

دانتي

١٢٦٥ - ١٣٢١

الفصل الأول

شعراء الفروسية الغزلون الإيطاليون

كان بلاط فردريك الثاني في أبوليا هو المكان الذي ولد فيه الأدب الإيطالي . وربما كان لمن في حاشيته من المسلمين نصيب في الحفاظ الباعث على نشأة هذا الأدب لأن كل مسلم يعرف القراءة والكتابة في ذلك الوقت . كان يقرض الشعر . وشاهد ذلك أن سيلودالكامو Cillo d'Alcamo (حوالى عام ١٢٦٠) كتب « حواراً » بجميلا « بين عاشق وسيدة » . وتكاد مدينة الكامو إحدى مدن صقلية تكون مدينة إسلامية . ولكن أثراً أقوى من أثر المسلمين جاء إلى الجزيرة من شعراء الفروسية الغزلين في پروفانس . فقد كان هؤلاء يرسلون أشعارهم ، أو يأتون بأنفسهم ، إلى فردريك وأعوانه المثقفين ، وكان هو يجلهم ويقدر جهودهم . ولم يكن فردريك نفسه يتاصر الشعر فحسب ، بل كان فوق ذلك يكتبه ، ويكتبه باللغة الإيطالية . وقد ألف كبير وزرائه پيرودل في Piero delle Vigne أغاني ممتازة ، وربما كان هو الذي صاغها في تلك الصيغة المجهدة . وكان رينالدو داكوينو Rinaldo d'Aquino (أخو القديس تومس) والذي كان يعيش في بلاط فردريك ، وجيلودلى كولن

Iacopo da Lentino ، وياقوبو دالنتينو Ouido delle Colonne القاشى ،
أحد مسجلى الصبوك فى بلاط فردريك ، كان هولاء جميعاً من بين شعراء
تلك « النهضة الأبولية » ، ولما لنجد فى أغنية ياقوبو (كتبت حوالى ١٢٣٣)
أى قبل مولد دانتي بجبل من الزمان ، ما نجده فى قصائد الحياة الجديدة
Vita Nuovo من رقة العاطفة وجمال الصقل :

أجد فى قلبى قوة تدفعنى إلى أن أخدم الله ،
لكى يكون مثواى الجنة
المكان المقدس الذى سمعت أن البهجة والنعيم
يفيضان فى كل مكان فيه .
غير أنى أكره الذهاب إليها من غير حبيبى
ذات الوجه المتألى* والشعر الراق ،
لأنى أعرف أنها إن غابت عنها وكنت أنا فيها
كان نعيمى أقل من لا شىء .
ولكن حذار أن تظن أنى أقول هذا
لأنى سأرتكب فيها الآثام ،
بل كل ما أبغيه أن أشاهد طلعتها البهية ،
وعينها الناعستين الجميلتين ، ووجهها الصبوح
حتى تتم بذلك سعادتى
برؤية سيدتى متهجة فى مكانها !

ولما أن سافر فردريك وحاشيته فى بلاد إيطاليا أخذ معه شعراءه وحيواناته
البرية ، ونشر هولاء الشعراء أثرهم فى لاتيوم ، وتسكانيا ، ولباردية . وسار
ابنه مانفرد Manfred على سنته فى مناصرة الشعر وكتب مقطوعات غنائية
استحقت ثناء دانتي . وترجم كثير من الشعر « الصقلى » إلى لغة تسكانيا ، وكان

له نصيب في تكوين مدرسة الشعراء التي انتهت إلى دانتى . وحدث في ذلك الوقت عينه أن هجر شعراء الفروسية الغزلون الفرنسيون بلاد لانجويديك Languedoc التي مزقتها الحروب الدينية ، ولجأوا إلى بلاد الحكام الإيطاليين ، وعلموا شعراء تلك البلاد فهم المرح ، كما علموا النساء الإيطاليات أن يرحبن بقصائد المديح ، وأقنعوا كبار الإيطاليين بأن يجوزوا العطاء للشعراء وإن توجهوا بشعرهم إلى زوجاتهم ، وقد بالغ بعض شعراء التسكان في تقليد شعراء الفروسية فكتبوا شعرهم بلغة پروفانسال نفسها للفرنسيين . ومن هؤلاء سر دلو Sordello (حوالى ١٢٠٠ - ١٢٧٠) وهو شاعر ولد في منتوا Mantua بلدة فرجيل ، وأتى ما أغضب لإزليو Ezzelino الرهيب ، ففر إلى پروفانس ، وكتب بلغة تلك البلاد قصائد في الحب الروحاني الأفلاطوني .

ونشأ من هذه العاطفة الأفلاطونية ، بمزيج عجيب من الميتافيزيقا والشعر ، « الأسلوب الحلو الحديد » التسكاني . ذلك أن الشعراء الإيطاليين خرجوا على الشهوانية الصريحة التي وجدوها عند المغنين من شعراء پروفانس ، وآثروا أن يحبوا ، أو ادعوا أنهم يحبون ، النساء بوصف كونهن ممثلات للجمال النقي المجرد ، أو كونهن رموزاً للحكمة أو الفلسفة الإلهيتين . وكانت هذه نعمة جديدة في إيطاليا التي عرفت مائة ألف من شعراء الغزل . وربما كان قلم القديس فرانسيس هو الذى حرك هذه الأقلام العفيفة ، أو لعل كتاب الخصومة لتوماس أكوناس كان شديد الوطأة عليهم ، أو لعلهم شعروا بتأثير المتصوفة المسلمين الذين لم يكونوا يرون في الجمال غير الله ، والذين كانوا يوجهون قصائد الحب للمخالق جل وعلا .

وتكونت المدرسة الحديثة من سرب من المغنين العلماء ، فأخذ جونزلي Guinizelli (١٢٣٠ - ١٢٧٥) أحد مواطني بولونيا ، الذى سماه دانتى والده في الأدب^(٣) ، يتغنّى بفلسفة الحب الجديدة أغنية ذاتة الصيت سماها أغنية « القلب الرقيق » ، وطلب فيها أن يغفر له الله حبه معشوقته لأنها في رأيه الألوهية

مجسدة ؛ ونشر لاجينى Lapa Gianni ، ودينو فرسكونيلدى Dino Frescobaldi ، وجيدو أرلندى Guido Olandi ، وسينودا بستويا Cino da Pastoia ، نشر هؤلاء الأسلوب الجليدي في شمالي إيطاليا ؛ وجاء به إلى فلورنس جيدو كفلكنتي Guido Cavalcanti (حوالي ١٢٥٨ - ١٣٠٠) صديق دانتي وأظرف من عبر عن هذا الأسلوب قبل الشاعر الكبير . وكان جيدو من الأشراف ، ولهذا كان يختلف عن سائر هؤلاء الشعراء العلماء ، وكان زوج ابنة فاريناتا دجلي أبرتي Farinata degli Uberti الذي قاد حزب الجبلين Ghibelline في فلورنس . وكان من أصحاب التفكير الحر في الدين ومن المقتنعين بفلسفة ابن رشد ، متشككا في الخلود وفي الله نفسه^(٤) . واضطلع بدور إيجابي ، عنيف في الشئون السياسية ، وأصدر دانتي ومن معه من الرؤساء في عام ١٣٠٠ قراراً بنفيه ؛ فلما أصابه المرض عفى عنه ، ومات في ذلك العام نفسه . وكان عقلاه الأرستقراطي المتكبر ألق ما يكون لصياغة الأغاني فائرة تماثل في رقتها الأغاني القديمة :

جمال النساء ؛ وقرار الإرادة العليا ؛
والفرسان الأنجاد المسلحون لألعاب الرجولة ؛
وشدو الطير الجميل ؛ وإجابات الحب الحلوة ؛
وقوة السفن المسرعة فوق متن البحار ؛
والهواء الصافي حين يبدأ الضوء أن يكون ؛
والثلج الأبيض ، الذي يسقط ويستقر في سكون الريح ؛
وحقول الأزهار ، والمكان الذي ينبع منه الماء ؛
والفضة والذهب ، وزرقة الجواهر ؛
إذا وزنت أمام سالى من قيمة
في قلب سيدتي العزيزة على

فلإنها تبدو ضئيلة . وفي الحق أنى لأسمو في نظرها
على هذه كلها وأعلو عنها علو السماء عن الأرضين
وكل خير سرعان ما يمتد للخلائق الأقربين^(٥)

وأخذ دانتى الشيء الكثير عن جيلو وقلد أغانيه ، ولعاه مدين له بعزمه
على كتابة الملهمة المقدسة The Divine Comedy باللغة الإيطالية . وشاهد
ذلك قول دانتى نفسه : « وقد رغب إلى فى أن أكتب له على الدوام بلغة
البلاد لا باللغة اللاتينية »^(٦) . وكان أسلاف دانتى هم الذين بدلوا فى القرن
الثالث عشر فجاجة اللغة الجديدة وعجزها إلى نغمتها الحنوة ، وإلى العبارات
المركزة الدقيقة التى لا تضارعا فيها لغة أخرى من اللغات الأوروبية ، وهم
الذين خلقوا لغة يستطيع دانتى أن يسميها : « فخمة ، أصيلة ، مهذبة ،
عظيمة »^(٧) - تليق لأن يكتب بها أعظم العظماء . وكانت أشعار البروفنساليين
تبدو إذا قيسست إلى أغاني الإيطاليين ناشزة غير متناغمة ، وقصص الأبطال
الشعرية ، وغناء المغنين الجائلين تكاد تكون بالنسبة لها نافهة حقيرة .
ولم يعد الشعر فى هذه الأغاني الإيطالية مصرفا للثرثرة المرحية ، بل أصبح
عملا من أعمال الفن القوية المحكمة يبذل فى صياغته من الجهد ما يبذل نقولا
لاپيزانو وولده فى نحت تماثيل المنابر . وبعد فإن من أسباب عظمة الرجل
العظيم أن رجلا أقل منه قد مهدوا له السبيل ، وهيثوا لعبقريته مزاج
عصره ، وشكلوا له أداة يمسكها بيديه ، وأسلموه عملا أنجزوا نصفه .

الفصل الثاني

دانتى وبياتريس

فى شهر مايو عام ١٢٦٥ ولدت بلا أليجيرى Bella Alighieri لزوجها أليجيرى أليجيرى Alighiero Alighieri ولدا سموه دورانتى Durante أليجيرى ، ولعلهما لم يفكرا فى ذلك الوقت أن معنى هذين اللفظين هو حامل الجناح الطويل البقاء . ويبدو أن الشاعر نفسه هو الذى اختصر اسمه الأول فجعله دانتى (٨) . وكان لأسرته سلسلة نسب طويلة فى فلورنس ، ولكنها حلت بها الفاقة ، وماتت والددة الطفل فى السنين الأولى من عمره ، وتزوج أليجيرى غيرها ، ونشأ دانتى مع زوجة أبيه ، وأخ له غير شقيق ، وأختين غير شقيقتين ، ولعله لم يكن سعيداً معهم (٩) . ومات والد دانتى حين كان ابنه فى الخامسة عشرة من عمره ، وخلف لهم عبثاً من الديون (١٠) .

وكان دانتى يذكر من بين مدرسيه برونزو لاتينى Brunetto Latini ولا ينسى فضله عليه . وكان برونزو حين عاد من فرنسا قد اختصر موسوعته الفرنسية السكتر Tesor إلى موسوعة إيطالية صغرى سماها الكسيز Tesoretto وتعلم منه دانتى كيف يخلد الإنسان ذكره Come l'uom s'eterna (١١) . وما من شك فى أن دانتى قد درس فرجيل ، وأنه وجد فى دراسته لهذه كبرى ، فهو يحدثنا عن أسلوب شاعر مانتوا الجميل ، وهل يوجد طالب سواه أحب كتاباً من كتب القدماء حباً جعله يسير وراء مؤلفه فى الجحيم ؟ ويشير بوكاشيو إلى أن دانتى كان فى بولونيا عام ١٢٨٧ . وحصل الشاعر فى هذه البلدة أو فى مكان سواها قدراً يؤسف له من العلوم ومن فلسفة المعجزات التى كانت منتشرة فى زمانه

جعل قصيدته مثقلة بعلمه الواسع الغزير . وكان مما تعلمه فضلاً عن هذا ركوب الخيل ، والصيد ، والثقافة ، والتصوير ، والغناء . ولسنا نعرف كيف كان يحصل على قوته ، وأيا كانت سبيله في تحصيله فإنه كان يقبل في الأوساط المثقفة ، لصداقته لكفلكنتي إن لم يكن لأسباب أخرى مضافة إلى هذه الصداقة ، وقد وجد في هذه الأوساط كثيراً من الشعراء .

وبدأت أشهر الحوادث الغرامية كلها حين كان دانتي وبياتريس كلاهما في سن التاسعة . وكانت بدايتها كما يقول بوكاشيو في حقله من حفلات أول مايو أقيمت في بيت فلكو برتتاري Folco Portinari أحد كبار المواطنين في فلورنس . وكانت « بيس » الصغيرة ابنة فلكو ، والراجح أيضاً أنها هي التي يتحدث عنها دانتي باسم بياتريس^(١٢) ، ولكن هذا الرجحان لا يقرب من التأكيد قرباً يزيل شكوك المتزمتين . ولسنا نعرف شيئاً عن هذا اللقاء الأول إلا من الوصف الذي كتبه عنه دانتي بعد تسع سنين من ذلك الوقت في ثيتا نيوغو Vita nuovo ونخلع عليها فيه من الصفات ما جعلها مثلاً أعلى قال :

كان لباسها في ذلك اليوم من أبلع الملابس ، فقد كان ذا لون قرمزي هادئ جميل ، وكانت ممنطقة ومزينة بما يناسب سنها الصغيرة . وإنى لأقول صادقاً كل الصديق إن روح الحياة المستكنة في أعماق خبايا القلب أخذت من تلك اللحظة ترتجف ارتجافاً عنيفاً اهتزت معه جميع أجزاء جسمي ، وقالت وهي تهتز : « هاهي ذي إلهة أعظم مني قوة مقبلة لتسيطر علي » وأصبحت من تلك اللحظة عبداً لها^(١٣) .

إن فتى يقترب من سن البلوغ لفتي ناضج لهذا الارتجاف متأهب له ، ولقد عرف معظمنا هذه التجربة ، وفي وسعنا أن نعود بذكرياتنا إلى ذلك العشق السريع الزوال ، ونرى أنه من أكثر التجارب التي تعترض شبابنا روحانية ، وأنه لحظة عجيبة خفية من يقظات الجسم والروح ، ندرك بها الحياة ، والصلوات

الجنسية ، والجمال ، ونقص الواحد منا بمفرده ، وإن كان الإنسان مع هذا لا يدرك وقتئذ رغبة الجسم في الجسم ، بل كل ما في الأمر أنه يتوق في حياء لأن يكون قريباً من حبيبته ويخدمها ، ويستمع إلى حديثها ، ويراقب ظرفها ورشاقها . وإذا ما وهبت نفس الشاب حساسية كحساسية دانتى - أى إذا كان ملتهب العاطفة قوى الخيال ، فقد يبقى هذا الإلهام وذلك النضوج في ذاكرته مدى الحياة ، ويظل أبداً الدهر جافزاً قوياً له . ويصف لنا دانتى كيف كان يتحين الفرص ليرى بياتريس ، وإن لم تتح له إلا نظرة لها دون أن تراه هي ؛ ثم يبدو أنه ظل لا يراها تسع سنين ، حين بلغا الثامنة عشرة من عمرهما ، وفى هذا يقول :

واتفق أن تبدت لى هذه الفتاة العجيبة فى أبواب ناصعة البياض بين سيدتين من كرائم العقائل أكبر منها سناً . وبينما كانت تجتاز الشارع التفتت إلى الناحية التى كنت واقفاً فيها يجلالى الحياء ، وحبتى بفضل لا أستطيع وصفه . . . إذ سلمت على وهى مشرقة البهجة ، تحيط بها هالة من الفضيلة والروعة ، خيل لى معها فى تلك اللحظة وتلك البقعة أننى قد نلت منتهى ما أصبو إليه من السعادة . . . ثم غادرت ذلك المكان ثملاً بنشوة من الفرح . . . وفى هذه اللحظة اعتزمت أن أولف أغنية ، فقد كنت أنزع إلى حدى ما أن أقول الحديث الملقى (١٤) .

وهكذا نشأت سلسلة أغانيه وتعليقاته المعروفة باسم الحياة الجبريرة *La vita nuovo* ، إذا جاز لنا أن نصدق ما قاله هو عن نفسه . وأخذ فى فترات من التسع السنين . التالية (١٢٨٣ - ٩٢) يؤلف مقطوعاته الغنائية ، ثم أضاف إليها النثر فيما بعد . وكان يرسل إلى كفلكانتى المقطوعة ' إثر المقطوعة ، وكان كفلكانتى يحتفظ بها ، وأصبح من ذلك الوقت صديقاً له . والقصة الغرامية التى تحدثنا عنها هذه الأغاني من المبتكرات الأدبية إلى حدى ما ، وإن ذوقنا الذى تبدل فى هذه الأيام يمجج هذه القصائد لما فيها من تأليه للحب تأليها مسرفاً فى الخيال كما كان يفعل شعراء القروسية الغزلون ، وللأحاديث المدرسية المملة التى

يفسدها بها ، وما تحتويه من البحوث الخفية الغامضة حول الثلاث والنسعات .
لهذا كان من الواجب علينا أن نغض الطرف عن هذه العيوب التي هي في
الحق عدوى زمانه :

يقول الحب فيها : « كيف يمكن أن يكون الجسم وهو من تراب
نقياً هذا النقاء ؟ » .

ثم يقسم وهو لا يتفك يحدق فيها : « حقاً إنها مخلوق من خلق الله
لم يعرف من قبل » .

إن لها من شحوب الدرة القدر الخلق بالمرأة الجميلة لا أكثر منه
ولا أقل

ولقد سميت بالقدر الذي يمكن أن تسمو به الطبيعة وإبداع الخالق ،
بها يقاس الجمال ، وكل ما وقعت عليه نظراتها الحلوة
خرجت منه أرواح الحب ملتهبة . فإذا نظر الناس إلى هذه الأزواج
سرت في عيونهم وأصابهم سهام تلك العيون شغاف قلوبهم .
وفي بساطتها ترى الحب مجسماً فلا يستطيع إنسان أن يطيل النظر
إليها (١٥)

وبعض الذئب أبعث على السرور من الشعر :

فإذا ظهرت في مكان ما ، خيل إلى وأنا أو مل أن تحييني تحيتها الجميلة ،
أن لم يبق لي في العالم كله عدو ، وغمرني في ذلك الوقت فيض من المحبة
لا أشك معه في أنني سأعفو عن كل من أساء إلى مهما تكن إساءته . . .
ومشت يجللها التواضع ، فلما أن غادرت المكان قال كثيرون ممن فيه :
« ليست هذه امرأة ، وإنما هي ملكة جميل هبط من السماء » . وإلى لأقول
بحق إن فيها من الرقة والظرف ما يبعث في نفس كل من ينظرون إليها
هدوءاً وسكينة يعجز البيان عن وصفهما (١٦) .

وليس في هذا الافتتان ، الذي نحسبه متكلفاً ، إشارة إلى فكرة زواجه من

بياتريس . ولقد تزوجت بالفعل في عام ١٢٨٩ من سيمون ده بارى Simone de, Bardi ، وهو عضو في شركة مصرفية كبرى . ولم يهتم دانتى بهذا الحادث العرصى ، بل ظل يكتب فيها القصائد دون أن يذكر اسمها ، فلما ماتت بياتريس بعد عام من زواجها وهي في الرابعة والعشرين من عمرها ، رثاها الشاعر بقصيدة هادئة ذكر فيها اسمها لأول مرة ، وجاء فيها :

صعدت بياتريس إلى السموات العلى ،
إلى الملكوت الذى يتمتع فيه الملائكة بالسلام :
فهى تعيش معهم ، وإن فقدوا الأصدقاء ،
ولم يدفعها إليه زمهرير الشتاء ، كما يدفع غيرها من الناس
لا ولا حر الصيف اللافح ،
ولنما اندفعت بغير هذا وذاك ، بلطفها الكامل ،
لأن هالة عظيمة خرجت من نور جبينها الوضاء ،
فأثارت الدهشة في نفس الخلاق الأزل ،
وسرت فيه رغبة حلوة في ذلك الجمال البارع ،
فأمرها أن تتوق إليه في علاه ،
لأنه رأى أن هذا المكان الممل الخبيث
غير جدير بهكل هذا اللطف وتلك الرقة (١٧) .

وبصورها في قصيدة أخرى يحيط بها في الجنة من يقدمون لها فروض
الولاء ، ثم يقول :

وبعد أن كتبت هذه المقطوعة ، قدر لي أن أرى رؤى عجيبة . إذ أبصرت
أشياء اعترمت بعدها ألا أقول شيئاً قط عن هذه السيدة المنعمة ، إلى أن يحين
الوقت الذى أستطيع فيه أن أتحدث عنها حديثاً أجدر بها . وأنا أبلد ما وسعني
من جهد لبلوغ هذه الغاية ، كما تعرف هي بحق . ومن أجل هذا فإذا أراد الله

باعث الحياة في كل شيء أن يطيل حياتي عدداً قليلاً من السنين ، فلاني أرجو .
أن أكتب فيها ما لم يكتب من قبل في أية امرأة سواها ؛ فإذا فعلت فقد
يرى المنعم المتفضل أن تغادر روحى هذه الأرض لتتملى بمجد سيدتها ،
أعني مجد بياتريس السعيدة التي لا تنفك الآن تتطلع إلى وجه الله العلي القدير .
وهكذا ، أخذ كما يقول في ختام كتابه الصغير يتطلع إلى وضع كتاب
أكبر منه وأعظم ، « وأخذت مقطوعاتي تنابيع بلا انقطاع من أول يوم رأيت
فيه وجهها في هذه الحياة ، حتى رأيت هذه الرؤى » التي يختتم بها أقواله في
الجنة (١٨) . وقلما عرفنا إنساناً رسم طريقاً واضح المنهج ، ولم يجد عنه مهما
صادفه من صروف الدهر وطوارق الحداث .

الفصل الثالث

الشاعر في غمار السياسة

بيد أنه حاد في بعض الأحيان عن صراطه المستقيم . فقد تورط دانتي بعد موت بياتريس بوقت ما في حب خفيف بعد حب خفيف - أحب « بيترا Pietra » ، « وبرجلتا Paragoletta » و « ليزتا Lisetta » وغيرهن من الأباطيل التي لم ينتفع بهن إلا زمناً قصيراً^(١٩) . وقد وجه إلى سيدة واحدة - يسميها السيرة الطريفة قصائد غزلية - أقل روحانية من قصائده إلى بياتريس . ثم تزوج في عام ١٢٩١ وهو في السادسة والعشرين من عمره جمادوناتي Gemma Donati ، وهي فتاة من سلالة أقدم الأسر الشريفة في فلورنس . وأنجب له في عشرين سنة عدة أبناء يقدرهم البعض بثلاثة ، والبعض بأربعة ، والبعض الآخر بسبعة^(٢٠) . ويبلغ من إخلاصه للدستور شعراء الفروسية الغزلين أنه لم يذكر قط زوجته أو أبناءه في شعره ، ولو فعل لكان هذا عملاً غير لائق به ، لأن الزواج والحب الروائي ضدان لا يجتمعان .

ثم ألقى بنفسه في بحر السياسة ، ولعل الذي ساعده على هذا هو كفلكانتي ، وانضم لأسباب لا نعرفها إلى حزب « البيض Bianchi » وهو حزب الطبقة المتوسطة العليا . وما شك في أنه كان ذا مواهب سياسية ، لأنه اختير في عام ١٣٠٠ لا بعد عضواً في المجلس البلدي ، وحدث في أثناء اضطلاله بهذا العبء القصير الأجل أن حاول السود Neir يقودهم كورسو دوناتي Corso Donati أن يحدثوا انقلاباً سياسياً مفاجئاً يعيدون به الأشراف الأقدمين إلى الحكم . ولكن المقدمين - أعضاء المجلس البلدي - قمعوا الفتنة وسعوا

ووافقة دانتي لنشر لوائح السلام في المدينة بنفى زعماء الحزبين - ومنهم دوناتي - صهر دانتي ، وكثلكائتي صديقه . لكن دوناتي غزا فلورنس في عام ١٣٠١ بعصبة من السود المسلحين ، وخلع المقدمين ، واستولى على زمام الحكم ؛ ثم حوكم دانتي وخمسة عشر من المواطنين في أوائل عام ١٣٠٢ وأدينوا بعدة جرائم سياسية ، ونفوا من البلدة ، وحكم عليهم بأن يقتلوا حرقاً إذا عادوا إلى فلورنس مرة أخرى . ففر دانتي ولكنه ترك أسرته في المدينة لأنه كان يأمل في العودة إليها بعد قليل . واضطره هذا النفي وما صاحبه من مصادرة أمواله إلى أن يقضى تسعة عشرة عاماً في فقر مدقع وتجوّال البلاد ، ملأ قلبه غلا وحقدًا ، وكانا من أسباب مزاجه النكد الذي يسود موضوع الملهاهة الطريفة . أما شركاؤه في النفي فقد أقنعوا مدائن أريزو ، وبولونيا ، وبستويا بأن تسيّر على فلورنس جيشاً مؤلفاً من ١٠٠٠ مقاتل ليعيدهم إلى السلطة أو في القليل يرددهم إلى أوطانهم (١٣٠٤) ، وقد فعلوا هذا على الرغم من نصيحة دانتي لم ألا يقدموا على هذا العمل . وأخفقت هذه المحاولة ، واختط دانتي لنفسه من ذلك الوقت خطة خاصة ، وعاش مع أصدقائه في أريزو ، وبولونيا ، وهدوا .

وكانت السنوات العشر الأولى من نفيه هي التي جمع فيها بعض القصائد التي كتبها إلى السيدة الطريفة ، وأضاف إليها تعليقات ثرية استحال بها هذه السيدة إلى السيدة الفيلسفة . ونجدتنا دانتي في قصيدة المائدة (Conuiuio) (حوالي عام ١٣٠٨) كيف ولى وجهه ، بعد خيبته في الحب وفي الحياة ، نحو الفيلسفة ليخفف بها من آلامه ، وكيف وجد في هذه الدراسة المغرية إلهاماً مقدساً ، وكيف اعتزم أن يشارك فيها كشفه من إلهام من لا يستطيعون قراءة اللغة اللاتينية بأن يكتب لهم بالإيطالية . ويبدو أنه كان يفكر في كتابة حومر أو كنز جديد يدعى فيه أن كل جزء من أجزاءه يتعلق على إحدى قصائده

عن السيدة الجميلة . وتلك بلا ريب خطة عجيبة أراد بها أن يستعويض عن الحب الشهواني بالحب المجذب . والكتاب الصغير خليط مهوش من العلوم الغامضة العجيبة ، والاستعارات المتكلفة ، وشذرات فلسفية مستمدة من يوثيوس وشيشرون . ويحق لنا أن نشيد بعبقرية دانتي التي حملته على أن يتخلى عن إتمام هذا الكتاب ، ويراها عملاً خاسراً كل الحسنان ، بعد أن كتب ثلاثة من الشروح الأربعة عشر التي كان يعتزم كتابتها .

وشرع وقتئذ في ذلك العمل المتواضع ألا وهو إعادة حكم أباطرة الدولة الرومانية المقدسة في إيطاليا ؛ ذلك أن تجاربه قد أقنعت به بأن منشأ ما في المدن الإيطالية من فوضى وعنف هو فهمها الخاطئ الجزأ للحرية — فقد كان كل إقليم ، وكل مدينة ، وكل طبقة ، وكل فرد ، وكل ذى شهوة ، يطالب بالحرية الفوضوية . وكان هو يتوق إلى ما تاق إليه مكيفلي بعد مائتي عام من ذلك الوقت ، إلى قوة تنسق جهود الأفراد ، والطبقات ، والمدن فتجعل منها كلا منظماً يستطيع الناس في داخله أن يعملوا ويعيشوا في سلم وأمان . وكان يرى أن هذه السلطة الموحدة إما أن تأتي من البابا أو من رئيس الدولة الرومانية الشرقية ، التي كان شمالي إيطاليا من زمن بعيد يخضع لها من الوجهة النظرية . غير أن دانتي كان قد نفي من زمن قصير بأمر حزب متحالف مع البابوية ؛ وتقول إحدى الروايات غير المؤكدة إنه اشترك في بعثة سياسية غير موفقة أرسلت من فلورنس إلى بنيفاس الثامن ، وقد ظل البابوات زمناً طويلاً يعارضون في توحيد إيطاليا لأن هذا يعرض للخطر حريتهم الروحية وسلطتهم الزمنية . ولهذا بدا أن الأمل الوحيد في عودة النظام إلى البلاد هو إعادة السلطة الإمبراطورية ، بالرجوع إلى السلم الرومانية التي بسطت لواءها رومة القديمة

وفي هذه الظروف كتب دانتي في تاريخ غير معروف رسالته المثيرة في الملكية المطلقة De monarchia ، كتبها باللغة اللاتينية ، وكانت لا تزال لغة

الفلسفة ؛ وقال إنه لما كان عمل الإنسان الذى يليق به هو النشاط الذهنى ، ولما كان عاجزاً عن ممارسة هذا النشاط إلا فى السلم ، فإن الحكم المثالى هو إقامة دولة عالمية تقرر السلام الدائم وتبسط العدالة على جميع سكان الأرض . فإذا قامت هذه الدولة كانت الصورة الصحيحة المطابقة للنظام السماوى الذى وضعه الله فى الكون . وكانت رومة الإمبراطورية أقرب الدول إلى هذه الدولة العالمية ، ولقد أظهر الله رضاه عن هذه الدولة إذ اختار أن يكون إنساناً فى زعهد أغسطس ، وإذ أمر المسيح نفسه الناس بأن يخضعوا لسلطان القيصرية السياسى . ولم يكن سلطان الإمبراطورية القديمة مستمداً بطبيعة الحال من الكنيسة المسيحية ، غير أن الدولة الرومانية المقدسة لم تكن إلا هذه الدولة القديمة عادت إلى الوجود . نعم إن النابا هو الذى توج شارلمان إمبراطوراً ؛ ولاح بهذا أن الإمبراطورية قد خضعت للبابوية ؛ ولكن « اغتصاب حق لا يخلق هذا الحق ؛ ولو أنه خلقه لدلت هذه الطريقة عينها على خضوع الساطة الكنسية للدولة المدنية بعد أن أعاد الإمبراطور أوتو Otto البابا ليو Leo وخلع بنيفاس » (٢١) .

ولقد كان كتاب الملكية المطلقة دفاعاً قوياً عن قيام « عالم واحد » ، ذا حكومة واحدة ، وشرائع واحدة رغم ما فى هذا الكتاب من جدل مدرسى لم يعد يتمشى مع طرائق التفكير السائدة فى ذلك الوقت . ولم يكن مخطوط الكتاب معروفاً فى أثناء حياة مؤلفه إلا لعدد قليل من الناس ولكنه انتشر بعد وفاته ، واتخذ لوييس البافارى Louis of Bavaria عدو البابوية وسيلة للدعابة ، ثم أحرق الكتاب علناً بناء على مرسوم بابوى صدر فى عام ١٣٢٩ ، وأدرج فى القرن السادس عشر فى التبت البابوى المحتوى أسماء الكتب المحرمة ، ثم رفعه من هذا التبت ليو الثالث عشر فى عام ١٨٩٧ .

ويقول بوكاشيو إن دانتى ألف كتاب الملكية « حين جاء هنرى السادس » . ذلك أن ملك ألمانيا غزا إيطاليا فى عام ١٣١٠ راجياً أن يبسط على شبه الجزيرة

كلها ، عدا الولايات البابوية ، الحكم الإمبراطورى الذى انقضى عهده بموت
فرديريك الثانى . ورحب به دانتي وجاشت فى صدره آمال كبار ، وأهاب
بمدن لبارديا ، فى « رسالة موجهة إلى أمراء إيطاليا وشعوبها » أن تفتح
قلوبها وأبوابها إلى « القادم » اللكسمبرجى الذى سينجيها من القوضى
والببوات . ولما وصل هنرى إلى ميلان هرع دانتي إليها وألقى بنفسه وهو
فى نشوة الحماسة عند قدمى الإمبراطور ، وخيل إليه أن كل ما كانت
تصوره له أحلامه من قيام إيطاليا الموحدة يوشك أن يتحقق . لكن فلورنس
لم تستجب لنداء الشاعر ، وأوصدت أبوابها فى وجه هنرى ، ووجه
دانتي وهو فى سورة الغضب رسالة « إلى الفلورنسيين أشد الناس إجراماً
Scelestissimis Florentinis » (مارس ١٣١١) قال فيها :

ألا تعرفون أن الله قد أمر أن يخضع بنو الإنسان كلهم عاهل
واحد ليدافع عن العدالة ، والسلم ، والحضارة ؟ وأن إيطاليا كانت على
الدوام فريسة للحرب الأهلية كلما زال عنها سلطان الإمبراطورية ؟ يا من
تعتدون على القوانين البشرية والإلهية ، ويا من يدفعكم النهم الرهيب إلى
ارتكاب كل جريمة مهما بلغت من الشناعة — ألم تروءكم رهبة الميتة الثانية
فخرجتم على مجد الأمير الرومانى ، ملك الأرض ومبعوث الله ؟ . . .
يا أحمق الناس وأبلدهم إحساساً ! سوف تخضعون صاغرين إلى النسر
الإمبراطورى ! (٢٤) .

وساء دانتي وملاً قلبه هلعاً أن هنرى ترك فلورنس وشأها ؛ ولهذا
كتب الشاعر إلى الإمبراطور فى شهر إبريل كما كتب نبي من أنبياء بنى
إسرائيل يحذر الملوك فقال :

لسنا ندرى أى نحول يبعدك عن العمل هذا الزمن الطويل . . . إنك تضيق
الربيع كما تضيق الشتاء فى ميلان . . . (لعلك لا تعرف) أن فلورنس مصدر الشر
المستطير . . . وأنها هى الأفعى . . . التى تنفث من أنفاسها الفاسدة الدخان الموبوء
الذى يقضى على القطعان المجاورة لها . . . هبَّ إذن يا ابن يسى Jesse النبيل ! (٢٥)

وكان رد فلورنس أن أعلنت نفي دانتى ، وحرمانه أبدا الدهر من كل ر
عفو يصدر عن الخائن . وترك هنرى فلورنس دون أن يمسه بسوء ،
وانتقل عن طريق جنوى وبرز إلى رومة حيث توفى (١٣١٣) .
وكان موته من أشد الفواجع التى حلت بدانتى ؛ ذلك أنه قد قام بكل شئ
على انتصار هنرى ، وحرق من ورائه كل الجسور الفلورنسية ولم ير أمامه
إلا أن يفر إلى جيبو Gibbio وبلجأ إلى دير الصليب المقدس (سانتا كروس
Santa Croce) . ويبدو أنه كتب فى هذا الدير جزءاً كبيراً من **المهراة**
المقرسة (٢٦) . غير أنه لم يكن قد شبع بعد من السياسة ، فقد كان فى أغلب
الظن مع أجشيونى دلافجيولو Uguccione della Fuggiulo فى لوكا Lucca
عام ١٣١٦ ، وفى ذلك العام هزم فجيولو الفلورنسيين عند مونتى كاتنى
Montecatini ؛ ثم استفاقت فلورنس من هذه الهزيمة وضمت ابنى دانتى إلى
الحكوم عليهم بالإعدام - ولم ينفذ هذا الحكم قط . وخرجت لوكا على
أجشيونى وألفى دانتى نفسه مرة أخرى بلا وطن . ورأت فلورنس فى نشوة
النصر أن تكون كريمة ، وأن تنسى أحكامها الأبديّة ، فعرضت أن تحفو
عن جميع المنفيين وتؤمنهم على حياتهم إذا عادوا إليها ، على شرط أن يؤدوا
لها غرامة مالية ، وأن يسيروا فى شوارع المدينة فى أثواب الندم ، وأن يزج
بهم فى السجن وقتاً قصيراً . وتطوع أحد أصدقاء دانتى بإبلاغه هذا القرار ،
فرد عليه برسالة ذائعة الصيت قال فيها :

إلى صديق فلورنسى :. تلقيت رسالتك بما يليق بها من الإجلال والحب ،
وأدرت منها بقلب مغمم بالشكر ... أن عودتى إلى بلدى عزيزة على
نفسك . ولكن انظر إلى ما هو مفروض علىّ ... ذلك أننى إذا ما قبلت
أن أؤدى قدراً من المال وأن أتحمل وصمة السجن ، فيسيعنى عنى فأستطيع
العودة من فورى .

فهل هذه إذن هى الدعوة الكريمة التى توجه إلى دانتى الجبرى ليعود إلى

بلده بعد أن صبر على الذنى ما يقرب من خمسة عشر عاماً ؟ . . . إن رجلاً
ينادى بالعدالة لا يطيق أن يؤدي ما له إلى من يرتكبون المظالم ، كأنهم
يحسنون إليه . ألا إن هذه ليست الطريقة التي أعود بها إلى بلدى . . . فإذا
كان ثمة طريقة أخرى . . . لا تزرى بكرامة دانتى . . . فلانى لن أتوانى
قط عن اتباعها ؛ أما إذا لم يكن دخول فلورنس مستطاعاً بهذه الطريقة
الأخرى ، فلانى لن أدخلها أبداً . . . ما هذا الذى تقول ! أليس وسعى
أن أستمتع بنور الشمس وجمال النجوم فى كل مكان على ظهر الأرض ؟
أليس فى مقدورى أن أفكر فى أعظم الحقائق شائناً تحت كل سماء ؟ (٢٧)

وأغاب الظن أنه قبل فى أواخر عام ١٣١٦ دعوة وجهها إليه كان
جراندى دلا اسكالا Can Grande della Scala ، حاكم فيرونا لأن يبعث
إليه ويعيش فى ضيافته . ويبدو أنه أتم فى هذه البلدة قسم الحجة فى المراهة المقدسة
(١٣١٨) - وفيها بلا ريب أهدى هذا القسم إلى كان جراندى . وفى وسعنا
أن نصوره فى تلك الفترة من حياته - أى فى الحادية والخمسين من عمره -
كما صوره بوكاشيو فى الحياة الجبرية عام ١٣٥٤ ؛ نصوره رجلاً متوسط
القامة « منحنى الظهر قليلاً » يسير بخطى وقورة متزنة تتم عن المهابة
والانقباض ، ذا شعر أسود وبشرة سمراء ، ووجه طويل يتم عن كثرة
التفكير ، وجهة بارزة مغضنة ، وعينين غائرتين ذواتى نظرات صامتة ،
 وأنف رفيع أفعى ، وشفتين منطبتتين ، وذقن بارز (٢٨) . ذلك وجه روح
كانت من قبل وادعة ظريفة ، ولكن الآلام جعلتها نكدية مريرة ؛ وليس
من السهل على دانتى صاحب الوصف الوارد فى الحياة الجبرية أن يتصنع
كل ما وصفه به هذا الكتاب من شفقة ورقة عاطفة ؛ وإن شيئاً من هذه
نصفات ليظهر فيما بدا عليه من حنان وهو يستمع إلى قصة فرانسيسكا . وكان
عبوساً صارماً شأن الرجل المغلوب على أمره المنفى من بلده ، وقد أكسبته
الشدائد حدة فى اللسان ، وغطرسة يغطى بها ما فقدته من قوة وسلطان .

فكان يفخر بنسبه لأنه كان فقيراً ، ويحتقر رجال الطبقة الوسطى من أهل فلورنس الذين يحرون وراء المال ؛ ولم يكن في وسعه أن يغفر لبرتنارى زواج بياتريس من مصرفي ؛ وسلك طريق الانتقام الوحيدة التي وجدها أمامه فوضع المرابين في الدرك الأسفل من النار . ولم يكن ينسى قط أذى أو إهانة ، وما أقل من سلم من أعدائه من سموم قلعه . وكان يرى أن الذين يبقون على الحياد في الثورات أو الحروب أقل نفعاً في نظره منهم في نظر سولون . وكان منبع صفاته الخلقية كلها هو الشدة الملتبهة : « لم أكن ما أنا بفضل ثرائي بل بفضل الله عليّ » ، وإن غيرتي على بيته لتشعل النار في قلبي » (٢٩) .

وقد أفرغ في قصيدته كل ما وهبه الله من قوة ، ولم يكن يستطيع أن يعيش بعد تمامها زمناً طويلاً . ففي عام ١٣١٩ غادر فيرونا وسافر إلى رافنا ليعيش فيها مع الكونت جيدو دا بولنتا Count Guido da Polenta ، ثم تلقى دعوة من بولونيا للقدوم إليها لكي يتوج فيها شاعراً لبلاطها ، ورفض الدعوة بأنشودة رعوية كتبها باللغة اللاتينية . وفي عام ١٣٢١ أرسله جيدو إلى مدينة البندقية في بعثة سياسية كان نصيبها الإخفاق ، وعاد دانتى من هذه البعثة مريضاً بحمى أصابته من مستنقعات فينيتو Veneto . ولم يستطع جسمه الضعيف مقاومة المرض ، ف قضى عليه في ١٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ وهو في السابعة والخمسين من عمره . واعتزم الكونت أن يقيم شاهداً على قبر الشاعر ، ولكن شيئاً من هذا لم يتم ، أما النقش القليل البروز القائم فوق التابوت الرخامي في هذه الأيام فقد نحتته بيترولباردو عام ١٤٨٣ ، والعالم كله يعرف أن بيرون جاء إليه وبكى ، والقبر في هذه الأيام لا يكاد يبدو للناظر ، يحده الإنسان في أحد الأركان وهو قادم من أكثر ميادين رافنا ازدهاماً بالأعمال ، وإذا ما قدمت إلى حارسه المقعد الطاعن في السن بضع ليرات أشدك بعض قطع جميلة طنانة من القصيدة التي يمتدحها الناس جميعاً ولا يقرؤها منهم إلا القليلون .

الفصل الرابع

الملهاة المقدسة

١ - القصيدة

يقول بوكاشيو إن دانتي بدأها بالشعر اللاتيني السداسي الأوتاد - (ذى الستة التفاعيل) - ولكنه استبدل به اللغة الإيطالية ، لكي تصل قصيدته إلى عدد أكبر من القراء . ولعله تأثر في اختياره بقوة عاطفته ؛ فقد بدا له أن التعبير عن الانفعال باللغة الإيطالية أيسر منه باللغة اللاتينية التي طال ارتباطها بالحياة المدنية والقيود القديمة . وكان في شبابه قد قصر اللغة الإيطالية على شعر الحب ؛ أما الآن وقد جعل موضوعه أسمى فلسفة ، وهي اقتداء البشرية عن طريق الحب ، فقد خطر بباله أن يقدم على التحدث بلغة بلاده ، وكان في وقت ماض غير معروف قد بدأ مقالا لاتينياً لم يتمه سماه في فصاحة اللغة السعوية De vulgari eloquentia ، أراد به أن يغري الطبقة المتعلمة بالتوسع في استخدام اللغة القومية . وقد امتدح فيه جزالة اللغة اللاتينية وإحكامها ، ولكنه عبر عن أمله في أن تسمو اللغة الإيطالية فوق لهجاتها العامية بفضل أشعار دولة فردريك ، والأسلوب الجدير الذي ابتدعه شعراء التسكان والمبارد القصاصون ، فتصبح (كما ورد في المؤامرة » غاصة بأروع التعابير وأجملها ») (٣٠) . ولم يكن دانتي نفسه - الذي نعلم عن كبريائه ما نعلم - يتصور أن ملحمته ستجعل اللغة الإيطالية صالحة للتعبير عن أى غرض من الأغراض الأدبية ، وأنها لن تكفي بهذا بل ستمسو بهذه اللغة إلى درجة من العذوبة والرفقة قلما عرف لها العالم مثيلاً .

ولم يبذل في إعداد قصيدة ما من الجهد مثل ما بذل دانتي في إعداد قصيدته .

وكانت نزعة إلى التثليث - تعبر عن الثالوث الدينى المقدس - وتتم عن ضعف الشاعر هى التى عينت شكل القصيدة فجعلتها مؤلفة من ثلاثة « أناشيد » ، فى كل نشيد ثلاث وثلاثون أغنية ، تقابل سنن حياة المسيح على هذه الأرض ، تضاف إليها أغنية أخرى فى النشيد الأول فتكون عدتها مائة كاملة . واعتزم أن يكتب كل أغنية فى مجموعات كل منها ثلاث أبيات ، يتفق البيت الثانى من كل مجموعة فى قافيته مع البيتين الأول والثالث من المجموعة التى بعدها . وليس ثمة ما هو أكثر تكلفاً من هذا ، ولكن ما من فن يخلو من التكلف ، وخير ما يمكن أن يصنعه الفنان أن يخفى تكلفه ، وهذه القافية الثلاثية terza rima تربط كل أغنية بالتي تليها ، وتؤلف منها كلها أغنية واحدة متصلة ، تناسب فى لغتها الأصلية أنسياً سهلاً على اللسان ، ولكنها إذا ترجمت تعثرت وبدت كليله . ولقد ندد دانتى مقدماً بكل ترجمة لقصيدته ، فما من شيء يسرى فيه توافق الاتصال الموسيقى يمكن أن ينقل من لغته الأصلية إلى لغة أخرى دون أن يفقد حلاوته وتوافقه (٣١) (*) .

وكما أن أبيات القصيدة هى التى عينت صورتها ، فإن الاستعارات هى التى عينت قصتها ، وقد شرح دانتى فى الرسالة التى أهدى بها القصيدة إلى كان جراندى (٣٢) ما تنطوى عليه أناشيده من رموز ، ولنا أن نظن أن شرحه هذا فكرة متأخرة لاحت لشاعر كان يريد أن يكون فيلسوفاً ، ولكن انهماك العصور الوسطى فى الرمزية ، وما كان فى الكنائس الكبرى من تماثيل رمزية ، ومظالمات جيوتو وجادى Gaddi ورفائيل ، وكلها رمزية ، وتسامى دانتى الرمزى فى الحياة الجديرة والمأثرة ، كل هذا يوحى بأن الشاعر كان يفكر فى النقلة الرئيسية لمشروعه الذى وصفه وصفاً مفصلاً قد يكون خيالياً . وبقون دانتى إن

(*) ومن اجابنا أن يستثنى من هذا ترجمة دانتى لجبريل روزنى للديانة البند ومن جاءوا قبل دانتى .

القصيدة تتبع « جنس » الفلسفة ، وإن موضوعها هو الأخلاق . وهو يفعل ما يفعله عالم الدين الذى يفسر الكتاب المقدس فيجعل لكلماته ثلاثة معان : الحرفى ، والمجازى ، والصوفى .

« وموضوع هذه القصيدة حسب معانيها الحرفية . . . هو حال الأرواح بعد الموت . . . أما إذا نظرنا إليها نظرة مجازية فإن موضوعها هو الإنسان من حيث تعرضه للثواب والعقاب العادلين اللذين يستحقهما بسبب أعماله الطيبة أو الخبيثة . . والغرض المقصود منها فى مجموعها وأجزائها هو انتشال من يحيون هذه الحياة مما يعانونه من شقاء ، وإرشادهم إلى طريق السعادة » .

وإذا عبرنا عن هذه المعانى بطريقة أخرى قلنا إن الجحيم Inferno هى مرور الإنسان بالخطيئة ، والعذاب ، واليأس ؛ وإن المطهر هو تطهيره عن طريق الإيمان ؛ والفردوس هو نجاته عن طريق الوحي الإلهى والحب غير الأنانى . وبمثل فرجيل ، الذى يقود دانتي خلال الجحيم والمطهر ، المعرفة ، والعقل ، والحكمة . وهى التى تستطيع أن تقودنا إلى أبواب السعادة ؛ والإيمان ، والحب (بيتريس) وحدهما هما اللذان يدخلنا فيها . وكان النبي فى ملحمة حياة دانتي هو جحيمه ، كما كانت دراساته وكتاباته هى مطهرة ، وكانت آماله وحبّه هما نجاته وسعادته اللتين لم تكن له غيرهما نجاة أو سعادة . ولعل اتخاذه دانتي رمزيتة فى الفردوس . أخذ الجسد الشديد هو الذى يجعل هذا النشيد أكثر أناشيده استعصاء على الفهم ؛ ذلك بأن بيتريس التى كانت فى الحياة الجديرة رؤى سماوية تصبح فى تصويره السماء تجريداً ذا أبهة وفخامة — ومثل هذه أبحال البريء غير خليق بهذا المصير . ويشرح دانتي لكان جراندى فى آخر الرسالة سبب تسميته ملحمة ملهامة Commedia (*) — فيقول إن القصيدة انتقلت من الشقاء إلى السعادة ، وإنها

(*) وقد أضاف إليها المعجبون بما دلت Divina المقدسة فى القرن السابع عشر .

كتبت بأسلوب مهلهل وضع ، باللغة العامية التى تتحدث بها ربّات المنازل أنفسهم» (٣٣) .

وكانت هذه الملهاة الأليمة وهى « الكتاب الذى هزل فيه جسدى هذه السنين الطوال » شغله وسلوته فى منفاه ، ولم يفرغ منها إلا قبل موته بثلاث سنين : وقد لخص فيها حياته ، وتعليمه ، وآراءه الدينية ، وفلسفته ؛ ولو أنها احتوت فضلاً عن هذا ما كان فى العصور الوسطى من فكاهة ، ورقة ، وشهوانية عارمة لجاز أن تكون من المولّفات « الجامعة فى العصور الوسطى » . ذلك أن دانتي قد حشر فى هذه المائة من الأناشيد الموجزة كل ما أخذ من العلم عن برونطولا تينى ، ولعله حشر فيها أيضاً ما تعلمه فى بولونيا — حشر فيها كل ما كان هناك من فلك وعلم الكون ، وطبقات الأرض ، والتوقيت فى عصر تمنعه المشاغل من أن يكون عصر علم . ولم يكن يؤمن بالقوى الخفية ، وبالتنتائج المحتومة التى يستقيها من التنجيم فحسب ، بل كان يؤمن فوق ذلك بجميع الأساطير المعاة الملعنة التى كانت تعزو معانى وقوة خفية للأعداد والحروف الهجاء . فكان يقول مثلاً إن العدد ٩ يميز بياتريس من غيرها لأن جزره التكعيبى هو ٣ الذى جعله الثالث رقماً مقدساً . وفى الجحيم تسع دوائر ، وتسع طبقات فى المطهر ، وتسع طبقات كرية فى الفردوس . ويستمد دانتي فى رهبة واعتراف بالجميل قسطاً كبيراً من فلسفة تومس أكوئاس وعلموه الدينية ، ولكنه لا يسير وراءه سيراً دقيقاً ولا يراعى الأمانة فى النقل عنه . وما من شك فى أن القديس تومس لم يكن يرتاح إلى الحجج الواردة فى كتاب الملكية أو إلى رؤية البابوات فى الجحيم ، وإن تصوير دانتي لله بأنه نور وحب « الحب الذى يحرك الشمس وسائر النجوم » (٣٣) هو قول أرسطو انتقل إليه عن طريق الفلاسفة العربية . وكان يعرف الشيء القليل عن الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ؛ وابن رشد ؛ ويضع ابن رشد فى المحيط الخارجى للجحيم ، ولكنه يهز مشاعر المتدينين بوضعه

سيجر البرابنتي Siger de Brabant معتنق مذهب ابن رشد في الفردوس (٣٦) .
وفضلاً عن هذا فهو ينطق تومس بالثناء على الرجل الذي أثار نائرة هذا العالم
الديني الذي يكاد يصل إلى مرتبة الملائكة . غير أنه يبدو أن سيجر أنكر عقيدة
الخلود الفردي الذي هو دعامة قصيدة دانتي ؛ ولهذا فلما أن يكون التاريخ قد
تغالى في وصف سيجر بالزيف والضلال أو في وصف دانتي بالاستمساك بالدين .
وتؤكد الدراسات الحديثة ما استمده دانتي من المصادر الشرقية وبخاصة
المصادر الإسلامية كقصة أودا فيراف التي تصف الصعود إلى السماء ،
ووصف الجحيم الوارد في القرآن ، وقصة المعراج ، ووصف الجنة والنار في
رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ؛ وفتوحات ابن عربي . . . ففي رسالة
الغفران يصور المعري إبليس يعذب في الجحيم وهو مقيد بالأغلال ، كما
يصور الشعراء المسيحيين وغيزهم من « الكفرة » يعذبون فيها . وتستقبل
صاحب القصة عند باب الجنة واحدة من الحور العين ، اختيرت لترشده (٣٨) .
وقد رسم ابن عربي في الفتوحات الحياة الآخرة رسماً دقيقاً ، ووصف الجنة
والنار بأنها فوق البيت المقدس وتحتها مباشرة ، وقسم النار والجنة إلى سبع
طبقات ، وصور مكان الملائكة المسيحين حول النور القدسي — ووصف
ذلك كله كما ورد في الملهة المقدسة لا يفرق عنه في شيء (٣٩) (ونقول هنا
استطراداً إن ابن عربي كتب قصائد في الحب يفسرها المفسرون تفسيراً
مجازياً دينياً) ، ومبلغ علمنا أن شيئاً من هذه الكتابات العربية لم يكن قد
ترجم من قبل زمان دانتي إلى أية لغة يستطيع قراءتها .

وقد وردت في الآداب الدينية اليهودية والمسيحية غير المعترف بها أو صاف
لرحلات أروى في الجنة والنار ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر ما ورد في وصفهما
في الكتاب السادس من إنياذة فرجيل : ونقول قصة أيرلندية إن القديس
باتريك زار المطهر والجحيم ، ورأى فيهما أثواباً وأحزمة من نار ، والمذنبين معلقين
فيها من أرجلهم ، أولتهمهم الأفاعى أو يغطيهم الجليد (٤٠) . ووصف قس إنجليزي

قصاص يدعى آدم ده رس Adam de Ros فى قصيدة طويلة طواف القديس بولس فى النار يقوده الملاك ميخائيل ؛ وينطق ميخائيل بوصف مراتب العقاب التى توقع على درجات الذنوب المختلفة ، ويظهر بولس وهو يرتجف من هذه الأهوال كما يرتجف منها دانتي^(٤١) . وتحدث قبل هذا يواقيم الفلورى Jaockim of Flora عن هبوطه إلى الجحيم وصعوده إلى السماء . وجملة القول أنه قد وجدت مئات من هذه الرؤى والقصص ؛ وأمام هذا الحشد الكبير من الأوصاف المروعة نرى أنه لم يكن دانتي بحاجة إلى أن يتخطى الحواجز اللغوية إلى الآداب الإسلامية لكى يجد فيها نماذج لوصف الجحيم . ولقد فعل دانتي ما يفعله كل فنان فزج ما لديه من مادة وبدل فوضاها نظاماً ، ووضعها فوق النار بعد أن أضاف إليها خياله القوى وإخلاصه الملتهب . ولقد أخذ عناصر وصفه أنى وجدها - من تومس ، ومن شعراء الفروسية الغزلين ، ومن مواعظ بطرس دميان النارية وماورد فيها من وصف لعذاب الجحيم ، ومن تفكيره الطويل فى بياتريس فى حياتها وبعد موتها ، ومن صراعه مع السياسيين والبابوات ، ومن العلوم القليلة التى اعترضت طريقه ؛ ومن اللاهوت المسيحى وما ورد فيه عن سقوط آدم ، وعن التجسد ، والخطيئة ، والغفران ، ويوم الحساب ؛ ومن الفكرة الأفلوطينية - الأوغسطينية عن مدارج صعود الروح حتى تتحد مع الله . ومن تأكيد تومس أن الرؤى الطوباوية هى الهدف الأخير الذى يغتبط به الأبرار ؛ من هذا كله صاغ القصيدة التى وجدت فيها روح العصور الوسطى وما يحيط بها من رعب ، وأمل ، واغتراب صوتاً ، ورمزاً ، وصورة تعبر بها وتصورها .

٢ - الجحيم

« وجدت نفسى وأنا فى منتصف طريق حياتنا فى غابة مظلمة كانت الجادة فيها غير واضحة ومفقودة »^(٤٢) . وبينما كان دانتي يحول فى هذه المظلمة إذ التقى

بفرجيل « أستاذى ومرشدى الذى أخذت عنه وحده الأسلوب الجميل الذى شرفت به » (٤٣) . ويخبره فرجيل أن السبيل السليمة الوحيدة للخروج من الغابة هى اجتياز الجحيم المطهر ؛ فإذا ما صحبه دانتي فهما فسيقوده إلى أبواب الفردوس ، « حيث يتولى إرشادك من هو أجدر منى وأكرم » . ويضيف إلى هذا فى صراحة أنه جاء ليقدم العون إلى الشاعر بأمر بياتريس . ويمران خلال فتحة فى سطح الأرض إلى أبواب الجحيم ، نقشت عليها هذه الألفاظ المريرة : « من خلالى يدخل الإنسان المدينة المحزنة ؛ ومن خلالى يدخل الإنسان الآلام السرمدية ؛ ومن خلالى يدخل الإنسان بين الأجناس الضالة . لقد حركت العدالة خالقى الأعلى ؛ وصنعتنى القوة الإلهية هى والحكمة العليا والحب الأزل . ولم يخلق قبلى سوى الأشياء الأزلية ، وأنا باقية أبداً الدهر ؛ فتخلوا عن كل آمالكم يا من تدخلون هذه الدار ! » .

والجحيم فتحة تحت الأرض تمتد إلى مركزها . ويصورها دانتي بخيال قوى يكاد يبلغ الغاية فى الاكتئاب : فهى هاوية سحيقة مظلمة مرعبة ، بين صخور ضخمة قائمة ؛ تتصاعد من منافذها الأبخرة والروائح الكريهة ، وتجتاحتها السيول الجارفة ، وبها بحيرات ومجار ؛ وعواصف من المطر ، والثلج ، والبرد ؛ ومشاعل من لهب ؛ وتزجر فيها الرياح والزمهرير الذى يجمد الدم والجسد ؛ وبها أجسام معذبة ، ووجوه كالحة مقطبة ؛ ويشقها صراخ وأنين يقف لهما الدم فى العروق . وفى أعلى مكان فى هذه الفتحة الجهنمية يقيم من لم يكونوا أنبياء أو أشراراً ، ومن وقفوا على الحياد بين الخير والشر . أولئك يعاقبون بآلام خسيصة ؛ تلسعهم الزنابير ، ويأكلهم الدود ، ويحرق قلوبهم الحسد والندم ، وهؤلاء يزدريهم دانتي الذى لم يقف على الحياد فى يوم من الأيام :

« الرحمة والعدالة تزدريانهم ، ونحن لانتحدث عنهم ، بل نلقى نظرة عليهم ونمر بهم » . ويصل الجاثلان إلى نهر أكرون Acheron فى باطن الأرض ،

ويعبره بها كارون Charon الذى يعمل فى ذلك المكان من أيام هومر .
فلذا عبراه وجد دانتى نفسه فى المحيط الخارجى للجحيم حيث يقيم الصالحون
الذين لم يعملوا ، ومنهم فرجيل وجميع الصالحين من عبدة الأوثان ، وجميع
اليهود الصالحين إلا عدداً قليلاً من أبطال العهد القديم الذين أطلقهم المسيح
حين زار هذا المحيط الخارجى ورفعهم إلى السماء . وكل ما يعذب به هؤلاء
هو رغبتهم الأبدية فى مصير خير من مصيرهم ، وعلمهم بأنهم إن ينالوا هذا
المصير . وفى هذا الموضع من الجحيم شعراء وثليون يعظمهم كل المقيمين
فيه — هومر ، وهوراس ، وأوفيد ، ولو كان ، وهؤلاء يرحبون بفرجيل
ويحلون دانتى المكان السادس بينهم ، ثم يقول دانتى : وأنظر إلى أعلى
« فأرى سيد العارفين يجلس بين أسرة الفلاسفة » أى أرسطو يحيط به
سقراط ، وأفلاطون ، ودمقريطس ، وديجين ، وهرقليطس وأنكسغوراس ،
وأنبادقليس ، وطاليس ، وزينون ، وشيشرون ، وسنكا : وإقليدس ،
وبطليموس ، وأبقراط ، وجالينوس ، وابن سينا ، وابن رشد « الذى
ألف الشرح العظيم » (٤٨) . وما من شك فى أنه لو كان دانتى مطلق الحرية
فى رأيه لوضع فى الجنة هذه الفئة النبيلة كلها ، ومن بينها فلاسفة المسلمين
المخالفين له فى الدين .

ثم يقوده فرجيل إلى الدائرة الثانية ، حيث تتقاذف الرياح العاتية
الذين ارتكبوا خطايا جسدية شهوانية لا يستريحون منها أبداً . وهنا
يشاهد دانتى باريس ، وهيلين ، وديدو ، وسميراميس ، وكليوبطرة ،
وترستان ، وپاولو ، وفرانسسكا : وقصة فرانسسكا كما يرونها دانتى
تلخص فى أن فرانسسكا دابولنتا الجميلة أريد لها أن تزوج جيان سيتو
مالاتستنا Gianciotto Malatesta الشجاع المشوه لتقضى بزواجها على
نزاع قام بين أسرة پولنتا سادة رافنا ، وأسرة مالاتستنا سادة ريميني .
هذا هو الجزء المؤكد فى القصة ، أما بقيتها فغير مؤكدة . فهناك رواية
يقبلها الكثيرون تقول إن پاولو Paolo الوسيم أخا جيان سيتو يدعى

أنه هو الخطيب ، وأن فرانسسكا تعاهده على أن تزوج به ، ولكنها تجد في يوم العرس أنها تزف على الرغم منها إلى جيان سيتو . ثم لا يمضي إلا القليل من الوقت حتى تستمتع بحب باولو ؛ ويقبض عليها جيان سيتو ويقتلها في تلك اللحظة (حوالى ١٢٦٥) . وتُقص فرانسسكا دار يميني قصتها وهي تتأرجح في الريح خيالا بلا جسد إلى جانب روح حبيبها غير المجسد :

إن أشد ما يحزن الإنسان أن يذكر أيام الهناء حين يقترب منه الشقاء . كنا في يوم من الأيام نتسلى بقراءة لانسلي ، وكيف استبد به الهوى . وكنا في تلك الساعة وحدنا ولا يوجد بالقرب منا ما نرتاب فيه . وكثيراً ما كانت أعيننا تتبادل النظرات في أثناء هذه القراءة ، وذهب اللون من خدودنا وتبدلت صورتها . ثم وقعت أعيننا على نقطة في الكتاب واحدة ، وذلك حين وصلنا إلى تلك القبلية المشتبهة التي طبعها في هيامه ونشوته فتى برح به الوجد . وفي تلك اللحظة طبع وهو يرتجف قبله على شفتي ، طبعها ذلك الحب الذي لن يفارقتي قط . لقد كان الكتاب وكاتبه كلاهما مبعوثين من عند الحب . ولم نقرأ شيئاً في صحفه بعد ذلك اليوم» (٤٧)

ويتملك الأسى دانتى حين يسمع هذه القصة فيغمى عليه ، ثم يفيق فيجد نفسه في الدائرة الثالثة من الجحيم ، حيث يستقر من كان ذنبهم النهم في حمة تحت عاصفة دائمة من الثلج ، والبرد ، والمياه القادرة ، وحيث ينبج في وجوههم سربروس Cerberus ويمزقهم إرباً بأنيابه الثلاثية . ثم يهبط فرجيل ودانتى إلى الدائرة الرابعة ، حيث يقيم أفلو طس Plutus ، وهنا يلتقي المبلرون والبخلاء ويقتلون ، ويلقى بعضهم على بعض أثقالاً ضخمة في حرب سيسفية Sisyphean (*)

(*) نسبة إلى سيسفس ملك كورنثية الذي حكم عليه أن يرفع إلى أعلى تل حجراً ضخماً ، وكلما رفع الحجر إلى أعلى التل تدحرج إلى أسفله ، وهذا أصبح عمله هذا أبدياً لا ينتهي وهذا هو المعنى المقصود بهذا اللفظ في المتن . (المترجم)

ويسير الشاعران بإزاء نهر استيكس Styx المظلم الذى يغلى ماؤه ، حتى يصلا إلى الدائرة الخامسة ، حيث يقيم من كان ذنبهم الغضب ملطخين بالأقدار ، يضربون أنفسهم ويمزقون أجسادهم . والذين كان ذنبهم الكسل والتراخي يغمرّون فى ماء البحيرة الأستيجية Stygian الآسن ، وتعالو سطحها الطينى فقاعات من زفيرهم . وينقل فلجياس Phlegyas الجائلين على سطح البحيرة حتى يصلا فى الدائرة الثالثة إلى مدينة ديس Dis ، أو الشيطان Lucifer حيث يشوى المملحون فى قبور ملتبة ، ثم يهبطان إلى الدائرة السابعة وهناك يريان من ارتكبوا جرائم العنف تحت رياسة المنوتور Minotaur (*) يكادون على الدوام يغرقون فى نهر من الدماء مضطرب صاخب ، ويرميهم القنطورون(**) بالسهام كلما علت رؤوسهم فوق ماء النهر . ويريان فى قسم من هذه الدائرة المتبحرين ومنهم بيرودل فى Piero delle Vigne ، وفى قسم آخر يريان من ارتكبوا جرائم العنف ضد الله ، أو الطبيعة ، أو الفن يقفون حفاة فوق رمال حامية ، وتسقط على رؤوسهم كسف من النار . ويلقى دانتى بين السدوميين بمعلمه القديم برونزو لاتينى — وهو لا يلقى بشخص كان هاديا لدانتى وصديقاً له وفيلسوفاً .

وتظهر عند طرف الدائرة الثامنة هولة مروعة تحمل الشعارين وتنحدر بهما إلى هاوية المرابين ، وفى أحد أخوار هذه الهاوية يشاهدان طائفة عجيبة من الآلام السرمدية يعذب بها من يغوون النساء ، والمتملقون والمتجرون بالوظائف الدينية . وهؤلاء المتجرون يعلقون من أرجلهم فى حفر لا تظهر منها إلا سيقانهم ، ويلحس اللهب أقدامهم تدليلاً لهم . ومن بين هؤلاء المتجرين البابا نقولاس الثالث (١٢٧٧ — ١٢٨٠) ؛ ويندد دانتى أشد التنديد بسى أعمال هذا البابا وغيره

(*) مخلوق خرافى له رأس ثور وجسم إنسان . (المترجم)
 (**) القنطور أو السنطر مخلوق وهمى نصفه إنسان والنصف الآخر قرص . (المترجم)

من البابوات ؛ ويصور نقولاس هذا صورة فذة جريئة فيقول إن البابا يحسب أن دانتى هو بنيفاس الثامن (المتوفى عام ١٣٠٣) وأن قدومه إلى الجحيم متوقع فى أية لحظة من اللحظات (٤٨) . ويتنبأ نقولاس بأن كلمنت الرابع (المتوفى عام ١٣١٤) سينضم إليهم بعد زمن قليل . وفى الخور الرابع من الدائرة الثامنة يقيم من يدعون معرفة الغيب ، ورءوس أولئك الأقوام مثبتة فى أعناقهم وممتجة نحو ظهورهم . ويطل الشاعران من جسر « مالبيلج Malebolge » - فوق الخور الرابع فيريان من تحتها مختلسى الأموال العامة يسبحون إلى أبد الدهر فى فى بحيرة من القار فى درجة الغليان . أما المتأفكون فلا ينقطع مرورهم حول الخور السادس فى أردية من الرصاص مطلية بالذهب . ويشاهد فى الممر الوحيد الذى يخترق هذا الخور قيافى مصلوباً ولقى على الأرض بحيث لا يستطيع أحد اجتياز الطريق إلا إذا وطئ جسده . وفى الخور الرابع يعذب اللصوص بأفاع سامة ؛ وهنا يتعرف دانتى على عدد من الفلورنسيين ، ويشاهد من عقد قائم فوق الخور الثامن لهيباً يحرق جلود مشيرى السوء ، وكلما فضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب ؛ ويرى من بين هؤلاء أديسيوس المخادع . وفى الخور التاسع يستقر النمامون والعاملون على الانشقاق تنزع أطرافهم طرفاً بعد طرف .

وفى الخور العاشر من الدائرة الثامنة يرقد المزورون ، المزيفون ، والكيميائيون الكاذبون ، يئنون من أوجاع مختلفة ، وتملأ الهواء من حولهم رائحة كريهة هى رائحة العرق والصدبد ، وأنين المعذبين يملأ الهواء بأصوات كقصف الرعد .

وينتهى مطاف الشعارين بالدائرة التاسعة وهى الدرك الأسفل من الجحيم ، ومن عجب أن توصف بأنها هوة واسعة من الجليلد ؛ وفيها يدفن الخونة فى الجليلد إلى أذقانهم ، وتجمد دموع الألم فتصبح قناعاً متبلوراً فوق وجوههم . ومن بين هؤلاء يرى كونت أجولينو دلا غرارديسكا Count Ugolino della Gheràrdesca الذى خان بينزاً مشدوداً أبد الدهر إلى رجيرى Ruggieri كبير الأساقفة ، الذى

سجنه هو وأبناءه وأحفاده وتركهم كلهم يموتون جوعاً . والآن يستند رأس أجولينو على رأس كبير الأساففة ، ويظل رجيبى إلى الأبد يعضع رأس أجولينو . وفى مركز الأرض أى فى قاع فتحة الجحيم الآخذة فى الضيق يرقد الشيطان (لوسفر) الجبار مدفوناً فى الجليد إلى وسطه يرفرف بجناحين ضخمين مثبتين فى كتفيه ، ويذرف من وجوهه الثلاثة التى تقسم رأسه دموعاً من الدم المتجمد من شدة الزمهرير ، ويمضغ فى كل فك من فكوكه الثلاثة أحد هؤلاء الخونة : بروتس ، وكاسيوس ، وبهذا Judas .

وقصارى القول أن نصف الأهوال التى كانت تزعج الأنفس فى العصور الوسطى قد جمعت فى هذه القصة الدموية . وكلما أمعن الإنسان فى قراء صفحتها الرهيبة ازداد رعباً على رعب حتى تغطى عليه نتيجة هذا الرعب آخر الأمر فلا يعود يطيقها . وإن ذنوب الإنسان وجرائمه فى هذا العالم وفى جميع عوالم الكون وسلامه لأقل من غضب الإله وانتقامه بالصور التى يتخيلها الشاعر . وإن فكرة دانتي عن الجحيم لهى منتهى ما وصل إليه لاهوت العصور الوسطى من فظاعة . لقد كان اليونان القدامى يصورون جحياً يسمونها Hades أو Avenrus تتلقى جميع الموتى من الآدميين . وكان مقرها مكاناً مظلماً تحت الأرض لا يمكن تمييز شئ فيه ، ولكنهم لم يصوروا هذه الجحيم بأنها مكان للتعذيب ؛ وكان لا بد من أن تمر قرون طوال من الهمجية ، والاضطراب ، والحرب قبل أن يتقول الإنسان على خالقه فيعزروا إليه صفى الانتقام السرمدى والقسوة التى لا ينضب لها معين ؛

ويخفف من روعنا أن نعلم أن دانتي وفزجيل قد مرا من خلال مركز الأرض ، وأنهما قلبا اتجاه رأسهما وأقدامهما ، وأنهما يتحركان إلى أعلى نحو الجهة المقابلة لبلادنا من الأرض ؛ ويحتاز الشاعران قطر الأرض كله فى سرعة الأحلام

التي تهزأ بمر الزمان ، ويخرجان إلى النصف الجنوبي منها في صباح يوم عيد الفصح ، ويشربان في وضوح النهار ، ويقفان عند أسفل الجبل المدرج وهو المطهر .

٣ - المطهر

إذا قيسست فكرة المطهر بفكرة الجحيم بدت فكرة رحيمة ؛ ذلك أن في مقدور الإنسان بجهده وألمه وروياه ، أن يطهر نفسه من الذنوب والآثرة ، ويرقى خطوة خطوة في مدارج الإدراك ، والحب ، والنعم . والمطهر ، كما يصوره دانتي ، مخروط جبلي مقسم إلى سبع طبقات : ما قبل المطهر وهو سبعة أسطح - واحد للتطهير من الذنوب المميتة - وفي أعلاه يقوم الفردوس الأرضي . وينتقل المذنب من كل طبقة إلى التي تليها وتقل الالامه كلما انتقل إلى طبقة أعلى من التي كان فيها ، وفي أثناء هذا الانتقال بنشد ملك إحدى التطويبات . وتوجد في المراحل السفلى من المطهر سبع مقويات للذنوب التي اعترف بها وغفرت ، ولكنها لم يكفر عنها بما يكفي من العقاب . بيد أن هناك فارقاً عظيماً بين المطهر والجحيم من هذه الناحية ؛ في الجحيم يعرف الإنسان هذه الحقيقة المريرة وهي أن العذاب سرمدي ، ما المطهر ففيه تلك الحقيقة التي تبعث القوة في النفس وهي أن السعادة سرمدية ستعقب العقاب الذي له أجل ينتهي عنده . ويسرى في هذه لقطوعات مزاج أرق وضيء أبهى مما يسرى في المقطوعات السابقة ، وتكشف ن دانتي يتعلم الرأفة من فرجيل مرشده الوثني . وبغسل فرجيل بالدهن الندي ما غطى وجه دانتي من عرق الجحيم وأقذارها . وتتلألأ في ضوء شمس المشرقة مياه البحر الذي يحيط بالجبل حين تهتز النفس التي كدبتها ذنوب طرباً وهي تستقبل الرحمة الإلهية . وهنا في الطبقة الأولى يلتقي دانتي كاتو اليوتكي Cato of Utica ، الرواقى الصارم العنيد ، الذي أثر أن يقتل سه على أن يتلقى عذاب رحمة قيصر . وقد وضعه دانتي في هذه الطبقة تحقيراً

لأمل تومس أكوناس في أن ينجو بعض عبدة الأوثان من الهلاك . وفي هذه الطبقة نفسها يقيم مانفرد بن فردريك الذى قاتل بابا من البابوات ولكنه أحب الشعر . ويسرع فرجيل بدانتى وهو يتلو عليه تلك الأبيات التى تجرى على كثير من ألسنة الناس .

« دع الناس يتكلموا ، وقف أنت كالبرج المتين الذى لا تهتز قمته وإن هبت عليه كل الرياح » (٥٠) . وليس المطهر بالمكان الذى يؤم فرجيل ، فهو لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة دانتى بالسرعة التى تعود أن يجيب بها عن أسئلته فى الحميم . وهو يحس بنقص ذكائه ، ويظهر أحياناً خنيئاً يؤلمه ، غير أن ألمه هذا يزول حين يلتقى الشاعران بسر دلو Sordello . ويحتضن الشاعران ابناً مانتو أحدهما الآخر ، يؤلف بين قلوبهما حبهما للبلدة التى قضيا فيها عهد الشباب . وفى هذه اللحظة ينطلق لسان دانتى بهذا الخطاب المؤلم بوجهه إلى بلده ، ويلخص فيه مقاله عن الحاجة إلى الحكومة الملكية :

أى إيطاليا المستعبدة ! يا موطن الأحزان ! يأسفينة بغير دليل فى مهبط العاصفة الهوجاء ! يا سيدة انتزعت منها ولاياتها الجميلة ، ولم تعد إلا ماخوراً دنساً ! إن هذا الروح الرقيق قد حفزه الصوت الجميل الصادر من بلده العزيز أن يحيى رجلاً من أهل وطنه مرحباً به مبهجاً بلقائه . وفيك يقيم الأحياء من أبنائك يقتتلون ؛ يأكل الواحد منهم لحم أخيه من الغل والحقْد ؛ نعم ما أشد الضغن الذى يملأ قلوب من يحيط بهم جدار واحد ونخندق واحد . ألا أيها البائس الحزين طف بشواطئ بحارك ، ثم عد إلى نفسك فاسألها هل يستمتع جزء منك بالسلم الحلوة ؟ وماذا يفيدك إذا كان جستنيان قد [أحيى القادة الرومانى] من أجلك ، وهل ينفعك أن يصالح العنان إذا كان السرج [بغير مائيك] ؟ أيها الخلائق ، يا من يجب عليكم أن تطلوا مخاضين أوفياء ، أجلسوا قيصر فى السرج إذا شئتم أن تستجيبوا لأمر الله (٥١) ! »

وكأنما أراد دانتي أن يظهر شوقه إلى الملوك الذين يستطيعون القبض على الأئمة الثابتة ، فيصف لنا كيف يقوده سردلو هو وزميله إلى واد مشمس جميل عند سفح جبل المطهر منثورة عليه الأزهار ، ويفوح منه شذى عطرها الدكي ، ويقم فيه الإمبراطور رودلف ، وأتوكار Ottokar ، ملك بوهيميا ، وبطرس الثالث ملك أرغونة ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، وفليب الثالث ملك فرنسا .

وتقود لوشيا (التى ترمز إلى ضوء رحمة الله) دانتي وفرجيل ، ويدخلهما أحد الملائكة إلى الشرفة الأولى من شرفات المطهر . وهنا يعاقب المتكبرون بأن يحمل كل منهم فوق ظهره المقوس حجراً ضخماً ، وترى على الجدار والطوار نقوش بارزة تصور أعمال التواضع الذائعة الصيت وما للكبرياء من نتائج رهيبية . وفى الشرفة الثانية يرى الحاسدون فى أثواب من الخيش الغليظ ، تحاط عيونهم باستمرار بخيوط من حديد ؛ وعلى السطح الثالث يستقر الغضب ، وعلى الرابع الكسل ، وعلى الخامس البخل ، ويلقى كل واحد منهم ما يستحقه من العقاب . ويرى على هذا السطح الأخير البابا هديران الخامس ، الذى كان فى وقت ما حريصاً على الثروة ، يكفر عن ذنبه وهو هادئ هدوء الواثق من النجاة فى آخر الأمر . وفى إحدى الحوادث الباهرة التى تضىء ختام قصة المطهر يظهر الشاعر الرومانى استاتيوس Statius ويحيى الشاعرين الجائلين ويظهر من السرور بلقائهما ما يندر أن يظهره شاعر يلتقى بشاعر آخر على ظهر الأرض . ويصعد الشعراء الثلاثة جميعاً إلى السطح السادس حيث يظهر النعمون من نهمهم . وهناك تهتز الفاكهة الذكية الرائحة على الأشجار أمام أولئك النادمين ، فإذا امتدت أيديهم إليها لثمة لثمتها استرجعت الأشجار فاكهتها ؛ وتسمع أصوات فى الهواء تردد مافى التاريخ من أعمال القناعة . وعلى السطح السابع والآخر يستقر الذين كان جرمهم أنهم لم يستغفروا ، ولذنبهم اعترفوا بذنبهم قبل الموت ، وهؤلاء يمسهم اللهب مساً خفيفاً ؛ يظهر هم من ذنبهم . وهكذا يظهر دانتي أنه يطف عطاء الشعراء على

آثام الجسد ، وخاصة إذا ارتكبها ذوو المزاج الفني من هم لهذا السبب رقيقو الإحساس ، واسعو الخيال ، مندفعون في أعمالهم . ومن بين هؤلاء جيلود جوينزلى Guido Guinizelli ؛ الذى يحبه دانتي ويسميه أباه فى الأدب ، ويشكر له « الأغاني الحلوة » ، التى ستوحى إلينا ما بقيت لغتنا بأن نحب المداد الذى خطت به » (٥٢) .

ويقودهما أحد الملائكة خلال نار فى صعودهما الأخير إلى جنة الأرض ، وهنا يودع فرجيل صاحبه بقواه :

« إن علمى لا يصل إلى أبعد من هذا ، لقد سرت بك بمحذوقى وفنى إلى هذا الحد ، فاتخذ الآن مسرتك دليلاً لك . . . انظر ! تر الشمس التى تسطع أشعتها على جبهتك ؛ انظر ! تر الأعشاب والشجيرات والأزهار التى تخرجها هذه الأرض موفورة من تلقاء نفسها . وإلى أن تأتيك هاتان العينان الوضعتان [عينا بياتريس] تشع منهما البهجة ، وهما اللتان جعلتاني يبكاهما أسرع إلى معونتك — أقول إلى أن تأتيك هاتان العينان فأنت مخير بين الجلوس هنا أو التجوال حيث تشاء . ولا تنتظر أن تسمع منى بعد الآن صوتاً أو إشارة تحذرك . وإذ كنت الآن حراً تختار لنفسك ما تشاء ، حصيفاً ، حكماً . . . فلنأخذ عليك التاج والعمامة وأجعلك سيد نفسك » (٥٣) .

ويجوس الآن دانتي خلال الغابات والحقول ، وعلى ضفاف الأنهار فى جنة الأرض ومن ورائه — لا من أمامه — فرجيل واستاتيوس ، يستنشق هواءها النقي ذا الرائحة الذكية ، ويستمتع من خلال الأشجار شدة الطيور تغنى القسم الأول من النشيد الكهنوتى . وتمتنع سيدة تجمع الأزهار عن الغناء لتشرح لم خلعت هذه الأرض الجميلة من الناس ، فتقول إنها كانت فيما مضى جنة عدن ، ولكن الإنسان عصى ربه ، فأخرج هو وذريته من مهابجها البريئة . وتنزل بياتريس من السماء إلى هذه اللجنة المفقودة يحيط بها لألاء يذهب سناه بالابصار ،

فلا يستطيع دانتى أن يراها بعينه ، بل كل ما يقدر عليه أن يحس بوجودها :
« ومع أن عبنى لم تريها فقد سرت منها قوة فضلى خفية لم أكد
أمسها حتى استبدت بى قوة الحب التمديم » (٥٤) .

ويلتفت ليحدث الشاعر الذى يرشده ، ولكن فرجيل كان قد عاد
إلى المحيط الخارجى للجحيم وهو الموضع الذى جاء به منه استجابة لنداء
بياتريس . ويبكى دانتى ولكن بياتريس تأمره أن يندب بدل البكاء
شهوانه التى دنس بها بعد موتها صورتها التى فى قلبه . وتؤكد له أن
أن تلك الغابة المظلمة التى أنجته منها على يد فرجيل لم تكن إلا حياة
الدعارة التى ضل فيها فى منتصف عمره وأظلم أمامه بسببها الصراط المستقيم .
ويقع دانتى على الأرض من فرط الحجل ، ويقر بذنوبه ، فتقبل
عذارى سماويات ويشفعن له عند بياتريس التى أساء إليها بفعله ،
ويرجونها أن تكشف له عن جمالها الثانى الروحى . وليس هذا لأن
بياتريس قد نسيت جمالها الأول :

« فأنت لم ترفى حياتك ، لا فى الفن ولا فى الطبيعة شيئاً يبلغ من
الحلاوة ما بلغته تلك الأعضاء التى كانت تلفنى داخل إطارها الجميل ،
والتي تناثرت الآن هباء » (٥٥) :

ويرق قلبها ، وتكشف له عن جمالها السماوى الجديد ، ولكن
العذارى يحذرن دانتى من النظر إليها مباشرة ، ويطلبن إليه أن يكتفى
بالنظر إلى قدميها وتقوده بياتريس هو- واستاتيوس (للذى أتم أجله فى
المطهر بعد أن قضى فيه اثني عشر قرناً) إلى نبع يخرج منه نهران -
أحدهما ليثى (الزسيان) Lethe والآخر يونوثى Eunoe (الفهم الصالح) .
ويشرب دانتى من يونوثى فينطهر ، وتتجدد حياته ، و« يصلح للصعود
إلى النجوم » (٥٦) .

وليس صحيحاً أن وصف الجحيم هو وحده الجزء الطريف الممتع فى الملهمة

المقدسة . نعم إن وصف المظهر كثيراً من الفقرات التعليمية المجذبة ، وإن فيه على الدوام قدراً كبيراً من اللاهوت الذى لا حاجة للقصيدة به ، ولكنها وقد خلت فى هذا النشيد من رهبة التعذيب ترقى فى مدارج الجمال والحنان خطوة بعد خطوة ، وتغمر هذا الرقى بجو من جمال الطبيعة الذى عاد إليها من جديد فأكسبها بهجة وطلاوة ، وبذلك تتأهب القصيدة لأن تضطلع بشجاعة بذلك الواجب العظيم واجب إحاطة بياتريس المجردة من الجسد بالجمال الروحاني ، وبفضلها يدخل دانتى الجنة مرة أخرى ، كما دخلها أيام شبابه .

٤ - السموات

لقد كان تفقه دانتى فى علوم الدين مما زاد عمله مشقة ، فلو أنه أجاز لنفسه أن يصور الجنة فى صورة حديقة مليئة بالمباهج الجسمية كما هى مليئة بالمباهج الروحية ، لوجدت فطرته مجالا واسعا لهذا التصوير . ولكن كيف يستطيع العقل البشرى وهو « المركب المادى » ، أن يتصور جنة ذات نعم روحى خالص ؟ يضاف إلى هذا أن نشأة دانتى الفلسفية كانت تمنعه أن يصور الله أو ملائكة الجنة وقديسيها بصور مجسدة ؛ بل كان يمثلهم جميعاً كأنهم صور ونقط من النور ، وكان تصويرهم بهذه الصورة تتبعه تجريدات تضيق فى الفراغ النوراني حياة الجسد المذنب وحرارته . غير أن العقيدة الكاثوليكية كانت تعترف ببعث الجسم بعد الموت ، ولهذا فإن دانتى وهو يحاول أن يكون روحانياً يخلع على بعض سكان الجنة ملامح جسدية وينطعمهم بكلام بشرى ، ومما يسر له الإنسان أن يقرأ أن لبياتريس ؛ وهى فى الجنة ، قدمين جميلتين .

ولقد نَقَدَ الصورة التى صور بها الجنة فى خياله تنفيذاً متناسقاً يدعو إلى الدهشة ، ونفذها بخيال رائع ، وتفاصيل دقيقة واضحة . واسترشد بفلك بطليموس فصور السماء كأنها سلسلة من تسع كرات محوفة مطردة الاتساع تدور حول الأرض ،

وهذه الكرات هي « المساكن الكثيرة » التي فيها « بيت الأب » . وقد ثبت في كل كرة كوكب وعدد كبير من النجوم ، كما تثبت الجواهر في التاج . وكلما تحركت هذه الأجرام السماوية ، وقد وهبت كلها ذكاء ربانيا متفاوت الدرجات ، أخذت تتغنى بهجة سعادتها وتسبح بحمد خالقها ، وتغمر السماوات بموسيقى تلك الكرات . ويقول دانتي إن النجوم هي أولياء السموات الصالحون ، وأرواح الناجين ، ويختلف ارتفاعها عن الأرض باختلاف ما كسبت من عمل صالح في حياتها على ظهر الأرض ، وبقدر هذا الارتفاع تكون سعادتها ، ويكون قربها من أعلى السموات التي يقوم عليها عرش الله .

وكان النور الذي تشعه بياتريس قد جذب دانتي فارتفع من جنة الأرض إلى الدائرة الأولى من دوائر السماوات وهي دائرة القمر ؛ وفيها تستقر أرواح الذين اضطروا لغير ذنب ارتكبه إلى الحنث بأيمانهم الدينية ، ومن هؤلاء شخص يدعى بكاردا دوناتي Piccarda Donati . ويقول لدانتي إنهم في أسفل دائرة من دوائر السموات ، وإنهم يستمتعون بقدر من النعم أقل مما تستمتع به الأرواح التي فوقهم ؛ وقد أنجبتهم الحكمة الإلهية من كل حسد ، وشوق ، وتذمر ؛ ذلك بأن جوهر السعادة هو الخضوع لإرادة الله خضوعاً مقروناً بالغبطة والسرور ، لأن « في إرادته راحتنا » (٥٧) . وهذا هو بيت القصيد في الملهة المقدسة .

ويرقى دانتي مع بياتريس إلى السماء الثانية منجذباً إليها بقوة مغناطيسية سمائية تجذب كل شيء إلى الله . وهذه السماء الثانية هي التي يسيطر عليها الكوكب عطارد . وفيها يقيم الذين كانوا يقومون وهم على الأرض بنشاط عملي يبتغون به الخير ، ولكنهم كانوا أكثر إنهماكاً في الشرف الدنيوي منهم في خدمة الله . ويظهر من بين هؤلاء جستنيان ، يصوغ في عبارات ملكية الوظائف التاريخية للإمبراطورية الرومانية والشريعة الرومانية . وعن طريقه يواجه دانتي ضربة أخرى يبغى بها قيام عالم واحد ، خاضع لشريعة واحدة ،

وملك واحد . ثم تقود بياتريس الشاعر إلى السماء الثالثة ، وهي دائرة الزهرة حيث يتنبأ فلك Folque الشاعر البروفنسالى بمأساة بنيفاس الثامن . وفي السماء الرابعة وهي دائرة الشمس يشاهد دانتي الفلاسفة المسيحيين يوثيشيوس ، وإزدور الأشبيلي ، وبيد Bede ، وبطرس لمبارد ، وجراتيان ، وألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ، وبونا فنتورا ، وسيجرده برابانت . ويتبادل كل من تومس الدمنيكي ، وبونا فنتورا الفرنسيسي حديثهما ، فيقص تومس على دانتي حياة القديس فرانسس ، كما يقص عليه بونا فنتورا قصة القديس دمنيك . وإذا كان تومس على الدوام رجلاً واسع العقل إلى حد ما فإنه يقحم في قصته أقوالاً عن موضوعات دينية دقيقة ؛ وتستند رغبة دانتي في أن يكون فيلسوفاً فيمتنع في عدة أغان عن أن يكون شاعراً .

وتقوده بياتريس إلى السماء الخامسة ، سماء المريخ ، حيث تقيم أرواح المحاربين الذين قتلوا وهم يحاربون لنصرة الدين الحق — يوشع ، وموذا مكاببوس ، وشارلمان ، وحتى ربرت جوسكاد Robert Guiscard الذي خرب رومة . وينتظم هؤلاء على شكل صليب متلاقٍ عليه المسيح المصلوب ؛ ويشترك كل نجم من النجوم في هذا الرمز المضيء في إيقاع موسيقى سماوى . ويصعد الشاعر وبياتريس إلى السماء الخامسة سماء المشتري فيجد فيها دانتي من كانوا وهم على ظهر الأرض يوزعون العدالة بالقسطاس المسقيم ؛ ففيها داود ، وحزقيال ، وقسطنطين ، وتراجان — وهماو ذا وثني آخر يقترح السماء . وتنتظم هذه النجوم الحية في صورة نسر ، وتتكلم بصوت واحد ، وتحدث دانتي في علوم الدين ، وتردد الثناء على الملوك العدل . ويصعد الشاعر وقائدته إلى ما تسميه بياتريس تسمية مجازية « سلم العصر الخالد » فيصلان إلى السماء السابعة سماء البهجة ، سماء زحل وحاشيته من النجوم . ويزداد جمال بياتريس بهاء كلما علت في السموات ، كأن كل دائرة تعلو إليها تزيدها بهجة وجلالا ؛ وهي لا تجرؤ على

الابتسام لحبيها لئلا يحترق ويستحيل رماداً بقوة إشعاعها . وهذه السماء هي دائرة الرهبان الذين عاشوا معيشة الصالحين ، وأخلصوا لأيمانهم ، ومن بينهم بطرس دميان ؛ ويسأله دانتي كيف يوفق بين حرية الإنسان وعلم الله بالغيب ، وما يؤدي إليه هذا العلم من الإيمان بالقضاء والقدر ؟ فيجيبه بطرس بأن أكثر الأرواح استنارة في السماء تحت عرش الله لا تستطيع الإجابة عن هذا السؤال . وهنا يظهر القديس بندكت ، ويرثي للفساد الذي انحدر إليه رهبانه .

ويسح الشاعر وقتئذ من دوائر الكواكب إلى السماء الثامنة ، منطقة النجوم الثوابت . ويطل إلى أسفل من كوكبة الجوزاء فيرى الأرض المتناهية في الصغر « ذات منظر حقير لم أتمالك معه نفسى من الابتسام » . ولربما كان خليئراً بأن يسرى فيه وقتئذ إلى أمد قصير حين إلى هذا الكوكب القعس ، ولكن نظرة من بياتريس تنبؤه أن هذه السماء ، سماء الضوء والحب ، لا مكان الذنوب والنزاع . هي موطنه الحق .

وتبدأ الأغنية الثالثة والعشرون بتشبيه من التشبيهات التي يمتاز بها شعر دانتي :

كالمخاض الذي - ليس طوال الليل في عشه المظلم بين أوراق الشجر ، ومعه صغاره الحسيلة ، يتحرق شوقاً إلى روية نظراتها الحلوة . وإلى أن يسعى سعيه الحبيب ليأني إليها بطعامها غير شاعر بما يلاقه في سبيلها من مشقة ، جلست تستبقي الزمن على الغصن المعلق فوق عشها : بقطعة تمرقب أن تطلع الشمس فتطرده من الشرق ستار الفجر .

وتحرق بياتريس بعينها في جهة من الجهات مترقبة ، فتشقى السماء فجاءة عن منظر رائع وضاء ؛ وتناديه قائلة « انظر ! إلى جيش المسيح المنتصر » - أرواح جديدة كسبتها الجنة . ويلتفت دانتي ولكنه لا يرى إلا ضوءاً ساطعاً قوياً يذهب سناه ببصره ، فلا يعرف ما يمر به . وتأمره بياتريس أن يفتح عينيه ،

وتقول له إنه يستطيع في ذلك الوقت أن يطبق النظر إلى بهائها كاملاً .
وتبتسم له ، ويقسم أن هذا حادث لا يمحي من ذاكرته . وتسأله :
« لم يأسرك جمال وجهي ؟ » وتأمره أن ينظر بدلاً منه إلى المسيح ومريم
والرسل . ويحاول هو أن يتبينهم ، ولكنه لا يبصر إلا « كتائب من البهاء ،
تسقط عليها من فوقها بروق ترسلها أشعة محرقة » ، وتصل إلى أذنيه في
تلك اللحظة موسيقى الكتائب السماوية .

ويصعد المسيح ومريم ، ولكن الرسل يبقون خلفهما ، وتطلب بياتريس
لهم أن يتحدثوا إلى دانتى ، فيسأله بطرس عن دينه ، وتسره أجوبته ،
ويوافقه على أن الكرسي الرسولي سيظل شاغراً أو مدنساً ما دام بنيفاس
بابا (٥٨) . إن بنيفاس لا يجد في قلب دانتى ذرة من الرحمة .

ويخفى الرسل في الطباق العليا ، ويصعد دانتى أخيراً مع « التي أسكنت
روحي الجنة » إلى السماء التاسعة ، أعلى السموات جميعاً . وليس في هذه
السماء نجوم ، بل كل ما فيها نور صاف ، وفيها الله الروح الخالص ، المجرد
من الجسد ، والذي لا علة له ، والأصل الثابت لجميع الأرواح ،
والأجساد ، والأسباب ، والنور ، والحياة . ويحاول الشاعر وقتئذ أن
يستمتع بنور النعيم الباهر ، ولكنه لا يرى إلا نقطة من الضوء تدور حولها
تسع دوائر من الذكاء الخالص - ملائكة الطبقة الأولى ، وأرواح سماوية ،
وعروش ، وأملاك ، وفضائل ، وسلطات ، وإمارات ، وملائكة كبار ،
وملائكة غير كبار . وعن طريق هؤلاء - وهم عمال الله ومبعوثوه -
يحكم الخالق جل جلاله العالم . ولا يستطيع دانتى أن يرى الجوهر الإلهي ،
ولكنه يرى كل كتائب السماء تؤلف من نفسها وردة وضاعة ، هي أعجوبة
من النور الباق والألوان المختلفة تتمدد ورقة بعد ورقة حتى تصبح
زهرة ضخمة .

وحينئذ تترك بياتريس حبيبها ، وتحتل مكانها في الوردية . ويراهما تجلس

على عرشها ، ويظل يجرها أن تساعده ، فتبتسم له ، وتحقق من ذلك الوقت بعينها في مركز جميع الأضواء ؛ ولكنها ترسل القديس برنار ليساعده ويواسيه . ويوجه برنار دانتى نحو ملكة السماء ؛ ويتجه الشاعر نحوها ولكنه لا يرى إلا بريقاً وهاجاً يحيط به آلاف من الملائكة مسربلين بالنور . ويقول له برنار إذا شاء أن يكون له من القوة ما يستطيع به أن يشهد الروى السماوية واضحة ، فإن عليه أن ينضم إليه في الصلاة لأم الإله ، وتبدأ الأغنية الأخيرة بتضرع برنار بنغمه الحلو :

« أيتها الأم العذراء ، يا ابنة ابنك ، يا من أنت أعظم تواضعاً ورفعة من كل الخلائق » . ويتوسل إليها برنار أن تمن على دانتى بأن يقدر على رؤية ذات الجلال القدسى ، فتحنى بيائريس وينحنى كثير من القديسين نحو مريم ويرفعون أيديهم مقبوضة يتوسلون إليها بالدعوات . وتلقى مريم نظرة قصيرة رحيمة على دانتى ، ثم تحول عينها نحو « النور السرمدي » . والآن ، كما يقول الشاعر : « تصفو نظراتي ، فيدخل فيها شيئاً فشيئاً ذلك النور الأعلى وهو الحق » . ويقول إن كل ما رآه بعدئذ تعجز اللغة عن وصفه ، ويعجز الخيال عن تصويره ؛ ولكن « في هذه الهوة من البهاء المتألق ، الصافية الشاحخة ، خيل إلى أنى أرى كرة ذات ثلاثة ألوان مجتمعة في لون واحد » . وتختتم الملحمة الفخمة ونظرات دانتى لا تزال مثبتة على النور المتألق ، ويجذبها ويدفعها « حب الله الذى يحرك الشمس وجميع النجوم » .

وجملة القول أن الملهمة المقدسة أعجب القصائد كلها وأصعبها . فليس ثمة قصيدة غيرها تضمن بكنوزها إلا على من يبذلون في سبيلها جهوداً جبارة ؛ ولغنها أكثر اللغات إيجازاً وإحكاماً بعد لغة هوراس وتاستس ، فهي تجمع في كلمة أو بضع كلمات معانى وأفكاراً دقيقة يتطلب فهمها كاملة معلومات سابقة غزيرة ، وعقلاً مستيقظاً ، وذكاء ، وحتى بحوثها المملة في علوم الدين ، والنفس ، والفلك ،

تتأثر بدقة في اللفظ وغزارة في المادة ، لا يستطيع أن يجاريها فيهما أو يستمتع بهما إلا الفيلسوف المدرسى . ذلك أن دانتى كان يحيا في عصره حياة قوية عميقة تكاد قصيدته بسببها أن تتحطم تحت عبء الإشارات إلى الحوادث والمعاني المعاصرة التي لا يمكن فهمها إلا إذا أضيف إليها كثير من الشروح التي تعطل تتابع القصة .

وكان يجب أن يعلم الناس ، ولهذا أراد أن يفرغ قصيدة واحدة ما تعلمه كله تقريباً ، وكانت النتيجة أن البيت الحى من الشعر يرقد إلى جانب السخافات الميئة ، ويضعف جمال بياتريس وفتنتها بأن ينطقها بما يحبه ويكرهه في الشئون السياسية . وهو يقطع قصته ليصب جام غضبه على مائة مدينة أو جماعة أو فرد ، ويغرق ملحمته أحياناً في بحر من السباب ؛ وهو متم بحب إيطاليا ؛ ولكن بولونيا مليئة بالقوادين^(٥٩) ، وفلورنس هي الثمرة المحبوبة من ثمار الشيطان^(٦٠) ، وپستونيا حظيرة للوحوش^(٦١) ، وجنوى « استشرى فيها الفساد »^(٦٢) ؛ وأما پيزا « ألا لعنة الله على پيزا ! ألا ليت نهر الآرنو يسد عند مصبه ، ويفرق پيزا كلها ، بما فيها من حرث ونسل ، تحت مياهه الصاخبة ! »^(٦٣) . ويظن دانتى أن « الحكمة العليا ، والحب الأزل » هما اللذان خلقا الجحيم . وهو يعد بأن يزيل الجليد لحظة من الزمان عن عيني ألبريجو Alberigo إذا ما أخره هذا باسمه وقص عليه قصته . ويحييه البريجو إلى ما طلب وبرجوه أن ينجز ما وعد — ويقول « مد إلى يدك ، وافتح عيني ! » — ويواصل دانتى حديثه قائلاً : ولكنى « لم أفتحها له ؛ لأن الوقاحة معه هي المجاملة بعينها »^(٦٤) . ألا إننا سننجو جميعاً من العذاب إذا كان رجل ملي قلبه بهذا الغل يستطيع أن يطوف به طائف خلال الجنة .

ومع هذا كله فإن قصيدته أعظم كتب العصور الوسطى ، ومن أعظم كتب التاريخ بأجمعه . ذلك بأن تجمع قوتها وغزارة مادتها تدريجياً خلال أغانيها البالغ عددها مائة أغنية تجربة لا يستطيع قارئ أكل قراءتها أن ينساها ؛ وهى كما قال فيها كارليل Carlyle أعظم القصائد إخلاصاً ؛ فليس فيها شيء من الادعاء ،

أو الملق ، أو التواضع الكاذب ، أو الخنوع ، أو الجبن ؛ بل إن أقوى رجال ذلك العصر ، ومنهم البابا الذى يدعى أنه صاحب السلطان الأعلى ، يهاجمون بقوة وحرارة ليس لهما فى الشعر كله مثيل . وفيها فضلا عن هذا كله خيال وثاب يسرى فيها كلها ويبعث فيها القوة ، ويغالب شيكسبير لينزع منه اواء الشعر : فيها صور واضحة حية لأشياء لم يرها الأرباب أو البشر ؛ ووصف للطبيعة لا تستطيعه إلا روح يقظة قوية الملاحظة مرهفة الحس ؛ وقصص قصيرة ، كقصّة فرانسيسكا وأجلينو ، تجمع المأسى العظيمة فى حيز صغير دون أن تترك منها شيئا ذا بال . نعم إن هذا الرجل خلو من الفكاهة ، ولكن فيه حُبًّا ظل حتى أحواله المصائب لاهوتا .

ويبلغ دانتى آخر الأمر بقصيدته مرتبة السمو . نعم إننا لا نجد فى ملحمته ما نجده فى الإلياذة من تيار الحياة الجارف أو تتابع الحوادث سراعا ، كما أننا لا نجد فيها ما فى شعر فرجيل من انسياب سهل هادئ ، أو ما يمتاز به شيكسبير من إدراك شامل ، وتسامح ، وغفران للذنوب ؛ ولكن فيها عظمة ، وقوة معذبة نصف همجية تستبقي ميكمل أنجلو وتنبئ بقدومه ؛ وإذا كان دانتى ممن يحبون النظام كما يحبون الحرية ، فقد قيد عواطفه وروياه فخلغ عليهما صورة محددة ، ولهذا أخرج قصيدة ذات قوة ماثلة أمام أعيننا لم يصل إلى مثلها إنسان آخر من بعده . وقد ظلت إيطاليا طوال القرون التى أعقبت عصره تجله وترى فيه الرجل الذى حرر لغتها الذهبية من القيود ؛ وتلقى پترارك وبوكاشيو ومائة غيرهما من الأدباء الإلهام من وقائعه وفنه ، وردت أوروبا كلها أصداء قصة المنفى الفخور الذى سار إلى الجحيم ثم عاد منها ولم يبتسم قط بعد عودته .

الخاتمة

تراث العصور الوسطى

إن من الخير أن نختم بدانتى قصتنا الطويلة المتشعبة ، فقد ظهر فى القرن الذى توفى فيه أولئك الرجال الذين شرعوا بعدئذ فى تحطيم الصرح العظيم صرح الإيمان والأمل الذى عاش فيه : فن هولاء ويكلف Wyclif ، وهوس Huss اللذان مهذا السبيل للإصلاح الدينى ؛ وجيتو Giotto وكريسلاراس Chrysolaras ، وپترارك ، وبوكاشيو الذين بشروا بالنهضة ، وقد يبق إلى زمن طويل خلال تاريخ الإنسان - ذى العدد الكبير والطبائع المختلفة - مزاج من نوع ما فى نفوس وأماكن أخرى . فى أوربا مثلاً وصل عصر الإيمان إلى عنفوان مجده ، فى دانتى ، ثم أصابته طعنة نجلاء من يد أكام Occam فى القرن الرابع عشر ؛ ولكنه ظل يغالب المرض والضعف حتى أقبل برونو Bruno ، وجاليلو وديكارت ، واسپنوزا ، وبيكن ، وهبز Hobbs ؛ وقد يعود عصر الإيمان إذا ما حلت بعصر العقل كارثة (*) ؛ ولقد بقيت مساحات واسعة تحت شعار الإيمان وسلطانه بينما كانت أوربا الغربية تسير بسفينة العقل فى البحار الغير المطروقة . إن العصور الوسطى حال من أحوال الزمان كما هى فترة من فتراته : ومن واجبنا أن نختتمها فى أوربا الغربية بكمولبس ؛ ولكنها دامت فى روسيا إلى زمن بطرس الأكبر (المتوفى عام ١٧٢٥) ؛ أما فى الهند فلا تزال باقية إلى اليوم .

ولقد نساق إلى التفكير فى العصور الوسطى على أنها فترة مجدبة محصورة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦) وكشف أمريكا ؛ بيد

(*) يقصد بعصر العقل عصرنا الحاضر ، ولهذا يقول إنه سيمى المجلد السابع من هذه سلسلة وهو المجلد الذى يروى حضارة هذا العصر « عصر العقل » . (المترجم)

أننا يجب ألا ننسى أن أتباع أبلار كانوا يسمون أنفسهم محدثين moderni .
وأن أسقف إكستر Exeter قد وصف في عام ١٢٨٧ القرن الذي يعيش
فيه بأنه « الزمن الحديث moderni tempores »^(١). أضف إلى هذا أن الحد
الفاصل بين العصور « الوسطى » والعصور « الحديثة » يتقدم على الدوام ؛
وأن عصر الفحم والزيت والأحياء القنطرة المليئة بالدخان والكثّن ، إذا
ما حل محله عصر أكثر منه نظاماً وأرحم منه حياة ، قد يعد من العصور
الوسطى . كذلك لم تكن العصور الوسطى مجرد فترة بين حضارة وحضارة .
ذلك أننا إذا أرخنا بداية هذه العصور بقول رومة للمسيحية وبموت نيقية
عام ٣٢٥ ، رأيناها تشمل القرون الأخيرة من حياة الثقافة اليونانية -
الرومانية القديمة ، ونضوج المسيحية الكاثوليكية حتى أضحت حضارة كاملة
غنية في القرن الثالث عشر ، وانقسمت تلك الحضارة إلى الثقافتين المتعارضتين
وهما النهضة والإصلاح الديني . وشيء آخر خلّيق بالذكر ، وهو أن رجال
العصور الوسطى كانوا ضحايا الهمجية ، ثم صاروا هم أنفسهم الغالبين
للهمجية ، وأمسوا بعدئذ المُنشئين لمدينة جديدة . وليس من الحكمة أن ننظر
بعين الكبرياء إلى عصر أنجب هذا العدد الجَم من عظماء الرجال وعظيمات
النساء ، ورفع منار البابوية فوق أنقاض العصور الوسطى ، وأقام الدول
الأوربية ، وجمع بالكدح الدائب تلك الثروة التي خلفها لنا تلك العصور(*) .

وقد جمع هذا التراث بين الشر والخير . فأما عن الشر فنقول إننا لم نفق بعد
كل الإفاقة من العصور المظلمة : من اضطراب الأمن الذي يثير المطامع والشهوات ،
والخوف الذي يولد القساوة ، والفقر الذي يوجد القنطرة والجهل ، والقنطرة التي
تتنفّس بسببها الأمراض ، والجهل الذي يؤدي إلى سرعة التصديق وإلى الإيمان
بالخرافات ، والسحر - كل هذا لا يزال باقياً بيننا ؛ وإن العقائد التحكيمية القائمة

(*) . قصرنا الجزء الأكبر من هذه الإعادة على الحديث عن المسيحية في العصور الوسطى ،
ولن نعيد هنا الخلاصة التي كتبناها عن الحضارة الإسلامية في ختام الكتاب الثاني من هذا المجلد .

على غير أساس من العقل ، والتي أدت إلى التعصب وإلى محاكم التفتيش . لا تزال تنتهز القرص أو الإذن لكى تظلم ، وتقتل ، وتدمر ، وتخرب . وليست « العصرية » بهذا المعنى إلا ستاراً يغشى مبادئ العصور الوسطى وعاداتها . ولا تزال هذه المبادئ والعادات باقية فى الخفاء ؛ وليست الحضارة فى أى جبل من الأجيال إلا ثمرة من ثمار الكدح الذى تقوم به قلة مزعزة مغمورة وميزة اضطرابية لهذه القلة . ولقد خلفت محاكم التفتيش آثارها السيئة فى المجتمع الأوروبى : فقد جعلت التعذيب جزءاً مقررأً معترفاً به فى الإجراءات القضائية ، وردت الناس من مغامرات العقل إلى الاتفاق الراكد المنبعث من الخوف .

والدين أهم ما أورثنا إياه عصر الإيمان : أورثنا يهودية ظلت حتى القرن الثامن عشر يستوعبها التلمود ؛ وأورثنا الإسلام الذى هدأت عقول أصحابه بعد انتصار السُنَّة على الفلسفة فى القرن الثانى عشر ، ومسيحية انقسمت بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، ولكنها لا تزال رغم هذا الانقسام أقوى الأديان وأعظمها أثراً فى تاريخ الرجل الأبيض . فعقيدة كنيسة العصور الوسطى يدين بها الآن ٣٣٠.٠٠٠.٠٠٠ من الرومان ، و ١٢٨.٠٠٠.٠٠٠ من الأرثوذكس والكاثوليك ؛ ولا تزال شعائرها تحرك النفوس بعد أن أخفقت كل الحجج المنطقية . ولقد خلفت جهود الكنيسة فى ميادين التعليم ، والصدقات ، وبث الأخلاق الفاضلة فى نفوس الهمج من الناس ، خلفت هذه الجهود إلى العالم الحديث تراثاً ثميناً من النظام الاجتماعى ، والتأديب الخلقى . ولسنا ننكر أن ما كانت تحلم به البابوية من قيام دولة أوربا الموحدة قد قضى عليه النزاع الذى قام بين الإمبراطورية والبابوية ؛ ولكن ما من جبل من الأجيال لا تستثيره رؤى نظام أخلاقى دولى يسمو على النظم الأخلاقية المتصاربة السائدة فى الدول المستقلة ذات السيادة .

ولما أن قضى على ذلك الحلم البابوى اتخذت الأمم الأوروبية الشكل الذى

لا تزال تحتفظ به في جوهر حتى هذا القرن ، وتأهب مبدأ القومية لكتابة التاريخ السياسي للأزمنة الحديثة . وابتدع عقل العصور الوسطى في هذه الأثناء أنظمة من القانون المدني والكنسي ، وديساتير بحرية وتجارية ، وعهوداً لحرية المدن ، ونظام المحلفين ، وحق القضاء في إطلاق سراح المسجونين بلا محاكمة . وفي العصور الوسطى وضع نبلاء الإنجليز العهد الأعظم ، وأعدت المحاكم والمجالس القضائية للدول والكنيسة أساليب الحكم ودواليب الإدارة الباقية إلى هذه الأيام . وظهر نظام الحكم النيابي في الكورتيز Cortes مجلس أسبانيا النيابي ، والألثنج Althign مجلس أيسلندة : وجمعية الطبقات الفرنسية ، واللمان الإنجليزى .

وكان أعظم من هذا كله تراث العصور الوسطى الاقتصادي : فقد استغلت هذه العصور البرارى المقفرة ، وكان لها النصر في مغالبة الغابات ، والحراج ، والمستنقعات ، والبحار ، وأخضعت تربة الأرض لإرادة الإنسان . وقضت العصور الوسطى على الاسترقاق في معظم أجزاء أوروبا الغربية ، وكادت تقضى أيضاً على نظام رقيق الأرض . ونظمت العمال المنتجين في نقابات الحرف ، وهى النقابات التى لا تزال من المثل العليا عند رجال الاقتصاد الذين يسعون لإيجاد طريق وسط بين الأفراد غير المسئولين والدولة الأنوقراطية . ولقد ظل الخياطون ، والأساكفة ، وصناع الملابس إلى وقتنا هذا يقومون بأعمالهم اليدوية في حوانيت خاصة كما كانوا يقومون بها في العصور الوسطى ؛ وكان خضوعهم لنظام الإنتاج الكبير وللتنظيم الرأسمالى على مرأى ومسمع منا . وإن المواسم الكبرى التى تعقد في المدن الحديثة ويجتمع فيها الناس والسلع لمن مخلفات تجارة العصور الوسطى ؛ كما أن من هذا التراث أيضاً ما نبذله من جهد لمنع الاحتكار ، وتحديد الأثمان والأجور ؛ ولقد ورثنا عمليات المصارف الحديثة كلها تقريباً من نظم العصور الوسطى المالية ؛ وحتى منظمانا الأخوية ، وجمعياتنا السرية تمتد جذورها وشعائرها إلى العصور الوسطى نفسها .

وكانت مبادئ العصور الوسطى الخلقية وليدة الهمجية ومنشأ نظام الفروسية . وإن فكرتنا عن السيد الكامل (السميذع) لمن خلق تلك العصور ؛ ولا تزال مثل الفروسية العليا ؛ وإن بعدت عن أساليب الفرسان القدامى ، من أنبل الأفكار التي طافت بالعقل البشري ؛ وربما كانت عبادة مريم العذراء قد جاءت بعناصر جديدة من الرقة والحنان إلى أخلاق الرجل الأوروبي . وإذا كانت القرون المتأخرة قد ارتقت بأخلاق الناس عما كانت عليه في العصور الوسطى ، فقد كان ذلك الرقي على أسس من وحدة الأسرة ، والتربية الخلقية ، والانتشار البطيء لعادات الشرف ، والأمانة ، والحجامة ، وهي الأسس التي أرسى دعائمها العصور الوسطى ، شأنها في هذا شأن الحياة الأخلاقية للمتشككين المحدثين التي لا يبعد أن تكون صدى للمبادئ الأخلاقية المسيحية التي اعتنقها الناس في شباب هذا الدين .

أما تراث العصور الوسطى الذهني فهو أضعف مما ورثناه عن اليونان الأقدمين ، كما أنه يختلط به كثير من المعارف الخفية الفاسدة التي ترجع أصولها إلى الأزمنة القديمة . ولكنه على الرغم من هذا يشمل اللغات الحديثة ، والجامعات ، ومصطلحات الفلسفة والعلوم . وكانت الطريقة الجدلية المدرسية تدريباً في المنطق لافتحاً فلسفياً دائماً ، وإن كانت هذه الطريقة تسيطر على ألف كلية . ولسنا ننكر أن بعض العقائد الدينية في العصور الوسطى قد عاقت كتابة التاريخ الصحيح ؛ فقد كان الناس في تلك العصور يحسبون أنهم يعرفون منشأ العالم والإنسان ومصيرهما ، وحاكوا نسيجاً من الأساطير كاد يقصر التاريخ على مؤرخي الأديرة الإخباريين . ولكن ليس صحيحاً أن مؤرخي العصور الوسطى لم يكونوا يعرفون شيئاً عن التطور والتقدم ؛ وكان القرن الثالث عشر ، كما كان القرن التاسع عشر ، متأثراً أشد التأثير بما تم فيه من جليل الأعمال . كذلك لم تكن العصور الوسطى زمن ركود وجمود كما كنا نظن ذلك مزهوين ؛ ذلك أن بعد ما بيننا وبين تلك

العصور يجعلنا نظن الحركة سكوناً ، والفروق معدومة من الوجود ، ونحسب التغير جموداً ؛ ولكن الرغبة في التغير كانت تلح وقتئذ ، كما تلح الآن ، في تبديل العادات والثياب ، واللغة والأفكار ، والشرائع ونظم الحكم ، وأساليب التجارة والمال ، والأدب والفن . غير أن مفكرى العصور الوسطى لم يكونوا يعلقون أهمية كبرى على ارتقاء الوسائل غير المصحوبة بإصلاح الغابات كما يفعل المحدثون غير المفكرين أهل هذه الأيام .

وفي الحق أن تراث العصور الوسطى العلمى تراث متواضع ، ولكنه يشمل فيما يشمل الأرقام الهندية ، والطريقة العشرية ، وفكرة العلوم التجريبية ، وقسطاً كبيراً من العلوم الرياضية ، والجغرافيا ، والفلك ، والبصريات . وفي العصور الوسطى كشف البارود ، واخترعت النظارات ، والبوصلة البحرية ، والساعة ذات الرقاص (*) ، وتقطير الحكول — الذى يبدو أشد المخترعات لزوماً للإنسان ! وفيها ارتقى أطباء العرب واليهود بالطب اليونانى ، وحرر الرواد المسيحيون الجراحة من فنون الحلاقين ؛ ونصف المستشفيات التى تقوم الآن فى أوربا إما أنها من منشآت العصور الوسطى وإما أنها مؤسسات باقية من ذاك العهد جددت فى العصور الحديثة ، ولقد ورث العلم الحديث من طريقة التفكير فى العصور الوسطى نزعة الدُّولية ، وقسطاً غير قليل من لغته الدُّولية .

وأجل ما ورثه العالم من العصور الوسطى بعد التأديب الأخلاقى هو الفن . نعم إن بناء إمبراستيت Empire State Building لا يقل روعة وجلالا عن كتدراثية شارتر ، وإنه يدين بعظمته لهندسته وحدها — لثباته رغم ارتفاعه وعتوه ودقة تخطيطه . ولكن اجتماع فنون النحت ، والتصوير ، والشعر ، والموسيقى مع فن العمارة فى حياة الكندراثية القوطية يكسب كتدراثيات أميان ،

(*) من حق العرب علينا أن نقول إن هذه المخترعات يكاد يرجع الفضل كله فيها إلى الحضارة الإسلامية . (المترجم) .

وريمس ، ونتردام سعة وعمقاً في التوافق الروحي ، وثروة وتنوعاً في الزخرف ، يملآن النفس غبطة أكثر مما تملؤها عظمة البناء الحديث ، ولا تفتقرُ معهما متعة الإنسان على مر السنين . وإن من واجب الإنسان أن يغفر الشيء الكثير لذلك العصر الذي أحب بملء قلبه رموز دينه ، وأعمال يديه — من أبواب ، وأبراج ومنارات مستدقة ، وقباب من حجارة تناطح السماء ، وتماثيل ومذابح للقربان ، وواجهات ، ومقابر عني بنحتها أعظم عناية ، وشبابيلك تنافس بألوانها قوس قزح ، وتتقى أشعة الشمس قبل أن تنفذ فيها . ومن أجل الكنتدرائيات نشأت الموسيقى المتعددة اللغات ، ووضعت العلامات الموسيقية والسلم الموسيقي ؛ ومن الكنيسة نشأ فن التمثيل الحديث .

ولا يقل تراث العصور الوسطى في الأدب عن تراث الرومان وإن لم يبلغ في علو قدره ما بلغه الأدب اليوناني . ففي وسعنا أن نضع دانتي في مرتبة فرجيل ، وبترارك إلى جانب هوراس ، وشعراء العرب والفروسية الغزليين إلى جانب أوفيد ، وتيبليس ، وپروپرتيوس ؛ وإن روايات آرثر الغرامية لأشد عمقاً وأكثر نبلاً من كل ما حواه كتابا التناسخ والهرويرات ، ولا يقل عنهما ظرفاً وجمالاً ؛ وإن الترايم الكبرى التي كانت تشد في العصور الوسطى لأرقى من أجمل الأغاني الشعرية الرومانية . ولا يقل القرن الثالث عشر رقياً عن عصر أغسطس أو أيو العاشر ؛ وقلما شهد قرن من القرون ما شهدته ذلك القرن من ازدهار فني أو ذهني كامل متعدد الألوان ؛ وقد اتسع فيه نطاق التجارة اتساعاً لا يقل عما وصل إليه في أواخر القرن الخامس عشر ؛ وكانت هذه التجارة سبباً في اتساع رقعة العالم المعروف وازيد ثروته وبقظته . وكان في القرن الثالث عشر بابوات أقوىاء من طراز إنوسنت الثالث وبنيفاس الثامن ، رفعوا مقام الكنيسة ملهى قرن كامل إلى أعلى درجات النظام والقانون في جميع البلاد الأوروبية . ولم يكن

القديس فرانسس يخشى أن يكون مسيحياً ؛ وأعاد الرهبان المتسولون المثل العليا للأديرة ، ورفع الحكام العظام أمثال فليب أغسطس ، والقديس لويس ، وفليب الرابع ، وإدوارد الأول ، وفردريك الثاني ، وألفونسو العاشر ، رفع هؤلاء دولهم من بلاد تجرى على العادات والتقاليد إلى دول تتبع القوانين ، كما رفعوا شعوبهم إلى مستويات جديدة من الحضارة في العصور الوسطى . وانبعثت في القرن الثالث عشر فلسفة وعلوم جديدة تغلبت على النزعات الصوفية التي كانت سائدة في القرن الثاني عشر ، وكان انبعاثها بحماسة وشجاعة لا يفوقهما ما كان منهما في عصر النهضة . وفي الأدب خطا « القرن العجيب » من بارزيفال تأليف ولفرام فن إيسنباخ إلى فكرة الملهاة المفترسة ، ولاح أن عناصر حضارة العصور الوسطى وصلت في خلال ذلك القرن إلى الوحدة والنضوج وإلى صورتها النهائية .

وبعد فلما لن نستطيع تقدير العصور الوسطى ، حق قدرها إلا إذا نظرنا إلى النهضة الأوربية على أنها إتمام لما بدأت لا نقض له . فقد واصل كولمبس ومجلان Magellan مثلاً رحلات الارتياح التي قام بها التجار والملاحون من أهل البندقية ، وجنوى ، ومرسيليا ، وبرشلونة ، ولشبونة ، وقادس ، والتي تقدمت على أيديهم تقدماً عظيماً ؛ وإن الروح التي كانت متأججة في أثناء القرن الثاني عشر هي نفسها التي أثارت روح الكبرياء والكفاح في المدن الإيطالية خلال عصر النهضة ؛ كذلك كان النشاط والخلق القوي اللذان امتاز بهما إنريكو دندولو Enrico Dandolo ، وفردريك الثاني ، وجريجورى التاسع هما اللذين تلتب بهما صدور رجال النهضة ؛ وكان منشأ زعماء عصابات المغامرين العسكريين الذين يبيعون خدماتهم لأى حزب في كل نزاع من الخطة التي اتبعها ربرت جيسكارد Robert Guiscard ؛ ومنشأ الحكام « الطغاة » مثل إزليو Ezzelino وپلافشينو Pallavicino ؛ وسار المصورون في الدرب الذى شقه لهم سيابيو Cimabue ودوتشيو Duccio ؛ وكانت پلسترينا Palestrina همزة الوصل بين الترنيم

الجريجورى وباخ Bach . كذلك كان پتراراك وارثا للدانتى وشعراء الفروسية الغزلين ، كما كان بوكاشيو قصاصا إيطاليا جوبا . وقد ظلت الروايات الغرامية مزدهرة فى أوربا أثناء النهضة على الرغم من كتاب دوكيموت ، وبلغت أساليب كريتيان ده تروى Chrétien de Troyes حد الكمال على يد مالورى Malory . وكانت بداية « إحياء الآداب » فى مدارس العصور الوسطى ؛ وكل ما امتازت به النهضة فى هذه الناحية أنها وسعت دائرة هذا الإحياء حتى شملت الآداب اليونانية بعد أن كان مقصوراً على اللاتينية ، وأنها نبذت الفن القوطى لتنهض بالفن اليونانى . لكننا يجب ألا ننسى أن نقولو پيزانو Niccolo Pisano اتخذ فن النحت اليونانى فى القرن الثالث عشر نموذجاً له ينسج على منواله ، ولما أن جاء كريسلوراس Chrysoloras باللغة اليونانية وآدائها إلى إيطاليا (١٣٩٣) ، كان لا يزال باقيا من عمر العصور الوسطى مائة عام كاملة .

وكان الدين الذى شاد الكنائس الكبرى وألف الترايم الجميلة هو الدين السائد فى إيطاليا ، وأسبانيا . وفرنسا فى عصر النهضة مع فارق واحد ، وهو أن الكنيسة الإيطالية ، التى كان لها نصيب كبير فى ثقافة ذلك الوقت ، وهبت العقل الإيطالى حرية فى التفكير ولدت فى جامعات العصور الوسطى ، وظلت باقية ، بشرط أن يكون مفهوما فهماً ضمناً أن يسير الفلاسفة والعلماء فى بحوثهم دون أن يحاولوا القضاء على دين الجماهير .

ومن أجل هذا لم تشترك إيطاليا ولا فرنسا فى حركة الإصلاح الدينى ، بل انتقلنا من ثقافة القرن الثالث عشر الكاثوليكية إلى ثقافة القرنين الخامس عشر والسادس عشر « الإنسانية » ، ثم انتقلنا من هذه الثقافة الأخيرة إلى عصر الاستنارة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكان هذا الاطراد المستمر مضافاً إلى تجارة البحر المتوسط قبل كشوف كولبس هى التى أكسبت الشعوب اللاتينية ميزة ثقافة مؤقتة على الأمم الشمالية التى اجتاحتها الحروب الدينية ، والتى كان لها فيها

من الآثار المدمرة أكثر مما كان في البلاد اللاتينية . وتمتد أصول هذا الاطراد مجتازة العصور الوسطى إلى رومة القديمة ومجتازة جنوبي إيطاليا إلى بلاد اليونان القديمة . وكان تيار واحد عظيم من الثقافة يجرى خلال المستعمرات اليونانية في صقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وخلال الفتح الرومانى لفرنسا وأسبانيا واصطبغتهما بالصبغة اللاتينية مبتدئاً من سافو وأنكريون إلى فرجيل وهوراس ، وإلى دانتي وبيترارك ، وإلى ربلية ومنتاني ، وإلى فلتيير وأناطول فرانس . ونحن في انتقالنا من عصر الإيمان إلى عصر النهضة إنما نتقدم من الطفولة المزرعة غير الواثقة بنفسها إلى الشباب البهيج للثقافة التي قرنت ما كان عند الرومان واليونان الأقدمين من ظرف ورقة إلى ما كان عند البرابرة من قوة ؛ وهي ثقافة نقلت إلينا تراثاً متجدد الشباب موفور. الغنى لحضارة من حقها علينا أن نعمل على الدوام لزيادتها وألا نتركها تموت .

شكراً لك مرة أخرى أيها القارئ الصديق

(انتهى المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس في حضارة عصر النهضة)

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجلدة في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAF XXXIV

1. In Ogg, 145.
2. Vossler, K., *Medieval Culture*, 1, 5.
3. Dante, *La Vita Nuova*, xxv.
4. Munro and Sellery, 330.
5. Cf. Poillock and Maitland, I, 57.
6. Mumford, L., *Technics and Civilization*, 438 ; *Encyclopaedia Britannica*, XXI 1004a.
7. *Lyra Graeca*, III, 676, app. by J. M. Edmonds.
8. Munro and Sellery, 232 ; Haskins, *Renaissance*, 16 ; id., *Normans*, 236.
9. Haskins, *Renaissance*, 72.
10. Thorndike in *Speculum*, Apr. 1937, 268.
11. Haskins, *Renaissance*, 72.
12. Coulton, *Panorama*, 683.
13. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 654.
14. Lacroix, *Arts*, 472.
15. Walsh, *Thirteenth Century*, 156.
16. Coulton, *Medieval Science*, 124 ; *Panorama*, 576 ; Haskins, *Renaissance*, 71.
17. *Encyclopaedia Britannica*, XIV, 3.
18. Haskins, *Renaissance*, 43.
19. Calvert, *Moorish Remains in Spain*, 426.
20. Haskins, *Studies in Medieval Culture*, 100.
21. Beven, *Legacy, of Israel*, 230.
22. Ibid., 211.
23. Sarton, II (I), 125.
24. Arnold, *Legacy of Islam*, 847.
25. Ibid., 244.
26. Wright, *Domestic Manners*, 271.
27. De Wulf, *Medieval Philosophy*, I, 61 ; West, *Alcuin*, 57.
28. John of Salisbury, *Metalogicus*, I, 24, in Poole, *Illustrations* 98.
29. Thorndike in *Speculum*, Oct. 1940, 401.
30. Walsh, *Thirteenth Century*, 28.
31. Thorndike, I.C. ; Rashdall, *Universities of Europe in the Middle Ages*, III, 350 ; Crump, *Legacy of the Middle Ages*, 262-3.
32. Abélard, *Historia Calamitatum*, Introd. by R. A. Cram. p v.
33. Coulton, *Medieval Village*, 254.
34. Jusserand, 279.
35. Coulton, *Panorama*, 388.
36. Thorndike, *Speculum*, Oct. 1940, 408.
37. Rashdall, *Universities*, III, 870.
38. Aristotle, *Politics*, viii, 1.
39. Crump, 266.
40. Rashdall, I, 93.
41. Ibid., 113.
42. Lea, *Inquisition in the Middle Ages*, I, 59.

43. Walsh, *Thirteenth Century*, 38 ;
Baedeker, K, *Northern Italy*,
471.
44. Rashdall, I, 149-67.
45. Ibid., 198.
46. 196-7.
47. Paetow, L.J., *Guide to the Study
of Medieval History*, 448.
48. Haskins, *Renaissance*, 396.
49. Rashdall, I, 445.
50. Thorndike. *Magic*, II, 53.
51. *Cambridge Medieval History*, VI,
746.
52. Encyclopaedia Britannica, XI, 995
53. Rashdall, III, 29n.
54. Ibid., 33.
55. 198.
56. 246n ; Saiton, II (2), 584.
57. Davis, *Medieval England*, 398.
58. Encyclopadia Britannica, X,
9006b.
59. Ashley I, 203.
60. Munro and Sellerx, 350; Walsh,
Thirteenth Century, 65.
61. Waddell, *Wandering Scholars*,
171.
62. Walsh, 65.
63. Rashdall, IV, 325-36.
64. Ibid.
65. Coulton, *Social Life*, 95.
66. Rashdall, III, 386.
67. Ibid., 439.
68. 441.
69. 440.
70. 96u.
71. 431.
72. 432; Coulton, *Life*, III, 73.
73. Rashdall, III, 439.
74. Castiglione, 328.
75. Munro and Sellery, 350.
76. Rashdall, I, 46f-70.

CHAPTER XXXV

1. V. Cousin in Abéiard. *Ouvrages
Inédits*, xcix.
2. Gilson, É, *La philosophie au
moyen âge*, ed. 1947, 238.
3. De Wulf, *Medieval Philosophy*,
I, 103.
4. Ibid., 46.
5. Thomas Aquinas. *Summa Theol-
ogica*, I, i, 1.
6. Ueberweg. *History of Philosophy*,
I, 886.
7. Abéiard, *Historia Calamitatum*,
ch. 6.
8. Rémusat, C. de, *Abéiard*, I, 39.
9. Abéiard, *Calamitatum*, ch. 5.
10. Gilson, *La Philosophie au moyen
âge*, ed. 1922, I, 89.
11. Abéiard, *Calamitatum* ch. 5.
12. Rémusat, I, 30n.
13. Abéiard, ch. 16.
14. Rémusat, I, 54.
15. Abéiard, ch. 6. He does not say
that he accompanied her.
16. Ibid., ch. 7 ; Lea, *Celibacy*, 269.
17. Abéiard, ch. 7.
18. Ibid.
19. Poole, *Illustrations*, 125.
20. Abéiard. *Dialectica*, Introd. to
Part IV. in *Ouvrages inédits*.
21. Ibid.
22. In Rémusat. II, 534-5.
23. *Ouvrages inédits*, p. clxxxvii.
24. Abéiard, *Sic et non*, in *Ouvrages*,
p. 16.
25. De Wuls *Medieval Philosophy*,
I, 201.
26. Abéiard *Calamitatum*, ch. 9.
27. Rémusat, I, 77.
28. Abéiard, *Calamitatum*, Ch. 9.
29. Ch. 11.

30. Rémusat, II, 197.
 31. Ibid., 196; Gilson, *La Philosophie au moyen âge*, ed. 1947, p. 291.
 32. Ueberweg, I, 387.
 33. Rémusat, II, 203.
 34. Ibid., 205.
 35. Abélard, *Calamitatum*, ch. 12.
 36. Ch. 13.
 37. Ch. 15.
 38. Ch. 14.
 39. In Scott-Moncrieff, *Letters of Abélard and Héloïse*, 53-6.
 40. Ibid., p. 82.
 41. P. 103.
 42. Butler, *Women* 68.
 43. Prof. Paetow considered the "letters of Héloïse . . . the vain imaginings of a very vain man"—*Speculum*, Apr. 1927, 227. Prof. Gilson concludes in favor of their general authenticity; cf. his *Héloïse et Abélard*, Paris, 1938, and *Speculum*. July 1939, 394.
 44. Abélard, *Scito te ipsum*, xiii-xiv, in Rémusat, II, 466.
 45. Abélard, Ep. xiii, *Cambridge Medieval History*, V, 798.
 46. St. Bernard, Eps. 191 and 338, in Talor, *Medieval Mind*, I, 417, and II, 385; Adams, H., 313; Ueberweg, 396.
 47. Raby, *Christian Latin Poetry*, 321.
 48. Rémusat, I, 260.
- CHAPTER XXXVI
1. Duhem *Système du monde*, III 88.
 2. De Wulf, *History of medieval philosophy*, I, 154.
 3. Poole, *Illustrations*, 151.
 4. Ibid., 185.
 5. 108.
 6. Thorndike, *Magic*, II, 58.
 7. Ibid., 50.
 8. Ibid., 58.
 9. Poole, 158.
 10. Taylor, *Medieval Mind*, II, 402.
 11. In Poole, *Illustrations*, 164.
 12. In Adnms. H, 292.
 13. John of Salisbury, *Polycraticus*, v, 16; vi, 24; vii, 17.
 14. V, 16.
 15. IV, 3.
 16. V, 6; vi, 6, 12, 25; iii, 15.
 17. VIII, 20.
 18. VII, 11.
 19. Munro and Sellery, 460; Sarton, II (2) 860; De Wulf, *History of Medieval philosophy*, I, 248.
 20. Ibid.
 21. Robertson, J M., *History of Free Thought*, I, 325.
 22. Lea, *Inquisition in Middle Ages* I, 99.
 23. Coulton. *Five Centuries* I, 345.
 24. Id., *Medieval Scene*, 111.
 25. De wulf, I, 189.
 26. Lea, ed, II, 319.
 27. Gilson. *La Philosophie au moyen âge*, ed. 1947, 384.
 28. Rashdall, I, 354.
 29. Lea, II, 320-8.
 30. Renan, *Averroës*, 288.
 31. Coulton, *Panorama*, 449.
 32. Rashdall, I, 264.
 33. De Wulf, II, 97.
 34. Hershaw, *Medieval Contributions to Modern Civilization*, 145.
 35. Lea, III, 440.
 36. Castiglione, 330.

37. Coulton, *Panorama*, 461.
38. Gilson, *La Philosophie*, ed. 1947, 564.
39. De Wulf, II, 103.
40. In Gilson, ed. 1947, 564.
41. Ibid., 565.
42. 562.
43. 558; Renan, *Averroès*, 268.
44. Ibid., 273-5; Gilson, ed. 1947, 559.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 822.
46. De Wulf, I, 144.
47. Id., *Philosophy and Civilization in the Middle Ages*, 51.
48. Gilson, *Philosophy of St. Bonaventure*, 8.
49. Sabatier, 41.
50. Sartou, II (2), 938; Taylor, *Medieval Mind*, II, 451.
51. Sartou, II (2), 938; Taylor, *Medieval Mind*, II, 451.
52. Maritan, J., *The Angelic Doctor*, 32.
53. Ibid., 29.
54. 81; D'Arcy, *Thomas Aquinas*, 85.
55. Ibid., 51.
56. 46.
57. Grabmann, M., *Thomas Aquinas*, 32.
58. Wicksteed. P. H., *Dante and Aquinas*, 93; D'Arcy, 47.
59. Maritain, 45.
60. D'Arcy, 52.
61. De Wulf, *Philosophy and Civilization*, 186.
62. Maritain, 40.
63. Bevan, *Legacy of Israel*, 267.
64. Diesendruck, Z., *Maimonides and Thomas Aquinas*, 5.
65. Gilson, *La Philosophie*, ed. 1922, I, 114.
66. In Sartou, II (2), 915.
67. Thomas Aquinas, *De caelo et mundo*, lect. 22, in Grabmann, 44.
68. Id., *Summa contra Gentiles*, i, 2.
69. Ibid.
70. Id., *Comm. on Aristotle's Metaphysics*, 833.
71. Id., *Summa Theologica*, I, xvi, 8.
72. I., *Summa Contra Gentiles*, i, 12.
73. Ibid., i, 3.
74. Id., *Summa Theologica*, II IIae, i, 5.
75. Ibid., II IIae, x, 7.
76. Id., *Quodlibeta*, II, a, 7, in Grabmann, 50.
77. Id., *Summa Theologica*, II IIae, i, 10.
78. Ibid., xxvi, 10.
79. Id., *De veritate*, ii, 10.
80. Id., *Summa contra Gentiles*, i, 11.
81. Id., *Summa Theologica*, I, ii, 3; *Summa Contra Gentiles*, i, 16.
82. Ibid., i, 3; i, 30.
83. Id., *Summa contra Gentiles*, ii, 38.
85. Ibid., 35.
86. Ibid., iii, 28.
87. Id., *Quodlibeta*, xi 4.
88. Id., *Comm on 11 Sent.*, VIII, vi, 4, in Hopkins. C. E., *Share of Thomas Aquinas in . . . the Witchcraft Delusion*, 78.
89. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, cxvii, 3.
90. Ibid., lcxv, 3; xcvi, 5.
91. Ibid., 4.
92. Id., *Comm. on Aristotle's Metaphysics*, 146, 157.
93. Id., *Summa Theologica*, I, lxxvi, I.
94. In Walsh, *Thirteenth Century*, 444.
95. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, lxxv, 4.

96. Id., *Summe contra Gentiles*, ii, 72.
97. D'Arcy, 147.
98. Thomas Aquinas, *Comm. on Aristotle's Metaphysics* 179.
99. Id., *Summa contra Gentiles*, ii, 49.
100. Id., *De anima*, iii, 7.
101. Id. *Summa Theologica*, I, lxxviii, 1-4.
102. Ibid., I, v 6.
103. De Wulf, *History of Medieval Philosophy*, II, 25.
104. Thomas Aquinas, *De veritate*, xxiv, 1.
105. Id., *Summa contra Gentiles*, i,
106. Id., *Summa Theologica*, I, lxxvi, 1.
107. Ibid., II, iv, 6.
108. Id., *De veritate*, ii, 2.
109. Id., *Summa contra Gentiles*, iii, 27-31.
110. Id., *Summa Theologica*, II IIae, xiv, 3 ; xxvii, 1 ; xxxi, 4.
111. Id., *Comm. on Aristotle's Metaphysics* 207 ; *Summa Theologica*, I, xcii, 1 ; xcix, 2 ; cxv, 2,
112. Ibid.
113. Ibid., I, xcii, 3.
114. Ibid., I, v, 3.
115. Ibid., II IIae, x, 11.
116. Ibid., II IIae, civ, 1 ; I IIae, xix, 5 ; *De veritate*, xvii, 5 ; *on IV Sent*, 38.
117. Id., *Summa Theologica*, II IIae x, 11.
118. Ibid. 10.
119. Ibid., 17,
120. Ibid. 8.
121. Ibid.
122. Ibid., II IIae, xi, 4.
123. Ibid., I IIae, xcvi, 3.
124. Ibid., I, ciii 3.
125. Ibid., I IIae, cv, 1 ; cvii, 1.
126. Id., *De regimine principum*, i, 6.
127. Id., *Suma Theologica*, II IIae, lxxvi, 2.
128. Ibid.
129. Ibid., II IIae, cxviii, 1.
130. Ibid., II IIae, lxxvi, 7.
131. Ibid., II IIae, lxxvii, 4.
132. Ibid., II IIae, lxxviii, 1-4.
133. Ibid., I IIae, xcii, 1 ; cv, 1 ; II IIae, lvii, 3 ; lxx, 3.
134. Ibid. I IIae, vii, 1f ; *Comm on II Sent.*, xlv ; *Summa contra Gentiles*, iv, 76 ; Hearnshaw, *Social and Political Ideas* 103.
135. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, vxiii, 5.
136. Ibid., I, xviii, 1, 3 ; *Summa contra Gentiles*, iii, 163, quoting Paul, Ephesians, I, 4.
137. Wicksteed, 266.
138. Gilson, *Bonaventure*, 7.
139. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, xii, 1, 7-8.
140. Ibid., II IIae., cixix-clxxvii.
141. Sartre, II (2), 916.
142. Thomas Aquinas, *Summa contra Gentiles*, i, 1.
143. Sartre, II (2), 906.
144. Gilson, *Reason and Revelation* 30.
145. Id. *La philosophie*, ed. 1947. 606.
146. De Wulf, *Medieval Philosophy* II, 85,
147. Ibid., 84 ; Gilson, 603.
148. Quoted in Mill, J. S., *System of Logic*, pret.
149. Waddell, *Wandering Scholars*, 113.
150. Gilson, *La philosophie*, ed 1922, I, 154.

CHAPTER XXXVII

1. James, *Women*, 120.
2. Thorndike, *Magic*, II, 8.
3. Ibid., 814.
4. Coulton, *Panorama*, 105,

5. Coulton *Five Centuries*. I, 251:
6. Himes, 151.
7. Coulton, *Panorama*, 106.
8. Kantorowicz, 354.
9. Thorndike, *Magic*, II, 169.
10. Coulton, *Life*, I, 38.
11. Id., *Panorama*, 115.
12. Milman, I, 542.
13. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, III, 424.
14. Hastings, *Encyclopedia of Religion and Ethics*, III, 42 la.
15. Pauphilet, A., *Jeux et sapience du moyen âge*, 317 n.
16. Coulton, *Social Life*, 526.
17. Singer, Chas., *Studies in the History and Method of Science*, I, 165.
18. Castiglione, 385.
19. Thorndike, *Magic*, II, 167.
20. Lacroix, *Science and Literature*, 208.
21. Thorndike, II, 319.
22. Ibid., 328.
23. 689. 949.
24. Sarton II (2), 1082.
25. Walsh, *The Popes and Science*, 52.
26. Sarton, II (2), 1082.
27. Cf. text in Walsh, *Popes*, app.
28. Ibid, 31, 43.
29. Pliny, *Natural History*, xxxvi, 26, 67.
30. Thorndike, II, 237.
31. Sarton. II (2), 611.
32. Thorndike, if 449.
33. Sarton, II (2), 617.
34. Singer, *Studies*, II, 105.
35. Ibid., I, 18.
36. Thorndike, I, 775.
37. Addison, *Arts*. 78.
38. Giraldus Cambrensis, *Itinerary*, 6
39. Augustine, *City of God*, xvi, 9.
40. Sarton, I, 516.
41. Joinville, 258.
42. Raby, *Christian Latin Poetry*, 356.
43. Sarton II (2), 575.
44. Kantorowicz. 360.
45. Mumford, 22.
46. Sarton. II (1), 21.
47. *Speculum*, Apr. 1941, 242.
48. Sarton. II (2), 1024.
49. Ibid.; Singer, II, 398.
50. Arnold, *Legacy of Islam*, 97.
51. Kantorowicz 354.
52. Sarton. II (2), 1030.
53. Willoughby, W., *Social Justice*, 14.
54. Sarton, II (2), 1041.
55. Ibid., 1098.
56. 1037.
57. 1038.9.
58. Thorndike, I, 710.
59. Garrison, 148.
60. Sarton. II (1), 81. 242.
61. Garrison, 175.
62. Ibid., 181.
63. Castiglione, 381:
64. Bartholomaeus Anglibus, xiv, 4.
in Coulton, *Social Life*, 502.
65. Castiglione, 384.
66. Kantorowicz, 356.
67. Lacroix, *Science*, 149.
68. Thorndike in *Speculum*, Apr. 1928, 194 ; Neuman, *Jews in Spain*, II, 110.
69. Garrison, 170.
70. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, III, 52.
71. Ibid., 52-7.
72. Garrison, 144, 172.
73. Lacroix, *Science*, 154.

74. Garrison, 144.
75. Coulton, *Panorama*, 448.
76. Sarton, II (1), 72.
77. In Castiglione, 337.
78. Carrison, 153.
79. Castiglione. 388.
80. Walsh *Thirteenth Century*, 345.
81. Sarton, II (1), 84.
82. Joyce, *Ireland*, 151.
83. Garrison, 186.
84. *Speculum*, Jan. 1937, 19.
85. Munro and Sellery, 266.
86. In Coulton, *Panorama*, 304.
87. Jackson, *Byzantine and Romanesque Architecture* I, 142; Barne, *Economic History*, 165.
88. Thorndike, II, 28f.
89. Ibid., 25.
90. 538.
91. Ibid.
92. 526, 566, 568, 583.
93. Walsh, *Thirteenth Century*, 48.
94. Albertus Magnus, *De animalibus*, iv, 3, in Sarton, II (2), 938.
95. Sarton, II (1), 72.
96. Bacon *Opus tertium*, ch. 17.
97. Id, *Opus Matus*, I. xi
98. Bridges, J. H., *Life and work of Roger Bacon*, 125.
99. Bacon, *Opus tertium* Brewer ed., p. 28.
100. Id., *Opus matus*, i, 10.
101. In Little. A. G., *Rogee Bacon Essays*. 10.
102. *Opus Mats*, i, 1.
103. *Compendium studii philosophiae*, ed. Brewer, p. 469.
104. *Opus matus*, ii, 12.
105. Ibid.
106. VII, 1.
107. Little, 117; Sarton, II (2), 805, 961.
108. *Opus tertium*, ch. 29.
109. *Opus maius*, iv, 16.
110. Ibid., iv, 4; *De Coelestibus*, in Little 15.
111. *Opus matus*, vi, 1.
112. Thorndike, II, 650.
113. *Opus manus*, iv, 4.
114. Briogues, 36; Little, 180.
115. Sloane MS., folio 83b, 1-2, in
116. *De secreits operibus artis et naturae*, ch. iv, in Little, 178.
117. Little 321; En. Br., XI, 3.
118. In bridges, 93.
119. *Opus maius*. v. 4.
120. *De secreits operibus*, in Singer, II, 397.
121. Singer, II, 132.
122. *Opus maius*, vii, at in'tium.
123. Bridges, 387.
124. Ibid., 127.
125. 52.
126. De Wulf, *Med. Philosophy*, II, 139.
127. *Opus maius*, ii, 5.
128. *Compendium Philosophiae*, in Coulton, *Life*, II, 55f.
129. *Opus tertium*, in Taylor's *Medieval Mind*, II, 523.
130. Ibid in Coulton, *Five Centuries*, I, 135.
131. Taylor, II, 530.
132. Little, 26.
133. Ibid.
134. 28.
135. Taylor, II, 347.
136. Thorndike, II, 196.
137. Ibid., 203.

CHAPTER XXXVIII

1. Cf. Saxo Grammaticus, 89.
2. Joinville, 140.
3. Iacopo de Voragine *Golden Legend*. pp. 48-56.
4. Mâle, 320.

5. Raby, *Secular Latin Poetry*, II, 289.
6. Haskins, *Renaissance*, 177.
7. Waddell, *Wandering Scholars*, 188.
9. Tr. by Helen Waddell in *Medieval Latin Lyrics*, 171.
10. In Van Doren, M., *Anthology of World Poetry*, 454.
11. In Waddell, op. cit., 278.
12. Bieber, M., *History of the Greek and Roman Theater*, 423.
13. Chambers, *Medieval Stage*, II, 44; Mathews, B., *Development of the Drama*, 115.
14. Mantzius, *History of Theatrical Art*, II, 5.
15. Mathews, 114.
16. Symonds, J. A., *Studies of the Greek Poets*, 310.
17. Raby, *Christian Latin Poetry*, 219.
18. Mantzius, II, 1 of.
19. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, II IIae, clxviii, 3.
20. *Chanson de Roland*, II, 1989-2009.
21. Sturluson, *Prose Edda*, §§ 72, in Sigfusson.
22. Dasent, G. *Story of Burnt Njat*, 237-58.
23. In Butler, *Women*, 101.
24. *Cambridge Medieval History*, III, 128.
25. Cf. an excellent fictionalized biography of Piere Vidal in Cronyon, G., *The Fool of Venus*.
26. Arnold, *Legacy of Islam*, 17.
27. Lecky, *Morals*, II, 232.
28. *Speculum*, Oct. 1938, 380-7.
29. Tr. by Ezra Pound in Van Doren, 660.
30. Rerse, *Medieval Music*, 232.
31. Fiedler, *Das Oxforder Buch Deutscher Dichtung*, 5.
32. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 41.
33. In Taylor, *Medieval Mind*, II, 56.
34. *Songs and Sayings*, 33.
35. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 16.
36. Taylor, II, 62.
37. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 69.
38. Walther von der Vogelweide, *Songs and Sayings*, 22.
39. Taylor, II, 58.
40. Prestage, *Chivalry*, 100; Conlton, *Life*, III, 77; Francke, *German Literature*, 111.
41. Kroeger, A E., *The Minnesigger of Germany*, 4.
42. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 162.
43. Tr. by Arthur O'Shaughnessy in Van Doren, 663.
44. Chrétien de Troyes, *Arthurian Romances*, I.
45. *Ibid.*, 318, 309.
46. 287.
47. Wolfram von Eschenbach, *Parzival*, I, 67.
48. In Taylor, II, 8.
49. Wolfram, I 188; vi, 937.
50. *Aucassin et Nicolette*, 6.
51. *Ibid.*, 12. French text in Pauptilet, 444.
52. *Aucassin*, 13.
53. William of Lorris and Jean Clopinel de Meung, *Romance of the Rose*, II, 8767f. 8858.
54. Lines 8511f.
55. 7849.
56. 1685.
57. 9267, 70 9725-47.

CHAPTER XXXIX

1. Tr. by D. G. Rossetti.

2. Asin y Palacios, *Islam and the Divine Comedy*. 271 f.
3. Dante, *Purgatorio*, xxxi, 91f.
4. Sedwick, *Italy* II, 277.
5. *Tr.* by D G. Rossctti.
6. Vossler, II, 152.
7. In Ledgwick. II. 291.
8. Cf. *Purgatorio*. xxx, 55.
9. Sedgwick II, 283.
10. Vossler, I, 323.
11. Dante. *Inferno*, xv, 85.
12. Vossler, I, 164.
13. Dante, *La Vita Nuova*, ii, tr. Rossetti.
14. *Ibid.*, iii.
15. xix.
16. xxvi.
17. xxxii.
18. *Paradiso*, xxx, 28.
19. *Id.*, *Purgatorio*, xxxi, 60.
20. Symonds *Dante*, 55.
21. Dante, *De Monarchia*, iii, 11.
22. *Ibid.*, 16.
23. *De Monarchia*, pref., xxxiii.
24. Dante, *Eleven Letters*, vi.
25. Ep. vii.
26. Symonds, *Dante*, 79.
27. Ep. x.
28. Symonds, *Dante*, 92.
29. Letter to the Italian Cardinals, (1314).
30. Dante, *Il Convito*, x, 5.
31. *Ibid.*, vii, 4.
32. The authenticity of this letter has been unconvincingly questioned by Vossler, I, 76.
33. Dante, *Eleven Letters*, p. 197.
34. In Coulton, *Panorama*, 208.
35. Dante, *Paradiso*, eud.
36. *Ibid.*, x. 1371.
37. Cf. Blachet. *Sources orientales de la Divine Comédie* Paris, 1901. and Asin y Palacios *La escatologia musulmana en la Divina Comedia*, Madrid, 1919, translated as *Islam and the Divine Comedy*.
38. Asin y Palacios. 55-61.
39. *Ibid.*, 171-3, 276-7.
40. *Ibid.*, 232.
41. Rowbotham, 130.
42. Dante, *Inferno*, i, 1-3.
43. *Ibid.*, i, 86.
44. *Ibid.*, iii. 1-9.
45. *Ibid.*, iii, 50.
46. *Ibid.*, iv, 131-43.
47. *Ibid.*, v, 121-42 ; tr. Cary.
48. *Ibid.*, xix, 53.
49. *Ibid.*, xxviii, 22-42 ; tr. Cary.
50. *Id.*, *Purgatorio*, v, 13.
51. *Ibid.*, vi, 76-93.
52. *Ibid.*, xxvi. 112.
53. *Ibid.*, xxvii, end.
54. *Ibid.*, xxx, 37-9.
55. *Ibid.*, xxxi, 49-51.
56. *Ibid.*, end.
57. *Id.*, *Paradiso*, iit, 85.
58. *Ibid.*, xxvii, 22-8.
59. *Id.*, *Inferno*, xviii, 57-63.
60. *Id.*, *Paradiso*, ix, 127.
61. *Id.*, *Inferno*, xxiv, 125.
62. *Ibid.*, xxxiii, 152.
63. *Ibid.*, xxxiii, 80-4.
64. *Ibid.*, xxxiii, 148.

EPILOGUE

1. Coulton, *Medieval Village*, 290.

قصة الحضارة

ول وَايرثيل ديورانت

عَصْرُ الْإِيمَانِ

ترجمة
محمد بدراف

الجزء السادس من المجلد الرابع

١٧



تونس



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

دار الحديث : ص.ب. ٨٧٣٧، ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلکس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار هيلاب - بيروت - لبنان

فهرس الصور

| رقم للصورة | مدلولها | رقم الصفحة |
|------------|---|------------|
| ١ | واجهة كندرائية سينا | أول الكتاب |
| ٢ | واجهة وردية - كندرائية أرلينو | أمام ص ٤٠ |
| ٣ | منبر يزانو | أمام ص ٥٦ |
| ٤ | كندرائية استراسبرج | أمام ص ٨٨ |
| ٥ | الكنيسة - من كندرائية استراسبرج | أمام ص ١٣٦ |
| ٦ | المعبد - من كندرائية استراسبرج | أمام ص ١٣٦ |
| ٧ | مريم - من كندرائية بامبرج | أمام ص ١٦٨ |
| ٨ | القديسة إليصابات - من كندرائية بامبرج | أمام ص ١٦٨ |
| ٩ | إلهارد وزوجته أوقا - من كندرائية فومبرج | أمام ص ٢١٦ |
| ١٠ | المنظر الخلفي لكندرائية سلمنقة | أمام ص ٢٤٨ |
| ١١ | داخل كندرائية سنيا جودي كپستلا | أمام ص ٢٤٨ |

الفهرس

الصفحة

الموضوع

الباب الرابع والثلاثون : انتقال المعارف

| | | |
|----------------|---------------------|----|
| الفصل الأول : | نشأة اللغات القومية | ١ |
| الفصل الثاني : | عالم الكتب | ٨ |
| الفصل الثالث : | المترجمون | ١٥ |
| الفصل الرابع : | المدارس | ٢٣ |
| الفصل الخامس : | جامعات الجنوب | ٢٨ |
| الفصل السادس : | جامعات فرنسا | ٣٦ |
| الفصل السابع : | جامعات إنجلترا | ٤٤ |
| الفصل الثامن : | حياة الطلاب | ٤٩ |

الباب الخامس والثلاثون : أبلار

| | | |
|----------------|---------------------|----|
| الفصل الأول : | الفلسفة القدسية | ٥٨ |
| الفصل الثاني : | هلواز | ٦٧ |
| الفصل الثالث : | صاحب النزعة العقلية | ٧٢ |
| الفصل الرابع : | رسائل هلواز | ٨٠ |
| الفصل الخامس : | الدين | ٨٥ |

الباب السادس والثلاثون : مغامرات العقل

| | | |
|-----------------------|--------------------------------|-----|
| الفصل الأول : | مدرسة شارتر | ٩٢ |
| الفصل الثاني : | أرسطو في باريس | ١٠٠ |
| الفصل الثالث : | الزنادقة | ١٠٤ |
| الفصل الرابع : | تطور الفلسفة المدرسية | ١١٠ |
| الفصل الخامس : | تومس أكوناس أو (تومس الأكويني) | ١١٦ |
| الفصل السادس : | فلسفة تومس | ١٢٦ |
| (١) المنطق | | ١٢٦ |
| (٢) ما وراء الطبيعة | | ١٢٨ |
| (٣) اللاهوت | | ١٣٠ |
| (٤) علم النفس | | ١٣٣ |
| (٥) علم الأخلاق | | ١٣٦ |
| (٦) علم السياسة | | ١٤٠ |

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| (٧) الدين | ١٤٣ |
| (٨) كيف استقبلت فلسفة تومس | ١٤٥ |
| الفصل السابع : خلفاء تومس | ١٥٠ |
| الباب السابع والثلاثون : العلوم المسيحية | |

| | |
|---------------------------------------|-----|
| الفصل الأول : البيئة السحرية | ١٥٨ |
| الفصل الثاني : الثورة الرياضية | ١٦٩ |
| الفصل الثالث : الأرض وحياتها | ١٧٥ |
| الفصل الرابع : المادة والطاقة | ١٨١ |
| الفصل الخامس : إحياء علم الطب | ١٨٧ |
| الفصل السادس : ألبرتس مجنن | ٢٠٠ |
| الفصل السابع : روجر بيكن | ٢٠٥ |
| الفصل الثامن : أصحاب الموسوعات | ٢٢٣ |

الباب الثامن والثلاثون : عصر الخيال

| | |
|---|-----|
| الفصل الأول : إحياء اللغة اللاتينية | ٢٢٧ |
| الفصل الثاني : الخمر والمرأة والأغاني | ٢٤٠ |
| الفصل الثالث : بحث التمثيل | ٢٤٦ |
| الفصل الرابع : الملاحم والقصص المنشورة | ٢٥١ |
| الفصل الخامس : شعراء الفروسية الغزلون | ٢٦٣ |
| الفصل السادس : المتصوفين بالشعر من الألمان | ٢٧٠ |
| الفصل السابع : الروايات الغرامية | ٢٧٦ |
| الفصل الثامن : الرجوع إلى الهجاء | ٢٩٤ |

الباب التاسع والثلاثون : دانتي

| | |
|---|-----|
| الفصل الأول : شعراء الفروسية الغزلون الفرنسيون | ٣٠٢ |
| الفصل الثاني : دانتي وبياتريس | ٣٠٧ |
| الفصل الثالث : دانتي في نغمات السياسة | ٣١٣ |
| الفصل الرابع : الملهاة المقدسة | ٣٢١ |

| | |
|----------------------|-----|
| (١) القصيدة | ٣٢١ |
| (٢) الجحيم | ٣٢٦ |
| (٣) المطهر | ٣٣٣ |
| (٤) السموات | ٣٣٨ |

| | |
|-------------------------------------|-----|
| الخاتمة : تراث العصور الوسطى | ٣٤٦ |
| المراجع | ٣٥٧ |